



کتابخانه ملی جمهوری اسلامی ایران

آثار الإمامین قیم الحوزة وما لهما من أعمال

(۲۷)

الكلام على مسالمة الإمام

مؤلف

الإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أثوب ابن هبة البزازي

(۲۹۱ - ۷۵۱)

تحقيق

محمد رضا شمس

وفق الشيخ العلامة والشيخ العلامة

بكر بن عبد الله بن زكريا

(رحمتهما الله)

تتميم

مؤسسة سلمان بن عبد العزيز للدراسات والبحوث

دار علماء القواعد

بمشروقة

طبع في



مطبوعات المجمع

آثار الإمام ابن قيم الجوزية وما لحقها من أعمال

(٢٧)

الكلام على مسائل التمساح

تأليف

الإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية

(٦٩١ - ٧٥١)

تحقيق

محمد عزيز شمس



وفق المنهج المعتمد من الشيخ العلامة

بكر بن عبد الله الجوزية

(رحمة الله تعالى)

تتمويل

مؤسسة سليمان بن عبد العزيز الراجحي الخيرية

دار عالم الفوائد

للنشر والتوزيع

131406



مؤسسة سليمان بن عبدالعزيز الراجحي الخيرية
SULAIMAN BIN ABDUL AZIZ AL RAJHI CHARITABLE FOUNDATION

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لمؤسسة سليمان بن عبد العزيز الراجحي الخيرية
الطبعة الاولى ١٤٣٢ هـ

دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع

مكة المكرمة - هاتف ٥٤٧٣١٦٦ - ٥٢٥٣٥٩٠ - فاكس ٥٤٥٧٦٠٦



الصف والإخراج دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد، فهذا كتاب في السماع والغناء ألفه علم من الأعلام، بسط فيه الكلام على هذا الموضوع، وردّ على جميع الشُّبه التي أُثيرت في هذا الباب، وقام بالمقارنة بين ذوق الصلاة والقرآن وذوق السماع والغناء، وبين أن أحدهما منافٍ للآخر، ولا يمكن أن يجتمعا في قلب واحد. ومن الغريب أن تجعله طائفة من الصوفية ذريعة لتصفية القلوب وإثارة العواطف النبيلة، وتتخذة قرينةً تتقرَّب بها إلى الله، مع ما ينضم إليها من المنكرات، مثل استخدام آلات اللهو والموسيقى، والنظر إلى النساء والمردان، والرقص والطرب والدوران، والتواجد وخرق الثياب، والنخير والشخير والصياح، وكل ذلك من اللغو واللهو والباطل الذي تُهي المسلمون عنه في القرآن الكريم.

وقد ردّ العلماء والفقهاء على أصحاب السماع، وألّفوا كتبًا كثيرة في هذا الباب، ومن أوسعها وأشملها هذا الكتاب الذي بين أيدينا، تناول فيه الإمام ابن القيم هذا الموضوع بأسلوبه المعروف، وأجرى الحوار بين صاحب الغناء وصاحب القرآن، وأورد جميع ما يحتج به أهل السماع والغناء، وناقشهم مناقشة علمية تفصيلية.

وفي أثناء الكتاب فوائد منشورة في موضوعات مختلفة، من تفسير

آية أو شرح حديث أو بيان مسألة فقهية أو ذكر شيء من مباحث العقيدة والسلوك، كما هو منهج المؤلف في سائر كتبه. وقد اعتمد كثيراً على كلام شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الباب، وخاصةً في القسم الثاني من الكتاب، وسيأتي البحث في طريقة الاستفادة منه في مبحث خاص إن شاء الله .

وهذه فصول تحتوي على دراسة الكتاب وموضوعه والأصل المعتمد عليه عند إخراجها، وغير ذلك من المباحث التي أرجو أنني قد وُفِّقْتُ فيها.

* موضوع الكتاب ومن ألف فيه:

الكتب المؤلفة في موضوع السماع كثيرة، ولست هنا بصدد إحصائها وبيان ما طبع منها وما لم يطبع^(١)، وإنما يُهْمُنِي بيان الباعث

(١) ذكر حاجي خليفة في «كشف الظنون» (١/٢ - ١٠٠١) بعض هذه المؤلفات، وذكر بعضها عبدالحى الكتاني في «التراتب الإدارية» (٢/١٣٢ - ١٣٤) ولكنه لم يُشير إلى الكتب المؤلفة في الرد على أهل السماع إلا قليلاً، لأن هواه كان معهم. وللمستشرق فارمر «مصادر الموسيقى العربية» (ط. القاهرة ١٩٥٧)، ذكر فيه أكثر المطبوعات والمخطوطات. وصنع عبدالحميد العلوجي بليوغرافياً بعنوان «رائد الموسيقى العربية» (ط. بغداد). وأورد عبدالله محمد الحبشي في «معجم الموضوعات المطروقة» (١/٦٣٣ - ٦٣٥، ٢/٩٠٢ - ٩٠٤) قائمة للكتب المؤلفة في الباب ينقصها ذكر عددٍ من الكتب المطبوعة المشهورة، فضلاً عن المخطوطات. وفي «المعجم الشامل للتراث العربي المخطوط» (الفقه والأصول) استقصاء النسخ الخطية لكتب السماع التي ورد ذكرها فيها، ولكنها =

على التأليف فيه، وذكر أشهر من ألف فيه من الصوفية والظاهرية، ومن ردّ عليهم من العلماء. وكان المُحدِّثون سبّاقين إلى هذا الميدان، فألفوا كتبًا في ذم الغناء واللهو والمعازف، من أشهرها: «ذم الملاهي» لابن أبي الدنيا (ت ٢٨٢)، و«تحريم النرد والشطرنج والملاهي» للأجري (ت ٣٦٠)، ذكروا فيها الأحاديث والآثار بالأسانيد، لتحذير الناس من الاشتغال بها.

وقد كان السماع عند زهاد القرنين الأول والثاني هو سماع القرآن والأحاديث والأشعار الدينية التي تدعو إلى القيام بواجبات الشرع ونواهيها، والتذكر الدائم للوعد والوعيد، ولكنه منذ القرن الثالث تحوّل عند الصوفية إلى أمر آخر، فجعلوا له آدابًا وشروطًا، وقسموه أقسامًا بحسب المستمعين، وأدخلوا فيه الغناء بآلات اللهو والمعازف، والرقص والطرب وخرق الثياب لشدة الوجد، وصدر عنهم الشخير والنخير والزعقات في مجالس السماع، واتخذوا ذلك وسيلةً لتصفية القلوب وتركيتها، وزعموا أنه يزيد في أذواقهم ومواجيدهم الإيمانية، وأنه قربةً يتقرب بها إلى الله.

ومن يراجع مؤلفات الصوفية في السلوك يجد فيها أبوابًا وفصولًا

= مفرقة على الحروف تحتاج إلى تتبع واستخراج. وفي مقدمات بعض الكتب المنشورة في السماع قوائم أعدّها محققوها، وفيها كثير من الخلط والاضطراب والتكرار، وأخطاء في أسماء الكتب والمؤلفين ووفياتهم. وينبغي الاهتمام بنشر ما لم ينشر من هذه المؤلفات.

تتحدث عن السماع وآدابه وبيان تأثيره في القلوب، وتذكر أقوال الصوفية وأعمالهم في هذا المجال، وتحتج له بأخبار وآثار مروية بغض النظر عن ثبوتها ودلالاتها على المطلوب. وهذه بعض المصادر المهمة في هذا الموضوع:

- اللمع، لأبي نصر السراج (ت ٣٧٨): ص ٣٣٨-٣٧٤.
 - التعرف لمذهب أهل التصوف، للكلاباذي (ت ٣٨٠): ص ١٩٠-١٩١.
 - قوت القلوب، لأبي طالب المكي (ت ٣٨٦): ٢/٦١-٦٢.
 - رسالة في السماع، لأبي عبدالرحمن السلمي (ت ٤١٢): مخطوطة في كوبريللي [١٦٣١].
 - الرسالة القشيرية، لأبي القاسم القشيري (ت ٤٦٥): ٢/٥٠٤-٥١٩.
 - إحياء علوم الدين، للغزالي (ت ٥٠٥): ٢/٢٦٨-٣٠٦.
 - صفوة التصوف، لابن طاهر المقدسي (ت ٥٠٧): ص ٢٩٨-٣٣٠.
 - عوارف المعارف، للسهروردي (ت ٦٣٢): ص ١٠٨-١٢١.
- وبالاعتماد على هذه المصادر وغيرها ألفوا كتباً مفردة في إباحة السماع، وكان لبعض الظاهرية أيضاً إسهام في هذا الميدان، مثل ابن حزم (ت ٤٥٦) الذي ألف «رسالة في الغناء الملهي»، وابن طاهر المقدسي (ت ٥٠٧) الذي ألف كتاب «السماع».

وقد أنكر العلماء والفقهاء من جميع المذاهب على أصحاب السماع، وردُّوا على شبههم، وأبطلوا احتجاجهم ببعض الأخبار والآثار، وناقشوا آراءهم، وألَّفوا في تحريم السماع مؤلفات مفردة، وخصصوا بعض الفصول والأبواب في كتب الفقه والأخلاق لبيان حكم السماع في الشرع. وسنذكر فيما يلي أشهر العلماء الذين ألَّفوا في هذا الباب:

١- أبو الطيب الطبري (ت ٤٥٠):

له «رسالة في الرد على من يحب السماع»^(١) استفاد منها كل من ألَّف بعده في الموضوع، وهي عبارة عن فتوى، ذكر فيها أقوال الإمام الشافعي ومالك وأبي حنيفة في الغناء، ونقل إجماع علماء الأمصار على كراهته والمنع منه، ثم ذكر الآيات والأحاديث الدالة على ذم الغناء، وأتبعها بأقوال الصحابة والتابعين. ثم ذكر شبه المفتونين بالسماع، وبيَّن حكم إنشاد الشعر وسماعه من غير تلحين، وذكر معنى التغني بالقرآن، وأنكر على من أباح النظر إلى المردان وزعم أنه قصد به الاستدلال على الصانع. وفي الأخير ذكر المؤلف سبب اشتغالهم بالسماع والنظر والرقص، وهو تناولهم لألوان من الأطعمة الطيبة والمآكل الشهية مما يُرغَّبهم في السماع وغيره من المنكرات. ولو أنهم تقللوا من الغذاء والشراب لم يلجأوا إلى الغناء والرقص والنظر.

(١) طبعت بتحقيق مجدي فتحي السيد من دار الصحابة للتراث، بطنطا (مصر) ١٤١٠. وهي طبعة رديئة كثيرة الأخطاء والتحريفات.

٢- أبو بكر الطرطوشي (ت ٥٢٠):

ألف كتاب «تحريم الغناء والسمع»^(١)، ذكر فيه أقوال الأئمة أولاً، وبيّن أن العود والطنبور وسائر الملاهي حرام، ومستمعه فاسق، ثم استدلّ على ذلك بالآيات والأحاديث والآثار، وعقد فصلاً لبيان أن الغناء صنو الخمر في التأثير، وهو جاسوس العقل وسارق المروءة والعقول. وفي فصل آخر ذكر الإجماع على تحريم سماع الغناء من المرأة وأنها عورة. ثم ذكر احتجاج المبيحين للسمع ببعض الأحاديث وردّ عليهم، ورد على دعوى الصوفية أنهم يسمعون الغناء بالله وفي الله. ثم ذكر شبهة أن جماعة من الصالحين سمعوه، وردّ عليها بقوله: ما بلغنا أن أحداً من السلف الصالح فعله، وإن كان فعله أحدٌ من المتأخرين فقد أخطأ، ولا يلزم الاقتداء بقوله. ثم عقد فصلاً ذكر فيه ردّ شيوخ الصوفية على من أباح السماع، وناقش احتجاج بعض الصوفية لإباحته.

وعقد فصلاً في كراهة قراءة القرآن بالألحان وبيّن معنى قوله ﷺ: «زَيَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»، واعتبر شهوة السماع مثل شهوة الأكل، كلتاهما مذمومة، وقال: إن السماع فتنة مثل النظر إلى وجوه المردان، وردّ على من يبيح النظر إليهم بحجة الاستدلال على الله. وفي الختام تحدث عن الرقص والطرب وتمزيق الثياب الحاصل في مثل هذه المجالس، وأن كل ذلك مخالف للمروءة.

وختم الكتاب بفصل عن اللعب بالشطرنج، وذكر أقوال الأئمة

(١) طبع بتحقيق عبدالمجيد تركي، من دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٧م.

والأحاديث والآثار في تحريمه أو كراهته. وردَّ على أبي إسحاق الشيرازي القائل بإباحته.

٣- ابن الجوزي (ت ٥٩٧):

عقد فصلاً في كتابه «تلبيس إبليس» (ص ٢٢٢-٢٥٠) بعنوان «ذكر تلبيس إبليس على الصوفية في السماع والرقص والوجد»، ذكر فيه أن الناس تكلموا في الغناء وأطالوا، فمنهم من حرمه ومنهم من أباحه ومنهم من كرهه، وفصل الخطاب أن نقول: ينبغي أن يُنظر في ماهية الشيء ثم يُطلق عليه الحكم. ثم ذكر أنواع الغناء، منها ما لا خلاف في إباحته، ولكن الغناء المعروف اليوم الذي يكون بألحان مختلفة بآلات المعازف، والذي يُخرج سامعها عن حيز الاعتدال ويشير فيه حبّ الهوى والشهوات، فهذا لا يقاس بإنشاد الشعر المجرد، وغناء الحجيج والغزاة، والحداء ونشيد الأعراب، والغناء في أيام العيد وحفلات الزواج. وتسوية الغناء المعروف بالأنواع المذكورة من تلبيس إبليس الذي وقع فيه كثير من الناس.

ثم ذكر المؤلف مذاهب الأئمة الأربعة في ذم الغناء والسماع، وذكر الأدلة من القرآن والأحاديث والآثار، والعلة في النهي عن الغناء أنه يُخرج الإنسان عن الاعتدال ويغير العقل. ثم ذكر الشُّبُهَة التي تعلق بها من أجاز سماع الغناء، وردَّ عليها، وانتقد صنيع أبي نعيم الأصفهاني وابن طاهر المقدسي وأبي عبد الرحمن السلمي وأبي طالب المكي والحاكم والغزالي في الاحتجاج له بأمور لا تدلُّ على المطلوب. ثم ردَّ على أولئك الذين آثروا السماع على قراءة القرآن، وجعلوه قرينة إلى الله.

وعقد فصولاً (ص ٢٥٠-٢٧٧) للرد على الصوفية في الوجد والرقص وتقطيع الثياب وصحبة المردان والنظر إليهم، فصل فيها الكلام على هذه الموضوعات، ولم يترك شبهة تعلقوا بها إلا ردَّ عليها.

٤- ابن قدامة (ت ٦٢٠):

له «فتيا في ذمّ الشبابة والرقص والسماع»^(١)، ذكر فيها أن المشتغل بهذا ساقط المروءة مردود الشهادة، وأن هذا معصية ولهو ولعب، ولا يُتقرب إلى الله بمعاصيه. ثم ذكر أقوال الأئمة في ذمه، وأنه لم يُنقل عن النبي ﷺ ولا أحد من الصحابة أنه سمع الغناء، وإنما كان يفعله الفساق. وإذا انضم إلى ذلك النظر إلى النساء والمردان سلب الدين وفتن القلب، كما وردت بذلك الأحاديث والآثار. وحضور المعازف واستماع الأغاني مما ينبت النفاق في القلب، فمن أحبّ النجاة والسلامة فعليه باتباع الكتاب والسنة ولزوم طريق السلف، فإنه الصراط المستقيم. والحق واضح لمن أراد الله هدايته.

٥- أبو العباس القرطبي (ت ٦٥٦):

ألف «كشف القناع عن حكم الوجد والسماع»^(٢)، وصف في

(١) نشرها أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري بالقاهرة سنة ١٣٩٧، وأعاد نشرها

ضمن «الذخيرة من المصنفات الصغيرة» (١/٢١٥-٢٣٨) ط. الرياض ١٤٠٤.

ونشرت أيضاً بعنوان «ذم ما عليه مدعو التصوف من الغناء والرقص والتواجد»

بتحقيق زهير الشاويش في المكتب الإسلامي بيروت ١٤٠٣ هـ.

(٢) نشره عبد الله بن محمد بن أحمد الطريقي في الرياض سنة ١٤١١.

مقدمته سماع الصوفية في زمانه، حيث كانوا يستدعون المعروفين بصنعة الغناء ومعهم آلات اللهو والمعازف، فيغنون في المجالس، ويقوم الحاضرون ويضطربون ويرقصون، ومنهم من يكون له زعيق وزئير. وذكر أن هذا السماع لا يختلف في تحريمه وفحشه، وخاصة إذا جعل ذلك من أفضل العبادات وأجل القربات.

وقد بحث المؤلف هذه المسألة بطريقة علمية، حيث ذكر الدليل وأوضح وجه الدلالة منه، ثم أورد عليه أسئلة وأجاب عنها، ثم ذكر دليل المخالف وناقشه مناقشة علمية، ثم توصل إلى نتيجة. وقد حرر المؤلف محل النزاع في المسألة، وبين الصحيح من السقيم والحلال من الحرام. وقسم الكتاب إلى أفراد المسائل، وبحث عنها مسألة مسألة، فتحدث عن معنى الغناء وأقسامه وحكمه، وقراءة القرآن بالألحان، وسماع غناء المرأة والأمرد، وحكم سماع آلات اللهو، والرقص، والتواجد والوجد، وتمزيق الثياب وإقائهم الخرق في حال السماع. وختم الكتاب بفصلين: الأول في التحذير من البدع، والثاني في بيان سماع الصادقين وبيان أحوالهم فيه، فذكر أن سماعهم إنما كان القرآن، يتدارسون ويتفاوضون فيه، ويتدبرون معانيه، ويستعذبونه في صلواتهم، ويأنسون به في خلواتهم. وأورد من الآيات والأحاديث والآثار ما يدل على ذلك.

٦ - محمود الدشتي (ت ٦٦٥):

ألف كتابه «النهي عن الرقص والسماع»^(١)، ذكر فيه أولاً أخلاق

(١) طبع بتحقيق علي مصري سيمجان فوترا، من دار السنة بالرياض ١٤٢٨. أطال =

النبي ﷺ والصحابة والتابعين، وصفاتهم وكلامهم وسيرهم، ونفورهم من البدع ولزوم طريق السنة، وتحذيرهم من المحدثات. ثم عقد فصلاً في تحريم السماع بالكتاب والسنة والإجماع (ص ٣٦٧-٤١٢). ثم ردَّ على الشبه التي تعلق بها الصوفية في إباحة الرقص والغناء والسماع، ونقل إجماع أئمة المذاهب والعلماء على تحريمه، ثم ردَّ على الصوفية في استماعهم إلى المزامير والشبابات، وفرَّق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وبين الكهانة والكرامة، وذكر منهج السلف في الدعوة إلى الله والتمسك بالسنة. ثم عاد إلى إبطال شبه أخرى عند الصوفية في إباحة الرقص والغناء، ونصح أخيراً بالابتعاد عن الملاهي. وقد أورد المؤلف في الكتاب نقولاً مهمة من كتب مفقودة في هذا الموضوع، وشعرًا كثيرًا من نظمه ونظم غيره من العلماء.

٧- ابن تيمية (ت ٧٢٨):

له عدة فتاوى في هذا الموضوع^(١)، وقد ذكر أن السماع المشروع هو سماع آيات القرآن، وذم الله المعرضين عنها، أما سماع المكاء

= المحقق في ترجمة الأعلام والتعريف بالبلدان وشرح الكلمات وتخريج الأحاديث والآثار، فخرج الكتاب في مجلدين. ولم يهتم بضبط الشعر وغيره مما يحتاج إلى ضبط.

(١) انظر «مجموع الفتاوى» (١١/٥٥٧-٦٠٧، ٦٢٠-٦٣٥، ٦٤١-٦٤٥). وقد اختصر محمد بن محمد بن محمد المنبجي الحنبلي كلام شيخ الإسلام، وصنع منه كتاب «السماع والرقص»، نُشر ضمن مجموعة الرسائل الكبرى (٢/٢٩٣-٣٢٩).

والتصدية فهو سماع المشركين، ومن نسب إلى النبي ﷺ سماع شيء منه وأنه تواجد عليه فقد كذب. ولم يشرع الاجتماع على استماع الآيات الملحنة واتخاذ ذلك ديناً، ولم يكونوا في القرون المفضلة يجتمعون على السماع المحدث، وأنكره من أدركه منهم كالشافعي وأحمد، ومن حضره من الشيوخ تركه وعابه. وممن رغب في هذا السماع ودعا إليه: ابن الراوندي والفارابي وابن سينا اتباعاً للفلاسفة. وذكر شيخ الإسلام ما في الغناء من الأضرار والمفاسد التي تجعل لصاحبه أحوالاً شيطانية، وانتقد تلك الآثار والأخبار التي ذكرها أبو عبد الرحمن السلمي وابن طاهر المقدسي وغيرهما في إباحة الغناء وآلات اللهو والمعازف، وذكر حكم الغناء في الشرع وحكم من حضر السماع من المشايخ، وقال: إن الكتاب والسنة وما عليه الصحابة هو المميز بين الحق والباطل من المنقولات والمعقولات والأذواق والخوارق.

ولشيخ الإسلام فصل كبير يتعلق بالسماع ضمن كتابه «الاستقامة» (١/٢١٦-٤٢١)، ناقش فيه ما أورده أبو القاسم القشيري في «الرسالة القشيرية» (ص ٥٠٤-٥١٩) في باب السماع، وردّ عليه فقرة فقرته، ولم يترك شبهة من شبههم، ولا شيئاً مما يحتجون به من الآثار والأخبار، دون تعقيب وإيضاح واستدراك ونقد. وهذا الفصل أهم ما كُتب في مناقشة أهل السماع على الإطلاق، بأسلوب علمي رزين، وبأدلة قوية مقنعة. وقد اعتمد ابن القيم في القسم الثاني من هذا الكتاب على كلام شيخه في هذا الفصل، واستفاد منه كثيراً، وزاد عليه زيادات كما سيأتي ذكرها فيما بعد.

٨- ابن القيم (ت ٧٥١):

سنتناول آراءه بالبحث والدراسة في فصل مستقل إن شاء الله.

٩- ابن رجب (ت ٧٩٥):

له «نزهة الأسماع في مسألة السماع»^(١)، أجاب فيه عن المسائل التي سئل عنها بشأن السماع المحدث وما يتضمنه من سماع الغناء وآلات اللهو، هل هو محظور أم لا؟ وهل ورد في حظره دليل صريح أم لا؟ وما حكم سماعه من المرأة الأجنبية؟ وما حكم من فعله قرابة وديانة؟ فذكر أنه قد كثر القيل والقال في هذه المسائل، وصنّف الناس فيها تصانيف مفردة، وتكلم فيها أنواع الطوائف من الفقهاء وأهل الحديث والصوفية، ومنهم من يميل إلى الرخصة، ومنهم من يميل إلى المنع والشدة. وكان منهج المؤلف في الكتاب أن يشير إلى نكت مختصرة وجيزة ضابطة لكثير من المقاصد.

وقد قسّم المؤلف السماع إلى قسمين:

الأول: ما يقع على وجه اللعب واللهو وإبلاغ النفوس حظوظها من الشهوات واللذات. وأكثر العلماء على تحريم سماع الغناء وآلات

(١) نشره عبدالله بن محمد بن أحمد الطريقي في الرياض سنة ١٤١٣، ونشره أيضاً أبو مصعب طلعت بن فؤاد الحلواني ضمن «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي» (٢/٤٤١-٤٧٤) ط. دار الفاروق الحديثة، القاهرة ١٤٢٥.

الملاهي كلها على هذا الوجه؛ لأن فيه تهيج الطباع وتحريك الشهوات. وقد أورد المؤلف الأحاديث والآثار الواردة في الباب مما يدل على تحريمه، وذكر أن ما يدل منها على الرخصة فهو ما يكون إنشاد الشعر فيه على طريق الحداء ونحوه مما لا يُهَيِّج الطباع إلى الهوى. ومن استدلل بشيء من ذلك على إباحة الغناء المذموم فقد غلط.

القسم الثاني: أن يقع استماع الغناء بآلات اللهو أو بدونها على وجه التقرب إلى الله تعالى، وتحريك القلوب إلى محبته والأنس به والشوق إلى لقائه، وهذا هو الذي يدّعيه كثير من أهل السلوك. ولا ريب أن التقرب إلى الله بسماع الغناء الملحن لاسيما مع آلات اللهو مما يُعلم بالضرورة أنه ليس من دين الإسلام ولا مما تزكّى به النفوس وتطهر به. وهو مخالف لإجماع المسلمين، ونقل عن القاضي أبي الطيب الطبري وابن الصلاح ما يدلُّ على تحريم هذا السماع، ومن نسب إباحته إلى أحد من العلماء على هذا الوجه فقد أخطأ.

وختم المؤلف الكتاب بذكر أن سماع الأغاني يضاد سماع القرآن من كل وجه.

١٠ - ابن حجر الهيتمي (ت ٩٧٤):

ألف كتابه «كفّ الرعاع عن محرّمات اللهو والسماع»^(١) ردًّا على

(١) طبع مرارًا، منها طبعة دار الفكر بيروت ١٤٠٣، بذيل كتاب «الزواج عن اقتراف الكبائر» (٢/٢٦٥-٣٣٥).

كتاب «فرح»^(١) الأسماع برخص السماع» لأبي المواهب محمد بن أحمد بن زغدان التونسي (ت ٨٨٢). وقسمه إلى مقدمة وبابين وخاتمة. أما المقدمة ففي ذكر الأحاديث الواردة في ذم المعازف والمزامير والأوتار ونحوها، والباب الأول في أقسام الغناء المحرّم وغيره، والباب الثاني في أقسام اللهو المحرم وغيره.

وقسم الباب الأول إلى أربعة عشر قسمًا أو فصلًا، تحدث فيها عن أحكام سماع مجرد الغناء من غير آلة، وسماع الغناء المقترن برقص أو دف أو مزمار أو وتر، وقراءة القرآن بالألحان، وجميع آلات الموسيقى والغناء مثل الدف والكوبة وسائر الطبول، والضرب بالصفقتين، والضرب بالقضيب على الوسائد، والتصفيق، والضرب بالأقلام على الصيني، والشبابة والزمارة أو اليراع، والموصول، والمزمار العراقي، والأوتار والمعازف. وختم الباب في بيان أن ما مرّ صغيرة أو كبيرة.

وقد ذكر في كل قسم أقوال العلماء من المذاهب الأربعة، وخاصة من المذهب الشافعي، وبين حكم كل قسم على حدة، وردّ على أولئك الذين يبيحون الغناء مطلقًا من أي نوع كان، وردّ على ابن طاهر في ذلك، و ذكر أن ادعاءه إجماع الصحابة والتابعين على جوازه مجازفة وتدليس، ونقل عن الأذرعي أن ما نسب إلى الصحابة أكثره لم يثبت،

(١) في كشف الظنون (٢/١٢٢٣): «قرع». وهو مطبوع في لكنو (الهند) سنة ١٣١٧ ضمن مجموعة (ص ١-٢٤) بعنوان «فرح...». وكذا في تونس سنة ١٩٨٥ م.

ولو ثبت منه شيء لم يظهر منه أن ذلك الصحابي يبيح الغناء المتنازع فيه (٢/٢٧٩). ونقل عن أبي القاسم الدولعي أنه لم يُنقل عن أحد من الصحابة أنه سمع الغناء المتنازع فيه، ولا جمع له جموعاً، ولا دعا الناس إليه، ولا حضر له في ملاء ولا خلوة، ولا أثنى عليه، بل ذمّه وقبّحه وذمّ الاجتماع إليه. وفي الكتاب نقول كثيرة من كتب الفقه وغيرها تدلُّ على سعة اطلاع المؤلف عليها.

وفي كتابه «الزواج عن اقرار الكبائر» (٢/٢٠٢-٢١١) عدّ ستة أشياء من الكبائر: ضُرب وتّر واستماعه، وزمّر بمزمارٍ واستماعه، وضُرب بكوبة واستماعه. ولخص فيه ما ذكره في الكتاب السابق، وردّ على ابن حزم وابن طاهر فيما ذهبوا إليه من الإباحة.

* عنوان الكتاب:

العنوان المثبت في أول النسخة هو: «الكلام على مسألة السماع». وذكرت بعض المصادر كتاباً لابن القيم في هذا الموضوع بعنوان «كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء»^(١). وورد ذكره في بعض المصادر بعنوان «حرمة السماع»^(٢).

وإذا رجعنا إلى كتب المؤلف نجد أنه أشار أولاً إلى أنه ينوي

(١) «الوافي بالوفيات» (١/٢٧١) والمنهل الصافي (٣/٦٢).

(٢) «كشف الظنون» (١/٦٥٠) و«هدية العارفين» (٢/١٥٨).

تأليف كتاب في هذا الباب، فقال في «مدارج السالكين»^(١) : «وأما السماع الشيطاني فبالضد من ذلك، وهو مشتمل على أكثر من مئة مفسدة، ولولا خوف الإطالة لسقناها مفصلة. وسنفردها لها مصنفاً مستقلاً إن شاء الله».

وبعد تأليفه ذكره في «إغاثة اللفهان»^(٢)، فقال في خاتمة بحثه عن السماع والغناء: «وذكرنا شُبه المغنين والمفتونين بالسماع الشيطاني، ونقضناها نقضاً وإبطالاً في كتابنا الكبير في السماع، وذكرنا الفرق بين ما يُحرِّكه سماع الآيات وما يُحرِّكه سماع الآيات، وذكرنا الشُّبه التي دخلت على كثير من العباد في حضوره، حتَّى عدُّوه من القُرب. فمن أحبَّ الوقوف على ذلك فهو مستوفى في ذلك الكتاب، وإنما أشرنا ههنا إلى نبذة يسيرة في كونه من مكاييد الشيطان».

والكتاب الذي بين أيدينا فيه ذُكر شُبه المغنين وإبطالها، والفرق بين سماع الآيات وسماع الآيات، ومناقشة أقوال الصوفية الذين جعلوا السماع من القُرب، وينطبق عليه ما وصفه به المؤلف. وعلى هذا فيكون هو الكتاب الكبير الذي أشار إليه بدون ذكر العنوان. ووصفه بالكبير بمقابل كلامه على السماع بإجمالٍ في «الإغاثة» (١/ ٢٢٤-٢٦٨)، حيث اقتصر على نبذة يسيرة منه لبيان كونه من مكاييد الشيطان. ولا أظنُّ

(١) (٤١٦/٢) طبعة الفقي.

(٢) (١/ ٢٦٧، ٢٦٨) طبعة الفقي.

أن المؤلف أشار بالكبير إلى أن له كتابًا آخر صغيرًا في موضوع السماع غير كلامه في «الإغاثة»، كما فهم منه بعض الباحثين^(١). فإنه خلاف مراد المؤلف، ولم يذكره أحدٌ من المترجمين له.

ويبدو لي أن الكتاب لم يكن له عنوان محدد، ولم يُسمَّه المؤلف كما رأينا. وقد اخترتُ العنوان المثبت على النسخة الخطية، وربما كانت بعض النسخ للكتاب بعنوان «كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء»، ولكن مثل هذه التسمية غالبًا ما يكون من قبل النَّسَّاح. وخاصةً إذا عرفنا أن الكتاب عبارة عن أحد الأجوبة عن الاستفتاء في الموضوع، وليس في أوله وآخره عن المؤلف ما يدلُّ على أنه سمَّاه به، بل فيه (الورقة ١٥ ب) على الهامش: «جواب الشيخ شمس الدين ابن قيم الجوزية، وهو مصنَّف مستقل عظيم في خصوصية هذه المسألة». ولو كان له ذلك العنوان المسجوع أو اختاره المؤلف لذكره الناسخ هنا، وأثبتته على صفحة الغلاف.

أما «حرمة السماع» فهو إشارة إلى موضوع الكتاب، لا عنوانه، وكثيرًا ما يتجوَّز صاحب «كشف الظنون» عند ذكر عناوين الكتب، وخاصة تلك التي لم يذكر أوائلها ولم يرَها. والكتاب الذي بين أيدينا منها، فلم يذكر أوَّله ولم يصفه بشيء.

(١) «ابن قيم الجوزية: حياته، آثاره، موارده» (للعامة بكر بن عبدالله أبو زيد)

* تحقيق نسبته إلى المؤلف:

ذكرتُ فيما سبق أن المؤلف أشار إلى هذا الكتاب في «الإغاثة»، ووصفه بما ينطبق على النسخة التي وصلت إلينا. والنسخة قديمة، وفيها أجوبة العلماء الآخرين المعاصرين لابن القيم، والاستفتاء كان سنة ٧٤٠ كما ذكر في النسخة، وذلك في دمشق حيث كان فيها المفتون، ومنهم ابن القيم الذي عاش فيها في هذه الفترة.

وفي الكتاب شواهد أخرى تدلُّ على أنه لابن القيم، منها أنه أشار إلى مؤلفاته الأخرى الثابتة النسبة إليه، مثل «زاد المعاد» و«مدارج السالكين»، فقال في (ص ١٠٤): «ولهذا كان رسول الله ﷺ يُطيله كما يُطيل الركوع والسجود، ويكثر فيه من الثناء والحمد والتمجيد كما ذكرناه في هديه ﷺ». وهو في «زاد المعاد» (١/٢١٢) كما ذكر. وقال في (ص ١٠٠): «وهذا موضع يستدعي كتابًا كبيرًا، ولولا الخروج عما نحن بصدده لأوضحناه وبسطنا القول فيه، فمن أراد الوقوف عليه فقد ذكرناه في كتاب مراحل السائرين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، وفي كتاب الرسالة المصرية».

و«مراحل السائرين» هو العنوان الصحيح لكتاب «مدارج السالكين»، كما ذكر المترجمون له^(١)، وقد بسط الكلام في أوله على أسرار سورة الفاتحة. أما «الرسالة المصرية» فلم يذكرها أحدٌ من

(١) انظر: «ابن القيم الجوزية: حياته - آثاره - موارد» (ص ٢٩٥-٢٩٦).

المترجمين له، ويظهر من السياق أنه تكلم فيها على «إياك نعبد» و«إياك نستعين».

وذكر بيتين له، وقال (ص ٢٢٣): «ولي من قصيدة:

يا مرسلًا لسهام اللحظ مجتهدًا أنت القتل بما ترمي فلا تُصِب
أرسلتَ طرفك ترتادُ الشفاءَ فما رأى رسولك إلا رائدَ العطبِ»

وقد ذكر المؤلف البيتين ونسبهما لنفسه في «روضة المحبين» (ص ١٥٤) و«الداء والدواء» (ص ٣٥٢-٣٥٣)، وهما من قصيدة له في «بدائع الفوائد» (ص ٨١٨-٨١٩). وذكر أيضًا هذه القصيدة ما عدا هذين البيتين في «الفوائد» (ص ١٠٧-١٠٩).

يُضاف إلى ما سبق أنه نقل في الكتاب عن شيخه شيخ الإسلام كثيرًا (انظر ص ٩٥، ١٩٩، ٢٠٠، ٢١٩، ٢٩٩)، واعتمد في قسم كبير منه على كتاب «الاستقامة»، كما سيأتي ذكره فيما بعد. وهذا منهجه المعروف في سائر كتبه.

* منهج المؤلف فيه:

جرى المؤلف على منهجه المعروف في سائر كتبه، من الاعتماد على نصوص الكتاب والسنة وآثار السلف من الصحابة والتابعين، وتتبع أقوال الأئمة والعلماء في المسألة، وذكر الأدلة واستقصائها، ثم ذكر حجج الخصوم وشبههم والردّ عليها. وأورد في أثناء البحث أبياتًا من شعره وشعر غيره، واستطرد إلى موضوعات مختلفة ليخدم بها الغرض

الرئيسي من تأليف الكتاب.

ومن أمتع المباحث التي انفرد بها هذا الكتاب من بين مؤلفاته: «فصل في الموازنة بين ذوق السماع وذوق الصلاة، وبيان أن أحد الذوقين مباين للآخر» (ص ٨٦-١١٩)، تحدّث فيه عن أسرار الصلاة من أولها إلى آخرها، وتحدّى أن يكون مثل هذا الذوق والتأثير عند أهل السماع.

وقد جعل المؤلف الكتاب في قسمين: الأول في الجواب عن الاستفتاء في مسألة السماع، فصّل فيه الكلام حول الموضوع، ثم شعر بوجه من القصور فيه، حيث إنه لم يستقصِ شُبه المبيحين واحتجاجاتهم والردّ عليهم، فألحق به القسم الثاني، وهو المشتمل على عقد مجلس مناظرة بين صاحب الغناء وصاحب القرآن. وجعله بصورة المناظرة ليكون أقوى في التأثير والإقناع والإفحام، وتناول فيه جميع الشُّبه والتمسكات التي يذكرها أهل السماع في كتبهم، واختار من هذه الكتب «الرسالة القشيرية» لأنها أشهر وأكثر تداولاً من غيرها. وأضاف إليها بعض الشُّبه التي ذكرها غير القشيري، مثل أبي طالب المكي صاحب «قوت القلوب» وابن طاهر المقدسي صاحب «كتاب السماع». فنقلها على لسان صاحب الغناء، ثم ردّها عليها على لسان صاحب القرآن.

* مباحث الكتاب ومقارنتها بالكتب الأخرى للمؤلف:

تكلم ابن القيم عن السماع في مواضع من كتبه، وهي: «إغاثة اللفهان» (١/ ٢٢٤-٢٦٨) و«مدارج السالكين» (١/ ٤٨١-٥٠٥)،

٢ / ٤٠٧ - ٤١٦)، وهذا الكتاب المفرد الذي بين أيدينا. وقد اتخذ لكل واحد منها أسلوبًا يلائم ما أُلف لأجله.

كان قصده في «الإغاثة» بيان أن السماع والغناء بالآلات المحرمة من مكاييد الشيطان ومصايد، فصوّر المفتونين بهذا السماع الذين اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا، وذكر أن مزامير الشيطان أحبُّ إليهم من استماع سور القرآن، وأنه لو سمع أحدهم القرآن من أوله إلى آخره لما حرك له ساكنًا، ولا أثار فيه وجدًا مثل ما يثيره السماع.

ثم ذكر أن علماء الإسلام من جميع الطوائف مجمعون على التحذير من السماع وأهله، ونقل عن «تحريم السماع» لأبي بكر الطرطوشي و«روضة الطالبين» للنووي وفتاوى ابن الصلاح ما يدلُّ على إجماع الأئمة على ذلك. وذكر قصيدة لامية طويلة من نظمه في ذم أهل السماع.

ثم عقد فصولًا للحديث عن أسماء هذا السماع الشيطاني، وهي أربعة عشر اسمًا، منها: اللهو، واللغو، والباطل، والزور... وغير ذلك، ونقل كلام أهل التفسير والحديث واللغة في شرحها والتحذير منها، وذكر الأحاديث والآثار الواردة فيها.

ثم عقد فصلًا لبيان تحريم رسول الله ﷺ الصريح لآلات اللهو والمعازف، وسياق الأحاديث الواردة في ذلك، وأشهرها حديث المعازف الذي هو عند البخاري، وردَّ على ابن حزم في نقده لهذا الحديث، من وجوه عديدة. وكان اعتماده في هذا الفصل على كتب الحديث عامة وكتاب «ذم الملاهي» لابن أبي الدنيا خاصة.

أما «مدارج السالكين» فقد تكلم فيه عن السماع في موضعين:
الأول في شرح منزلة السماع (٤٨١/١-٥٠٥) والثاني عند الحديث
عن التغذي بالسماع في شرح منزلة الأنس بالله (٤٠٧/٢-٤١٦).

وفي الموضع الأول بيّن معنى السماع الذي ورد ذكره في القرآن،
وذكر أن الكلام فيه مدحًا وذمًا يحتاج إلى معرفة صورة المسموع
وحقيقته، وسببه والباعث عليه، وثمرته وغايته. فهذه الفصول الثلاثة
يتحرر أمر السماع، ويتميز النافع منه والضار، والحق والباطل،
والممدوح والمذموم.

ثم قسّم المسموع إلى ثلاثة أقسام: مسموع يحبّه الله ويرضاه،
ومسموع يبغضه وينهى عنه، ومسموع مباح مأذون فيه لا يحبّه ولا
يبغضه. وفصل الكلام في هذه الأقسام وبيّن أحكامها، وذكر حجج
المبيحين لسماع الغناء وناقشها مناقشة علمية، ثم قال: والذي يفصل
النزاع في حكم هذه المسألة ثلاث قواعد:

الأولى: أن الذوق والحال والوجد هل هو حاكم أو محكوم
عليه؟

الثانية: أنه إذا وقع النزاع في حكمٍ وجب الرجوع إلى الوحي.

الثالثة: إذا أشكل على الناظر حكم شيء فلينظر إلى مفسدته
وثمرته وغايته.

وأخيرًا حاكمهم إلى الذوق، فذكر أن عبودية القلب في حالتها الحزن والفرح هي الصبر والشكر، فصرفه الشيطان عنهما إلى صوتين أحمقين فاجرين هما النوح والغناء، ومنافاتهما للصبر والشكر أمر معلوم من الدين بالضرورة، لا يشك فيه إلا أبعد الناس من العلم والإيمان. ومعلوم عند الخاصة والعامة أن فتنه سماع الغناء والمعازف أعظم من فتنه النوح بكثير.

وفي الموضوع الثاني من «المدارج» ذكر أن القلب يتغذى بالسماع كما يتغذى الجسم بالطعام والشراب، فإن كان العبد محبًا صادقًا طالبًا لله عاملًا على مرضاته كان غذاؤه بالسماع القرآني، وإن كان منحرفًا فاسد الحال مغرورًا مخدوعًا كان غذاؤه السماع الشيطاني. والسر في ذلك أن الله جعل للقلب نوعين من الغذاء: نوعًا من الطعام والشراب الحسي، وللقلب منه خلاصته وصفوه، والنوع الثاني: غذاء روحاني معنوي من السرور والفرح، والابتهاج واللذة، والعلوم والمعارف. وبهذا الغذاء كان سماويًا علويًا، وبالغذاء المشترك كان أرضيًا سفليًا، وقوامه بهذين الغذاءين، وله ارتباط بكل واحدة من الحواس الخمس. وتعلق القلب بالسمع وارتباطه به أشد من تعلقه بالبصر، ولذا كان تأثيره به أشد. وقد يكون المسموع شديد التأثير في القلب، ولا يشعر به صاحبه لاشتغاله بغيره، ولمباينة ظاهره لباطنه ذلك الوقت، فإذا حصل له نوع تجرد ورياضة ظهرت قوة ذلك التأثير والتأثر. فإن كان المسموع معنيًا شريفًا بصوت لذيذ حصل للقلب حظه ونصيبه من الابتهاج

واللذة، وهذا لا يحصل على الكمال إلا عند سماع كلام الله. أما السماع الشيطاني فبالضد من ذلك، وهو مشتمل على أكثر من مئة مفسدة.

أما الكتاب الذي بين أيدينا فهو عبارة عن فتوى في مسألة السماع كتبها المؤلف سنة ٧٤٠ وتوسّع في ذكر الأدلة على تحريم السماع والغناء والمزامير، وجعل القسم الثاني منه بصورة مناظرة بين صاحب الغناء وصاحب القرآن، استقصى فيه شُبّههم وإيراداتهم، وردّها عليها بتفصيل.

بدأ المؤلف كتابه بتمهيد ذكر فيه أن الكلام في هذه المسألة وتوابعها لا ينتفع به إلا من حَكَمَ كلام الله ورسوله وانقاد إليه، وأما من اتخذ إلهه هواه وأضلّه الله على علم، فهذا يُطَمَع في خطابه لإقامة الحجة لا للاستجابة والانقياد. ثم قَسَمَ الكلام في هذه المسألة إلى فصلين:

٤

الأول: في بيان حكمها في الشريعة، وهل هو التحريم أو الكراهة أو الإباحة، أو ما يقوله المفترون الكاذبون من الاستحباب والفضيلة؟

الثاني: أن تعاطيها على وجه اللعب والخلاعة والمجون شيء، وتعاطيها على ما يقوله أصحاب السماع من أنها قرينة وطاعة شيء آخر.

وفي الفصل الأول تحدث أولاً (ص ١٠-١٧) عن وجوب الردّ إلى الكتاب والسنة عند وقوع النزاع في شيء من الأمور عند المسلمين، وأورد في ذلك آيات عديدة وفسّرها، وذكر أن كل عمل مخالف لما كان

عليه الرسول ﷺ وأصحابه فهو مردود على فاعله؛ لأنه بدعة، وكل بدعة ضلالة.

ثم تكلم على مسألة السماع كلامًا مجملًا ومفصلاً، أما المجمل فهو أن هذا السماع على هذا الوجه حرام قبيح، لا يُبيحه أحدٌ من المسلمين، وخواص المسلمين ودين الإسلام براءٌ منه؛ لما فيه من المفسدات الكثيرة التي ذكر بعضها، ويكفي أنه يصرف صاحبه عن استماع القرآن، ويُحدث له ذوقًا ووجدًا وشوقًا لا يُوجد شيء منه عند ذكر رب العالمين. ومن المصائب العظمى: نسبة ذلك إلى دين الرسول وشرعه، واعتقاد أنه قربة يتقرب به إلى الله وأن فيه صلاح القلوب وعمارتها، وأن تأثير القلوب به أسرع وأقوى من تأثيرها بالقرآن. ولا ريب أن هذا من النفاق الذي أنبت الغناء في القلب، وارتكاب المحرمات مع العلم بتحريمها أسهل وأسلم عاقبةً من ارتكابها على هذا الوجه.

وكلُّ مَنْ يدَّعي أن السماع المحدث هو من الدين الذي تصلح عليه القلوب، لزمه أحد الأمرين: إما أن يقول: إن الله شرعه لرسوله، ففعله الرسول وحضَّ عليه، وأمر به ودعا إليه. وهذا كذب على الله ورسوله، منادٍ على وقاحته وجرأته.

وإما أن يقول: إن الله لم يشرعه ولا رسوله، ومع هذا فهو من الدين وحقائقه. فيلزمه حينئذٍ أن يكون الدين ناقصًا، لم يكمله الله حتى أكمله هؤلاء السماعية.

ثم ذكر المؤلف الأدلة من الكتاب والسنة وآثار السلف على أن

هذا السماع من الباطل واللهو واللعب المنهي عن اتخاذه دينًا، وأن السماع والغناء وآلات اللهو إنما نصبها الشيطان مضادةً لما شرعه الله لعباده (ص ٢٢-٢٦). ولهذا كثر النكير عليها من جميع الطوائف من أهل العلم من أئمة الحديث والفقهاء والتفسير والزهد، وأجمعوا على التحذير منه (ص ٢٧-٣٧).

ثم ذكر بعض الشُّبه التي يذكرها أصحاب السماع، مثل استدلالهم بغناء الجاريتين، وجوازه في النكاح والختان، وأنَّ هذا السماع حضره جماعة من الأولياء، فكيف يسوغ تخطئهم والإنكار عليهم؟ وردَّ عليها من وجوه (ص ٣٨-٥٨).

وانتقل بعد ذلك إلى ذكر مفاصد السماع (ص ٥٩-٧٠) وردَّ على من ادَّعى أن سماعه لله وبالله، فلا يضرُّه ما فيه من المفاصد (ص ٧٠-٧٣). ثم بيَّن أن السماع مركب من شبهة وشهوة، وهما الأصلان اللذان ذمَّ الله من يتبعهما ويحكمهما على الوحي. ثم تحدث عن الانحراف الذي وقع عند المتأخرين في الأعمال والأذواق والأحوال، فخالفوا ما كان عليه السلف الصالح من الأذواق الصحيحة والأعمال المشروعة، وقام بالموازنة بين أحوال السلف وأحوال هؤلاء المتأخرين في السماع، وذكر الفرق بينهم (ص ٧٦-٨٢)، ونبَّه على نكتة خفية من نكت السماع، وهي أنه ما وجد صادق في السماع الشعري وجدًا وتحرك به إلا وجد عند انقضائه ومفارقة المجلس قبضًا على قلبه ونوع استيحاء منه، فهو بمثابة من سُقي عسلًا في إناء نجس. وإن كان سماعه لِلذَّةِ

وحظّ النفس فهو كمن يشرب الماء النجس في الإناء القذر. أما صاحب السماع القرآني الذي ذوقه وشربه منه فهو يشرب الشراب الطهور في أنظف إناء وأطيبه (ص ٨٣-٨٦).

وعقد المؤلف بعد ذلك فصلاً في الموازنة بين ذوق السماع وذوق الصلاة، وبيان أن أحد الذوقين مباين للآخر، وذكر فيه أسرار الصلاة من أولها إلى آخرها (ص ٨٦-١١٩)، وناشد أهل السماع: هل لهم في السماع مثل هذا الذوق أو شيء منه؟ وهل يدعهم السماع يجدون هذا الذوق في الصلاة؟ ثم حلف عنهم أن ذوقهم ضدّ هذا الذوق، ومشرّبهم ضدّ هذا المشرّب. وهذا الفصل من أمتع فصول الكتاب، والمؤلف معروف بالاسترسال في مثل هذه الموضوعات، وبهذا الفصل ينتهي القسم الأول من الكتاب.

أما القسم الثاني فهو بعنوان «عقد مجلس في المناظرة بين صاحب غناء وصاحب قرآن». وكأني بالمؤلف شعر بأن ما كتبه ليس كافياً في الموضوع، فإنه لم يذكر جميع حجج أهل السماع وشبّههم التي يردّونها في كتبهم، فخصّص القسم الثاني لذكرها، وردّ عليها بما يشفي ويكفي. واختار أحد أشهر الكتب التي يتداولها أهل السماع فيما بينهم، أعني به «الرسالة القشيرية»، فإنها استوعبت جميع ما لديهم من الشبه في هذا الباب. ثم وجد أن شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية سبقه إلى الردّ عليها ومناقشتها مناقشة تفصيلية في كتاب «الاستقامة». فاعتمد عليه كثيراً، وهذبه أحسن تهذيب، وزاد عليه فوائد وأبحاثاً في مواضع،

فأصبح هذا القسم الثاني من الكتاب تكملة ضرورية للقسم الأول. ولا حاجة هنا إلى استعراض هذه الشُّبُه والإيرادات، والردود عليها، ويكفي القارئ أن يراجع فهرس الموضوعات في آخر الكتاب.

هذا عرضٌ مجمل لمحتويات الكتاب، وبه يظهر أهميته بمقابل ما كتبه المؤلف في «الإغاثة» و«المدارج» ومكانته بين الكتب التي ألفت في هذا الباب، ونستطيع أن نقول: إنه أوسع كتاب في الرد على السماع وأهله، وفيه من الفوائد العلمية والأبحاث النادرة التي لا نجد لها في كتاب آخر، ويتميز بأسلوبه ومنهجه بين جميع الكتب المؤلفة في الموضوع. ومع أهميته وقيمتها العلمية لم يكن معروفاً قبل طبعه، فلم أجد من اطلع عليه أو اقتبس منه، والذين نقلوا عن ابن القيم في هذا الموضوع نقلوا عن كتابه «إغاثة اللهفان»^(١)، ولم يعرفوا هذا الكتاب، ولعل السبب في ذلك ندرة نسخه، وكونه بصورة فتوى تقع بعد سبع فتاوى للعلماء ضمن مجموعة، فلم يعثر عليها أكثر المؤلفين. والله أعلم.

* موارد:

تنوعت مصادر المؤلف في الكتاب بحسب الموضوعات التي تطرق إليها، وكان جلُّ اعتماده في القسم الثاني منه على كتاب «الاستقامة» لشيخ الإسلام ابن تيمية كما يظهر بالمقارنة بينهما، وقد

(١) انظر مثلاً «غذاء الألباب» للسفاريني (١/١٤٨، ١٥٣، ١٦٠، ١٦٣، ١٦٧، ١٦٨،

١٦٩، ١٧٠، ١٧٣).

صَرَّحَ بِاسْمِ شَيْخِهِ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ، وَنَقَلَ عَنْهُ نَصُوصًا تَوْجَدُ فِي كِتَابِهِ (انظر ص ١٩٩، ٢٠٠، ٢١٩، ٢٩٩). أما في القسم الأول فنقل في موضع منه (ص ٩٥) كلامًا لشيخه لا يوجد في كتاب «الاستقامة»، وصدَّره بقوله: «وقال لي شيخ الإسلام يومًا»، مما يدلُّ على أنه أخذه عنه مشافهةً. وسيأتي فيما بعدُ المقارنة بين هذا الكتاب وبين «الاستقامة» وبيان طبيعة الأخذ والاستفادة منه.

* ومن الكتب التي رجع إليها في موضوع السماع ونقل عنها كثيرًا من النصوص والأخبار:

- رسالة أبي الطيب الطبري (ت ٤٥٠) «الرد على من يحبَّ السماع»: ص ٢٨، ٢٩، ١٤٥.

- «تلبيس إبليس» لابن الجوزي (ت ٥٩٧): ص ٢٧، ٣٢، ٣٣، ٤٢، ٤٣، ٤٦، ٤٧. وبواسطته نقل عن «بهجة الأسرار» لابن جهضم (ت ٤١٤): ص ٤٥.

- فتوى ابن بطة (ت ٣٨٧): وقد أوردتها كاملةً ص ٣٣-٣٥.

- «أدب القضاء» للشافعي (ت ٢٠٤)، وهو ضمن كتاب «الأم» له: ص ١٧٨، ٢٨.

- «الجامع» للخلال (ت ٣١١): ص ٣٠، ٣٢، ٣٣، ٣١٧.

- كتاب لأبي موسى المديني (ت ٥٨١) لم أجد ذكره في مصادر ترجمته، وقد نقل عنه المؤلف نصوصًا عديدة: ص ٣١، ٣٥-٣٦.

- كتاب لأبي الحسن ابن القصار (ت ٣٩٧): ص ٣٢.
- كتاب الإجماع والاختلاف لذكرى الساجي (ت ٣٠٧): ص ١٧٧.
ولعل النقل عنه بواسطة كتاب «الاستقامة».
- «مسائل الإمام أحمد» برواية ابنه عبدالله (ت ٢٩٠): ص ٣٢.
- * ومن كتب التصوف وغيرها التي نقل عنها أقوال الصوفية
وبعض الأخبار:
- «قوت القلوب» لأبي طالب المكي (ت ٣٨٦): ص ١٦٦، ٢٠٣.
- «مسألة السماع» لأبي عبد الرحمن السلمي (ت ٤١٢): ص ١٤٦.
- «الرسالة القشيرية» لأبي القاسم القشيري (ت ٤٦٥): ص ١٩٨،
٢٦١، ٢٦٢.
- «منازل السائرين» لأبي إسماعيل الهروي الأنصاري (ت ٤٨١):
ص ١٦٦.
- «مسألة السماع» لابن طاهر المقدسي (ت ٥٠٧): ص ١٧٨.
- كتاب آخر لابن طاهر: ص ١٩٨.
- «الغنية» لعبدالقادر الجيلاني (ت ٥٦١): ص ٥٢.
- «الإشارات» لابن سينا (ت ٤٢٨): ص ١٤٦.
- وأشار المؤلف (ص ١٦١) إلى كتاب «الدليل الواضح في النهي
عن ارتكاب الهوى الفاضح» ولم يذكر صاحبه ولا نقل عنه شيئاً. وهو
لعبد المغيث بن زهير الحربي (ت ٥٨٣).

* أما كتب الحديث والآثار المسندة فقد نقل عنها كثيرًا، وهي
الكتب الآتية:

- صحيح البخاري: ص ٢٥، ١٢٩، ١٤٢، ١٨٦، ٢٢٠، ٢٧٠،
٢٨٥.

- صحيح مسلم: ص ١٦، ١٤٢، ١٨٦.

- الصحيح (يشير به إلى الصحيحين أو أحدهما): ص ١٤٧، ١٨٠
(والنص هنا ليس في الصحيحين)، ١٨٧، ٢٢٢، ٢٢٥، ٢٢٧،
٢٣٤.

- جامع الترمذي: ص ١٧، ٢٣، ١٣٧، ٢٨٤.

- سنن ابن ماجه: ص ٢٨٣، ٢٨٤.

- السنن (يقصد به بعض كتب السنن الأربعة): ص ١١٢، ١٨٠.

- مسند أحمد: ص ١٦، ١٧، ٢٤، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٩٠.

- مسند الحميدي: ص ٢٤.

- مسند مسدد بن مسرهد: ص ٢٨٤.

- مسند أبي يعلى الموصلي: ص ٢٨١.

- صحيح ابن حبان: ص ١٦.

- صحيح الحاكم (وهو «المستدرک»): ص ١٦، ٢٨٢.

- معجم الطبراني (ويقصد به «الكبير» غالبًا): ص ١٣٧، ٢٥٣، ٢٨٢.

- الغيلانيات: ص ٢٨٣.

- الجزء الثاني من حديث أبي بكر الباغندي: ص ٢٨٧.

- ذم الملاهي لابن أبي الدنيا: ص ١٤٠.

- تفسير ابن أبي حاتم: ص ١٣٩.

- صفة الجنة لأبي نعيم: ص ١٣٥-١٣٧، ١٤٠، ١٤١.

هذه جُلُّ المصادر التي نقل عنها المؤلف.

* المقارنة بينه وبين كتاب «الاستقامة»:

اعتمد المؤلف في القسم الثاني من الكتاب اعتمادًا كبيرًا على ما كتبه شيخه شيخ الإسلام في كتاب «الاستقامة» (١/٢١٦-٤٢١) في الفصل الذي عقده لمناقشة كلام القشيري في موضوع السماع. وكان منهجه فيه التهذيب والتلخيص في أغلب المواضع، والزيادة والتفصيل أحيانًا، وقد تابع شيخه في ترتيب الفصول في الغالب، وخالف هذا الترتيب في بعض المواضع، وأدمج عدة وجوه في وجه واحد أو حذف بعض وجوه الرد عند الشيخ. وكل ذلك بأسلوبه الخاص الذي تميز به، وهو أنه يأخذ الفكر والمعنى من الشيخ، ولا يعتمد على نص كلامه وعبارته، بل يصوغه بعبارة أخرى تؤدي الغرض.

هذا هو الطابع العام للقسم الثاني من الكتاب، وتوجد فيه زيادات ليست في «الاستقامة»، منها بعض الشُّبه التي ذكرها على لسان صاحب الغناء وهي ليست من «الرسالة القشيرية»، وردَّ عليها على لسان صاحب القرآن، فمثل هذه الشُّبه والردود عليها لا وجود لها في «الاستقامة»؛ لأن شيخ الإسلام اقتصر فيه على مناقشة كلام القشيري، ولم يتجاوزه إلى غيره. ومن أمثلة ذلك ما ورد في (ص ٢٧٥-٢٩١) من قوله: «وامتحن أهل الغناء بأهل القرآن...». فلا يوجد في «الاستقامة»، بل فيه (١/٣٩٥-٤٠٣) نقد بعض كلام القشيري، وهو غير موجود عند ابن القيم، فالظاهر أن ههنا سقطاً. ثم إن سياق الكلام عنده يدلُّ على أن مكانه المناسب في أول المناظرة، وليست ههنا، ولكن الكلام هنا متصل، فلم أستطع تحديد المكان. ولا يمكن التوصل إلى السياق الصحيح إلا بواسطة نسخة أخرى تامة من الكتاب، ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً.

وللزيادات الأخرى لدى ابن القيم تُراجع المواضع التالية:

ص ١٣٣-١٣٤ (الوجه الحادي عشر).

ص ١٣٤-١٤١ (ذكر الأحاديث الواردة عن الحور العين في

الجنة).

ص ١٤٧-١٥٣ (ذكر الأخبار المتعلقة بإنشاد الشعر عند النبي ﷺ

والصحابه).

ص ٢٢٢-٢٢٤ (شرح حديث «العينان تزنيان...»).

ص ٢٢٨-٢٢٩ (الوجهان الحادي عشر والثاني عشر).

ص ٢٣٨-٢٤١ (ما يتعلق بالعشق ومحبة الصور).

ص ٢٤٩-٢٥٢ (الفرق بين الجمال الذي يحبه الله ويكرهه).

ص ٢٥٦-٢٥٨ (صوت الشيطان).

ص ٢٥٩-٢٦١ (الكلام على قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾).

ص ٢٦٢-٢٦٤ (الكلام على تقسيم السماع إلى حرام ومباح

ومستحب).

ص ٢٦٩-٢٧٢ (متى تكون الإشارة صحيحة؟ الأمثلة على ذلك).

وقد توسع ابن القيم في بعض المواضع التي تكلم فيها شيخه

باختصار، ومن أمثلة ذلك:

ص ١٩٠-١٩٢: ما يقابله من الاستقامة (٢٨٨/١) فقرة واحدة

فقط.

ص ١٩٣-١٩٥: قارنها بالاستقامة (٢٩٠-٢٩٢).

أما عكس ذلك وهو أن يتوسع الشيخ ويختصر التلميذ فهو كثير،

انظر مثلاً:

ص ١٣٣ حيث أشار إلى الآيات الكثيرة التي ذكرها الشيخ في

الاستقامة (٢٣٠-٢٣٢).

ص ١٥٧-١٦٦: أطال الشيخ هنا في الاستقامة (٢٤٨-٢٦٠).

* وصف النسخة الخطية:

وصلت إلينا نسخة فريدة من الكتاب، وهي من مخطوطات مكتبة الإسكوريال بمدريد برقم [١٥٩٣]، مكتوبة بخط نسخي جيد، وليس عليها تاريخ النسخ ولا ذكر اسم الناسخ. ويبدو لي أنها كتبت في القرن التاسع عن نسخة أقدم منها، ثم قوبلت عليها كما يظهر من الاستدراكات والتصحيحات على هوامش النسخة.

وعلى صفحة العنوان في الركن الأيسر منها يوجد تملُّكٌ هذا نصُّه: «الحمد لله رب العالمين، ملكه فقيرٌ عفو ربه الغني علي بن محمد القادري الغزي ثم الدمشقي الشافعي، عفا الله عنه آمين».

والنسخة في ١٤٢ ورقة، وفي كل صفحة منها ٢١ سطرًا.

وقد كنت أظن في بداية الأمر أنها تامة، ولكن عند التدقيق ظهر لي أن فيها نقصًا بين الورقتين ١٢٣ و ١٢٤، فإن الكلام غير متصل بينهما. فنهاية الورقة ١٢٣ قوله: «الغناء يُنبِت النفاق في القلب كما يُنبِت الماء البقل، والنفاق هو الزندقة». وبداية الورقة ١٢٤: «وامتحن أهل الغناء بأهل القرآن، وأهل القرآن بأهل الغناء، وابتلى كل واحدٍ من الفريقين بالآخر، فلا يصطلحان إلا إذا ترك أحدهما ما عنده لما عند الآخر...». وبمراجعة كتاب «الاستقامة» الذي اعتمد عليه المؤلف كثيرًا ظهر أن الكلام المتصل بما بعد الورقة ١٢٣ يتعلق بشرح كون الغناء ينبت النفاق في القلب، وهو أكثر من صفحة. وقد أثبتُّه في الهامش لينجبر شيء من

النقص الموجود في النسخة، والذي يمكن أن يكون ورقة أو أكثر، فإن الكلام المثبت في الورقة ١٢٤ لم أجد ما يُشبهه في كتاب «الاستقامة»، فهو من زيادات المؤلف على كلام شيخه فيما أرى.

تبدأ النسخة بذكر صورة استفتاءٍ كُتب سنة ٧٤٠، ثم أجوبة ثمانية من العلماء عليه، وهم:

١- القاضي تقي الدين السبكي الشافعي (ت ٧٥٦).

٢- الشيخ جلال الدين بن القاضي حسام الدين الحنفي (ت ٧٤٥) (١).

٣- القاضي برهان الدين بن عبد الحق الحنفي (ت ٧٤٤) (٢).

٤- الشيخ أبو عمرو بن أبي الوليد المالكي (ت ٧٤٥) (٣).

(١) أحمد بن الحسن الرازي الأصل ثم الرومي، كان جامعًا للفضائل ويحب أهل العلم مع السخاء وحسن العشرة، وقد ولي القضاء. ترجمته في «البداية والنهاية» (٤٧٥ / ١٨) و«الدرر الكامنة» (١١٧ / ١).

(٢) إبراهيم بن علي بن محمد، شيخ الحنفية وقاضي القضاة بالديار المصرية، كان من أكابر العلماء، يحفظ الفروع وكثيرًا من المتون ويجانب أهل البدع. ترجمته في «البداية والنهاية» (٤٧٠ / ١٨) و«الدرر الكامنة» (٤٦، ٤٧ / ١).

(٣) أحمد بن محمد بن أحمد الإشبيلي ثم الدمشقي، الإمام المفتي الكبير الزاهد، إمام محراب المالكية بالجامع. وبعد وفاته تأسف الناس عليه وعلى صلاحه وفتاويه النافعة الكثيرة. ترجمته في «البداية والنهاية» (٤٧٦ / ١٨) و«الدرر الكامنة» (٢٤٧ / ١).

٥- الشيخ عبد الله بن أبي الوليد المالكي (ت ٧٤٣) (١).

٦- الشيخ شرف الدين أحمد بن الحسن الحنبلي (ت ٧٧١) (٢).

٧- الشيخ عماد الدين ابن كثير الشافعي (ت ٧٧٤).

٨- الشيخ شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١).

وأطول هذه الأجوبة جواب ابن القيم (ق ١٥٢-١٤٢ ب)، بحيث أصبح كتاباً مستقلاً في هذه المسألة، وقد أشار الناسخ إلى ذلك فقال (ق ١٥ ب): «جواب الشيخ شمس الدين ابن قيم الجوزية، وهو مصنف مستقل عظيم في خصوصية هذه المسألة».

واطلعتُ في مكتبة خدابخش خان بياتنه (الهند) برقم [٢٨٣١ / ١] (ق ١-٣٢) على قطعة مخطوطة من الكتاب بعنوان «ترجيح ذوق القراءة والصلاة على ذوق السماع وأصوات القينات»، وهي بخط حديث، وفيها أخطاء وتحريفات، وزيادات لا حاجة إليها، ومخالفات للأصل في مواضع كثيرة، فلم أعتد عليها عند تحقيق الكتاب. ثم وجدتُ هذه القطعة مطبوعة بأخر كتاب «الحكمة البالغة في خطب الشهور والسنة»

(١) أخو الشيخ أبي عمرو، العالم العامل الزاهد إمام المالكية بالجامع الأموي بمحراب الصحابة. ترجمته في «البداية والنهاية» (١٨ / ٤٥١) و«الدرر الكامنة» (٢ / ٢٨٦).

(٢) المعروف بابن قاضي الجبل المقدسي، الإمام العلامة صاحب فنون، أجازته شيخ الإسلام ابن تيمية بالإفتاء، وولي القضاء، ترجمته في «الدرر الكامنة» (١ / ١٢٠) و«الوفيات» لابن رافع (٢ / ٣٥٤).

في مطبعة القرآن والسنة بأمر تسر (الهند) سنة ١٣١٥ / ١٨٩٧ م. وطُبعت مرة أخرى بعنوان: «الموازنة بين ذوق السماع وذوق الصلاة والقرآن» من دار الصحابة بطنطا (مصر)، بالاعتماد على نسخة منها محفوظة في دار الكتب المصرية بعنوان «كتاب في ذوق السماع». وتُمثّل هذه القطعة جزءًا صغيرًا من آخر القسم الأول من الكتاب، وصياغتها تختلف كثيرًا عن صياغة الأصل، وفيها أخطاء وسقطات وزيادات كما يظهر بالمقارنة مع الأصل، ولذلك صرفتُ النظر عنها ولم أهتم بها عند إعداد هذه الطبعة.

* الطبعات السابقة:

صدرت للكتاب طبعتان، أولاهما بتحقيق راشد بن عبد العزيز الحمد، نشرتها دار العاصمة بالرياض سنة ١٤٠٩. وقد بذل المحقق جهدًا لا بأس به في تحقيقه، وكان جُلُّ اهتمامه بالتعليق على الكتاب، فقام بتخريج الأحاديث وترجمة الأعلام وشرح الغريب وعزو بعض الأبيات الشعرية إلى قائلها. ولم يهتمَّ بضبطِ النصِّ ووضعِه في فقرات مناسبة. وبعد مقابله على الأصل المخطوط ظهر لي سقط كلمة أو كلمتين أو سطر في مواضع (انظر مثلاً ص ١٥٤ سطر ١٣ وقارنه بهذه الطبعة ص ٥٧ سطر ٦). واقترح المحقق زياداتٍ على النص في مواضع كثيرة هو في غنى عنها، وصحَّح بعض الأخطاء الموجودة في المخطوط، ولكنه خطأً الصواب في مواضع عديدة، ومن أمثلتها إثباته بيت الشعر كما يلي (ص ٤٠٣):

وكأسًا شربتُ على لذة وآخر تداويتُ منها بها

وفي الأصل: «وكأس» وكذا الرواية، والواو واو رُبَّ، فغيَّرها دون الإشارة إليها. «وآخر» في الشطر الثاني صوابه «وأخرى»، ومثل هذه الأخطاء في هذه الطبعة وخاصة في الشعر كثير، ولستُ هنا بصدد إحصائها.

ووقع فيها اضطراب في ترتيب الصفحات (٤٦٩-٤٧٣) في فتوى ابن كثير، وترتيبها على الصواب (٤٦٩، ٤٧٢، ٤٧٣، ٤٧٠، ٤٧١). وهذا خطأ مطبعي ينبغي التنبيه له.

وبالجملة فهذه الطبعة ينقصها الضبط والتصحيح وتوثيق كثير من النصوص والأخبار والأشعار، وعلى القراء أن يقارنوا بينها وبين الطبعة التي بين أيديهم ليدركوا الفرق بينهما.

أما الطبعة الثانية للكتاب فقد صدرت بتحقيق ربيع بن أحمد خلف، من مكتبة السنة بالقاهرة سنة ١٤١١، وعنوانه في هذه الطبعة «كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء».

اعتمد المحقق فيها على الطبعة السابقة وعلى قطعة مطبوعة منه بعنوان «الموازنة بين ذوق السماع وذوق الصلاة والقرآن» (ط. دار الصحابة بطنطا)، ولم يرجع إلى الأصل المخطوط، وقال: «رأيت أنه يحتاج إلى إعادة تحقيق أقرب إلى المنهج العلمي الصحيح، لتلافي ما في طبعته السابقة من أخطاء مطبعية وغيرها».

ولم أطلع على هذه الطبعة إلا أخيراً عند كتابة المقدمة، ورأيت صاحبها اجتهد في تصحيح كثير من الأخطاء المطبعية، ولكنه زاد في

النصّ أشياء لا داعي لإثباتها، بالاعتماد على القطعة المنشورة منه، وبقيت فيها أخطاء وسقطات كما كانت في الطبعة السابقة. وفي هذه الطبعة اهتمام بضبط النصّ وتخريج الأحاديث وشرح الكلمات، ولكن لم يُقتصر على شرح الغريب منها، ولم يقتصر على الصحيحين إذا كان الحديث في أحدهما، ولم يُهتم بتخريج الأشعار وتوثيقها. ووقعت أخطاء في الضبط في مواضع كثيرة لا أحب الخوض في تفصيلها.

* هذه الطبعة:

اعتنيتُ في هذه الطبعة بالمقابلة على المخطوط، وتصحيح كثير من الأخطاء والتحريفات في الطبعة السابقة، ثم ضبط النصّ ووضع في فقرات مناسبة، ثم توثيق الأحاديث والأخبار والأشعار من المصادر التي تيسرت لي، وأخيراً عمل الفهارس اللفظية والعلمية التي تكشف عن محتويات الكتاب.

وقمت بمراجعة مصادر المؤلف، وأهمها كتاب «الاستقامة» لشيخ الإسلام، وظهر لي بالرجوع إليه أن في المخطوط خرمًا في موضع قد يكون ورقة أو أكثر (انظر ص ٢٧٥).

وفي الأصل المخطوط أخطاء وتحريفات أشرتُ إلى بعضها في أماكنها، وأغفلتُ كثيرًا منها لأنها من الناسخ، وقد تجوز كثيرًا في الشكل والنقط، وأخطأ في الضبط، ووضع النقط والحركات في غير مواضعها، وكتب الشعر نثرًا، وقسم شطري البيت تقسيمًا خاطئًا. وهذه الأمور فاشية في النسخة من أولها إلى آخرها، ولذلك لم أشِر إليها جميعًا في

الحواشي، بل اكتفيتُ بقراءة المخطوط قراءة صحيحة بقدر استطاعتي،
وضبطتُ ما يحتاج إلى الضبط دون النظر إلى ما عمله الناسخ.

ومما ينبغي التنبيه عليه أن المخطوط يشتمل على كتاب ابن القيم
مع فتاوى أخرى لسبعة علماء، وفصلٍ لشيخ الإسلام ابن تيمية في
أسرار الصلاة. وقد اقتصرنا في هذه الطبعة على نشر كتاب ابن القيم
دون الكتابات الأخرى، لأنها منشورة مرارًا. ثم إن هذه السلسلة تهتم
بنشر تراث ابن القيم، فلم نحَبَّ أن نجمع بينه وبين آثار غيره. ورسالة
شيخ الإسلام نُشرت ضمن «جامع المسائل» (٣ / ٣٥١ - ٣٦٠)، فأغنانا
عن إعادة نشرها. وقد قال ناسخها في آخرها (ق ٦٤ ب): «ليس هذا
الفصل متعلقًا بهذه المسألة، وإنما كتبه هنا اتفاقًا، وله أيضًا مناسبة
بذكره ذوق الصلاة وسرّها ولبّها، والله الموفق».

كلمة أخيرة:

لم يبق لي إلا أن أقول: إنني قد بذلت جهدي في تحقيق النصّ
والتعليق عليه، بالاعتماد على النسخة الوحيدة منه، وأرجو من القراء إذا
وجدوا خللاً فيه أن ينبهوني عليه مشكورين.

وفي الختام أدعو الله أن يوفقنا جميعًا لما فيه الخير والصلاح،
ويهدينا إلى سواء السبيل، إنه سميع مجيب.

كتبه محمد عزيز شمس

بمكة المكرمة

قاله
فقد له
فقد نفور به الغر على
الناظر في الغر لا لا
الناظر في الغر لا لا

الكلام على من سئل عن
سواء جوارحها من الأيدي
سواء الدرر رابر كرايم الجوزة الك
سواء طول الأهدم إسه برجمة

صفحة العنوان من الأصل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 صورة استشفائية في مسنده لم يعثر وسبقها لاهل البيت ذلك وشيئا من
 اهل العلم والدين فاذا برأوا عنه لا اظلم الله الوجوه من عدول العلم وحملته الذين يرون
 للناس بلائرا لله من دينهم ويعصمون بطريقة خيم فانما هلكنا الناس على اضرار واشتراك
 واحدا وسنة واحدا لا يفتخرون في علم ولا دين فاذا اقتصروا على العلم والدين
 وتركوا الامر لله في كل شئ والنهي عن المنكر صار حبيدا المعروف ما القصد
 النفوس واشتهت وحمار هو العوائد وصار المنكر ما لم يعتده الانسان
 وان من قد تكلمت عند الله حوالا من الذين يحب به رسوله وانكر
 به كسبه حبيدا في الاضطرار وتقوم الساعة فتعزذ بالله من مضلات
 الفتن ويسأل الله ان يعيشر ورانقينا ما
صورة الاستشفاء

ما تفعل الشاة العا الحسنة بوقتهم في شاة الذي سئل
 على الدف والشباب والاتاهو والطرف او الصغى بالكفر
 وجوه من الله مثل النعير وجوه وكخص الة حال والنساء
 فرما احتفظوا بعضهم بعضا فيما جلس النساء مقابل الرجال
 فنظروا اليهم وهم يرتضون على صوت الشبانات والدفوف
 والعباد ويرعون ان ذلك قد يفتنهم الى الله ويؤدي اذ لهم
 وهو اجيد في الاشارة وان من رطل عوله يقول ذلك تعلم
 ولكن من انكر ذلك عليهم محبوت ليس من اهل الجبوه بل هو
 من اهل القشور وهم اهل الكتاب وربما قالوا نحن وصلنا الى
 كما نصا اليه اليهم وانما ارتفعت بنيم الاصوات

والسحر

أيقنت فخلصت من ذلك رأساً برأس ولكن يمتد الخلاص
 رأساً برأس لتفهمه وتفرطه فيما سر به ونهي عنه
 وبريان هذه الطاعات لا تجبه يوماً انما قابلت تعريضه
 وسببته وراح رأساً برأس كما قال عثمان بن الخطاب رضي الله
 عنه ورددت ابي جوت من عهد الامير كفاً لا ابي ولا علي يريد
 الخلافة خشية ان لا يكون قد قام بحقوقنا فوقفه كان
 عمله على ذلك القول ولم يقبل ذلك ابي بكر بل ما زال يشهد
 له في القيام بالخلافه بالحق وبالجملة فحضور من حضر الشاع
 بين الغوم لا يبدل على مذهبه وقد اختلف الفقهاء هل يؤخذ
 مذهب الانام من فعله ولا يتحاب احد في ذلك وهناك
 من الذين قالوا لا يؤخذ من فعله مذهبنا لو
 لم يفعلوا شيئاً او يكون متاولاً او ماشياً
 او متخطياً ومع هذه الاجمالات لا يجوز
 ان يضاف اليه فعله مذهبنا
 والله اعلم

اخذ المذهب رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه
 وسلم



e



مطبوعات المجمع

آثار الإمام ابن قيم الجوزية وما لحقها من أعمال

(٢٧)

الكلام على مسائل التمساح

تأليف

الإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية

(٦٩١ - ٧٥١)

تحقيق

محمد عزيز شمس

وفق المنهج المعتمد من الشيخ العلامة

بكر بن عبد الله الجوزية

(رحمة الله تعالى)

تمويل

مؤسسة سليمان بن عبد العزيز الراجحي الخيرية

دار عالم القوائد

للشؤون والنشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَبِّ يَسِّرْ وَأَعِنِّ يَا كَرِيمَ

صورة استفتاء كُتِبَ في سنة أربعين وسبعمائة، لأمر أوجب ذلك،
وسئل عنه أئمة أهل العلم والدين، فأجابوا عنه، لا أَخْلَى اللهُ الوجودَ من
عُدول العلم وحمَلته، الذين يبينون للناس ما أنزل إليهم من ربهم،
ويعتصمون بطريقة نبيهم، وإنما يَهْلِكُ الناسُ إذا صاروا شرعًا واحداً،
وصنفًا واحداً، لا يتفاضلون في علم ولا دين، فإذا قُبِضَ أهلُ العلم
والدين، وتُرِكَ الأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر، صار حينئذٍ
المعروف ما أَلْفَتَهُ النفوسُ واشتهته، وصار هو العوائد، وصار المنكر ما
لم يَعْتَدِهِ الإنسان، وإن كان قد يكون عند الله هو الدين الذي بَعَثَ به
رسله، وأنزل به كتبه، فحينئذٍ تَخْرَبُ الأرضُ، وتقوم الساعة. فنعوذ بالله
من مُضِلَّاتِ الفتن، ونسأل الله أن يَقِينَا شرورَ أنفسنا. آمين.

صورة الاستفتاء

ما تقول السادة العلماء - أحسن الله توفيقهم - في السماع الذي يشتمل على الدف والشبابة وآلات اللهو والطرب، أو التصفيق بالكف، ونحوه من اللهو، مثل التغبير ونحوه، ويحضر [هـ] الرجال والنساء، وربما اختلطوا بعضهم ببعض، وربما جلس النساء مقابل الرجال، فينظرون إليهم^(١)، وهم يرقصون على صوت الشبابات والدفوف والغناء، ويزعمون أن ذلك قربة تُقربهم إلى الله، ويزيد في أذواقهم ومواجيدهم الإيمانية، وأن من رقص غفر له، يقول ذلك بعضهم، وأن من أنكر ذلك عليهم محجوبٌ ليس من أهل الحقيقة، بل هو من أهل القشور وهم أهل اللباب، وربما قالوا: نحن وصلنا إلى ما لم يصل إليه الفقهاء، وربما ارتفعت بينهم الأصوات، [١٦] والشخير والنخير والزعقات، وربما أظهروا أشياء يُسمونها إشارات، كإخراج اللآذن^(٢) والدم، وملابسة النار، ومَسْك الحيات، ويزعمون أن هذه كرامات وأحوال، وأنهم يدعون بها الناس إلى الله، ويقولون: لنا الحقيقة ولغيرنا الشريعة.

فهل هذه أفعال طاعة وقربة ودين شرعه الله لعباده، ورضيه منهم، كما يزعمه هؤلاء القوم، أم لا؟ وهل فعل رسول الله ﷺ شيئاً من ذلك أم لا؟

(١) كذا في الأصل، والصواب: «فينظرون إليهم» أو «فينظرون إليهن».

(٢) هو شيء من رطوبة يكون على شجرة القيسوس، يستخرج منه صمغ راتنجي، يُعلك ويُستعمل عطراً ودواءً. انظر: «المعتمد في الأدوية المفردة» (ص ٤٣٩) و«المعجم الوسيط» (لذن).

وما يجب على مَنْ نَسَبَ ذلك إلى رسول الله ﷺ وأصحابه واتخذَه دينًا؟ وهل هذا من الحق أم من الباطل؟ وهل هذه طريقة أولياء الله وحزبه وأتباع رسوله أم طريقة أهل اللهو واللعب والباطل؟ وهل يَسُوغ الإنكار على هؤلاء، ويُثاب من يُنكر عليهم بيده أو قلبه أو لسانه أم لا؟ وهل ذلك من المنكر الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» (١)؟

ثم إن هؤلاء القوم منهم مَنْ يقول: إن هذا السماع قُرْبَةٌ يُتَقَرَّبُ بها، ومنهم مَنْ يقول: إنه مباح، وربما قال أصحاب هذا القول: إن الشافعي هو الذي قد قال بإباحة السماع، فهل قال الشافعي بإباحة ذلك أم لا؟

ومنهم مَنْ يقول: هو ذنب صغير يمحوه الاستغفار، يقول ذلك وهو مُصِرٌّ على فعله، لزعمه أن الاستغفار الذي [ب] يمحوه هو مجرد نطقه بالاستغفار من غير أن يُقْلِعَ بقلبه عنه، فهل هذا الاستغفار يُزِيلُ هذا الذنب من غير عزمٍ بقلبه على تركه أم لا؟

ومنهم مَنْ يحتجُّ على ذلك وأنه مباح بحديث الحبشة الذين لعبوا في المسجد بالحِرابِ، وعائشة تنظر إليهم من وراء النبي ﷺ (٢).
ومنهم مَنْ يحتجُّ بحديث بنات النجَّار، وأنهن ضربن بالدف أمام النبي ﷺ (٣).

(١) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) أخرجه البخاري (٩٥٠) ومسلم (٨٩٢) من حديث عائشة.

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٨٩٩) من حديث أنس بن مالك. قال البوصيري في مصباح =

والمسؤول من السادة العلماء تبيينُ ذلك كله وإيضاحه، وتعريف الصراط المستقيم، وفرضنا السؤالُ وفرضكم الجواب، قال تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لُبِّيْنُنَّهُ، لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧]. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم (١).

٤

= الزجاجة (١٠٦/٢): إسناده صحيح ورجاله ثقات.

(١) بعده في الأصل: «صفة الجوابات» ثم أجوبة سبعة من العلماء إلى الورقة (١٥ب)، ثم «جواب ثامن وهو جواب الشيخ شمس الدين محمد بن أبي بكر الحنبلي المعروف بابن قيم الجوزية، قال». وبعده نصُّ الجواب الآتي.

الحمد لله، الكلام في هذه المسألة وتوابعها، وبيان مرتبتها في الشريعة، ومنزلتها عند سادات العارفين، وتأثيرها في القلوب خيراً أو شراً، وفي الإيمان زيادة أو نقصاً، ومباينتها لطريق السالكين إلى الله تعالى العاملين على مرضاته، أو موافقتها لها، إنما ينتفع به من حَكَمَ كلامَ الله ورسوله وأصحابه وأئمة الإسلام والهداة الأعلام، وألقى السمعَ إلى كتاب الله وسنة رسوله وهو شهيد، وجانبَ طريقَ كل مبتدع في دين الله، مطبوع على قلبه جبَّارٍ عنيدٍ، قد حَكَمَ في ذوقه ووجدته وحاله حُكْمَ الله ورسوله، وانقاد إليه، وجعل دينه وما جاء به مَشْرَبَهُ الذي يَرِدُهُ وَيَحُومُ عليه، قد ارتضع من ثدي الوحي وما انفصلَ عنه بِفِطَامٍ، واقتبس النور من مشكاته فاستنار به في سَدَفِ الظلام، قد هَجَرَ البَطَّالين، وهاجر بقلبه إلى الله ورسوله، وَهَجَرَ وابتكر إلى محابِّه ابتغاءَ مرضاتِهِ وجهادًا في سبيله.

فطوبى له من وحيدٍ على كثرة الجيران، غريبٍ مع اقتراب الأوطان، أخي سفرٍ على أنه مقيم بين الأطلال، وعابرٍ سبيلٍ لم يَثْنِ عزمه طيبُ الثمار وبرْدُ الظلال، قد تعلقَتْ همته بالمطلب الأعلى، فلم يَقْنَعْ بالدُّون، وباع أنفاسه الدنيا بتلك الأنفاس العلى لا كبيع الخاسر المغبون، رُفِعَ له عِلْمُ السعادة فشَمَّرَ إليه، واستبان له طريقُ الوصول إلى المطلب الأعلى [١٦] فقام واستقام عليه، أجاب مناديَ الإيمان إذ نادى به حيَّ [على] الفلاح، وبذل نفسه في مرضاة محبوبه بذلَّ المحبِّ بالرضا والسماح، وعلم^(١) أنه لا بدَّ له من لقائه فواصل إليه السُّرى

(١) في الأصل: «وعلمه».

والسيرَ بالغدوِّ والرواح، فحَمِدَ عند الوصولِ مَسْرَاهُ، وإنما يَحْمَدُ القومَ
السُّرى عند الصبحِ^(١).

فأما مَنْ اتخذَ إلهه هواه، وأضلَّهُ اللهُ على علمٍ، وختَمَ على سمعِهِ
وبصرِهِ فأصمَّهُ وأعماه، وأعرضَ عن الناصحِ بعد ما بذلَ له جهده في
نصيحته وعاداه، وجعلَ أغلاطَ مَنْ لم تُضمَّنْ له العصمةُ في أفعاله
وأقواله إمامَه وقدوتَه التي بها هُداة، فهو في سجنِ نفسه وإرادته
محبوس، وقلبه لما علاه من رَيْنِ كَسْبِهِ المُبْعِدِ له عن ربه أسودُ منكوس،
فالطريقَ الموصلَ له إلى الله عنه مسدود، وقلبه عن النفوذِ إليه محجوب
ومصدود. قد أسامَ نفسه مع الأنعامِ راعياً مع الهَمَلِ، واستطابَ لُقيماتِ
الراحة والبطالة، واستلانَ فِراشَ العجزِ والكسل. استوعَرَ طريقَ
الصادقين، واستسهلَ طريقَ المبطلين، فذاك الذي يُنادى من مكان بعيد،
وإذا بالغتَ معه في النصيحة فإنما تَضْرِبُ في باردِ الحديد، قد اتخذَ
بَطَرَ الحقِّ وغمَطَ أهله سُلماً إلى ما يحبه من الباطل ويرضاه، فلا يعرف
من المعروف ولا يُنكر من المنكر إلا ما وافق [١٦ب] إرادته أو خالفَ
هواه، يستطيل على ورثة الرسول وحزبه بقلبه ولسانه، ويتحيز إلى
المبطلين الباطلين، فهم أخصُّ شيعته وأعوانه، قد ارتوى من مشربهم
وتَضَلَّعَ^(٢)، واستشرف إلى منازل أولياء الله المقربين وتطلَّع، فهو

(١) إشارة إلى المثل السائر: «عند الصبح يحمد القوم السُّرى». انظر: «مجمع

الأمثال» (٣/٢) و«المستقصى» (١٦٨/٢) و«جمهرة الأمثال» (٤٢/٢) وغيرها.

(٢) أي: امتلاً شبعاً ورِيّاً. وفي الأصل: «تطلع» تصحيف.

يَرْكُضُ فِي مِيدَانِ جَهْلِهِ مَعَ الْجَاهِلِينَ، وَكَلَّمَا بَرَزَ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ
الْمِيدَانِ ظَنَّ أَنَّهُ مِنَ السَّابِقِينَ.

فهذا وأمثاله إنما يُطَمَعُ فِي خُطَابِهِمْ لِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ، لَا لِلِاسْتِجَابَةِ
وَالانْقِيَادِ، كَيْفَ وَأَحَدُهُمْ ﴿إِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ،
جَهَنَّمَ وَلِبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٦]. وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللَّهِ، وَقُرِئَتْ
عَلَيْهِمْ سُنَّةُ رَسُولِهِ وَكَلَامُ أَصْحَابِهِ وَأئِمَّةِ الْإِسْلَامِ، قَالُوا: لَكُمْ الشَّرِيعَةُ
وَلَنَا الْحَقِيقَةُ، إِنَّكُمْ فِي وَادٍ وَنَحْنُ فِي وَادٍ! نَعَمْ فِي وَادِي الْوَيْلِ وَالشُّبُورِ،
وَحَقِيقَةُ الْأَمَانِيِّ الْكَاذِبَةِ وَالغُرُورِ، وَتَاللَّهِ لَيَعْلَمَنَّ الْمَبْطُلُونَ إِذَا بُعِثِرَ مَا فِي
الْقُبُورِ، وَحُصِّلَ^(١) مَا فِي الصُّدُورِ، حَقِيقَةً مَا كَانُوا عَلَيْهِ، وَسَوْءَ عَاقِبَةُ مَا
صَارُوا إِلَيْهِ، فَعَنْ قَرِيبٍ يَنْكَشِفُ الْغِطَاءُ، وَيَنْجَلِي الْغُبَارُ، وَيَعْلَمُ كُلُّ أَحَدٍ
أَفْرَسٌ تَحْتَهُ أُمُّ حِمَارٍ^(٢).

(١) فِي الْأَصْلِ: «حَصَلَتْ».

(٢) إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِ الرَّاجِزِ:

سَوْفَ تَرَى إِذَا انْجَلَى الْغُبَارُ أَفْرَسٌ تَحْتِكَ أُمُّ حِمَارٍ

وَهُوَ ضَمَّنَ رِسَالَةَ لِلْبَدِيعِ الْهَمْدَانِيِّ فِي «جَمْعِ الْجَوَاهِرِ» (ص ٢٦٥).

فصل

والكلام في هذه المسائل المسؤول عنها في فصلين:

الفصل الأول: في بيان حكمها في الشريعة، وهل هو التحريم أو الكراهة أو الإباحة، أو ما يقوله^(١) المفترون الكاذبون من الاستحباب والفضيلة.

الفصل الثاني: أن تعاطيها على وجه اللعب والخلاعة واللهو والمجون شيء، وتعاطيها على ما يقوله الكاذبون المفترون [١٧] من أنها قربة وطاعة وطريق تُقربهم إلى الله وتوصلهم إليه وتجمع قلوبهم عليه شيء.

ونحن نتكلم بعون الله وتوفيقه وإمداده على كل واحد من الفصلين بما يُيسره الله ويفتح به، فإنه الفتح العليم.

فأما الفصل الأول:

فقال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]. وقد أجمع الناس على أن الرد إلى الله هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول هو الرد إليه في حياته، وإلى سنته بعد مماته. فأمر سبحانه عباده المؤمنين أن يردوا ما تنازعوا فيه إليه

(١) الأصل: «يقول له».

وإلى رسوله، وخاطبهم أولاً بلفظ الإيمان، ثم جعل آخرًا الإيمان شرطًا في هذا الرد، فالإيمان يوجب عليهم هذا الرد، وينتفي عند انتفائه، فمن لم يرد ما تنازع فيه هو وغيره إلى الله ورسوله لم يكن مؤمنًا.

وتأمل قوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ كيف أعاد الفعل وهو طاعة الرسول، ليدل أنه يُطاع استقلالاً، وإن أمر بما ليس في القرآن الأمر به، ونهى عما ليس في القرآن النهي عنه، فإنه أوتي الكتاب ومثله معه، ولم يُعد الفعل في طاعة أولي الأمر، بل جعلها ضمناً وتبعاً لطاعة الرسول، فإنهم إنما يُطاعون تبعاً لطاعة الرسول إذا أمروا بما أمر به، ونهوا عما نهى عنه، لا تجب طاعتهم في كل ما يأمرون [ب ١٧] به وينهون عنه.

ثم قال: ﴿فَإِنْ نَنزَعْنَمُ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، ولم يقل «وإلى الرسول» إعلماً بأن ما رُدَّ إلى الله فقد رُدَّ إلى رسوله، وما رُدَّ إلى رسوله فقد رُدَّ إليه سبحانه، وأن ما حكم به فقد حكم به رسوله، وما حكم به رسوله فهو حكمه سبحانه.

وقال: ﴿فَإِنْ نَنزَعْنَمُ فِي شَيْءٍ﴾، وهذا يعمُّ دقيق ما تنازع فيه المسلمون وجليله، لا يخصُّ شيئاً دون شيء، فمن ظن أن هذا في شرائع الإسلام دون حقائق الإيمان، وفي أعمال الجوارح دون أعمال القلوب وأذواقها ومواجيدها، أو في فروع الدين دون أصوله وباب الأسماء والصفات والتوحيد = فقد خرج عن موجب الآية علماً وعملاً وإيماناً.

بل كما أن رسالته ﷺ عامة إلى كل مكلف في كل وقت، فهي عامة

في كل حكم من أحكام الدين: أصوله وفروعه، حقائقه وشرائعه، فمن أخرج حكماً من أحكام الدين عن عموم رسالته، فهو كمن أخرج محكوماً عليه من المكلفين عن عموم رسالته، فهذا في البطلان كهذا.

وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦]، فجعل رحمته لهم معلقة بطاعة رسوله، كما جعل الفلاح والفوز معلقاً بها في قوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

وأخبر سبحانه أن أهل طاعته وطاعة رسوله هم المنعم عليهم، وهذا يقتضي أن غيرهم هم أهل الغضب والضلال، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٩-٧٠]، فأخبر أن مرافقة المنعم عليهم لا تحصل إلا لمن أطاعه وأطاع رسوله، وأن ذلك هو الفضل منه سبحانه، وهو عليم أين يجعله وعند من يضعه ويخصه به.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]. وكل ما الناس فيه فإما طاعة للرسول، وإما هوى لنفوس، لا يخرج عن الأمرين، وكل ما ليس بطاعة للرسول فهو هوى للأنفس، قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ

أَضَلُّ مِمَّنْ أَتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾
[القصص: ٥٠].

وبهذا يُعلم أن هؤلاء القوم من أتباع الناس لأهوائهم، لأن ما هم فيه ليس طاعة للرسول، فهو مجرد هوى مُتَّبَع، وقد روي عنه عليه السلام أنه قال: «ثلاثٌ مُنْجِيَاتٌ وثلاثٌ مُهْلِكَاتٌ، فالمنجيات: تقوى الله في السر والعلانية، وكلمة الحق في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنى، والمهلكات: سُخُّ مُطَاع، وهوى مُتَّبَع، وإعجابُ كلِّ ذي رأيٍ برأيه»^(١).

وقد أغنى الله رسوله وعباده المؤمنين باتباع هداة الذي هداهم به عن أهواء الذين لا يعلمون، ونهى عن اتباع أهوائهم، وأخبر أنهم لا يُغْنُونَ عن مَنْ اتبعهم من الله شيئاً، وقطع الموالاة [١٨ب] بينه وبينهم، وأخبر أنه وليٌّ مَنْ اتقاه واتبع هداة، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾
[الجاثية: ١٨-١٩].

(١) أخرجه البزار في مسنده (١/٥٩ - كشف الأستار)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/٣٤٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥/١١٢) عن أنس بن مالك. وفي الباب عن جماعة من الصحابة، وقد خرَّجها الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٨٠٢) وحكم عليها بالحسن بمجموع الطرق. وسبقه إليه المنذري في «الترغيب والترهيب» (١/٢٨٦).

وأمر سبحانه رسوله وأتباعه أن يدعوا إليه على بصيرة، فقال: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]. وهؤلاء المبتدعون ليسوا من الدعوة إلى الله، وليسوا على بصيرة، بل هم من الدعوة إلى الشيطان، وهم من جنده وحزبه، يدعون إلى ما يُسَخِّطُ الله ورسوله، ويُباعِد من رضاه ويُقَرِّب من سخطه، فلهم نصيب من قوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ﴾ [النجم: ٢٣].

فصل

وما دعا إليه الرسول ﷺ هو حياة القلوب، ونجاة النفوس، ونور البصائر، وما يدعو^(١) إليه مخالفوه فهو موت القلوب، وهلاك النفوس، وعمى البصائر. قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ. وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وتأمل كيف أخبر عن حيلولته بين المرء وقلبه بعد أمره بالاستجابة له ولرسوله، كيف تجد في ضمن هذا الأمر والخبر أن من ترك الاستجابة له ولرسوله حال بينه وبين قلبه، عقوبة له على ترك الاستجابة، فإنه سبحانه يُعاقِب القلوب بإزاغتها عن هداها ثانياً، كما زاغت هي عنه أولاً. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

(١) الأصل: «يدعوه».

وقال: ﴿وَنَقَلِبُ أَفِيدَتِهِمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقال: ﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرْفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢٧]. فصرف قلوبهم

[١١٩] عن الهدى ثانياً، لما انصرفوا عنه بعد إذ جاءهم أولاً.

وقد حذر سبحانه مَنْ خالف أمرَ رسوله بإصابة الفتنة في قلبه وعقله

ودينه، وإصابة العذاب الأليم له، إمّا في الآخرة أو في الدنيا والآخرة، فقال:

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

[النور: ٦٣]. قال سفيان وغيره من السلف^(١): «وأي فتنة؟ إنما هي الكفر».

وأخبر سبحانه أن مَنْ تولى عن طاعة رسوله، فإنه لا بدّ أن يُصيبه

بمصيبة وقارعة بقدر تولّيه عن طاعته، فقال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمْنَا أَنَّمَا

يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩].

وقد أمر تعالى باتِّباع صراطه الذي نصبه لأوليائه، وجعله مُوصِلاً

إليه وإلى جنته، ونهى عن اتِّباع ما سواه من السبل، فقال تعالى: ﴿وَأَنَّ

هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ

ذَٰلِكُمْ وَصَّانِكُمْ بِهِ، لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: خطّ لنا رسول الله ﷺ خطّاً

وقال: هذا سبيل الله، ثم خطّ خطوطاً عن يمينه وعن يساره ثم قال: هذه

(١) انظر تفسير الطبري (١٧/٣٩١)، وابن كثير (٦/٢٥٣٥)، و«الدر المنثور»

(١١/١٣٠).

سُبُلٌ، على كل سبيلٍ منها شيطان يدعو إليه. ثم قرأ قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ الآية (١).

وأخبر رسول الله ﷺ أن كل عمل ليس عليه أمره فهو [١٩ب] مردود على فاعله، مضروبٌ [به] وجهه، ولا يزيده من الله إلا بعدًا، كما ثبت في صحيح مسلم (٢) عنه ﷺ أنه قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»، وفي لفظ آخر: «كل عملٍ ليس عليه أمرنا فهو رَدٌّ» (٣).

وقد أخبر ﷺ أن الله سبحانه جعل الذلة والصغار على مَنْ خالف أمره، ففي مسند الإمام أحمد (٤) وصحيح الحاكم وابن حبان من

(١) أخرجه أحمد (١/٤٣٥، ٤٦٥)، والطيالسي في مسنده (٢٤٤)، والدارمي (١/٦٧)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١١٧٤)، وابن حبان في صحيحه (٦)، والحاكم في «المستدرک» (٢/٣١٨)، من طريق عن حماد بن زيد عن عاصم ابن أبي النجود عن أبي وائل عن ابن مسعود. وإسناده حسن.

(٢) برقم (١٧١٨) من حديث عائشة.

(٣) لم أجد هذا اللفظ مرويًا بإسناد، وذكره ابن عبد البر في التمهيد (٢/٨٢)، وابن حزم في المحلى (٨/١٣٤). واللفظ المشهور: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَدٌّ». أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

(٤) (٢/٥٠). ولم أجد في صحيح ابن حبان و«المستدرک». وأخرجه أيضًا عبد بن حميد في «المنتخب» (٨٤٨)، والطبراني في «مسند الشاميين» (٢١٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١١٩٩) من طريق عن عبدالرحمن بن ثابت بن ثوبان عن حسان بن عطية عن أبي منيب الجرشي عن ابن عمر. وإسناده ضعيف، وابن ثوبان مختلف فيه، وقال الإمام أحمد: له أحاديث منكورة.

حديث عبد الله بن عمر^(١) رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ بالسيف بين يدي الساعة حتى يُعْبَدَ اللهُ وحده لا شريك له، وَجُعِلَ رزقي تحت ظلِّ رُمحِي، وَجُعِلَ الذَّلَّةُ والصَّغَارُ على مَنْ خالف أمرِي، ومن تشبَّه بقوم فهو منهم».

وفي جامع الترمذي ومسند الإمام أحمد وغيرهما^(٢)، عن العرباض بن سارية قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظةً بليغة، ذرّفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كأنها موعظةٌ مودّع، فماذا تعهد إلينا، قال: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعصوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة».

فصل

إذا عُرف هذا، فالكلام في هذه المسألة المسؤول عنها من وجهين: مفصل ومجمل.

أما المجمل فهو أنّ هذا السماع [١٢٠] على هذا الوجه حرام قبيح،

(١) في الأصل: «عمرو»، وهو خطأ.

(٢) أخرجه أحمد (١٢٦/٤)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٣)، والحاكم في «المستدرک» (٩٧/١) وغيرهم، وهو حديث صحيح بطرقه وشواهده. وصححه الترمذي وابن حبان والحاكم وغيرهم.

لا يُبيحه أحدٌ من المسلمين، ولا يستحسنه إلا من خلع جلبابَ الحياء
والدين عن وجهه، وجاهرَ الله ورسوله ودينه وعبادته بالقبيح، وسمعُ
مشتمل على مثل هذه الأمور قُبْحه مستقرٌّ في فِطْرِ الناس، حتى إنَّ
الكفار ليعيرون به المسلمين ودينهم.

نعم خواصُّ المسلمين ودين الإسلام براء من هذا السماع، الذي
كم حصل به من مفسدةٍ في العقل والدين والحريم والصبيان، فكم
أفسد من دين، وأمات من سنة، وأحيا من فجور وبدعة، وكم هُدمَ به من
مرضاة الله ورسوله، وبُني به من مساخطه ومساخط رسوله، ولا إله إلا
الله كم جلبَّ من شرك، وأخفى من توحيد، وكم فيه من فتح لطرق
الشیطان، وصدَّ عن سبيل الله وعن الإيمان، وكم أنبت في القلب من
نفاق، وغرس فيه من عداوةٍ لدين الله وشقاق، وكم وقع فيه من رُقيةٍ
للزنا والحرام، وتسهَّلَ به من طريقٍ إلى ما كرهه الله من المعاصي
والآثام، وكم قرَّتْ به للشیطان وحزبه من عيون، وتقرَّحتْ به لأولياء الله
وحزبه من جُفون، وكم مالتْ به الطباعُ إلى ما حرَّمه الله ورسوله عليها،
وكم سكرتْ به النفوسُ فعربدتْ بالمحارم، وانقادتْ قسراً إليها.

وأربابُ الخبرة من أهله يعلمون أن سُكر السماع للأرواح، أعظمُ
من سُكر الأبدان والنفوس بشرب الرّاح، وأن سُكر الشراب يستفيق
صاحبه عن قريب، وسُكر السماع إذا تمكَّن من الروح لم يبق لها في
الإفاقة نصيب. فلو سألت [٢٠ب] الطباعَ ما الذي خنَّتها، وذكرورة الرجال
ما الذي أنَّتها، لقلت: سلِّ السماعُ فإنه رُقية الزنا وحاديه، والداعي إلى

ذلك ومُنَادِيهِ.

هذا، ولو^(١) لم يكن فيه من المفاصد إلا ثَقُلَ استماع القرآن على قلوب أهله، واستطالته إذا قُرئ بين يَدَي سَمَاعِهِمْ، ومرورهم على آياته صُمًّا وعميانًا، لم يحصل لهم منه ذوق ولا وَجْدٌ ولا حلاوة، بل ولا يُصغِي أكثر الحاضرين أو كثيرٌ منهم إليه، ولا يُقَوِّمون معانيه، ولا يَغْضُون أصواتهم عند تلاوته. فإذا جاء السماع الشيطاني خَشَعَتْ منهم الأصوات، وهَدَّأت الحركات، ودارت عليهم كؤوس الطرب والوجد، وحدا حينئذ حادي الأرواح إلى محل السرور والأفراح.

فلغير الله لا لله كم من عيونٍ تَسْكُبُ غَرْبَ مَدَامِعَ، لم تَفِضْ^(٢) بقطرة منها نفسٌ عند تلاوة كلام الرحمن، وكم من شوقٍ ووجدٍ ولهيبٍ أحشاءٍ لا يُوجد منه شيء عند ذكر رب العالمين، ولا يثور ويتحرك إلا عند سماع المَبْطِلِينَ:

تُلي الكتابُ فأطرقوا لا خيفةً	لكنه إطراقٌ ساهٍ لا هي
وأتى الغناءُ فكالدُّبابُ تراقصوا	والله ما رقصوا لأجلِ الله
دفٌّ ومزمارٌ ونغمةٌ شاهدٍ	فمتى رأيت عبادةً بملاهي
ثَقُلَ الكتابُ عليهمُ لما رأوا	تقييده بأوامرٍ ونواهي
والرقصُ خَفَّ عليهمُ بعد الغنا	يا باطلاً قد لاق بالأشباه

(١) جواب «لو» غير مذكور، وهو مفهوم من السياق، أي: «لكان كثيرًا».

(٢) في الأصل: «لم تفظ» تحريف.

يا أمة ما خان دين محمدٍ وجنى عليه وملة إلهي (١)

وبالجملة فمفاسدُ هذا السماع في القلوب والنفوس [٢١] والأديان، أكثرُ من أن يُحيط بها العُدُّ.

والمصيبة العظمى والداهية الكبرى: نسبةُ ذلك إلى دين الرسول ﷺ وشرعه، وأنه أذن في ذلك لأمته، وأباحه لهم وأطلقه، ورفع الحرج عن فاعله، مع اشتماله على هذه المفاسد المضادة لشرعه ودينه.

وأعظم من هذه البلية وأشدُّ: اعتقادُ أنه قربةٌ حتى يُتقرب به إلى الله، ودينُ يُدانُ الله به، وأن فيه من صلاح القلوب وعمارتها بالأحوال العلية والصفات الزكية ما يجعله أفضلَ من كثير من النوافل، كقيام الليل وقراءة القرآن، وطلب ما يُقرب إلى الله من العلم النافع والعمل الصالح. وأعظم من هذا كله بليةٌ ومصيبةٌ: اعتقادُ أن تأثر القلوب به أسرعُ وأقوى من تأثرها بالقرآن، وأنه (٢) قد يكونُ أنفعَ للعبد من سماع القرآن، وأن فتحه أعجلُ وأقوى من فتح القرآن من وجوه متعددة.

ولا ريبَ أن هذا من النفاق الذي أنبته الغناء في القلب، فإنه كما قال عبد الله بن مسعود: «الغناء يُنبِتُ النفاقَ في القلب كما يُنبِتُ الماءُ» (٣)

(١) بعضها عند الطرطوشي في «تحريم السماع» (ص ٢٣٣). وذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية في جامع المسائل (١/٩١)، والمؤلف في «إغاثة اللفهان» (١/٢٢٥) و«مدارج السالكين» (١/٤٨٧، ٤٨٨) بلا نسبة.

(٢) في الأصل: «وان».

(٣) في الأصل: «في الماء».

البقل»^(١)، وأيُّ^(٢) نفاق فوق هذا النفاق؟

ولا ريب أن ارتكاب المحرمات مع العلم بتحريمها أسهل وأسلم عاقبة من ارتكابها على هذا الوجه، فإن هذا قلب للدين، ومشاققة لرسول رب العالمين، واتباع لغير سبيل المؤمنين، وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ، جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

فصل

قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فقد أكمل الله لنا الدين فيما أمرنا به من فريضة وفضيلة وندب، وكل سبب ينال به صلاح القلب والدين، وفيما نهانا عنه من كل مكروه [٢١ب] ومحرم، وكل سبب يؤثر فسادًا في القلب والدين.

فإذا قال القائل: هذا السماع المصطلح عليه المحدث هو من الدين الذي تصلح عليه القلوب، وتلطف وترق، ويثور منها وجدها

(١) أخرجه محمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٦٨٠) وابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» (٤١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٧٨/٤) موقوفًا على ابن مسعود. وروي مرفوعًا، قال المؤلف في «إغاثة اللفهان» (٢٤٨/١): في رفعه نظر، والموقوف أصح. وانظر «السلسلة الضعيفة» للألباني (٢٤٣٠).
(٢) في الأصل: «وأين».

وحبُّها = لزمه أحد الأمرين، لا بدَّ له من أحدهما:

إما أن يكون الله شرعه لرسوله حيث أكمل له دينه، ففعله الرسول، وخصَّ عليه، وندب أمته ودعاهم إليه، فإنه لم يترك سبباً يُقرَّبهم إلى الله ويُنال به صلاح قلوبهم وأديانهم إلا شرعه، وأمر به ودعا إليه.

وقائل هذا ومعتقده مجاهر^(١) بالكذب على الله ورسوله، مُنادٍ على وقاحته وجراته على الله وعلى رسوله وعلى دينه، فإن رسول الله ﷺ ودينه بريء من هذا السماع الذي فيه من المفساد ما لا يعلمه إلا الله، وكذلك أصحابه والتابعون لهم بإحسان، فنسبته إليهم بهت وكذب وافتراء عليهم، يُنفق به المبطلون باطلهم، يتترسون به من سهام حزب الرسول وأنصار دينه.

وإما أن يقول: إن الله لم يشرعه ولا رسوله، ومع هذا فهو من الدين وحقائقه الذي يُنال به صلاح القلوب، ويجمعها على الله، فيلزمه حينئذ أن يكون الدين ناقصاً لم يكمله الله حتى يكمله هؤلاء السماعية، وأنهم خصوا بخير لم يسبقهم إليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار.

ولا بدَّ لهؤلاء من أحد هذين الأمرين المنافيين للدين الإسلام أو الاعتراف بالحق، وهو أن هذا أحسن أحواله وما يقال فيه: إنه من الباطل [١٢٢] واللعب واللهو الذي من اتخذه ديناً فله نصيب وافر من قوله: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠]

(١) في الأصل: «مهاجر» تحريف.

ونصيب من قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥]، فالمكاء الصغير، والتصديّة التصفيق. فمن اتخذ الصغير بالشبابة والتصفيق بالأكف ديناً، فقد زاحم هؤلاء.

وقد قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا نُتِيَ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٦-٧].

وقد فسر غير واحد من السلف^(١) لهو الحديث بأنه الغناء، وروي في ذلك حديث مرفوع من حديث عائشة أم المؤمنين: «إن الله حرم القينة، وبيعها وثمانها وتعليمها والاستماع إليها»، ثم قرأ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾^(٢). ورواه الترمذي^(٣) من حديث أبي أمامة،

(١) انظر تفسير الطبري (١٨ / ٥٣٤ وما بعدها)، وابن كثير (٦ / ٢٧٣٩)، و«الدر المنثور» (١١ / ٦١٥ وما بعدها).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» (٢٥)، والطبراني في «الأوسط» (٥ / ٢٦٠، ٧ / ٤٣٠، ٩ / ٢٤٦) وإسناده ضعيف. ضعفه العراقي في «تخریج الإحياء» (١ / ٥٧٣) ونقل عن البيهقي أنه قال: ليس بمحفوظ. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤ / ٩١): فيه اثنان لم أجد من ذكرهما، وليث بن أبي سليم وهو مدلس. وانظر «الدر المنثور» (١١ / ٦١٦).

(٣) برقم (١٢٨٢، ٣١٩٥) وقال: هذا حديث غريب، إنما يروى من حديث القاسم عن أبي أمامة، والقاسم ثقة، وعلي بن يزيد يضعف في الحديث.

ولفظه أن النبي ﷺ قال: «لا تبيعوا القينات، ولا تشتروهن ولا تُعلموهن، ولا خيرَ في تجارةِ فيهن، وثمانهن حرام»، وفي هذا نزلت هذه الآية ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية، ورواه الإمام أحمد، وعبد الله بن الزبير الحميدي في مسنديهما^(١).

وثبت تفسير ذلك بالغناء عن الصحابة^(٢) والتابعين، وهم أعلم الناس بالقرآن وتفسيره، فقال أبو الصهباء: سألت عبد الله بن مسعود عن هذه الآية فقال: «هو الغناء والاستماع إليه»^(٣). وهو القائل: «الغناء يُنبئ النفاق في القلب كما يُنبئ الماء البقل»^(٤). [٢٢ب] وقال إبراهيم النخعي والحسن البصري في هذه الآية: «إنه الغناء»^(٥).

وقال عكرمة عن ابن عباس في قوله: ﴿أَفَمِنَ هَذَا الْحَدِيثِ تَعَجُّبُونَ﴾^(٦) وَتَضَحَّكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ ﴿٦١﴾ [النجم: ٥٩-٦١]: إنَّ السمود هو الغناء.

ع

-
- (١) أخرجه أحمد (٥/٢٥٢، ٢٦٤)، والحميدي (٩١٠)، والطبري في تفسيره (١٨/٥٣٢، ٥٣٣)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٦/١٤) من الطريق المذكور. وله طرق أخرى تكلم عليها الألباني في الصحيحة (٢٩٢٢) وحسن الحديث بها.
- (٢) في الأصل: «أصحابه».
- (٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/٣٠٩)، وابن أبي الدنيا في «ذم الملاحى» رقم (٢٦)، والطبري في تفسيره (١٨/٥٣٥)، والحاكم في «المستدرک» (٢/٤١١)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/٢٢٣)، وصححه الحاكم.
- (٤) سبق تخريجه.
- (٥) انظر «الدر المنثور» (١١/٦١٨).

يقال: سَمَدَ فلان إذا غنى^(١). وقد فُسر السمود باللهو، وفسر بالإعراض، وفسر بالغفلة، وفسر بالأشر والبطر^(٢)، ولا ينافي تفسيره بالغناء، فإن الغناء ثمرة ذلك كله، فإن الحامل عليه اللهو والغفلة والإعراض والأشر والبطر، وذلك كله منافٍ للعبودية.

وقال تعالى: ﴿وَأَسْتَفْرِزُّ مِنْ أَسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤] قال مجاهد: هو الغناء والمزامير^(٣). وقد سماه النبي ﷺ: «صوتًا أحمق فاجرًا»، ولو كان مباحًا لما كان فاجرًا، فروى البخاري في صحيحه^(٤) من حديث عبد الرحمن بن عوف قال: «دخلت على النبي ﷺ وفي حجره إبراهيم يعني ابن رسول الله ﷺ، وهو يجود بنفسه، وعيناه

(١) أخرجه الطبري (٩٧/٢٢)، والبزار كما في «مجمع الزوائد» (١١٦/٧)، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح. وانظر «الدر المنثور» (٦٠/١٤).

(٢) انظر «تفسير البغوي» (٢٥٧/٤) و«زاد المسير» (٨٦/٨)، و«تفسير القرطبي» (١٢٣/١٧).

(٣) أخرجه الطبري (٦٥٧/١٤)، وابن أبي حاتم كما في «إغاثة اللهفان» (٢٥٥/١). وانظر «الدر المنثور» (٣٩٦/٩).

(٤) هو عند البخاري في «صحيحه» (١٣٠٣) عن أنس بن مالك بلفظ آخر. وما ذكره المؤلف أخرجه أبو يعلى والبزار كما في «مجمع الزوائد» (١٧/٣)، وفي إسناده محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، وفيه كلام، وأخرجه الترمذي (١٠٠٥) من حديث ابن أبي ليلى عن عطاء عن جابر بن عبد الله قال: أخذ النبي ﷺ بيد عبد الرحمن بن عوف، فانطلق به إلى ابنه إبراهيم... إلخ. وقال: حديث حسن. واضطرب فيه ابن أبي ليلى. انظر علل الدارقطني (٤٤٨/١٢).

تَذْرِفَانِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَوْ تَبْكِي؟ أَوْ لَمْ تَنْهَ عَنِ الْبُكَاءِ؟ فَقَالَ: «إِنَّمَا تَهَيْتُ عَنْ صَوْتَيْنِ أَحْمَقِينَ فَاجْرِينَ: رَنَّةٌ عِنْدَ مَصِيبَةٍ، وَشَقٌّ جُيُوبٍ، وَخَمَشٌ وَجُوهٍ، وَرَنَّةٌ شَيْطَانٍ وَصَوْتٌ عِنْدَ نِعْمَةٍ وَلَهُوَ وَلَعِبٌ».

أراد بالصوت الأول: ما يُحْدِثُه الحزن والمصيبة من النياحة والدعاء بالويل وتوابع ذلك. وبالصوت الثاني: ما يُحْدِثُه الطرب واللذة من الغناء وتوابعه، فإن في النفس^(١) قوة الطرب وقوة الحزن والأسف، فإذا وردَ عليها وارتد آثار منها ذلك، وأثر فيها هذا الصوت وتوابعه، وهذا الصوت وتوابعه بحسب قوة الوارد وضعف النفس، فاستفزها الشيطان حينئذٍ، ونال منها مراده بمعصية الله والخروج عن أمره في هذه الحال وهذه الحال.

ولهذا شرع الله سبحانه لعباده عند هذين الواردين [١٢٣] ما^(٢) يحفظ به العبد قلبه وإيمانه ودينه أن يستلبه الشيطان ويستفزه، فشرع لهم عند المصيبة الصبر والاسترجاع، وعند النعمة سجود الشكر، والتواضع لله، وحمده وشكره، فبذلك تدوم النعمة، كما أن بالصبر والاسترجاع تندفع المصيبة عن القلب أو تخفُّ، فعارض الشيطان وحزبه أمر الله، وشرعوا عند المصيبة والنعمة الصوتين الأحمقين الفاجرين: صوت الندب والنياحة والدعاء بالويل والعيويل وتوابع ذلك، وصوت الغناء والمزامير وآلات اللهو وتوابع ذلك.

وبذلك يتبين لمن له قلب حي، وبصيرة منورة بنور الإيمان، أن

(١) في الأصل: «في نفس».

(٢) في الأصل: «بما».

الغناء والسماع الشيطاني وآلات اللهو إنما نصبها الشيطان مضادةً لأمر الله ومعارضةً لما شرعه لعباده، وجعله سببَ صلاح قلوبهم وأديانهم، واستخفَّ الشيطان حزبه وحسن لهم ذلك، فأطاعوه، وزينَ لهم فاتبعوه، ولما فعلوا ذلك واستجاب لهم من قل نصيبه من العلم والإيمان، صاح بهم جنودُ الله وحزبه من كل قطر وناحية، وحذروا منهم، ونهوا عن مشابهتهم والاقتراء بهم من سائر طوائف أهل العلم، فصاح بهم أئمة الحديث، وأئمة الفقه، وأئمة التفسير، وأئمة الزهد والسلوك إلى الله، وحذروا منهم كل الحذر، فقد ذكرنا كلام ابن مسعود، والحسن البصري، وإبراهيم النخعي (١).

وأما أبو حنيفة وأصحابه فمن أشدَّ الناس فيه، وأسهل ما عندهم فيه أنه من الذنوب والمعاصي، [٢٣ب] وهذا مذهب سائر أهل بلده، قدس الله روحه، مثل سفيان الثوري وحماد بن أبي سليمان، وقبله الشعبي وإبراهيم. لا خلاف بينهم في ذلك (٢).

وكذلك علماء أهل البصرة لا خلاف بينهم في المنع منه، إلا ما يُروى عن عبيد الله بن الحسن العنبري أنه كان لا يرى به بأسًا، لكن ليس على هذه الصفة التي يفعلها الفساق، فإن هذا لا يُجيزه أحد من أهل العلم.

(١) سبق تخريج هذه الآثار.

(٢) اعتمد المؤلف في ذكر مذاهب العلماء على رسالة أبي الطيب الطبري «الرد على من يحب السماع» (ص ٣٠، وما بعدها)، و«تلبس إبليس» (ص ٢٥٨ وما بعدها). فلا نكرّر الإشارة إليهما فيما يلي.

قال زكريا بن يحيى الساجي: وكذلك مذهب جميع أهل المدينة، إلا إبراهيم بن سعد وحده، فإنه كان لا يرى به بأسًا. قال القاضي أبو الطيب طاهر بن عبد الله الطبري^(١): فقد أجمع علماء الأمصار على كراهته والمنع منه، والوصف لعواره وتأثيره في القلوب، قال: وإنما فارق الجماعة هذا الرجلان إبراهيم وعبيد الله، وقد قال رسول الله ﷺ: «من فارق الجماعة مات ميتة جاهلية»^(٢). فالمصير إلى قول الجماعة أولى، لا سيما من أحب أن يستبرئ لدينه ويحتاط لدينه.

فإن^(٣) قال قائلٌ من هذه الطائفة المفتونة بسماع الغناء: نحن لا ندعُ سماع الغناء إذا كان قول بعض أهل العلم موافقًا لما نقوله ونعتقده إلا بدليل من كتاب الله.

فالجواب أن اعتقاد هذه الطائفة مخالف لإجماع المسلمين، فإنه ليس في المسلمين من جعله طاعة ودينًا، ولا رأى إعلانه في المساجد، ولا حيث كان من البقاع الكريمة والجوامع الشريفة، فكان مذهب هذه الطائفة مخالفًا لما أجمعت عليه العلماء، ونعوذ بالله من الخذلان.

وقد قال الشافعي [١٢٤] في كتاب أدب القضاء^(٤): إن الغناء لهوٌ

(١) في رسالته (ص ٣١).

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٥٤)، ومسلم (١٨٤٩) عن ابن عباس.

(٣) هذا السؤال والجواب أيضًا من كلام أبي الطيب الطبري (ص ٣٢).

(٤) من كتاب «الأم» (٦/٢٢٦). والمؤلف ينقل هذه الأقوال من كتاب أبي الطيب

الطبري (ص ٢٧-٢٨).

مكروه يُشبه الباطل، ومَن استكثر منه فهو سفیه تُردُّ شهادته. قال الشافعي: وصاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفیه تُردُّ شهادته. وقال: هو دياثة، وأخاف أن يكون ديوثًا.

قال أبو الطيب^(١): وإنما جعل صاحبها سفيةً لأنه دعا الناس إلى الباطل، ومن دعا الناس إلى الباطل كان سفيةً فاسقًا. وقال الشافعي: «خرجتُ من بغداد وخلفتُ بها شيئًا أحدثته الزنادقة ويسمونه التغبير، يصدُّون الناس به عن القرآن». هذا والتغبير ضربٌ بقضيب على جلدٍ أو مخدَّة، يخرج له صوت، وينشدون معه أشعارًا مرققة مزهدة.

فإذا كان هذا قول الشافعي قدس الله روحه فيه، فما قوله في سماع الأشعار والأغاني التي تتضمن ذكر المعشوق، وحسن ملقاه، وعذوبة عتابه، وبثَّ شكواه، وعُدْرَه^(٢) المليح، ودلَّ من يهواه، وحلاوة العطف والوصال والإقبال والتلاق، ومرارة الصدِّ والهجران والإعراض والفراق، ووصف محاسن المليح والمليحة من اعتدال أغصان القدود، وتفتحُ ورْدِ الخدود، وحسن استدارة رُمانِ النُّهود، وفتور الطَّرْفِ السَّاجِ، وفلق صُبحِ الجبين في سواد شعر الليل الداج، وليِّن المعاطفِ واعتدالها، وبهجة تلك المحاسن وجمالها. هذا مع كونه من أمر دَيْرُوقُ العيون منظره، ويدعو إلى غير العفاف تشييه وتكسُّره، لا يستر وجهه بنقاب، ولا معاطفه بجلباب، أو امرأة حسناء قد أخذت محاسنها

(١) رسالته (ص ٢٨).

(٢) في الأصل: «وغده».

بمجامع القلوب والعيون، فصوتها وجمالها فتنةٌ لكل مفتون، هذا إلى ما يقترن [٢٤ب] بذلك من الدفوف المجلجلات، والشبابات المطربات، والمواصيل المهيجات.

فحاشا الشافعي وغيره من أئمة المسلمين، بل ومن له نصيبٌ من العلم والدين، أن ينسبوا إباحةً مثل هذا إلى شريعة رب العالمين، وسنة رسوله الأمين، الذي فرقت رسالته بين الهدى والضلال، والغبي والرشاد، والشك واليقين.

ومن أبطل الباطل وأبين المحال: الاستدلال على حل هذه العظائم بغناء جويريتين دون البلوغ من جوارى الأنصار في يوم عيد، بأبيات من أشعار العرب في وصف الحرب والشجاعة والبأس ونحو ذلك، غناء مجرداً عن جميع ما عليه سماع الفساق المبطلين مما ذكرناه وغيره.

قال جعفر بن محمد: قلت لأبي عبد الله - يعني أحمد بن حنبل - : حديث الزهري عن عروة عن عائشة، وهشام عن أبيه عن عائشة عن جوارٍ يُغنين، أيس هذا الغناء؟ قال: غناء الراكب، أتيناكم أتيناكم^(١).
قال الخلال^(٢): أنا أحمد بن الفرغ الحمصي، قال يحيى بن سعيد:

(١) انظر «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» للخلال (ص ١٦٤)، و«تلبيس إبليس» لابن الجوزي (ص ٢٢٥).

(٢) في الأصل: «خلال». والنص في المصدر السابق (ص ١٦٣)، و«تلبيس إبليس» (ص ٢٢٥). والحديث أخرجه أبو الشيخ من طريق بهية عن عائشة، كما في «فتح الباري» (٩/٢٢٥). وله طرق أخرى، وأصله عند البخاري (٥١٦٢) من طريق عروة عن عائشة مختصراً.

حدثنا أبو عقيل عن بُهَيَّة عن عائشة قالت: كانت عندنا يتيمةٌ من الأنصار، فزوّجناها رجلاً من الأنصار، فكنت فيمن أهداها إلى زوجها، فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة! إن الأنصار ناس فيهم غزل، فما قلت؟»، قالت: دعونا بالبركة ثم انصرفوا، قال: «أفلا قلتُم:

أَتَيْنَاكُمْ أَتَيْنَاكُمْ فَحَيُّونَا نُحَيُّكُمْ
 وَلَوْلَا الذَّهَبُ الْأَحْمَرُ رُمَا حَلَّتْ بِوَادِيكُمْ
 وَلَوْلَا الْحَبَّةُ السَّمْرَاءُ لَمْ تَسْمَنْ عَادَارِيكُمْ

فهذا وأمثاله الذي أذن فيه رسول الله ﷺ، لم يأذن في تلك المصائب والدواهي، ومن كذب عليه فليتبوأ [مقعده] من النار. والاستدلال بهذه القصة وأمثالها على حلّ هذه [١٢٥] العظائم المعلوم قبُحها بالفطرِ السليمة والعقولِ الصحيحة، يُشبه الاستدلالَ على حلّ الخمر والمسكر بأكل قبضةٍ من تمر أو زبيب، ويشرب فوقها شربة من ماء، فإذا ضمّ أحدهما إلى الآخر في الإناء حتى أسكر ثم شربه، كأنه كضمّه هذا إلى هذا في بطنه! وعقولٌ هذا مبلغها من العلم والمعرفة، حقيقٌ لمن نصح نفسه، وخاف مقام ربه، وتزود ليوم معاده، وعلم أنه موقوفٌ بين يدي الله ومسؤول، أن لا يعبأ بها شيئاً وأن لا يغترَّ بها وبأهلها.

وقد قيل: إن التعبير في لسان السلف هو الغناء، قال الحافظ أبو موسى المدني: قيل إنه الغناء، لأنه يحمل الناس على الرقص، فيغترون الأرض بالدقِّ والفحصِ وحثي الترابِ. قال أبو موسى: قال الشافعي:

بالعراق زنادقة وضعوا التبغير، وفي رواية: أحدثوا القصائد، ليشغلوا الناس عن القرآن^(١). قال: وسئل أحمد بن حنبل عن التبغير، فقال: بدعة، إذا رأيت إنساناً منهم في طريق فخذ في طريق أخرى^(٢).

وقال أبو الحسن بن القصار إمام المالكية: سئل مالك عن السماع، فقال: لا يجوز. قيل: فإن بالمدينة قوماً يسمعون ذلك. قال: إنما يسمع ذلك عندنا الفساق. قال الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢] أهو حق؟ فقال السائل: لا^(٣).

وفي جامع الخلال^(٤) عن يزيد بن هارون إمام الإسلام في وقته، أنه قال: ما يُغَبَّرُ إلا فاسق، ومتى كان التبغير؟

وفي مسائل عبدالله بن أحمد بن حنبل قال: سألت أبي عن الغناء، فقال: «الغناء ينبت النفاق في القلب، لا يُعَجِّبُنِي»^(٥).

قال عبدالله: وحدثني أبي قال حدثني [٢٥ب] إسحاق بن عيسى الطباع قال: سألت مالك بن أنس عما يترخص فيه أهل المدينة من الغناء، فقال: «إنما يفعله عندنا الفساق»^(٦). هذا، وقد برأ الله غناءهم عن

(١) انظر كتاب الخلال (ص ١٦٨).

(٢) المصدر السابق (ص ١٦٧).

(٣) انظر «تفسير القرطبي» (١٤/٥٢).

(٤) «الأمر بالمعروف» منه (ص ١٦٨).

(٥) انظر «المسائل» (ص ٣١٦) و«تلبيس إبليس» (ص ٢٢٨).

(٦) العلل لأحمد (١/٢٦٠) وكتاب الخلال (ص ١٥٨) و«تلبيس إبليس» (ص ٢٢٩).

غناء الفساق اليوم.

وقال الخلال^(١): أخبرني العباس بن محمد الدوري قال: سمعتُ إبراهيم بن المنذر وسئل فقيلاً له: أنتم ترخصون في الغناء؟ فقال: «معاذَ الله، ما يفعل هذا عندنا إلا الفساق».

وذكر الخلال^(٢) عن مكحول قال لمن مات وعنده مغنية: لم نصلُ عليه.

وقد أنكر السلف من السماع ما هو دون هذا بكثير، ولو شاهدوا هذا لاشتد إنكارهم له وعظم جدًّا، ورأيت لأبي عبد الله بن بطّة جواباً عن سماع الغناء، أنا أذكره بنصه^(٣).

قال: سألتني سائل عن استماع هذا الذي يسمونه القول، وهو الغناء، والإصغاء إليه ومجالسة أهله، فنهيته عن ذلك، وأنكرته عليه، وأعلمته أن ذلك مما حظره الكتاب، وحرّمته السنة، وأنكرته العلماء، وتجاواه العقلاء، واستحسنه السفهاء والسخفاء.

وزعم السائل أنه لقي جماعةً من الشيوخ ممن يتحلّى بالعلم ويُنسب إليه، في جماعة سواهم ممن يُظهر النسك والتقشف ويدعون إلى الزهد والتعبّد، يحضرونه ويستمعون له ويستحسنونه، ويحتجون في ذلك بتحريف القول، ويدعون إليه من أطاعهم، ويستجهلون من

(١) ص ١٥٨.

(٢) ص ١٦٠.

(٣) ذكر ابن الجوزي جزءاً منه في «تلبس إبليس» (ص ٢٣٧).

خالف جماعتهم.

وإني قد تدبرتُ ما حكاها، وعرفت من أشار إليه، ومن يفعل ذلك ويهواه، فتلك طائفة تسمى في الحقيقة الجبرية لا الصوفية، أهل هممٍ دنيئة، وأخلاق رديئة، وشرائع بدعية، يُظهرون الزهد والتقشف، وهم أهل جهالة وغفلة، وكل أسبابهم ظلمة ووحشة، يدعون الشوق [١٢٦] والمحبة بإسقاط الخوف والرجاء، يحضرون الغناء ويسمعونه من الأحداث والنساء، يَطْرَبُونَ عند استماعهم لذلك ويرقصون، ويتغاشون ويتماوتون، ويزعمون أن ذلك من شدة حُبهم لربهم تعالى، ومن شوقهم إليه، وأنهم يرونه ويشاهدونه، تعالى عما يقول الجاهلون علواً كبيراً.

وكل هؤلاء فقد كذبهم الكتاب والسنة والصحابة والتابعون وصالحو هذه الأمة. فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [المؤمنون: ١-٣]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴿٦﴾﴾ [لقمان: ٦]، قيل: هو الغناء والاستماع إليه، صحت بذلك الأخبار، وقال بذلك العلماء والأخبار، لا يُنْكِرُهُ إلا السفهاء والفجار. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴿٧٢﴾﴾ [الفرقان: ٧٢] قيل: الغناء. وعن مجاهد قال: ينادي مُنَادٍ يومَ القيامة أين الذين كانوا يُنْزَهُونَ أَسْمَاعَهُمْ عَنِ اللّهُو؟ فَيُجَلِّهُمُ اللهُ فِي رِيَاضِ الْجَنَّةِ (١). وعن الشعبي أنه دُعي إلى وليمة، فسمع صوت لهو،

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «ذم الملاحى» (٧٢) والأجري في تحريم النرد =

فقال: إما أن نُخْرِجَهُمْ وإما أن نخرج. وعن ابن مسعود أنه دعي إلى وليمة، فسمع صوت لهو فرجع، فلقى الذي دعاه، فقال: مالك رجعت؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كثر سواد قوم فهو منهم، ومن رضي عمل قوم فهو شريك من عمله»^(١). وقال يزيد بن هارون: التغيير بدعة وضلالة. وقال الشافعي: التغيير أحدثته الزنادقة يصدون الناس به عن القرآن. وقال الإمام أحمد: هو بدعة ومحدث، ونهى عن استماعه. وقال مالك: إنما يفعله عندنا الفساق. هذا آخر جواب ابن بطة.

فصل

وأما إنكار مشايخ الطريق العارفين بأفاته وسوء تأثيره في القلوب فكثير جداً، وكثير [٢٦ب] ممن حضره منهم تاب منه توبته من الكبائر. وذكر أبو موسى المدني^(٢) أن أبا القاسم النصر آبادي دخل على إسماعيل بن نجيد، فقال ابن نجيد: يا أبا القاسم! سمعت أنك مؤلّع بالسمع، فقال: نعم أيها الشيخ، السماع خير من أن نقعد ونغتاب، فقال له: هيهات! زلّة تزل في السماع أعظم من كذا وكذا سنة تغتاب. قال أبو موسى: وذكر نصر بن علي قال: سمعت أبا محمد جعفر

= والشطرنج والملاهي (ص ٢١٧). وانظر «الدر المنثور» (١١ / ٥٨٩).

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده كما في «إتحاف الخيرة المهرة» (٤ / ١٣٥) و«المطالب العالية» (٢ / ٤٢)، ولم أجده في طبعتي المسند. وفي إسناده انقطاع. وانظر «نصب الراية» (٤ / ٣٤٦).

(٢) لم أعر على كتابه الذي نقل عنه المؤلف نصوصاً عديدة.

ابن محمد الزاهد، يقول: سمعت شيخي يقول: اجتمعت ليلة مع أصحابنا، فابتدأ القوال فقاموا ورقصوا وكنت معهم، فنُوديتُ في سِرِّي: يا هذا ﴿أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّعِينِ﴾ [الأنبياء: ٥٥]، فهربتُ وقلت: إنَّ السماع مخاطرة.

قال أبو موسى: وأبنا عبدالكريم بن عبدالرزاق، أبنا أحمد بن الفضل حدثنا أبو العباس النسوي، قال: سمعت علي بن مفلح، يقول: سمعت فارس البغدادي يقول: قال جنيد: خرجتُ ليلةً فلقيني إبليس، فقال: أتعبني والله أصحابك، قلت: كيف؟ قال: إن عرضتُ عليهم أذكار الدنيا اشتغلوا بأذكار الآخرة، وإن عرضتُ عليهم أذكار الآخرة اشتغلوا بالذكر لله، إلا أني أستحسنُ منهم خُطتين: السماع والنظر إلى الأحداث.

قال أبو موسى: ثنا الإمام أبو بكر القزاز، حدثنا الخطيب^(١)، أخبرني عبدالصمد بن محمد، قال: سمعت الحسن بن الحسين، يقول: سمعت أبا الفرج الرستمي الصوفي، يقول: سمعت المحترق البصري، يقول: رأيت إبليس في النوم، فقلت له: كيف رأيتنا؟ عزفنا عن الدنيا ولذاتها وأموالها، فليس لك إلينا طريق، فقال: كيف رأيت ما اشتملت به قلوبكم باستماع السماع ومعاشرة الأحداث!

قال أبو موسى: وأنا أبو طاهر [٢٧] محمد بن عبدالغفار الهمداني

(١) في «تاريخ بغداد» (٤٢٩/١٤). وانظر نحو هذا الخبر في «تلبيس إبليس» (ص ٢٧٦، ٢٧٧).

قال: سمعت والدي يقول: سمعت أحمد بن الحسن، وهو شيخ الصوفية من المتأخرين، يقول: من قال: إنَّ الاستماع إلى المناهي - أو قال: الملاهي - مباحٌ له فهو إلى مذهب الإباحة أقرب، ولو بلغ العارف إلى ما بلغ من سنيِّ أحواله، لم يُرخص له الالتفات إلى المناهي والملاهي.

قال أبو موسى: قال بعض المشايخ: فإن احتجت المباحية بما رُوي عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ في أيام التشريق، وعندي جاريتان لعبدالله بن سلام تضربان بالدفِّ وتغنيان^(١). قلنا لهم: إنَّ رسول الله ﷺ جَوَّز ذلك للجاريتين لصغرهما في أيام العيد خاصة، ولهذا قال: يا أبا بكر! إنَّ لكل قوم عيدًا، وهذه أيام عيدنا.

فإن قيل: أليس قد جَوَّزه الشرع في النكاح والختان؟

قلنا: جَوَّز ذلك لإعلان النكاح، كما روى أبو شعيب الحراني، حدثنا سُريج بن يونس، حدثنا هشيم عن خالد، عن ابن سيرين، أن عمر بن الخطاب كان إذا سمع صوت الدفِّ سأل عنه، فإن قالوا: عرس أو ختان، سكت^(٢).

فدل على أنَّ ذلك مرخص في بعض الأحوال دون بعض، وكانت الدفوف في ذلك الوقت كالغرابيل، أما سمعت ما روت عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «أعلنوا هذا النكاح، واضربوا عليه بالغربال»^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٩٤٩) ومسلم (٨٩٢).

(٢) أخرجه عبدالرزاق في المصنف (٥ / ١١) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢٩٠ / ٧).

(٣) أخرجه الترمذي (١٠٨٩) وابن ماجه (١٨٩٥) عن عائشة. وقال الترمذي: هذا =

ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الذين كانوا يُنزهون أنفسهم عن اللهو ومزامير الشيطان، أسكنوهم رياض المسك، ثم يقول الله عز وجل لملائكته: أسمعوهم حمدي وثنائي، وأعلموهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون» (١).

فإن قال [٢٧ب] قائل: فهذا السماع قد حضره جماعة من الأولياء وممن لا يُشكُّ في علو منزلته عند الله، مثل الجنيد وأصحابه، والشبلي وأمثاله، مثل يوسف بن الحسين الرازي، ومن قبله مثل ذي النون المصري وغيرهم، كيف يسوغ لكم تخطئتهم والإنكار عليهم؟

فالجواب من وجوه:

أحدها: أن هذا السماع المسؤول عنه على هذا الوجه، قد برأ الله منه أولياءه وأعاذهم منه، وحاشاهم أن يكون أحد منهم حضره أو رضيه أو أباحه، وإنما السماع الذي حضره من حضره منهم، أن جماعة كانوا يجتمعون يذكرون الله والدار الآخرة، وأعمال القلوب وآفاتها، ومصححات الأعمال والأحكام والفروق والوجد والإرادة، فإذا رقت

= حديث غريب حسن، وعيسى بن ميمون يضعف في الحديث، وضعفه ابن حجر في الفتح (٢٢٦/٩) والتلخيص (٢٠١/٤) وقال البوصيري في الزوائد: «فيه خالد بن إلياس أبو الهيثم العدوي، وهو ضعيف، بل نسبه إلى الوضع ابن حبان والحاكم وأبو سعيد النقاش». وانظر «العلل المتناهية» (١٣٨/٢).

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الملاحية (٧٢) والبغوي في الجعديات (١٧٥٨) عن محمد بن المنكدر موقوفاً عليه، وروى عن جابر وأنس مرفوعاً، وهو ضعيف. انظر «الدر المنثور» (٥٨٩/١١).

قلوبهم، وتحركت هيمتهم، واشتاقوا نفوسهم إلى السير، قام حادٍ
يحدو أرواحهم وقلوبهم، ليطيب لها السير إلى الله والدار الآخرة،
ويذكرها منازلها الأولى، كما قيل:

وحيّ على جناتٍ عدنٍ فإنها
ولكننا سببُ العدوِّ فهل تُرى
منازلُك الأولى وفيها المخيمُ
نعودُ إلى أوطاننا ونسلمُ^(١)

وكما قال الآخر^(٢):

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى
كم منزلٍ في الأرضِ يألفه الفتى
ما الحبُّ إلا للحبيبِ الأولِ
وحنينُهُ أبدًا لأول منزلٍ

وقال الآخر^(٣):

أبت غلّباتُ الشوقِ إلا تقربًا
وما كان صديّ عنك صدًّا ملالٍ
إليك وذاك العذلُ إلا تجنُّبا
ولا ذلك الإعراضُ إلا تحبُّبا

وقال الآخر^(٤):

حبيبٌ تركتُ الناسَ لما عرفته
كأنهم ما جفّ من زادٍ قادمٍ
[٢٨] وكاد سروري لا يفي بندا متي
على تركه في عمري المتقادمِ

(١) البيتان للمؤلف من ميمته المشهورة التي نُشرت ضمن مجموعة «أربح بضاعة».
ومنها أبيات في «حادي الأرواح» (ص ١٢-١٥، ٦٠٤) و«طريق الهجرتين»
(ص ٥١-٥٥) و«ذيل طبقات الحنابلة» (٢/٤٥١-٤٥٢).

(٢) البيتان لأبي تمام في ديوانه (٤/٢٥٣). وانظر «الرسالة التبوكية» (ص ٥٨).

(٣) البيتان في «الزهرة» (١/٢٤٥) و«طريق الهجرتين» (ص ٦٧٢) بلا نسبة.

(٤) البيتان للمتنبّي في ديوانه (٤/٢٤٣).

وقال الآخر (١):

لقد كان يسبي القلب في كل ليلة
يهيمُ بهذا ثم يالفُ غيره
وكان فؤادي خاليًا قبل حبكم
فلما دعا قلبي هواك أجابه
فإن شئت واصلني وإن شئت لا تصل
حرمتُ مناي منك إن كنتُ كاذبًا
وإن كان شيء في البلاد بأسرها
وقول الآخر (٢):

قالوا غد العيد ماذا أنت لابسه
فقرٌ وصبرٌ هما ثوبانٍ تحتهما
والدهرُ لي ماتمَّ إن غبتَ يا أملي
وقول الآخر (٣):

أحبُّك حُبَّين حبُّ الهوى
وحبُّ لأنك أهلٌ لذاكا

(١) الأبيات لسمنون بن حمزة في «طبقات الصوفية» للسلمي (ص ١٩٨) و«تاريخ بغداد» (٢٣٧/٩) و«صفة الصفوة» (٢/٢٥٨).

(٢) الأبيات لأبي بكر الشبلي في «حلية الأولياء» (٤٠/١٠)، ويقال: إنها لأبي علي الروذباري في «الرسالة القشيرية» (ص ٤٣٧).

(٣) الأبيات في «حلية الأولياء» (٣٤٨/٩)، وذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية في «جامع المسائل» (١٧، ١٣/٦) وتكلم عليها. وتنسب لرابعة العدوية وغيرها.

فأما الذي هو حبُّ الهوى
وأما الذي أنتَ أهلُّ له
وما الحمدُ في ذا ولا ذاك لي
وقول الآخر (١):

تموتُ النفوسُ بأوصابها
وما أنصفتُ مُهجةً تشتكي
[وقول الآخر] (٢):

بوركبِ سرَّوا والليلُ مُرخِ سُدولَه
حدوا عزماتِ ضاعت الأرضُ بينها
تُريهم نجومُ الليل ما يطلبونه
وقال الآخر (٣):

قومٌ همومهمُ بالله قد علقَتْ
فمطلبُ القوم مولاهم وسيدهم
ما إن تُنازعهم دنيا ولا شرفٌ
وقول الآخر (٤):

إذا غبتَ عن عيني تملأ بك الفكرُ

فشيءٌ شغلْتُ به عن سواكا
فكشفتُك للحُجبِ حتى أراكا
ولكن لك الحمدُ في ذا وذاكا

وتكتمُ عوادها ما بها
جواها إلى غير أحابيها

على كل مُغبرِّ المطالعِ قاتمِ
فصار سُراهم في ظُهور العزائمِ
على عاتق الشُعري وهام النَّعائمِ

فما لهم هممٌ تسمو إلى أحدِ
يا حُسنَ مطلبهم للواحدِ الصمدِ
من المطاعم واللذاتِ والولدِ

وإن لم يُزرنِي الطيفُ طاف بك السُّرُّ

(١) البيتان لصردر في ديوانه (ص ١٣٨) والمدهش (ص ٤٠١).

(٢) الأبيات للشريف الرضي، انظر «روضة المحبين» (ص ١٠).

(٣) الأبيات بلا نسبة في «عوارف المعارف» (ص ٦٤).

(٤) لم أجد البيتين في المصادر.

فكُلِّي لِسَانٌ عَنْ هَوَاكَ مَخْبِرٌ
وَقَوْلِ الْآخِرِ (١):
وَكُلِّي قَلْبٌ أَنْتَ فِي طَيْبِهِ نَشْرٌ

مَنْ كَانَ فِي ظُلْمِ اللَّيَالِي سَارِيًا
حَتَّى إِذَا مَا الْبَدْرُ أَرَشَدَ نَوْرُهُ
حَتَّى إِذَا انْجَابَ الظَّلَامُ بِأَسْرِهِ
تَرَكَ الْمَسَارِجَ وَالْكَوَاكِبَ كُلَّهَا
وَقَوْلِ الْآخِرِ (٢):
رَصَدَ النُّجُومَ وَأَوْقَدَ الْمَصْبَاحَا
تَرَكَ النُّجُومَ وَرَاقِبَ الْإِصْبَاحَا
وَرَأَى الصَّبَاحَ بِأَسْرِهِ قَدْ لَاحَا
وَالْبَدْرَ وَارْتَقَبَ السَّنَا الْوَضَّاحَا

وَبَدَا لَهُ مِنْ بَعْدِ مَا انْدَمَلَ الْهَوَى
يَبْدُو لِحَاشِيَةِ الرِّدَاءِ وَدُونِهِ
فَبَدَا لِيَنْظَرَ كَيْفَ لَاحَ فَلَمْ يُطِيقْ
فَالنَّارَ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ ضَلُوعُهُ
[١٢٩] وَقَوْلِ الْآخِرِ (٣):
بَرْقٌ تَأْتِقُ مَوْهِنًا لَمَعَانُهُ
صَعْبُ الذُّرَى مَتَمِنًا أَرْكَانُهُ
نَظْرًا إِلَيْهِ وَصَدَّهُ سَجَّانُهُ
وَالْمَاءَ مَا سَمَحَتْ بِهِ أَجْفَانُهُ

إِلَى مَتَى تَسْتَحْسِنُ الْقَبَائِحَا
يَسْتَنْطِقُ اللَّهُ بِهِ الْجَوَارِحَا
كَيْفَ تَجَنَّبَتِ الطَّرِيقَ الْوَاضِحَا
يَا غَادِيَا فِي غَفْلَةٍ وَرَاحِحَا
وَكَمْ إِلَى كَمْ لَا تَخَافُ مَوْقِفَا
وَاعْجَبَا مِنْكَ وَأَنْتَ مُبْصِرٌ

(١) من تسعة أبيات وردت في كلام محمد الفارقي شيخ العماد الأصفهاني، كما في «خريدة القصر» (٤٥٣/٢) قسم الشام.

(٢) الأبيات لمحمد بن صالح العلوي في «الأغاني» (٣٦١/١٦) و«أمالي القالي» (١٨٣/٣)، وبلا نسبة في «ذم الهوى» (ص ٣٦٠).

(٣) الأبيات في «تلبس إبليس» (ص ٢٢٥) و«نفخ الطيب» (٣٢٦/٤) بلا نسبة.

وإلى مثل هذا أشار الإمام أحمد في الإباحة، قال أبو حامد الخلقاني: قلت لأحمد بن حنبل: يا أبا عبد الله! هذه القصائد الرقاق التي في ذكر الجنة والنار، أي شيء تقول فيها؟ فقال: مثل أي شيء؟ قلت: يقولون:

إذا ما قال لي ربي أما استحييت تعصيني
وتُخفي الذنب من خلقي وبالعصيان تَأْتيني
فقال: أعد عليّ، فأعدتُ عليه، فقام ودخل بيته وردَّ الباب، فسمعت نحيبه من داخل، وهو يرددُ البيتين (١).

وأمثال هذه الأشعار التي تتضمن إثارة في القلب من الحب والخوف والرجاء والطلب والأنس والشوق والقرب وتوابعها، فصادف سماع هذه الأشعار من قلوبهم حبًا وطلبًا، فأثاره إثارة ممتزجة بحظ النفس، وهو نصيبها من اللذة والطرب الذي يُحدثه السماع، فيظن تلك اللذة والطرب زيادة في صلاح القلب وإيمانه وحاله الذي يُقربه إلى الله، وهو محضُ حظِّ النفس.

فهذا منشأ الغلط الذي عرض للقوم، كما سيأتي تقريره وبسطه إن شاء الله، وهذا هو الذي أنكره العارفون من القوم، وتاب منه مَنْ تاب منهم، وحذروا منه، وقالوا: إن مضرت للقلب أكثر من نفعه، وإفساده له أكثر من صلاحه. وسيأتي [٢٩ب] عن قربٍ إن شاء الله تقريرُ هذا بحكم (٢) الذوق

(١) الخبر مع البيتين في «تلبيس إبليس» (ص ٢٢٦).

(٢) في الأصل: «الحكم».

والوجد.

الوجه الثاني من الجواب: أن هذا السماع وإن كان قد حضره وفعله مَنْ لا نَشْكُ في دينه وصدقه وصلاحه، فقد أنكره مَنْ هو أفضل منهم عند الأمة، وأعلى شأنًا، وأصدق حالًا، وأعرف بالله وبأمره، فإن كان قد حضره وفعله مائةٌ وليَّ اللهُ، فقد أنكر عليهم أكثر من ألف وليِّ اللهُ، وإن كان قد حضره أبو بكر الشبلي، فقد غاب عنه أبو بكر الصديق، وإن كان قد حضره يوسف بن الحسين الرازي، فلم يحضره الفاروق الذي فرَّق اللهُ به بين الحق والباطل عمر بن الخطاب، وإن كان قد حضره النوري فقد غاب عنه ذو النورين عثمان بن عفان، وإن كان قد شهدته ذو النون المصري فلم يشهده علي بن أبي طالب الهاشمي، وإن كان قد حضره سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد فقد صح عنه أنه تاب عنه وتركه قبل وفاته.

وإن كان قد فعله أضعافُ أضعافِ هؤلاء، فقد غاب عنه المهاجرون والأنصار كلهم، وأهل بدر، وأهل بيعة الرضوان، وجميع أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين لهم بإحسان، وجميع أئمة الفقه والإفتاء، وجميع أئمة الحديث والسنة، وجميع أئمة التفسير، وجميع أئمة القراءة، وجميع أئمة الجرح والتعديل الذائبين عن رسول الله ﷺ ودينه، فَمَنْ الناسُ إلا أولئك؟

فأَيُّ فَرِيقَيْنَا أَحَقُّ بِأَمْنِهِ إِذَا بَعَثَ اللهُ الْعِبَادَ وَيَجْمَعُ^(١)

(١) صدره مع عجز آخر في منهاج السنة (٤/١٢٨).

فإن احتجاجتم بالرجال كاثرتناكم بالواحد ألوفاً مؤلفة، وإن استدلتتم بالقرآن، فهذا كتاب الله المجيد الذي لا يأتيه الباطل [١٣٠] من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، و[إن] استندتم إلى الإسناد والحديث فسنذكر لكم منه ما يَشْفِي صدرَ كل مُحِقِّ، وإن لجأتم إلى الذوق والوجد حاكمناكم إليه، وبيننا أنا أسعدُ به منكم، وأن الذوق السليم والوجد الصحيح يحكم بأن فيه منفعةً للنفس، ومضرةً للقلب، ومضرته أكثر من نفعه كما سنبينه بالدليل الواضح، الذي لا مدفع له إن شاء الله.

الوجه الثالث من الجواب: أنه لو اتفق عليه جميع الطائفة، وحضروه من أولهم إلى آخرهم، لما كان لكم في ذلك حجةً أصلاً، فإنهم بعض المسلمين، واتفاقهم لا يكون حجةً على من سواهم من طوائف أهل العلم الذين سميناهم.

فمن قال من أهل الإسلام: إن اتفاق السماعية حجة شرعية يجب اتباعها؟ أو اتفاق الفقراء أو اتفاق الصوفية حجة؟ فهذا لم يقله أحد من المسلمين، ومن قاله فقد خرق إجماع المسلمين، فإن الحجة كتاب الله، وسنة رسوله وأقوال أصحابه، وإجماع الأمة.

الوجه الرابع: أن الصوفية والمشايخ لم تُجمِعْ على ذلك، بل كثير منهم أو أكثرهم أنكروه وعابه وأمر باجتنابه.

قال أبو الحسن علي بن عبد الله بن جهضم في كتاب «بهجة

الأسرار»^(١): حدثني أبو عبدالله المقرئ، قال: حدثنا عبدالله بن صالح، قال: قال لي الجنيد: «إذا رأيت المريـد يسمع السماع، فاعلم أن فيه بقايا من اللعب.

وقال أبو عبدالله بن باكوية في كتاب حكايات الصوفية: سمعت أحمد بن محمد البردعي، يقول: سمعت المرتعش، يقول: سمعت أبا الحسين النوري يقول لبعض أصحابنا: إذا رأيت المريـد يسمع القصائد ويميل إلى الرفاهية فلا ترجُ خيره.

قال الحافظ أبو الفرج عبدالرحمن بن علي^(٢): هذا قول مشايخ القوم [٣٠ب] وإنما ترخص المتأخرون فيه حباً للهو، فتعدى شـرهم من وجهين:

أحدهما: سوء ظن العوام بقدمائهم، لأنهم يظنون أن الكل كانوا هكذا.

الثاني: أنهم جرأوا العوام، فليس للعامي حجة إلا أن يقول: فلان يفعل كذا.

قال^(٣): وقد نشب^(٤) حب السماع بقلوب خلق منهم فأثروه على قراءة القرآن، ورقّت قلوبهم عنده ما لا ترقُّ عند القرآن، وما ذاك إلا

(١) نقل عنه المؤلف بواسطة «تلبس إبليس» فيما يبدو، انظر هذا النص فيه (ص ٢٤٧).

(٢) انظر «تلبس إبليس» (ص ٢٤٧)، وفيه الخبر السابق.

(٣) أي ابن الجوزي في المصدر السابق.

(٤) في الأصل: «تشبث». والتصويب من تلبس إبليس.

لتمكن هوى باطن، وغلبة طبع، وهم يظنون غير هذا.

ثم ساق من تاريخ الخطيب^(١) بإسناده إلى أبي نصر^(٢) السراج، قال: حكى لي بعض إخواني عن أبي الحسين الدراج، قال: قصدت يوسف بن الحسين الرازي من بغداد، فلما دخلت الريّ سألت عن منزله، فكل من أسأله عنه يقول: أيّش تفعل بذلك الزنديق؟ فضيقوا صدري حتى عزمت على الانصراف، فبتت تلك الليلة في مسجد، ثم قلت: جئت هذا البلد فلا أقلّ من زيارته، فلم أسأل عنه حتى دفعت إلى مسجد وهو قاعد في المحراب، وبين يديه رجل عليه^(٣) مصحف، وهو يقرأ، فسلمت عليه فردّ عليّ السلام، وقال: من أين؟ قلت: من بغداد، قصدت زيارة الشيخ، فقال: تُحسن أن تقول شيئاً؟ فقلت: نعم، فقلت:

رأيتك تبني دائباً في قطيعتي ولو كنت ذا حزم لهدمت ما تبني^(٤)
فأطبق المصحف، ولم يزل يبكي حتى ابتلت لحيته وثوبه، حتى رحمته من كثرة بكائه، ثم قال: يا بُنيّ! تلوم أهل الري على قولهم: يوسف بن الحسين زنديق؟ ومن وقت الصلاة هو ذا أقرأ القرآن، لم يقطر من عيني قطرة، وقد قامت عليّ القيامة بهذا البيت.

-
- (١) «تاريخ بغداد» (١٤/٣١٧). وانظر «اللمع» للسراج (ص ٣٦٣، ٣٦٤) و«الرسالة القشيرية» (ص ٥١٤، ٥١٥) و«إحياء علوم الدين» (٢/٣٠١).
- (٢) في الأصل: «أبي جعفر»، والتصويب من المصادر السابقة.
- (٣) كذا في تاريخ بغداد والقشيرية. وفي اللمع: «وفي حجره»، وفي تلبيس إبليس: «على يديه». وفي الإحياء: «وبيده».
- (٤) البيت للوليد بن يزيد في ديوانه (ص ١٢٥).

الوجه الخامس: أنه ما من أحد بعد رسول الله ﷺ إلا وماخوذ من قوله ومتروك، ولا يُقتدى بأحد في أقواله وأفعاله وأحواله [١٣١] كلها إلا رسول الله ﷺ، فمن نزل غيره في هذه المنزلة فقد شرح بالضلالة والبدعة صدرًا، ولا يُغني عنه ذلك الغير من الله شيئًا، بل يتبرأ منه أحوج ما يكون إليه، قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ۝١٦٦﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧].

وكل من بعد رسول الله ﷺ يجب عرض أقواله وأفعاله وأحواله على ما جاء به الرسول، فإن كانت مقبولة لديه قُبِلَتْ، وإلا رُدَّتْ.

فأبى الظالمون المفتونون إلا عَرَضَ ما جاء به الرسول ﷺ على أقوال الشيوخ وطريقتهم، فأضلَّهم، فعَمَّ بذلك المصاب، وعظمت المحنة، واشتدت الرزية، واشتدت غربة الدين وأهله، وظن بهم الجاهلون أنهم هم أهل البدع، وأصحاب الطرائق والآراء هم أهل السنة، ويأبى الله إلا أن يُقيم دينه، ويُتِمَّ نوره، ويُعَلِّي كلمات رسوله، وينصر حزبه ولو كره المبطلون.

الوجه السادس: أن من نقل عنه أنه حضر السماع من القوم، فليس فيهم رجل واحد يسوغ تقليده في الدين، فإنه ليس فيهم إمام من أئمة التقوى والعلم الذين يسوغ تقليدهم في الجملة.

وأعلى من حضره قوم لهم صدق وزهد وأحوال مع الله، ولكنهم ليسوا بمعصومين، ولا لهم قول يحكى مع أقوال العلماء الذين دارت

الفتوى والحكم على أقوالهم.

وغاية أحدهم أن يكون حضوره له من السعي المغفور، الذي يغفره الله له لصدقه وكثرة حسناته وحسن نيته، فأما أن يتخذ قُدوة وإمامًا فهذا باطل قطعًا، إذ ليس من أهل الاجتهاد ومن له قول بين أهل العلم. الوجه [٣١ب] السابع: أنه لو فرض أنه من أهل الاجتهاد، وممن يسوغ العمل بقوله، فقد خالفه من هو مثله أو أجُلُّ منه، والحاكم بين المتنازعين كتاب الله وسنة رسوله، وما كان هو عليه وأصحابه.

فأما أن يُحكَّم ذوق أحدٍ وحاله ووجدته، ويُجعلَ إمامًا وقُدوةً بلا برهان من الله ورسوله، فهذا منشأ الضلال وهو من أكبر أسباب البعد من الله ومَقْتَه، فإنَّ الله لا يُتقرب إليه إلا بما يحبه ويرضاه، لا بما يذوقه كل أحد ويستحسنه ويهواه، وكيف يليق بمن يدعي محبة الله وإرادته، أن يتقرب إليه بما لم يشرعه على لسان حبيبه، وبما لا يحبه ويرضاه من القول والعمل والهدى؟ وهل هذا إلا عين البعد منه؟

وقد قال غير واحد من السلف^(١): ادَّعى قومٌ محبةَ الله تعالى، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فلم يقل: فارقصوا وغنُّوا واطربوا على صوت المزامير والشبابات، والألحان المطربات، بالتوقيعات والنعيمات، فمن أضلُّ سبيلًا ممن يدَّعي محبةَ الله، ويزعم أنه يتقرب إليه بهذا السماع الشيطاني، الذي هو حظُّ النفس والشيطان.

(١) انظر «تفسير الطبري» (٥/٣٢٥)، و«الدر المنثور» (٣/٥٠٨).

فهل سمعتم قطُّ في سنة
 أنَّ الغنا والرقص دينٌ كذا
 هذا كتاب الله ما بيننا
 وهذه السنةُ قد بينت
 إن أنتم أعتبتمونا من (م)
 وهذه أصحابُ خيرِ الورى
 [١٣٢] وهذه أصحابهم بعدهم
 وتابعوهم بعدهم هكذا
 وأول القوم وساداتهم
 وكل من أعطاه ربُّ الورى
 هل فيهم من عابدِ ربِّه
 يشفق بالأوتار والدفِّ (م)
 يهزُّه الشوق لطيبِ الغنا
 ويزعق الزعقات من قلبه
 والشوق قد أضرم نيرانه
 ويثقل الوحي على قلبه
 قلنا نعم هذا الغنا قربةٌ
 فالبعد في القرآن حتى لقد

صحت عن المختار أو في كتاب
 صوتُ يراعٍ أو أخيه الرباب
 منزَّة عن باطل وارتباب
 مراده حتى استبان الكتاب
 التحريف أبصرتم طريق الصواب (م)
 وهديهم أفضل هدي الصحاب
 مضوا على نهجهم المستطاب
 من كل قرنٍ هديهم لا يعاب
 من كل من دعوته تستجاب
 لسان صدقٍ وثنا مستطاب
 بالرقص والزفن وخلع الثياب
 والنأي إلى الجنة دار الثواب (م)
 حتى يمر القلب مرَّ السحاب
 لقوة الوارد عند الشراب
 في القلب لولا الدمع يجري لذاب
 كالصخر فوق الصخر لا كالتراب
 تُدني من الفوز وحسن المآب
 هجرتموه لن تخافوا العتاب (١)

(١) كذا في الأصل، ولعل الصواب: «لم تخافوا العتاب».

من هاهنا قيل بأن الغنا يُنبت في القلب النفاق العُجاب
يا قوم لو أن الغنا قربة لجا مع كل نبي رباب
أو كان هذا الرقص دينًا لنا لكنت الجنة مأوى الدباب^(١)

الوجه الثامن: أنا نناشدكم الله، هل تدخلون في السماع بالشروط التي شرطها من أباحه ممن قلتموه؟ فإنهم شرطوا فيه شروطًا مذكورة في كتب القوم.

منها: أن لا يتكلفوا السماع، وقالوا: من تكلفه فتن به، ومن صادفه استراح به. فأخبروا أنه فتنة لمن اختاره وقصده، وراحة لمن صادفه اتفاقًا، وهذا من أبين شيء على أنه [٣٢ب] ليس بقربة ولا طاعة، لأن قصد الطاعات والقرب وإرادتها لا يكون فتنة، بل لا تصح إلا بذلك.

ومنها: أن يدخله بقلب مملوء بربه، فارغ من شهواته وحظوظه، ذكر الله فيه في محل الخطرات والوساوس، وقد ملك عليه ذكر ربه وساوسه وخطراته.

ومنها: أن يقعد بوابًا على باب قلبه، يحرسه من السماع للنفس والشيطان، بل يكون سماعه مجردًا لله ولعبوديته.

ومنها: أن يحفظ قلبه في السماع من طوارق الغفلة عن الله والتفاتة إلى سواه.

ومنها: أن يتلقى ما يرد عليه من إشارة السماع، بمطالبة نفسه

(١) يبدو أن القصيدة للمؤلف رحمه الله، فهي على أسلوبه في النظم.

بحقوق العبودية، من تجريد التوحيد والإنابة إلى الله، وتعليق الهمّ كله به، ولوم النفس في إثارتها بحفظها على مرضاته ومحابته.

ومنها: أن يكون في سماعه هذا لله وبالله ومع الله، ليكون له نصيب وافر من قوله حين^(١) يسمع.

ومنها: أن يخلو السماع ممن لا تؤمن الفتنة به، ممن لا يحل سماع صوته والتلذذ بالنظر إليه.

فبهذه الشروط أباح السماع من أباحه من القوم وحضره، ثمّ قال عارف القوم وسيدهم بلا مدافع، الشيخ عبدالقادر الكيلاني بعد ذكره آداب السماع: «ولو صدق القوم في قصدهم وتجردهم وتصوفهم، لما انزعجوا في قلوبهم وجوارحهم بغير سماع كتاب الله عزّ وجلّ، إذ هو كلام محبوبهم وصفته، وفيه ذكره وذكرهم، وذكر الأولين والآخرين، والماضين والغابرين، والمحب والمحبوب، والمريد والمراد، وعتاب المدّعين لمحبتهم ولومهم وغير ذلك. فلما اختلّ قصدهم وصدقهم، وظهرت دعواهم من غير بينة، وزورهم وقيامهم [١٣٣] مع الرسم والعادة، من غير غريزة باطنة وصدق السريرة، والمعرفة والمكاشفة والعلوم الغريبة، والاطلاع على الأسرار، والقرب والأنس، والوصول إلى المحبوب، والسماع الحقيقي وهو القرآن والحديث والكلام الذي سنّه الله مع العلماء به، والخُلص من الأولياء والأبدال والأعيان، وخلت

(١) هنا كلمة غير واضحة، ولعلها تقارب ما أثبتته.

بواطنهم من ذلك كله = وقفوا^(١) مع القوال والأبيات والأشعار التي تثير
الطباع، وتُهَيِّجُ نائِرَةَ العشق بالطباع لا بالقلوب والأرواح^(٢). فهذا كلام
من خَبَرِ السماع، وعلم ما فيه من الآفات.

وأما من أخذ في إباحته واستحبابه، ومدحه من غير تعرض لآفاته، فإنه
محجوب عن صلاح قلبه ومعرفة مفسداته، والفرق بين حظ النفس
والشيطان وحق الرب، وهو ممن يعبد الله على ما تهواه نفسه وتوجهه، لا على
ما يحبه الله ويرضاه، وليس الشأن في أنك تريد الله، بل تريد ما يريد الله.

وأصحاب الإرادة ثلاثة أنواع: المريدون لله، والمريدون من الله،
المريدون ما يريد الله، وهؤلاء هم أولياء الله والمقربون، وهم أهل الإرادة
الصحيحة، فإنهم واقفون مع مراد الله الديني الذي يحبه ويرضاه منهم.

والمريدون من الله واقفون مع حظوظهم وإراداتهم بحسب
تفاوتهم فيها، وبحسب هممهم.

والمريدون لله إن لم يتقربوا إليه بمراضيه وما يحبه منهم، وما
شرعه لهم على لسان رسوله، وأعلمهم أنهم لا يصلون إليه إلا من
طريقه، وإلا فهم ممقوتون عنده، مطرودون عن بابه، مُبَعَدُونَ عن قربه،
ولو كان في قلوبهم من المحبة والشوق والإرادة أمثالُ الجبال [٣٣ب]
لم ينفعهم شيئاً حتى يقفوا مع مراده منهم.

ومن ههنا غَلِطَ القومُ في مسألة السماع، فإنهم رأوا السماع يُشير

(١) جواب «فلما اختلَّ قصدهم...».

(٢) انظر «الغنية» للشيخ عبدالقادر (٢/١٨٠).

ساكنَ الحب والوجد من قلوبهم، ويُهَيِّج القلب في سفره إلى المحبوب،
ويُزَعِجه إزعاجًا لا يستقر معه، فيرتاح القلب إلى المقامات العالية،
وينافس في القرب من محبوبه، فيُحَدِّث فيه أحوالًا عجيبة، ومواجيدَ
وأذواقًا لا يمكنهم دفعها عن قلوبهم، ولم يروها تُستجَلَب بمثل السماع،
فلو لامَّهم فيه كل لائم لم يُضغُوا إلى ملامه، وقالوا لمن لامهم:

أقول لِلَّائِمِ المُهْدِي ملامته ذُقِ الهوى وإنِ اشطَّعت الملامَ لم^(١)

فهم يعذرون اللوام إذ هم محجوبون عما فيه القوم من تلك
الأحوال، ولا يلتفتون إلى ملامهم، بل قد يستلذ أحدهم الملامة كما قيل:

أجد الملامة في هواك لذيذة حبًّا لذكرك فليلمني اللوم^(٢)

ولا ريب أنهم معذورون، إذ لم يجدوا مَنْ يخاطبهم بأذواقهم،
ويكلمهم على مقتضى أحوالهم، ويشاركهم في وجدهم وشأنهم،
فيناديهم من مكان قريب، وإنما يُبتَلون بجافٍ جلفٍ أبعد شيءٍ عن
معاملات القلوب وأحوالها ومنازلاتها، كثيف الطباع، موكل بإنكار ما
لم يُحِطْ بعلمه، غليظ الحجاب عن شأن القوم، وما تعلق به هممهم،
فينكر عليهم إنكار مَنْ لم يذق ما ذاقوه ولا باشر ما باشروه، ولا ذاق من
الشراب الذي شربوه، فأعمال القلوب عندهم كأنها شريعة منسوخة، أو

(١) البيت للشريف الرضي في «ديوانه» (٢/ ٢٧٤)، وبلا نسبة في «مدارج السالكين»
(٣/ ٤٤١).

(٢) البيت لأبي الشيبص الخزاعي، وتخريجه في «روضة المحبين» (ص ٣٥، ٣٦).

كأنها لم تُشرع قط، فتولدت المحنة بين قسوة هؤلاء وجمودهم،
وميعان هؤلاء وانحلالهم، فإذا جمعهما مجلس كانا كما قيل:

سارت مشرقة وسرت مغرباً [١٣٤] شتان بين مشرق ومغرب (١)

فكل من الطائفتين تنادي الأخرى من مكان بعيد، وصاحب الذوق
المحمدي والوجد الإبراهيمي يحكم على الطائفتين، ويوالي من معه
حق من الفريقين، وينكر ما يجب إنكاره من الطريقتين، ويسير إلى الله
سبحانه بين حقائق الإيمان وشرائع الإسلام، ويعلم أن الحقيقة بلا
شريعة خيال باطل وسراب، والشريعة بلا حقيقة قشر قد تجرد من
اللباب، وأن الأمر إنما قام بالحقيقة الباطنة وعليها الثواب والعقاب،
وبالشريعة الظاهرة وهي مظهر الأمر والنهي والحكم والأسباب، وهي
بمنزلة البدن، والحقيقة الإيمانية بمنزلة الروح، والروح لا قوام لها بدون
البدن، وبدن لا روح فيه من جملة الأموات.

والدين ينتظم الأمرين انتظاماً واحداً، وله جسد وروح وقلب،
فجسده الإسلام، وروحه الإيمان، وقلبه الإحسان، فالإسلام: الشرائع
الظاهرة العاصمة للدم والمال، والإيمان: الحقائق الباطنة المنجية من
النار، والإحسان: المقامات العالية التي ينال بها الدرجات العلى،
والقرب من الله سبحانه، والدخول في زمرة المقربين من عباده.

ولا ريب أن المحبين رُفع لهم لواء فشمروا إليه، وخفي ذلك
اللواء عمن أعرض عن هذا الشأن واشتغل بغيره، ولكن سلك كثير منهم

(١) البيت لأبي إسحاق الشيرازي في «طبقات السبكي» (٤/٢٢٨).

إليه على غير دَرْبِ الإيمان والإحسان، فبُعِدُوا من مطلوبهم على قدر انحرافهم، فالصادقون من أرباب السماع شَمَّرُوا إلى علم المحبة، ورأوا أن السماع من الأسباب التي يُتوصَّل بها إلى ظهور الكوامن الباطنة من محبة الله، والشوق إليه، والارتياح إلى قربه ولقائه، وتوابع ذلك من الحزن على التقصير والتفريط في طاعته في الأيام الخالية، والندم والأسف على ما فرط من العبد من أسباب عَتَبِ الله عليه، وإبعاده إِيَّاه، والخوف [٣٤ب] من طرده عن بابه، ووقوع الحجاب بينه وبين ربه، ورأوا حاديًا يحدو بالأرواح إلى بلاد الأفراح، فيطيب لها السير، فإذا حدا لها الحادي جدَّت في السير على ظهور عَزَمَاتِها، لا تَلْوِي على أهل ولا مال، كما قيل (١):

لها أحاديثُ من ذِكرِكَ تُشغَلُها	عن الشرابِ وتُلْهِيها عن الزادِ
لها بوجهك نورٌ تَسْتضيءُ به	ومن حديثك في أعقابها حادي
إذا شَكَتُ من كلالِ السيرِ أو عَدَّها	روحِ القدومِ فتَحيا عند ميعادِ

وكما قيل (٢):

إذا نحن أدلجنا وأنت إمامنا	كفى بالمطايا طيبُ ذِكرِكَ حاديًا
وإن نحن أضللنا الطريقَ ولم نجدُ	دليلاً كفانا نورُ وجهك هاديًا

(١) الأبيات لإدريس بن أبي حفصة، كما في «ديوان المعاني» (١/٦٣). وتخریجها في «روضة المحبين» (ص ١١٣).

(٢) لعمر بن شأس الأسدي في «معجم الشعراء» (ص ٢١٢) و«ديوان المعاني» (١/٢٢٤). وانظر «شعر عمرو بن شأس» (ص ٨٤ - ٨٥).

وإذا كان حُداء الإبل يطيب لها السير، ويهون عليها حمل المشاق
على غلظ أكبادها وكثافة طباعها، فما الظن بمن أذابت نارُ المحبة قسوة
قلبه، ولطفت طباعه إذا حدا له الحادي بما يناسب حاله.

ولا ريب أن السماع لا يُورد على القلب حالاً ليست فيه، ولا
يُحدث فيه إرادة ومحبة لم تكن، وإنما يثير ما كمن فيه، فهو بمنزلة
الصَّوَّانِ^(١) يقدح في الزناد ما هو كامنٌ فيه من النار، لا أن الصَّوَّانِ
أحدث النارَ في الزناد.

فإذا سمعه من في قلبه حب كامل، أو خوف أو رجاء أو اشتياق
إلى أي مطلوب كان، هاج من قلبه ذلك الكامنُ، فأثر فيه السماع بحسب
استعداده.

وسرُّ ذلك أن النعمات اللذيذة، ولطافة الألحان وحلاوتها وطيبها،
يناسب لطافة ما كمن واستتر في قلب المحب من شواهد محبوبه،
فيذكره إياها، فيهيج لذلك وجدُّه، ويتحرك حبه، وتلتهب [١٣٥] نار
الشوق في قلبه، وذلك كان مستوراً قبل السماع، ومتوارياً محجوباً
بالأمور الشاغلة عنه، فلما ورد عليه السماع أخلى باطنه عن تلك
الشواغل، فخمَدت وتوارت، فتحرك القلب بمقتضى ما سكن فيه من
المحبة والشوق والوجد، وتوابع ذلك من الأُنس والقرب أو الحزن
والأسف على فوت حظه من محبوبه وبعده عنه، إلى غير ذلك من

(١) ضرب من الحجارة شديد.

الأحوال التي يثيرها السماع، بالألحان المطربة والنعمة اللذيذة،
 [و]بالأشعار الرقيقة المناسبة للحال، المشتمة على وصف الملاحة
 والحسن، وطيب الوصال وعودته، وألم الهجران وعذابه، فتتفق
 ممارسة أوزان الشعر، ولطافة المعاني، وحسن الصوت، وتناسب
 حركات التصفيق، والإيقاعات، وخصوصية ذلك اللحن، لما في قلب
 هذا المحب المشتاق، فحيث وجد المناسبة اضطرب وتحرك، وهاجت
 من قلبه لواعجُه، فتضاف قوة المناسبة واعتدالها وتلك الهيئة
 الاجتماعية إلى ما عنده من القبول والاستعداد، فتسير الروح، ويطير
 القلب، وتنبعث الجوارح.

فهذه النكتة التي أوجبت للقوم حضور السماع، ولم يأخذهم فيه لومة
 لائم، ولم يصادفوا من حلّها ولا شفى بكلامه فيها، بل صادفوا: هذا بدعة،
 وهذا حرام، وهذا لا يجوز، ومَن فعل ذلك فهو سفيه، ونحو هذا من القول
 الذي لم يصل به قائله إلى باطن الداء، ولم يضع فيه الدواء على ما يناسبه
 من الداء، بل داوى الداء بغير دوائه، فلم يزد المرض إلا قوة.

فنقول: وبالله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله، إنما تنحلُّ هذه
 الشبه بذكر قواعد أربعة^(١)، إذا تبينَّت انحلتُّ شبهة السماع^(٢).

(١) كذا في الأصل، وهو جائز في العربية.

(٢) ذكر المؤلف ثلاث قواعد في «مدارج السالكين» (١/٤٩٤ - ٤٩٧)، واقتصر هنا
 على واحدة منها. وسبقه إلى بيان ذلك شيخ الإسلام في «مجموعة الرسائل
 الكبرى» (٢/٣٠٨، ٣٠٩).

القاعدة الأولى: أن ينظر إلى ما في هذا السماع من المصلحة والمفسدة، فإن كانت [ب٣٥] مصلحته أرجح من مفسدته لم يكن حراماً، وإن كانت مفسدته أرجح من مصلحته كان حراماً، ولا تقتضي الشريعة غير هذا. ومعلوم قطعاً أن السماع المصطلح عليه المتعارف اليوم بين الناس مصلحته في مفسدته كتفلة في بحر، فإن كان فيه جزء من المصالح ففيه ثلاثة وعشرون جزءاً من المفاسد، فهو أشبه الأشياء بالخمير والميسر اللذين قال الله تعالى فيهما: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

ونحن لا ننكر أن في السماع لذة وراحة ومنفعة، بل وفي الخمر والزنا وعامة المحرمات، لكن الشأن في تلك المنفعة هل هي راجحة على المضرة، أو المضرة راجحة عليها؟ فمن احتج على حل السماع بما فيه من اللذة والراحة، فهو في غاية البعد عن الشرع، وعن معرفة أحوال القلوب وصلاحتها وما يفسدها، ولولا سطوة الشرع ومظهره لكان هذا القائل ربما يحتج على حل الخمر والزنا بما فيهما من اللذة والمنفعة والراحة، ولكن القوم ليسوا بأصحاب حجج، وغالبهم واقف مع ذوقه.

فاعلم أن السماع يهيج من القلب الحب المشترك، فيشترك فيه محب الرحمن، ومحب الأوثان، ومحب الصليبان، ومحب الأوطان، ومحب النسوان، ومحب المردان، كل له نصيب وشرب وذوق على حسب محبته، فإذا سمعه من هو مفتون بمحبة وثنه أو صليبه أو وطنه أو امرأة أو صبي، أثار من قلبه كامنه، وأزعج منه قاطنه، وهيجه وهيج منه ما يناسب حاله مع

محبوبه. وتهييجُ السماع لهذا الحب الفاسد القاطع عن الله المبعد عنه،
أعظم من تهييجه للحب الصحيح الموصل إليه، من وجوه عديدة.

أحدها: أن وضع الأشعار المسموعة المطربة فيه، إنما قيلت في
الصور [١٣٦] المعشوقة، من ذكر أو أنثى، فصورتها ومعناها ومضمونها
إنما يناسب مَنْ قيلت فيه وَمَنْ هو مثله، وكلما كانت المناسبة أقوى كان
التأثير والتأثر أتمّ. وقد علم أرباب الخبرة من السماعيات أن السماع^(١)
لا يكاد يخلو من عشق صورة البتة، إمّا حلالاً وإمّا حراماً، وغالب
عشاق الصور إنما يتعلق عشقهم الصورَ المحرمة، وهم أركان السماع
وأهل الذوق فيه.

وقد ركب الله سبحانه الطباع على شهوة الصور المستحسنة،
وامتحن العباد بمجاهدة أنفسهم على الصبر وإيثار ما عنده، وشرع لهم
من أوراد العبادات في ليلهم ونهارهم ما يستعينون به على محاربة داعي
النفس والشيطان، من الصلوات الخمس وموتابعتها من الصيام والحج
والجهاد الظاهر والباطن، ومع هذا فغلبت الطباع ودواعي الهوى لن
تترك العبد سليماً.

وأعظم محرّمات الهوى ودواعيه ثلاثة أشياء تُسكر الروح: النظر
واستماع الغناء وشرب الخمر، فهذه الثلاثة هي أقوى أسباب العشق
والفجور، والنفس الأمّارة محبة لها مؤثرة لها، فجاء الشيطان إلى
النفوس ودعاها من هذه الأبواب الثلاثة.

(١) في الأصل: «سماعنا».

فلما جاء إلى نفوس أهل الإرادة والسالكين إلى الله، لم يمكنه أن يدعوهم من باب النظر والخمر، فدعاهم من باب السماع، فلما دخلوا منه برّطل نفوسهم، بأن خلّى بينها وبين حركة الحب، وقطع عنها الوسوس وخطرات المعاصي والفجور، وجمعها على السماع أتمّ جمع، ولم يشوش عليها بوسواس ولا خطرات. فوجدت بذلك النفوس راحة من وسوسها وخطراتها، وقوة عظيمة بجمعيتها، حتى إنّ أحدهم يجد من الحال في السماع ما لا يجده في الصلاة ولا عند قراءة القرآن، وكل هذا من براطيل النفس [٣٦ب] والشيطان ليتم لهما مرادهما، فلما ذقت النفوس في السماع هذا الذوق، ووجدت فيه هذا الوجد، تمكن حبه منها، وبلغ كلّ مبلغ، فأسرّها وملكها.

فشيطان السماع كامن لها، يجمع قوته للوثوب، فلما عرف أنّ السماع قد تمكن منها، وتغلغل في أجزائها، وثب عليها وثبة الأسد على فريسته، واصطادها فيه أتم صيده، فوالله لو كشف الغطاء لبصيرة عبد منورة بنور الإيمان، لرأى أهله بين قتيل وصريع، وجريح وأسير، وهذه أحوالهم وشطحاتهم وكلماتهم تُنبئك عما حلّ بهم، فصادقهم يبكي على صوت الشبابة والدفّ والشعر الذي لعله قيل في محرم، يُسخط الله طول ليله، ويرقّ ويتواجد ويهيم، وتقرأ عليه الختمة من أولها إلى آخرها، والقلب من هذه الأحوال مُجذب، والعين من البكاء قحطة. فيا للعقول! أي دليل أبين من هذا؟ أو أي برهان أظهر منه على أن اكتساب القلب للنفاق من هذا السماع أقرب من اكتسابه لحقائق الإيمان؟

ومن ههنا يُعرف مقادير السلف، وفضل معرفتهم، وأنهم في أوج الحقائق الإيمانية، وهؤلاء في حضيضها، إذ يقول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «الغناء يُنبت النفاق في القلب كما يُنبت الماء البقل»^(١). صح ذلك عنه. فأين هذا الكلام من كلام من يقول: سماع الغناء أنفع للمريد من سماع القرآن من ستة أوجه أو سبعة؟ ولا ريب أن هذا القائل أخبر عن ذوقه وذوق هذا المرید، وأنه من سماع الغناء لا من سماع القرآن.

فإذا كانت هذه مفسدة هذا السماع الخاص الذي يحضره الخواص، فما الظن بسماع العوام؟ نعم سماعهم خير من هذا، وأسلم عاقبة، وأخفُ ذنبًا، فإِنَّهُمْ يَعْدُونَ [١٣٧] أنفسهم فيه عصاة لاعبين، ويعترفون بأنه ذنب تنبغي التوبة منه، كما قيل:

وَيَشْرِبُهَا وَيَزْعُمُهَا حَلَالًا وَأَشْرَبُهَا وَأَزْعُمُهَا حَرَامًا^(٢)

فيا عجبًا أي إيمان يثمر من سماع أبيات طالما عصي الله بها في الأرض؟ والأغلب من حال قائلها أنه قالها وتغزل بها في محرم، كما هو حال أكثر الشعراء الذين يتغنى بأشعارهم، سيما وقد غلب على

(١) سبق تخريجه.

(٢) هذا مركب من بيتين:

وَأَشْرِبُهَا وَأَزْعُمُهَا حَرَامًا وَأَرْجُو عَفْوَرَبِّ ذِي امْتِنَانٍ

وَيَشْرِبُهَا وَيَزْعُمُهَا حَلَالًا وَتَلِكْ عَلَى الْمَسِيحِ خَطِيئَتَانِ

وهما للمأمون في «المحب والمحبوب» (٣١٦/٤) و«قطب السرور» (ص ٤٩٤)،

ولبعض شعراء المئة الثالثة في «فتح الباري» (١٠/٦٦).

سَمَاعِ النَّاسِ التَّغَزُّلُ بِالذَّكُورِ، وَذَكَرَ مُحَاسِنَهُمْ، وَمَا يَدْعُو إِلَى مَا لَعَنَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَاعِلُهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ، وَكَانَ غِنَاءَ النَّاسِ قَدِيمًا كُلَّهُ فِي الْإِنَاثِ، ثُمَّ خَسَفَ اللَّهُ بِعُقُولِ الْمُتَأَخِّرِينَ وَقُلُوبِهِمْ، فَصَارَ غِنَاؤُهُمْ فِي الذَّكُورِ، وَوَصَفَ مُحَاسِنَهُمْ وَقُدُودَهُمْ وَشُعُورَهُمْ وَخُصُورَهُمْ. فَيَا عَجَبًا! أَيَّ إِيمَانٍ وَأَيِّ حَالٍ صَحِيحٍ يَحْدُثُ عِنْدَ سَمَاعِ قَوْلِ الْمَغْنِيِّ الْمَلِيحِ الصُّورَةَ أَوْ الْمَلِيحَةَ بَيْنَ تِلْكَ الْمَوَاصِيلِ وَالْدَفُوفِ وَالْأَلْحَانِ؟

تَبَّتْ يَدَا عَاذِلِي فِيهِ وَوَجْتُهُ حَمَّالَةَ الْوَرْدِ لَا حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (١)
 وَقَوْلُهُ (٢):

ذَهَبِيُّ اللَّوْنِ تَحَسُّبٌ مِنْ وَجْتِيهِ النَّارُ تَنْقَدُحُ
 خَوْفُونِي مِنْ فَضِيحَتِهِ لَيْتَهُ وَافِيٌّ وَأَفْتَضِحُ
 وَقَوْلُهُ (٣):

يَا ذَا الَّذِي زَارَ وَمَا زَارَا كَأَنَّهُ مَقْتَسِبٌ نَارَا
 مَرَّ بِبَابِ الدَّارِ مُسْتَعْجَلَا مَا ضَرَّهُ لَوْ دَخَلَ الدَّارَا

(١) البيت لابن سهل في «ديوانه» (١/١٦) ولابن الوردي في «خزانة الأدب» لابن حجة (٢/١٠٥).

(٢) البيتان لكشاجم في ديوانه (ص ٦٩)، وبلا نسبة في «تفسير القرطبي» (١٣/٨٠) و«تليس إبليس» (ص ٢٢٦، ٢٤٦).

(٣) البيتان لأبي الشيبان في «ديوانه» (ص ٥٣) و«معاهد التنصيص» (٤/٥٥)، وبلا نسبة في «المحب والمحبوب» (٢/٣٦) و«الإمتاع والمؤانسة» (٢/١٧٣) و«ذم الهوى» (ص ٥٥٠).

فيتواجد عليها المرید، وبيكي وينوح، ويزعم أنه أخذ منها إشارة.
نعم أخذ إشارة^(١) من أبيات يُغضب الله ما قيلت فيه وما أريد بها، ولم
يأخذ الإشارة من كلامه، [٣٧ب] فلولا داء كامن في القلب أثاره السماع،
لكان الأمر بالعكس. وكذلك قول الآخر^(٢) :

ألا ما للمليحة لم تَزُرني أبخل بالمليحة أم صُدودُ
مَرَضتُ فعادني عَوَادُ قومي فمالك لم تُرِي فيمن يعود

وقول الآخر^(٣) :

ذي طَلعةٍ سبحانَ فالقِ صُبْحِه ومعاطفٍ جَلَّتْ يمينُ الغارسِ
مَرَّتْ بأرجاءِ الخيالِ طيوفه فبكت على رسم السلو الدارسِ

وقول الآخر^(٤) :

وماذا عسى الواشونَ أن يتحدثوا سوى أن يقولوا إنني لك عاشقُ
نعم صدق الواشونَ أنتِ حبيبةٌ إليَّ وإن لم تَصِفْ منك الخلائقُ

أفتري الواشين كانوا يَشُونُ بأنه يحب امرأته وجاريتته؟ وإنما تلك
الأغاني في حريم الناس وأبنائهم، ومدح ما حرّم الله من الخمر،

(١) في الأصل: «شارة»، وهي بمعنى الحسن والجمال، ولا يناسب السياق.

(٢) البيتان بلا نسبة في «عيون الأخبار» (٤/١٢٨) و«الموشى» (ص ١٤٨) و«اعتلال
القلوب» (ص ١٨٥) و«ذم الهوى» (ص ٥٠٥، ٥٠٦، ٥٠٧).

(٣) البيتان لابن الساعاتي في ديوانه، وبلا نسبة في «روضة المحبين» (ص ١٧٦، ٣٣٨).

(٤) البيتان لمجنون ليلي في ديوانه (ص ٢٠٢)، وينسبان لغيره، انظر تخريجهما في
«روضة المحبين» (ص ٤٤).

وتحسين ما قبَّحه من الفجور ودواعيه، فتنزيل هذا على محبة الله والشوق إليه، أعظم من تنزيله على من قيل فيه أولاً، وأقرب إلى البعد عن سخط الله ومقته، ويا لله العجب! أي إيمان يحصل للقلب أو صلاح أو قرب من الله عند قول المغني؟^(١):

بكرت تُذكرني لجاج العُدلِ فيها وتلحظني بطرفٍ مُخجلِ
وتميسُ كالغصن الرطيب ودونها كفلٌ كدعصِ الرملِ ضخْمٌ ممتلي
يا هذه حَتَّامَ هجرِكِ والقلي جودي على دَنفِ بحبك قد بُلي

وقال الآخر^(٢):

أعانقها والنفس بعدُ مشوقَةٌ إليها وهل بعد العناقِ تَدانِ
[١٣٨] وألثمُ فهاكي تزولُ صبابتي فيشتدُّ ما ألقى من الهَيِّمانِ

فإن قال المغني «أعانقه» كان طربُ الحاضرين أكثر، فهل يحل لمن يرجو الله وقارًا، ويعلم أن الله سائله غدًا عما قال وفعل، أن يفتي بأن السماع حلال مطلقًا، وهو يعلم أن هذه البلايا وأضعاف أضعافها فيه؟ هل يطيب السماع عند القوم إلا بمدح ما حرّم الله ورسوله، وذكر محاسن المردان والنسوان، والأشعار التي قيلت في حريم المسلمين وأبنائهم؟ فوالله إن بلية الإسلام بهؤلاء من أعظم البلايا، وفي غير سبيل الله كم أفسد بالسماع من قلب، وكم سلب من نعمة، وكم جلب من نقمة،

(١) لم أجد الأبيات فيما رجعت إليها من المصادر.

(٢) البيتان لابن الرومي. وتخريجهما في «روضة المحبين» (ص ٥٢).

وكم رُكِبَ به من فرج حرام، وكم استُجِلَّ به من المحارم والآثام، وكم صدَّ عن ذكر الله وعن الصلاة، وكم قطع على السالكين سبيل النجاة، وكم تهافت به فرأش العقول والأحلام في الجحيم، وكم فاتها به من حظها من الله وجنات النعيم؟ تالله ما نصبَ صياد بني آدم مثل هذا الشَّرْكَ لصيد النفوس، ولا أدار على الندامى بعد كؤوس الخمر مثل هذه الكؤوس، وما عَلِقَتْ حبائل هذا الشَّرْكَ بقلب إلا وعزَّ استنقاذه على الناصحين، ولا أسرَّ به من أسيرٍ إلا وتعدَّر فكاكُه على المخلصين.

بِئْسَ مَا بَرِئْنَا إِلَى اللَّهِ مِنْ مَعْشِرٍ	بِهِمْ مَرَضٌ مِنْ سَمَاعِ الْغِنَا
وَكَمْ قَلْتُ يَا قَوْمِ أَنْتُمْ عَلَى	شَفَا جُرْفٍ فَاسْتَهَانُوا بِنَا
بِوَلَمَّا اسْتَمَرُّوا عَلَى غِيَّهِمْ	رَجَعْنَا إِلَى اللَّهِ فِي رُشْدِنَا
فَعِشْنَا عَلَى مِلَّةِ الْمُصْطَفَى	وَمَاتُوا عَلَى تَائِنَاتِنَا

فصل

ومن مفاصده: أَنَّهُ يُثْقِلُ عَلَى الْقُلُوبِ الْفِكْرَ فِي مَعَانِي الْقُرْآنِ وَحَقَائِقِ الْإِيمَانِ، فَبِحَسَبِ انْصِرَافِهِ إِلَى السَّمَاعِ يَكُونُ انْصِرَافَهُ عَنْ ذَلِكَ، فَمُسْتَقِيلٌ وَمُسْتَكْثَرٌ، وَكَذَلِكَ يُثْقِلُ عَلَى اللِّسَانِ ذِكْرَ اللَّهِ، وَإِنْ خَفَ الذِّكْرُ عَلَى لِسَانِهِ كَانَ ذِكْرًا مَجْرَدًا عَنْ مَوَاطَاةِ الْقَلْبِ لِلِّسَانِ، وَهَذَا أَمْرٌ يَعْلَمُهُ السَّمَاعِيُّ الصَّادِقُ مِنْ نَفْسِهِ، وَلَا يُمْكِنُهُ جَحْدُهُ بِقَلْبِهِ، فَمَا اجْتَمَعَ السَّمَاعُ

(١) الأبيات في «إغاثة اللهفان» (٢٢٦/١) بلا نسبة. ولعلها للمؤلف. انتهج فيها نهج الأبيات التي أنشدها ابن القشيري في الرد على «الشفاء» لابن سينا. انظر «مجموع الفتاوى» (٢٥٣/٩) و«الرد على المنطقيين» (ص ٥١٠).

والذكر والقرآن في موطن إلا وطرد أحدهما الآخر، فلا يجتمعان إلا حربًا، لا يجتمعان سلمًا قط.

فصل

ومن مفسده: أنه يميل بسامعه إلى اللذات العاجلة، ويدعو إلى استيفائها من جميع الشهوات بحسب الإمكان، ولا يردع سامعه عن استيفائها إلا عصمة عجز، أو فقر^(١) جائحة، أو خوف عقوبة عاجلة، أو فقر، أو فضيحة تُذهب الرئاسة والمروءة، أو خوف عقاب الله في الدار الآخرة، إن قوي وارد الإيمان على وارد السماع، وإلا قالت النفس لا أبيع حاضرًا بغائب ولا نقدًا بنسيئة.

خذ ما تراه ودع شيئًا سمعت به^(٢)

وهذا كامن فيها، لو ناطقتها نطقت لك به، ومعظم هذه اللذات التي يدعو إليها السماع لذة المنكح، وليست تمام لذته إلا في المتجددات، وإن كان القديمات أجمل منهن، ولا سبيل إلى كثرة المتجددات من الحل غالبًا، فيتقاضى السماع [١٣٩] والطباعُ اجتلابها من المحرمات.

ولذلك قال السلف الصالح^(٣): «الغناء رقية الزنا». وبين الغناء

(١) كذا في الأصل، ولعل الصواب: «أو توبة...»، كما في «مدارج السالكين» (١/٢٨٣).

(٢) عجزه: في طلعة الشمس ما يُغنيك عن زُحَلٍ

والبيت للمتنبى في ديوانه (٣/٢٠٥).

(٣) هو الفضيل بن عياض، أخرجه عنه ابن أبي الدنيا في «ذم الهوى» (٥٧) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥١٠٨).

وشهوة الجماع ولذته أقربُ نسبٍ، من جهة أنَّ الغناء لذة الروح، والجماع أكبر لذات النفس، فيجتمع داعي اللذتين على طبع مستعد ونفس فارغة، فيجد الداعي القوي محلًّا فارغًا لا مدافع له، فيتمكن منه، كما قيل (١):

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبًا فارغًا فتمكنا

ولما يئس الصياد من المتعبدين أن يسمع أحدهم شيئًا من الأصوات المحرمة كالعود والطنبور والشبابة، نظر إلى المعنى الحاصل بهذه الآلات، فأدرجه في ضمن الغناء، وأخرجه في قلبه، وحسنه لمن قلَّ فقهه ورقَّ علمه، وإنما مراده التدريج من شيء إلى شيء.

والعارف من نظر في الأسباب إلى غاياتها ونتائجها، وتأمل مقاصدها وما تؤول إليه، ومن عرف مقاصد الشرع في سدِّ (٢) الذرائع المفضية إلى الحرام قطع بتحريم هذا السماع، فإنَّ النظر إلى الأجنبية واستماع صوتها لغير حاجة حرامٌ سدًّا للذريعة، وكذلك الخلوة بها.

ومحرّمات الشريعة قسمان: قسم حرم لما فيه من المفسدة، وقسم حرم لأنَّه ذريعة إلى ما اشتمل على المفسدة.

فمن نظر إلى صورة هذا المحرّم ولم ينظر إلى ما هو وسيلة إليه استشكل وجه تحريمه، وقال: أي مفسدة في النظر إلى صورة جميلة

(١) البيت للمجنون أو غيره، وتخريجه في «روضة المحبين» (ص ١٤٤).

(٢) في الأصل: «صد».

خلقها الله تعالى، وجعلها آيةً ودلالةً عليه؟ وأي مفسدة في صوت مطرب بألة تؤديه، أو استماع كلام موزون بصوت حسن؟ وهل هذا إلا بمنزلة سماع أصوات الطيور المطربة، ورؤية الأزهار والمناظر المستحسنة من الأماكن المعجبة البناء، والأشجار والأنهار وغيرها؟

فيقال لهذا القائل: تحريم هذا النظر إلى الصور [٣٩ب] وهذه الآلات المطربة من تمام حكمة الشارع، وكمال شريعته، ونصيحته للأمة، فإنه حرّم ما اشتمل على المفسد، وما هو وسيلة وذريعة إليه، ولو أباح وسائل المفسد مع تحريمها لكان تناقضاً يُنزّه عنه، ولو أنّ عاقلًا من العقلاء حرّم مفسدة وأباح الوسيلة المفضية إليها، لعدّه الناس سفياً متلاعباً، وقالوا: إنه متناقض، وهل يمكن من شَمِّ رائحة الشريعة والفقّه في الدين أن يردّد مثل هذا الكلام؟ وهل هو إلا بمثابة أن يقال: أي مفسدة في الصلاة لله بعد الصبح وبعد العصر حتى يُنهي عنها؟ وأي مفسدة في تحريم قطرة من الخمر لا تُسكر ولا تُغيّب العقل حتى يُحدّد عليها؟ وأي مفسدة في تحريم الصلاة إلى القبور وفي النهي عن الصلاة فيها؟ وأي مفسدة في تقديم رمضان بيوم أو يومين وفي^(١) سبّ آلهة المشركين في وجوههم؟ إلى أضعاف أضعاف هذا مما نهى عنه الشارع سدّاً لذريعة إفضائه إلى المحرم الذي يكرهه ويبغضه، وهل هذا إلا محض حكمته ورحمته وصيانتته لعباده وحميته لهم من المفسد أو أسبابها ووسائلها؟

(١) في الأصل: «وعن».

والعاقل العارف بالواقع يعلم أنَّ إفضاء هذا السماع إلى ما حرّمه الله ورسوله إن لم يزد على إفضاء النظر فليس بدونه، بل كثيرًا ما يكون إفضاؤه فوق إفضاء الخمر، فإن سُكر الخمر إفاقةً صاحبه سريعة وسُكر السماع لا يستفيق صاحبه إلا في عسكر الهالكين.

فصل

فإن قال هذا المغرور المخدوع: إن سماع هذا الغناء المطرب بهذه الآلات المطربة المزعج للطباع الداعي لها إلى العشق ولو ازمه لا يُؤثر عندي، ولا أسمعه لهذا الغرض، ولا يلتفت قلبي إلى حب ما يوصف [١٤٠] فيه، وإنما أنزله على مقتضى حالي ووجدني في حب الله والدار الآخرة، فهو يُثير من قلبي ما هو كامن فيه، كما يثير من قلب محب الدنيا والصور ما هو كامن فيه، فإن سماعي لله وبالله، فلا يضُرُّني ما فيه من المفاسد، بخلاف سماع أهل اللهو واللعب.

فالجواب أن يقال: هذا موضع الغرور والتلبيس، ومنه وقع من وقع في شبكة السماع وشركه، ورام التخلص منها فعزَّ عليه.
فيقال له أولاً:

ما الفرق بينك وبين من يقول: أنا أنظر إلى الصور المستحسنة من النساء الأجانب وإلى معاطفهن وقدودهن وخدودهن وسائر محاسنهن، وليس نظري نظر الفساق، فأنظر إليهن نظر اعتبارٍ واستدلال وتفكر في كمال قدرة الخالق، فأتعجب من حسن الصنعة في استدارة ذلك الوجه وحسنه، وتناسب خلقه، وتبلُّج تلك الجبهة والجبين فوقه

واستوائهما، وتقوس تينك الحاجبين^(١) واعتدال خلقهما كأنهما خطًا
 بقلم، وأقول: تبارك من خطهما بقلم القدرة!
 وأنظر إلى تينك العينين وما أودعناه من الملاحه والحلاوة
 والسواد في ذلك البياض، وحسن شكلهما، وجمعهما لمحاسن الوجه،
 ثم أنظر إلى دقة الأنف واستوائه وحسن شكله، وإلى ذلك الفم
 واستدارته ولطفه وبديع خلقه، وهكذا عضوًا عضوًا. وأقول في خلال
 ذلك كله: تبارك الله أحسن الخالقين، وإذا رأيت هذه الصورة ذكرتني
 الحور العين، كما قال قائل^(٢):

وإذا رآك العابدون تيقنوا حور الجنان لدى النعيم الخالد
 فسعوا إلى ذاك النعيم وشمروا إذ كان فيك عليه أكبر شاهد
 [٤٠ب] وهل هذا إلا فتح لباب الإباحة وخرق لسياج الشريعة؟
 وليس بعده أن تقول: إنما حرمت الخمر لما يوقع شربها فيه من العداوة
 والبغضاء والصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة، وأنا أشربها لغير هذا
 الغرض، بحيث لا تُوقيني في عداوة ولا بغضاء، ولا تصدني عن ذكر
 الله، ولا عن فرض من فرائضه!

وكل هذا وأمثاله قد رأيناه وشاهدناه في بعض القوم، وفي كتبهم
 ومخاطباتهم، فانظر كيف يرق الدين حتى ينسلخ منه الرجل كانسلاخ
 الشعرة من العجين، والمعصوم من عصمه الله.

(١) الحاجب مذكر، فقول المؤلف «تينك» وهم أو عامي.

(٢) أولهما مع أبيات أخرى لأبي إسحاق الصابي في يتيمة الدهر (٢/٢٥٩).

ثم يقال لك (١) ثانيًا:

الطباع البشرية فيك حيَّةٌ لم تمت، وإن ادَّعيت غير هذا كذبتك طباعك وبشريتك (٢)، فإذا زعمت أنك تسمع للإشارة سبقك الطبع إلى مقصوده وحظه قبل أخذ الإشارة، ثم تُبرِّطُك نفسك بتلك الإشارة، والطبع يعمل عمله ويتقاضى حظه وأنت مشغول عنه بالإشارة، والإشارة لا تدوم، فإذا ترخَّلت عنك طالبك الطبع بحظه أتمَّ مطالبته، فأعلى أحوالك أن تقع في حومة الحرب والجهاد، فيُدال على طبعك مرةً ويُدال عليك أخرى، والغالب أنك أسيرٌ معه تجعل حظه عبودية وقربة، وهذه نكتة السماع وسِرُّه ولبُّه، فتكون أسوأ حالًا ممن سمعه لهواً ولعباً، وعدّه معصية وذنباً.

فليتأمل اللبيب الفطن هذا الموضوع حقَّ التأمل، وليدقق النظر في هذا الداء (٣) الذي اختطف من شاء الله رب العالمين، وما نجا منه إلا فرد تميز عن كثرة الهالكين، والله المستعان وعليه التكلان.

ثم يقال لك ثالثًا:

لو كان سماعك بالله وعن الله كما تقول، لدلت على صدقك [١٤١] شواهد ذلك من سماع كلامه وأسمائه وصفاته ومواعظه وترغيبه وترهيبه، وما يدعو إلى محبته ويباعد عن سخطه، ولم يكن سماعك لشيء لا يُشار به إلى الخالق، وإنما يُشار به إلى الخمر والسكر والملوحة

(١) كذا في الأصل «لك»، وكان الكلام مستمر مع المخاطب.

(٢) في الأصل: «بشريتك».

(٣) في الأصل: «الدوار».

والمليح وطيب وصالهما وعدوبته وتوابع ذلك، فتعالى الله وتنزه جنابه وجلت عظمته أن يشار إليه بذلك، أو يُستجلب رضاه وقربه به، كلا والله إن استُجلبَ بذلك إلا مَقْتُهُ والبعْدُ منه.

وكيف يجوز أن تؤخذ الإشاراتُ إلى الله سبحانه من (١) التغزل في النساء والمردان؟ وأين هذا مما يجب له سبحانه من الهيبة والتعظيم والوقار والإجلال لعظمته وخشيته والخوف منه؟ وقد آل بهم هذا إلى أن أطلقوا في حقِّه سبحانه ما يطلقه هؤلاء العشاق في معشوقهم من الصدِّ والهجر والوصال وتوابع ذلك، ونشأت من ذلك الشطحات والطامات والرعونات التي هي ضد طريق العبودية، وكل هذا من مفسد السماع، والعاقل يعلم أن مفسدة شرب الخمر دون هذه المفسدة بكثير.

ومن العجب استدلالهم على جواز سماع الغناء والمعازف والشبابة والدفوف المصلصلة بسماع أصوات الهزار والبلبل والشُخُور والقُمري، وهل هذا إلا من جنس قياس الذين ﴿قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥]؟ ومن جنس قياس أهل الإباحة الذين يقولون: النظر إلى الصور الجميلة والتلذذ بها مثل النظر إلى سائر ما خلق الله من المناظر البهجة من الأزهار والثمار والنبات والحيوان، فما الذي حلَّ هذا وحرَّم هذا؟ أفترى هذا ما عَلِمَ أن سماع أصوات الطيور ورؤية محاسن النبات والثمار لا يدعو [٤١ب] إلى ما يدعو إليه سماع الغناء وآلات اللهو والنظر إلى الصور المستحسنة؟

(١) في الأصل: «في».

فإن كنت لا تدري فتلك مصيبةٌ وإن كنت تدري فالمصيبةُ أعظمُ (١)

فصل

والتحقيق في السماع أنه مركب من شبهة وشهوة، وهما الأصلان اللذان ذمَّ الله من يتبعهما ويُحكِّمهما على الوحي الذي بعث الله به أنبياءه ورسله. قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣] فالظن الشبهة، وما تهوى الأنفس الشهوة، والهدى الذي جاءنا من ربنا مخالف لهذا وهذا، وقال تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة: ٦٩]، فالاستمتاع بالخلاق - وهو النصيب - هو الشهوة، والخوض هو الكلام بمقتضى الشبهة. فهذان الداءان هما داءا الأولين والآخرين إلا من عصم الله، وقليل ما هم، وهذا السماع قد تركب أمره من هذين الأصلين.

فأمَّا الشبهة التي فيه فهي تعلق أهله بالشبهة التي يستندون إليها في فعله، كقولهم: حضره سادات المشايخ ومن لا يُطعن عليه، وأقره النبي ﷺ في بيته، وسمع الحداء وهو ضرب من سماع الغناء، وسمع الشعر

(١) البيت لصفي الدين الحلبي في «ديوانه» (ص ٦٥) من قصيدة له في بحر الكامل، بتغيير طفيف للبيت الذي هنا في بحر الطويل. وأنشده شيخ الإسلام كما هنا في «منهاج السنة» (٤/١٢٨، ٥/١٦٢، ٧/٢٥٣، ٤٥٩).

وأجاز عليه، ونحو ذلك من الآثار التي سنذكرها، ونبين أن صحيحها لا يدل، وما هو صريح في الدلالة فكذبٌ موضوع على رسول الله ﷺ.

ومن الشبهة التي فيه أن الروح متى سمعت ذكر المحبة والمحبوب والقرب منه ورضاه حرَّك ذلك لمن في قلبه شيء من المحبة الصادقة، وهذا أمرٌ لا يمكن [١٤٢] دفعه، فهذا نصيب الشبهة فيه.

وأما الشهوة فهي نصيب النفس منه، فإن النفس تلتذُّ بسماع الغناء، وتطرب بالألحان المطربة، وتأخذ بحظها الوافر فيه، حتى ربما أسكرها، وفعل فيها ما لا يفعله الخمر، فإن الطباع تنفعل للسمع والصورة والخمر، [و] تسكر النفوس بها أتمَّ سُكرٍ، ولهذا قال الله سبحانه في اللوطية لما أخذهم العذاب: ﴿لَعَنَّاكَ إِنَّمَّ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]، فلعشاق الصور سكرة لا يستفيقون منها إلا في عسكر الهالكين، إلا من تداركه الله برحمته.

والسمع يُسكر الروح كما تقدم، وتزيد لذته أحياناً على لذة الخمر، ولهذا تُؤثر الألحان في الأطفال والبهايم ما لا يؤثر غيرها فيها. قد تتجرد هذه الشهوة التي هي حظ النفس وهو الغالب من السماع، وقد تُبهرج بنوع شبهة من محبة الله وطلبه والشوق إلى لقائه، فالشهوة فيه ما للنفوس من الحظ، والشبهة ما للقلب والروح فيه من السفر إلى المحبوب.

ولكن ثمَّ نكتة، وهي أنه هل هذا من الزاد الذي تُسافر به القلوب والأرواح إلى محبوبها، أو ليس من زاد سيرها إليه؟

فهنا تُسكَب العبرات، ويتبين مَنْ هو عامل على حظه وإرادته من المحبوب، سواء أَراده محبوبه أو لم يردّه، وهو حال السماع الشعري الذي يثيره، و[من] هو عامل على مراد محبوبه منه ومرضاته، وهو حال السماع القرآني، فهذا لَوْن، وهذا لَوْن. وبين الحالين أبعد ما بين المشرقين، ولأجل الباطل الذي فيه تدخل الدواخل القادحة على مَنْ حضره من الصادقين، لأنه ربما غلب فيه سُكر النفوس على حظّ القلوب والأرواح، فانغمر في حظ النفوس، وصار الحكم للغالب، ويصير [٤٢ب] النصيب خالصًا للنفس والشيطان.

فصاحب الحال المحمود في السماع قد يغلب عليه جانب الباطل، وينغمر الحق فيه ويستهلك، لكون صورة هذا السماع غير مشروعة، وليست من أمر الدين ولا من الإسلام، فهي صورة مبتدعة.

فلهذا السبب قد يقوى جانبُ النفس والشيطان فيه على جانب الحق، وتصير الحركة نفسانية لا قلبية، ولا يشعر صاحبها لغلبة حكم الوارد عليه، ونفس الحركة التي أثارها السماع ليست هي الميزان نفسها، بل هي الموزونة، فتستدعي ميزانًا يزنها به الصادق الناصح لنفسه العامل على مراد ربه لا على مراده هو، وحينئذ يتبين له هل هي حركة نفس أو حركة قلب في مرضاة المحبوب. فليفتن اللبيب لهذا الموضوع، وليقف فيه وقفة المتأمل، والله الموفق.

فصل

ولمّا تقادم العهد، وطال الأمد، دَرَسَتْ معالم الدين، وأخذ الناس

بُنَيَاتِ الطَّرِيقِ، وَصَارَ النَّاسُ إِلَّا الْأَقْلَ كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣]، فَاسْتَنَدَ كُلُّ قَوْمٍ غَيْرِ حِزْبِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ظُلْمِ آرَائِهِمْ، وَحَكَمُوا عَلَى السَّنَةِ مَقَالَاتِ شَيْوْخِهِمْ وَطَرَائِقِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ، وَصَارَ الْمَعْرُوفُ مَنكَرًا، وَالْمَنكَرُ مَعْرُوفًا، وَصَارَ الْغَالِبُ عَلَى هَذَا الْخَلْقِ الْهَوَى الْمَطْعَامُ، وَالرَّأْيُ الْمَعْجَبُ بِهِ، وَالتَّقْلِيدُ الَّذِي لَيْسَ مَعَ مَقْلَدِهِ بَرَهَانٌ مِنَ اللَّهِ وَلَا بَصِيرَةٌ بِهِ، إِنْ مَعَهُ إِلَّا قَوْلُهُ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢].

فَانْحَرَفَتْ لِذَلِكَ الْأَعْمَالُ، وَانْقَلَبَتِ الْأَذْوَاقُ، وَفَسَدَتِ الْأَحْوَالُ، وَصَدِئَتِ الْقُلُوبُ، وَكَثِيرٌ مِنْهَا انْتَكَسَ، فَلَا يَعْرِفُ مِنَ الْمَعْرُوفِ إِلَّا مَا وَافَقَ هَوَاهُ، وَلَا يُنْكِرُ مِنْهُ إِلَّا مَا خَالَفَ [١٤٣] هَوَاهُ، وَهَذَا هُوَ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: أَتَدْرُونَ مَا مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: هُوَ الَّذِي لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يَنْكُرُ مَنكَرًا. وَقَالُوا لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ! هَلْكَ مَنْ لَمْ يَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَ عَنِ الْمَنكَرِ، فَقَالَ (١): هَلْكَ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ قَلْبٌ يَعْرِفُ بِهِ الْمَعْرُوفَ وَالْمَنكَرَ (٢).

فَلَا يَوْجَدُ غَالِبًا إِلَّا ذَوْقُ مَنَحْرَفٍ فِي عَمَلٍ مَنَحْرَفٍ صَادِرٍ مِنْ قَلْبٍ مَنَحْرَفٍ، فَتَخْرُجُ الْأَقْوَالُ وَالْأَحْوَالُ فِيهَا مِنَ الْإِنْحِرَافِ مَا فِيهَا، فَعَظُمَ

(١) فِي الْأَصْلِ: «فَقَالُوا»، وَالْمَثْبُتُ يَنَاسِبُ السِّيَاقَ.

(٢) أَخْرَجَهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي «الْحَلِيَّةِ» (١/١٣٥).

الخطب واشتد الأمر، وكثرت الشطحات والطامات، وانسلخت القلوب من الإيمان، وأربابها لا يعلمون، لأن القلب متى لم يكن على قلب الرسول وأصحابه في القصد والعلم والمحبة والكرامة والتصديق واستحسان ما استحسنوه وإيثاره واستقباح ما استقبحوه واجتنابه، كان فيه من الانحراف عن الإيمان بقدر انحرافه عن ذلك، حتى تعود القلوب كما قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: «القلوب على أربعة: قلب أجرد، فيه سراج يزهر، فذاك قلب المؤمن»^(١). فإنه أجرد أي متجرد من هذا الانحراف في قصده وحبه وعلمه، متجرد عن شهوات الغي وشبهات الباطل، متجرد عن معارضات أمر الله بالتأويل والشهوات، وعن معارضات خبره بالتقليد والشبهات، وفيه من الإيمان ومباشرة روحه له سراج يزهر، فهذا هو القلب السليم الذي لا ينجو إلا من أتى الله [به].

الثاني: قلب أغلف، وهو قلب الكافر في غلاف، لا يعرف معروفًا ولا [ينكر] منكرًا، بل المعروف عنده منكرٌ والمنكر معروف.

[٤٣ب] الثالث: قلب منكوس، أي مكبوب كالكوز المجخي، وهو قلب المنافق، وهو شر قلوب الخلق، وهذا القلب دأبه دائمًا أن يدعو الناس إلى ما يكرهه الله ورسوله، وينهاهم عما يحبه الله ورسوله من الأقوال والأعمال والاعتقاد.

الرابع: قلب له مادة إيمان ومادة نفاق، فهو يتقلب بين المادتين،

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٤٣٩) وأبو نعيم في «الحلية» (٢٧٦/١).

وهو الغالب عليه منهما.

ومن كان له بصيرة وتأمل أحوال الخلق رآهم لا يخرجون عن هذه الأقسام الأربعة، فمن أين تجيء الأذواق الصحيحة المستقيمة، والقلوب قد انحرقت أشدَّ الانحراف عن هُدي نبيها وما كان عليه هو وأصحابه؟

والسلف الصالح كانوا يجدون الأذواق الصحيحة المتصلة بالله في الأعمال الصحيحة المشروعة، وفي قراءة كتاب الله وتدبره واستماعه، وفي مزاحمة العلماء بالركب، وفي الجهاد في سبيل الله، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي الحب في الله والبغض فيه، وتوابع ذلك.

فصار ذوق المتأخرين إلا من رحم الله في اليراع والدف والمواصيل، والأغاني المطربة من الصور المستحسنة، والرقص والزعقات، وتعطيل ما يحبه الله ويرضاه من عبوديته المخالفة لهوى النفوس.

فستان بين ذوق الألحان وذوق القرآن، وبين ذوق العود والطنبور، وذوق المؤمنين والنور، وبين ذوق الزُّمر وذوق الزُّمر، وبين ذوق الناي وذوق «اقتربت الساعة وانشق القمر»، وبين ذوق المواصيل والشبابات وذوق يس والصفافات، وبين ذوق غناء الشعر وذوق [٤٤] سورة الشعراء، وبين ذوق السماع للمكاء والتصديّة وذوق الأنبياء، وبين الذوق على سماع تُذكر فيه العيون السود والخصور والقُدود، وذوق

سَمَاعِ سُورَةِ يُونُسَ وَهُودَ، وَبَيْنَ ذُوقِ الْوَاقِفِينَ فِي طَاعَةِ الشَّيْطَانِ عَلَى
 أَقْدَامِهِمْ صَوَافٍ، وَذُوقِ الْوَاقِفِينَ فِي خِدْمَةِ الرَّحْمَنِ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ
 وَالْأَعْرَافِ، وَبَيْنَ ذُوقِ الْوَاجِدِينَ عَلَى طَرَبِ الْمَثَالِثِ وَالْمَثَانِي، وَذُوقِ
 الْعَارِفِينَ عِنْدَ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ وَالسَّبْعِ الْمَثَانِي، وَبَيْنَ ذُوقِ أَوْلِي
 الْأَقْدَامِ الصَّافَاتِ فِي حَضْرَةِ سَمَاعِ الشَّيْطَانِ، وَذُوقِ أَصْحَابِ الْأَقْدَامِ
 الصَّافَاتِ بَيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَنِ.

سُبْحَانَ اللَّهِ! هَكَذَا تَنْقَسِمُ الْأَذْوَاقُ وَالْمَوَاجِيدُ، وَيَتَمَيَّزُ خَلْقُ
 الْمَطْرُودِينَ مِنْ خَلْقِ الْعَبِيدِ، وَسُبْحَانَ الْمُمِدِّ لَهُؤُلَاءِ وَهُؤُلَاءِ مِنْ عَطَائِهِ،
 وَالْمَفَارِقِ بَيْنَهُمْ فِي الْكِرَامَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَوَاللَّهِ لَا يَجْتَمِعُ مَحَبَّةَ سَمَاعِ
 الشَّيْطَانِ وَكَلَامِ الرَّحْمَنِ فِي قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ أَبَدًا، كَمَا لَا تَجْتَمِعُ بِنْتُ
 عَدُوِّ اللَّهِ وَبِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ عِنْدَ رَجُلٍ وَاحِدٍ أَبَدًا^(١).

أَنْتَ الْقَتِيلُ بِكُلِّ مَنْ أَحَبَّه

فَاخْتَرُ لِنَفْسِكَ فِي الْهَوَى مِنْ تَصْطَفِي^(٢)

كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَرَضِيَ عَنْهُمْ، إِذَا اجْتَمَعُوا وَاشْتَاقُوا إِلَى
 حَادٍ يَحَدُّو بِهِمْ لِيَطِيبَ لَهُمُ السَّيْرُ، وَمُحَرِّكٍ يُحَرِّكُ قُلُوبَهُمْ إِلَى
 مَحْبُوبِهِمْ، أَمَرُوا وَاحِدًا مِنْهُمْ يَقْرَأُ وَالْبَاقُونَ يَسْتَمْعُونَ، فَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ،
 وَتَفِيضُ عَيْوَنُهُمْ، وَيَجِدُونَ مِنْ حَلَاوَةِ الْإِيمَانِ أَضْعَافَ مَا يَجِدُهُ
 السَّمَاعَاتِيَّةُ مِنْ حَلَاوَةِ السَّمَاعِ، وَكَانَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِذَا جَلَسَ عِنْدَهُ

(١) كَمَا فِي الْحَدِيثِ الَّذِي أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣٧٢٩) عَنِ الْمَسُورِ بْنِ مَخْرَمَةَ.

(٢) الْبَيْتُ لِابْنِ الْفَارُضِ فِي دِيْوَانِهِ، وَانظُرْ تَخْرِيجَهُ فِي «رَوْضَةِ الْمُحِبِّينَ» (ص ١١٠).

أبو موسى يقول: يا أبا موسى [ب٤٤] ذكّرنا ربّنا، فيأخذ أبو موسى في القراءة^(١)، وتعمل تلك الأقوال في قلوب القوم عملها، وكان عثمان بن عفان يقول: لو طهرت قلوبنا لما شبعنا من كلام الله^(٢). وإي والله! كيف تشبع من كلام محبوبهم وفيه نهاية مطلوبهم؟ وكيف تشبع من القرآن وإنما فتحت به لا بالغناء والألحان؟

إذا مرضنا تدأويننا بذكركم فإن تركناه زاد السقم والمرض^(٣)

وأصحاب الأَطْرَابِ^(٤) والألحان عن هذا كله بمعزل، هم في واد

والقوم في واد.

الضَبُّ والنونُ قد يُرَجَى التقاؤُهُما وليس يُرَجَى التقاءُ الوحي والقَصَبِ^(٥)

فأين حال من يَطْرَبُ بسمع الغناء والقَصَبِ بين المثلث والمثاني

وذوقه ووجدته إلى حال من يجد لذة السماع وروح الحال وذوق طعم

الإيمان؟ إذا سمع في حال إقبال قلبه على الله، وأنسه به، وشوقه إلى

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (١٠٩/٤) وأبو نعيم في «الحلية» (٢٥٨/١)

وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٣٩/٣٧) طبعة المجمع). وانظر «سير أعلام

النبلاء» (٣٩١/٢) و«البداية والنهاية» (٢٥٥/١١).

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد «فضائل الصحابة» (٧٧٥) والبيهقي في

«الأسماء والصفات» (٥٦/٢).

(٣) البيت باختلاف الشطر الثاني في «مدارج السالكين» (٤٢٣/٢) و«الوابل

الصيب» (ص ١٧٢).

(٤) في الأصل: «الطراف». ولعل الصواب ما أثبتناه.

(٥) صدره لأبي إسحاق الصابي في «يتيمة الدهر» (٣٤٥/٢).

لقائه، واستعداده لفهم مراده من كلامه، وتنزيله على حاله، وأخذه بحظه

الوافر منه، قارئاً^(١) مجيداً حسن الصوت والأداء يقرأ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طه﴾ ١) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ٢) إِلَّا نَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى ٣) تَنْزِيلًا

مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ٤) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ٥) لَهُ مَا فِي

السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ٦) وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ

يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ٧) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ٨) ﴿طه: ١-٨﴾.

وأمثال هذا النمط من القرآن الذي إذا صادف حياة في قلب صادق قد شمَّ

رائحة المحبة وذاق حلاوتها، فقلبه لا يشبع من كلام محبوبه، ولا يقرُّ

ولا يطمئنُّ إلا به = كان^(٢) [١٤٥] موقعه من قلبه كموقع وصال الحبيب بعد

طول الهجران، وحلَّ منه محلَّ الماء البارد في شدة الهجير من الظمان،

فما ظنك بأرض حياتها بالغيث، أصابها وإبله أحوج ما كانت إليه، فأنبت

فيها من كل زوج بهيج قائم على سوقه يشكره ويشني عليه.

فهل يستوي عند الله وملائكته ورسوله والصادقين من عباده سماعُ

هذا وذوقه وذوق صاحب سماع الغناء، من سماع أهله عبيد نفوسٍ

شهوانية، كان عقد مجلس اجتماعهم طلباً للذة النفوس ونيلاً لحظها؟

فمن لم يُميِّز بين هذين السماعين والذوقين، فليسأل ربّه بصدق رغبته

إليه أن يُحيي له قلبه الميت، وأن يجعل له نوراً يمشي به في الناس،

ويفرق به بين الحق والباطل، فإنه قريب مجيب.

(١) «قارئاً» مفعول الفعل «سمع».

(٢) «كان» جواب شرط «إذا سمع».

فصل

في التنبيه على نكتة خفية من نكت السماع يعرفها أهله، وهي أنه قد علم الذائقون منهم أن ما وَجَدَ صادقٌ في السماع الشعري وجدًا وتحرك به إلا وَجَدَ عند انقضائه ومفارقة المجلس قبضًا على قلبه، ووجد نوعَ استيحاشٍ وأحسَّ ببعده، ولا يتفطنُ لهذا إلا من في قلبه حياة وطلب، وإلا ف

ما لجُرحِ بميتِ إيلامٍ^(١)

ولو سئل عن سبب هذا لم يعرفه، لأن قلبه معمور بحب السماع وذوقه ووجدته عن استخراج أسباب فساد القلب منه، ولو وزَّنه بالميزان العادل لعلم من أين أتى، فاسمع الآن السببَ الذي نشأ منه هذا القبضُ وهذه الوحشة والبعث.

لما كان السماع الشعري أعلى أحواله أن يكون ممتزجًا من حق وباطل، ومركبًا كما تقدم من شهوة وشبهة، وأحسن أحوال صاحبه أن تأخذ الروح [٤٥ب] حظَّها المحمود منه ممتزجًا بحظ النفس والشيطان، غير صافٍ ولا خالصٍ، فامتزج نصيب الرحمن بنصيب الشيطان، واختلط حظ القلب بحظ النفس، هذا أحسن أحواله، فإنه مؤسسٌ على حظ النفس والشيطان، وهو فيه بالذات، وأما نصيب الرحمن فهو فيه بالعرض، ولم يُوضَع عليه ولا أُسِّس عليه، فاختلط في وادي القلب

(١) صدره: من يهَّنْ يسهل الهوانُ عليه

والبيت للمتنبى في «ديوانه» (٢١٧/٤).

الماءان: الماء الصافي والكدر، وتجاوز الخبيث والطيب، والتقت الواردات الرحمانية والواردات الشيطانية.

والمستمع الصادق لغلبة صدقه وظهور أحكام القلب فيه يخفى عليه ذلك الوقت أثر الكدر، ولا يشعر به سيمًا مع سُكر الروح به وغيبتها عن سوى مطلوبه، فلما أفاق من سُكره وفارق لذة السماع وطيبه وجد اللوث والكدر الذي هو أثر النفس والشيطان، وأثر^(١) جُثوم الشيطان على قلبه، فأثر فيه ذلك الأثر قبضًا ووحشة، وأحسَّ به بعدًا، وكلما كان أصدق وأتم طلبًا كان وجوده لهذا أظهر، فاستعداده وحياة قلبه يوجب له الإحساس بهذا، ولا يدري من أين أتى.

وهذا له في الشاهد نظائر وأشباه، منها: أن الرجل إذا اشتغل قلبه اشتغالًا تامًا بمشاهدة محبوب، أو رؤية مخوف، أو لذة ملكت عليه حسه وقلبه، إذا أصابه في تلك الحال ضربٌ أو لسعٌ أو سببٌ مؤلم لا يكاد يشعر به، فإذا فارقت تلك الحال وجد مسَّ الألم حتى كأنه أصابه تلك الساعة، والألم لم يزل فيه، لكن كان ثمَّ مانع يمنع من الإحساس به، فلما زال المانع أحسَّ بالألم. ولهذه النكته كان بعض الصادقين [١٤٦] منهم إذا فارق السماع بادر إلى تجديد التوبة والاستغفار، وأخذ في أسباب التداوي التي يدفع بها موجب أسباب القبض والوحشة والبعث.

وهذا القدر إنما يعرفه أولو الفقه في الطريق وأصحاب الفطن، المعتنون بتكميل نفوسهم، ومعرفة أدوائها وأدويتها. والله المستعان.

(١) في الأصل: «وأتم».

ولا ريب أن الصادق قد يجد في سماع الأبيات ذوقًا صحيحًا إيمانًا، ولكن ذلك بمثابة من سُقِيَ عسلًا في إناء نجس، كإناء من جلد ميتة غير ذكي، والنفوس الصادقة التي عَلَتْ هِمْمُهَا تنبو عن الشرب في ذلك الإناء وتقدره، وتأنف أن تشرب فيه، بل تطلب الشرب من إناء يصلح لذلك الشراب ويناسبه، فإن لم تجده صانت الشراب عن وضعه في ذلك الإناء، وانتظرت به إناء يليق به. وغيرها من النفوس تضع ذلك الشراب في أي إناء وجدته، من عظام ميتة أو جلد ميتة وإناء خمر طالما شرب به الخمر، وأُكِلت فيه الميتة.

أفلا يستحي العارف أن يشرب أظهر الشراب وأطيبه في آنية المسكر والميتة والدم ولحم الخنزير؟ ولوجود الصادق في حال سماعه ذلك الذوق وحلاوته يغيب عن قذارة الإناء ونجاسته ووضارته، فإذا فرغ من شربه وجد زُهومة ذلك الإناء وآثار قذارته على قلبه، فيوجب له ذلك قبضًا ووحشة. وبالله التوفيق.

هذا إذا كان صاحب السماع صادقًا في حاله مع الله وذوقه، وكان سماعه بالله والله، وأمّا إن كان سماعه للذة وحظ النفس [٤٦ب] فهو يشرب الماء النجس في الإناء القذر.

وأما صاحب السماع القرآني الذي ذوقه وشربه منه، فهو يشرب الشراب الطهور في أنظف إناء وأطيبه.

فالآنية ثلاثة: نظيف ونجس ومختلط. والشراب ثلاثة: طاهر ونجس وممزوج. والقلوب ثلاثة: صحيح سليم فشربه الشراب الطهور

في الإناء النظيف، وسقيم مريض فشربه الشراب النجس في الإناء القذر، وقلب فيه مادتان فشربه وإنأؤه بحسب المادتين، وقد جعل الله لكل شيء قدرًا.

فصل

في الموازنة بين ذوق السماع وذوق الصلاة وبيان أن أحد الذوقين مباين للآخر، فإنه كلما قوي ذوق أحدهما وسلطانه ضعف ذوق الآخر وسلطانه.

ولا ريب أن الصلاة قرة عين المحبين ولذة أرواح الموحدين، ومحكُّ أحوال الصادقين، وميزان أحوال السالكين، وهي رحمة المهداة إلى عبيده، هداهم إليها وعرفهم بها رحمة بهم وإكرامًا لهم، لينالوا بها شرف كرامته والفوز بقربه، لا حاجة منه إليهم، بل منة منه وفضلًا منه عليهم، وتعبد بها القلب والمجوارح جميعًا، وجعل حظ القلب منها أكمل الحظين وأعظمهما، وهو إقباله على ربه سبحانه وفرحه وتلذذه بقربه وتنعمه بحبه وابتهاجه بالقيام بين يديه، وانصرافه حال القيام بالعبودية عن الالتفات إلى غير معبوده، وتكميل حقوق عبوديته حتى تقع على الوجه الذي يرضاه.

ولما امتحن سبحانه عبده بالشهوات وأسبابها [١٤٧] من داخل فيه وخارج عنه، اقتضت تمام رحمته به وإحسانه إليه أن هيأ له مأدبةً قد جمعت من جميع الألوان والتحف والخلع والعطايا، ودعاه إليه كل يوم خمس مرات، وجعل [في] كل لون من ألوان تلك المأدبة لذة ومنفعة

ومصلحةً لهذا العبد الذي قد دعاه إلى المأدبة، ليست في اللون الآخر،
لتكمل لذة عبده في كل لون من ألوان العبودية، ويكرمه بكل صنف من
أصناف الكرامة، ويكون كل فعل من أفعال تلك العبودية مكفراً لمذموم
كان يكرهه بإزائه، ليُثبِّه عليه نوراً خاصاً وقوة في قلبه وجوارحه وثواباً
خاصاً يوم لقائه.

فيصدر المدعو من هذه المأدبة وقد أشبعه وأرواه، وخلع عليه
بخلع القبول وأغناه؛ لأن القلب كان قبلُ قد ناله من القحط والجذب
والجوع والظماً والعُري والسقم ما ناله، فأصدره من عنده وقد أغناه عن
الطعام والشراب واللباس والتحف ما يغنيه.

ولما كانت الجدوب متتابعة، وقحط النفوس متواليًا، جدد له
الدعوة إلى هذه المأدبة وقتاً بعد وقت رحمة منه به، فلا يزال مستسقيًا
من بيده غيث القلوب وسقيها، مستمطرًا سحائب رحمة لئلا يبس ما
أنبتته له تلك من كلاً الإيمان وعُشبه وثماره، ولئلا تنقطع مادة النبات.
والقلب في استسقاء واستمطار هكذا دائماً، يشكو إلى ربه جُذبه وقحطه
وضرورته إلى سقيا رحمة وغيثٍ برّه، فهذا دأب العبد أيام حياته.

فإن الغفلة التي تنزل بالقلب هي القحط والجذب، فما دام في ذكر
الله [٤٧ب] والإقبال عليه فغيث الرحمة واقع عليه كالمطر المتدارك، فإذا
غفل ناله من القحط بحسب غفلته قلة وكثرة، فإذا تمكنت الغفلةُ
واستحكمت صارت أرضه ميتةً، وسنته جرداءً يابسةً، وحريقُ الشهوات
فيها من كل جانب السمام.

وإذا تدارك عليه غيث الرحمة اهتزت أرضه وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، فإذا ناله القحط والجذب كان بمنزلة شجرة رطوبتها ولينها وثمارها من الماء، فإذا مُنعت من الماء يبست عروقها، وذبلت أغصانها، وحُبست ثمارها وربما يبست الأغصان والشجرة، فإذا مددت منها غصناً إلى نفسك لم يمتد ولم ينقذ لك وانكسر، فحينئذ تقتضي حكمة قيم البستان قطع تلك الشجرة وجعلها وقوداً للنار، فكذلك القلب، إنما يبس إذا خلا من توحيد الله وحبه ومعرفته وذكره ودعائه، فتصيبه حرارة النفس ونار الشهوات، فتمتنع أغصان الجوارح عن الامتداد إذا مددتها والانقياد إذا قُدتها، فلا تصلح بعدُ هي والشجرة إلا للنار، ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

فإذا كان القلب ممطوراً بمطر الرحمة كانت الأغصان لينة منقادة رطبة، فإذا مددتها إلى أمر الله انقادت معك، وأقبلت سريعة لينة وادعة، فجئنت منها من ثمار العبودية ما يحمله كل غصن من تلك الأغصان، ومادتها من رطوبة القلب وريته، فالمادة تعمل عملها في القلب والجوارح، وإذا يبس القلب تعطلت الأغصان من أعمال البر، لأن مادة القلب وحياته قد انقطعت [١٤٨] منه، فلم تنتشر في الجوارح، فتحمل كل جارحة ثمرها من العبودية.

ولله في كل جارحة من جوارح العبد عبودية تخصه، وطاعة مطلوبة منها، خلقت لأجلها وهيت لها. والناس بعد ذلك ثلاثة أقسام: أحدها: من استعمل تلك الجوارح فيما خلقت له وأريد منها، فهذا

هو الذي تاجرَ الله بأرباح التجارة، وباع نفسه لله بأرباح البيع، والصلاة وضعت لاستعمال الجوارح جميعها في العبودية تبعًا لقيام القلب بها.

الثاني: مَنْ استعملها فيما لم تُخلق له، ولم يُخلق لها، فهذا هو الذي خاب سعيه وخسرت تجارته، وفاته رضى ربّه عنه وجزيلُ ثوابه، وحصل على سخطه وأليم عقابه.

الثالث: مَنْ عطّل جوارحه وأماتها بالبطالة، فهذا أيضًا خاسرٌ أعظم خسارة، فإن العبدُ خلق للعبادة والطاعة لا للبطالة، وأبغض الخلق إلى الله البطال الذي لا في شغل الدنيا ولا في سعي الآخرة، فهذا كَلٌّ على الدنيا والدين.

فالأول كرجل أقطع أرضًا واسعةً، وأعين بآلات الحرث والبذار، وأعطى ما يكفيها لسقيها، فحرثها وهياها للزراعة، وبذرَ فيها من أنواع الغلال، وغرسَ فيها من أنواع الثمار والفواكه المختلفة الأنواع، ثم لم يُهمّلها، بل أقام^(١) عليها الحرسَ وحفظها من المفسدين، وجعل يتعاهدا كل يوم فيصلح ما فسدَ منها، ويغرس عوضَ ما يبس، وينفي دغلها، ويقطع شوكتها، ويستعين بمغلّها على عمارتها.

والثاني بمنزلة رجل أخذ تلك الأرض، فجعلها مأوى للسباع والهوامّ ومطرحةً للجيف والأنتان، وجعلها معقلًا يأوي [٤٨ب] إليه كل مفسد ومؤذٍ ولصّ، وأخذ ما أعين به على بذارها وصلاحتها، وصرفه معونة ومعيشة لمن فيها من أهل الشر والفساد.

(١) في الأصل: «أقوام» تحريف.

والثالث بمنزلة رجل عطَّلها وأهمَلها وأرسل ذلك الماء ضائعًا في القفار والصحاري، فقعد مذمومًا محسورًا، فهذا مثال أهل الغفلة، والذي قبله مثال أهل الخيانة والجناية، والأول مثال أهل اليقظة والاستعداد لما خُلِقوا له.

فالأول إذا تحرَّك أو سكن أو قام أو قعد أو أكل أو شرب أو نام أو لبس أو نطق أو سكت كان ذلك كله له لا عليه، وكان في ذكر وطاعة وقربة ومزيد.

والثاني إذا فعل ذلك كان عليه لا له، وكان في طرد وإبعاد وخسران.

والثالث إذا فعل ذلك كان في غفلة وبطالة وتفريط.

فالأول يتقلب فيما يتقلب فيه بحكم الطاعة والقربة.

والثاني يتقلب في ذلك بحكم الخيانة والتعدي، فإن الله لم يُملكه ما ملكه ليستعين به على مخالفته، فهو جَانٍ متعدِّ خائن لله في نعمه، معاقبٌ على التنعم بها في غير طاعته.

والثالث يتقلب في ذلك ويتناوله بحكم الغفلة وبهجة النفس وطبيعتها، لم يبتغِ بذلك رضوان الله و التقرب إليه، فهذا خسران بيّن، إذ عطَّل أوقات عمره التي لا قيمة لها عن أفضل الأرباح والتجارات.

فدعا الله سبحانه الموحدين إلى هذه الصلوات الخمس رحمةً منه عليهم، وهياً لهم فيها أنواع العبادة، لينال العبد من كل قول وفعل وحركة وسكون حظَّه من عطاياه.

وكان سرُّ الصلاة ولُبُّها إقبال القلب فيها على الله وحضوره بكلية بين يديه، [١٤٩] فإذا لم يُقبل عليه واشتغل بغيره ولها بحديث النفس، كان بمنزلة وافِدٍ وفد إلى باب الملك معتذراً من خطئه وزليله، مستمطراً لسحائب جوده ورحمته، مستطعمًا له ما يقوت قلبه، ليقوى على القيام في خدمته، فلمَّا وصل إلى الباب ولم يبق إلا مناجاة الملك، التفت عن الملك وزاغ عنه يمينا أو ولاء ظهره، واشتغل عنه بأمقت شيء إلى الملك وأقله عنده قدرًا، فأثره عليه، وصيرَه قِبلة قلبه، ومحلَّ توجهه، وموضع سرِّه، وبعث غلمانَه وخَدَمَه ليقفوا في طاعة الملك، ويعتذروا عنه وينوبوا عنه في الخدمة، والملك شاهد ذلك ويرى حاله، ومع هذا فكرم الملك وجوده وسعة بره وإحسانه يأبى أن ينصرف عنه تلك الخدم والأتباع، فيصيبها من رحمته وإحسانه، لكن فرق بين قسمة الغنائم على أهل السُّهمان من الغانمين وبين الرِّضخ لمن لا سهم له، ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَيُؤْتِيهِمْ أَعْمَلُهُمْ وَهُمْ لَا يظَلَمُونَ﴾ [الأحقاف: ١٩].

والله سبحانه خلق هذا النوع الإنساني لنفسه، واختصَّه، وخلق له كل شيء، كما في الأثر الإلهي: «ابن آدم خلقتك لنفسي، وخلقت كل شيء لك، فبحقِّي عليك لا تشتغل بما خلقتك لك عما خلقتك له»^(١).

وفي أثر آخر: «خلقتك لنفسي فلا تلعب، وتكفلتُ برزقك فلا

(١) ذكره شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (٢٣/١). وانظر «طريق الهجرتين» (ص ٥٢٦).

تتعَب، ابنَ آدمِ اطلبني تجِدني، وإنِ وجدتني وجدتَ كلَّ شيءٍ، وإنِ فُتِكَ فأتِكَ كلُّ شيءٍ، وأنا خيرُ لكِ من كلِّ شيءٍ»^(١).

وجعل الصلاة سبباً موصلًا له إلى قربه ومناجاته ومحبته والأنس به، وما بين صلاتين تحدثُ له الغفلة والجفوة والإعراض والزلات والخطايا، فيُبَعِدُه ذلك عن ربه، وينحِيه عن قربه، ويصير كأنه أجنبي عن العبودية [٤٩ب] ليس من جملة العبيد، وربما ألقى بيده إلى أسر العدو، فأَسْرَه وغلَّه وقيدَه وحبَسَه^(٢) في سجن نفسه وهواه، فحظَه ضيق الصدر ومعالجة الهموم والغموم والأحزان والحسرات، ولا يدري السبب في ذلك.

فاقتضت رحمة ربه الرحيم به^(٣) أن جعل له من عبوديته عبودية جامعة مختلفة الأجزاء والحالات، بسبب اختلاف الأحداث التي جاءت من العبد، وبحسب شدة حاجته إلى نصيبه من كل جزء من أجزاء تلك العبودية.

فبالوضوء يتطهر من الأوساخ ويقدم على ربه متطهرًا، والوضوء له ظاهر وباطن، وظاهره طهارة البدن وأعضاء العبادة، وباطنه وسره طهارة القلب من أوساخه وأدرانته بالتوبة. ولهذا يقرن سبحانه بين التوبة

(١) أثر إسرائيلي كما ذكره شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (٨/٥٢). وذكره المؤلف في «طريق الهجرتين» (ص ٩٥، ٥٢٦).

(٢) في الأصل: «وجنه».

(٣) في الأصل: «به الرحيم».

والطهارة في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]،
وشرع النبي ﷺ للمتطهر بعد فراغه^(١) من الوضوء أن يتشهد، ثم يقول:
«اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين»^(٢)، فأكمل له
مراتب الطهارة باطنًا وظاهرًا.

فإنه بالشهادة يتطهر من الشرك، وبالتوبة يتطهر من الذنوب،
وبالماء يتطهر من الأوساخ الظاهرة. فشرع أكمل مراتب الطهارة قبل
الدخول على الله والوقوف بين يديه، فلما طهر ظاهرًا وباطنًا أذن له
بالدخول عليه بالقيام بين يديه^(٣)، إذ تخلص من الإباق بمجيئه إلى داره
ومحل عبوديته.

ولهذا كان المجيء إلى المسجد من تمام عبودية الصلاة [١٥٠]
الواجبة عند قوم، والمستحبة عند آخرين، والعبد كان في حال غفلته
كالآبق عن ربه، وقد عطل جوارحه وقلبه عن الخدمة التي خلق لها، فإذا
جاء إليه فقد رجع من إباقه، فإذا وقف بين يديه موقف العبودية والتذلل
والانكسار، فقد استدعى عطف سيده عليه وإقباله عليه بعد الإعراض.

(١) في الأصل: «أن يقول بعد فراغه»، وسيأتي ما يغني عن التكرار.

(٢) أخرجه الترمذي (٥٥) عن عمر بن الخطاب، وقال: في إسناده اضطراب، ولا
يصح عن النبي ﷺ في هذا الباب كبير شيء، قال محمد بن إسماعيل البخاري:
وأبو إدريس لم يسمع من عمر شيئًا. وصححه أحمد شاكر في تعليقه على
الترمذي لوروده من طرق أخرى.

(٣) بعدها في الأصل: «فلما تطهر ظاهرًا وباطنًا». وهو تكرار.

وأمر بأن يستقبل القبلة بيته الحرام بوجهه، ويستقبل الله عز وجل بقلبه، لينسلخ مما كان فيه من التولي والإعراض، ثم قام بين يديه مقام الذليل الخاضع المسكين المستعطف لسيده، وألقى بيديه مسلماً مستسلماً ناكس الرأس خاشع القلب مُطْرِقَ الطرف، لا يلتفت قلبه عنه ولا طرفه يميناً ولا يسرةً، بل قد توجه بقلبه كله إليه، وأقبل بكلية عليه.

ثم كبره بالتعظيم والإجلال، وواطأ قلبه في التكبير لسانه، فكان الله أكبر في قلبه من كل شيء، وصدق هذا التكبير بأنه لم يكن في قلبه شيء أكبر من الله يشغله عنه، فإذا اشتغل عن الله بغيره وكان ما اشتغل به أهمَّ عنده من الله كان تكبيره بلسانه دون قلبه، فالتكبير يُخْرِجه من لُبْسِ رداء التكبر المنافي للعبودية، ويمنعه من التفات قلبه إلى غير الله، إذ (١) كان الله عنده وفي قلبه أكبر من كل شيء، فمنعه حقُّ قوله الله أكبر والقيام بعبودية التكبير عن هاتين الآفتين، اللتين هما من أعظم الحجب بينه وبين الله.

فإذا قال: «سبحانك اللهم وبحمدك»، وأثنى على الله بما هو أهله، فقد خرج عن الغفلة التي هي حجاب أيضاً بينه وبين الله، وأتى بالتحية والثناء الذي [١٥٠] يخاطب به الملك عند الدخول عليه تعظيماً له وتمجيذاً ومقدمةً بين يدي حاجته، فكان في هذا الثناء من أدب العبودية ما يستجلب به إقباله عليه ورضاه عنه وإسعافه بحوائجه.

فإذا شرع في القراءة قدَّم أمامها الاستعاذة بالله من الشيطان، فإنه

(١) في الأصل: «إذا».

أحرص ما يكون على العبد في مثل هذا المقام الذي هو أشرف مقاماته وأنفعها له في دنياه وآخرته، فهو أحرص شيء على صرفه عنه واقتطاعه دونه بالبدن والقلب، فإن عجز عن اقتطاعه وتعطيله عنه بالبدن اقتطع قلبه وعطله عن القيام بين يدي الرب تعالى، فأمر العبد بالاستعاذة بالله منه ليسلم له مقامه بين يدي ربه، وليحيا قلبه ويستنير بما يتدبره ويتفهمه من كلام سيده الذي هو سبب حياته ونعيمه وفلاحه، فالشيطان أحرص على اقتطاع قلبه عن مقصود التلاوة.

ولما علم سبحانه جدَّ العدو وتفرغَه للعبد وعَجَز العبد عنه، أمره بأن يستعيد به سبحانه ويلتجئ إليه في صرفه عنه، فيُكْفَى^(١) بالاستعاذة مؤونةً محاربتة ومقاومته، فكأنه قيل له: لا طاقة لك بهذا العدو، فاستعدُّ بي واستجر بي، أَكْفِكَ وأمنعك منه.

وقال لي شيخ الإسلام قدس الله روحه يوماً: «إذا هاش عليك كلبُ الغنم فلا تشتغل بمحاربتة ومدافعتة، وعليك بالراعي فاستغث به، فهو يصرف عنك الكلب».

فإذا استعاذ بالله من الشيطان بعد منه، فأفضى القلب إلى معاني القرآن، ووقع في رياضه المؤنقة، وشاهد عجائبه التي تبهر العقول، واستخرج [١٥١] من كنوزه وذخائره ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، وكان الحائل بينه وبين ذلك النفس والشيطان، والنفس فمفعلةٌ للشيطان سامعة منه، فإذا بعد عنها وطرد لَمَّ بها الملك وثبتها وذكَّرها

(١) في الأصل: «فيكتفى».

بما فيه سعادتها ونجاتها.

فإذا أخذ في قراءة القرآن فقد قام في مقام مخاطبة ربه ومناجاته، فليحذر كل الحذر من التعرض لمقتته وسخطه أن يناجيه ويخاطبه وهو مُعْرِض عنه، ملتفتٌ إلى غيره، فإنه يستدعي بذلك مقتته، ويكون بمنزلة رجل قرَّبه ملكٌ من ملوك الدنيا، فأقامه بين يديه، فجعل يخاطب الملك وقد ولَّاه قفاه أو التفت عنه بوجهه يَمَنَةً ويسرةً، فما الظن بمقت الملك لهذا؟ فما الظن بالملك الحق المبين الذي هو رب العالمين وقيوم السموات والأرض؟

وليقف عند كل آية من الفاتحة ينتظر جواب ربه له، وكأنه سمعه يقول: حمدني عبدي حين يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فإذا قال: ﴿الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾، وقف لحظة ينتظر قوله: أثنى عليَّ عبدي، فإذا قال: ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾، انتظر قوله: مجدني عبدي، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، انتظر قوله: هذا بيني وبين عبدي، فإذا قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى آخرها، انتظر قوله: هؤلاء لعبدي، ولعبدي ما سأل^(١).

ومن ذاق طعم الصلاة علم أنه لا يقوم غير التكبير والفاتحة مقامهما، كما لا يقوم غير القيام والركوع والسجود مقامها فلكل عبودية من عبودية الصلاة سرٌّ وتأثير وعبودية^[٥١ب] لا تحصل من غيرها، ثم لكل آية من آيات الفاتحة عبودية وذوق ووجدٌ يخصها.

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٣٩٥) عن أبي هريرة.

فَعِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تَجِدُ تَحْتَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ
 إِثْبَاتَ كُلِّ كَمَالٍ لِلرَّبِّ تَعَالَى فِعْلاً وَوَصْفًا وَاسْمًا، وَتَنْزِيهَهُ عَنِ كُلِّ سَوْءٍ
 وَعَيْبٍ فِعْلاً وَوَصْفًا وَاسْمًا، فَهُوَ مَحْمُودٌ فِي أَفْعَالِهِ وَأَوْصَافِهِ وَأَسْمَائِهِ،
 مَنْزَّةٌ عَنِ الْعَيُوبِ وَالنَّقَائِصِ فِي أَفْعَالِهِ وَأَوْصَافِهِ وَأَسْمَائِهِ، فَأَفْعَالُهُ كُلُّهَا
 حِكْمَةٌ وَرَحْمَةٌ وَمُصْلِحَةٌ وَعَدْلٌ لَا تَخْرُجُ عَنْ ذَلِكَ، وَأَوْصَافُهُ كُلُّهَا
 أَوْصَافُ كَمَالٍ وَنِعْوَتُ جَلَالٍ، وَأَسْمَاؤُهُ كُلُّهَا حَسَنَى، وَحَمْدُهُ قَدْ مَلَأَ
 الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ وَالسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا فِيهِمَا، فَالْكُونُ كُلُّهُ
 نَاطِقٌ بِحَمْدِهِ، وَالخَلْقُ وَالْأَمْرُ صَادِرٌ عَنْ حَمْدِهِ وَقَائِمٌ بِحَمْدِهِ وَوُجِدَ
 بِحَمْدِهِ، فَحَمْدُهُ هُوَ سَبَبُ وَجُودِ كُلِّ مَوْجُودٍ، وَهُوَ غَايَةُ كُلِّ مَوْجُودٍ،
 وَكُلُّ مَوْجُودٍ شَاهِدٌ بِحَمْدِهِ، وَإِرْسَالُهُ رَسُولَهُ بِحَمْدِهِ، وَإِنْزَالُهُ كِتَابَهُ بِحَمْدِهِ،
 وَالجَنَّةُ عُمرَتْ بِأَهْلِهَا بِحَمْدِهِ، وَالنَّارُ عُمرَتْ بِأَهْلِهَا بِحَمْدِهِ، وَمَا أُطِيعَ إِلَّا
 بِحَمْدِهِ، وَمَا عُصِيَ إِلَّا بِحَمْدِهِ، وَلَا تَسْقُطُ وَرَقَةٌ إِلَّا بِحَمْدِهِ، وَلَا يَتَحَرَّكُ
 فِي الْكُونِ ذَرَّةٌ إِلَّا بِحَمْدِهِ.

وَهُوَ الْمَحْمُودُ لِنَفْسِهِ، وَإِنْ لَمْ يَحْمَدْهُ الْعِبَادُ، كَمَا أَنَّهُ هُوَ الْوَاحِدُ
 الْأَحَدُ وَلَوْ لَمْ يُوحِّدْهُ الْعِبَادُ، وَالْإِلَهَ الْحَقُّ وَإِنْ لَمْ يُؤَلِّهُوهُ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ
 الَّذِي حَمِدَ نَفْسَهُ عَلَى لِسَانِ الْقَائِلِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، كَمَا قَالَ
 النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمَدَهُ»^(١).
 فَهُوَ الْحَامِدُ لِنَفْسِهِ فِي الْحَقِيقَةِ عَلَى لِسَانِ عَبْدِهِ، فَإِنَّهُ الَّذِي أُجْرِيَ الْحَمْدُ
 عَلَى لِسَانِهِ وَقَلْبِهِ، وَإِجْرَاؤُهُ بِحَمْدِهِ، [١٥٢] فَلَهُ الْحَمْدُ كُلُّهُ، وَلَهُ الْمَلِكُ

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٤٠٤) عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ.

كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، فهذه المعرفة من عبودية الحمد.

ومن عبوديته أيضًا أن يعلم أن حمده لربه سبحانه نعمة منه عليه، يستحق عليها الحمد، فإذا حمده على هذه النعمة استوجب عليه حمدًا آخر على نعمة حمده، وهلمَّ جرًّا. فالعبد ولو استنفد أنفاسه كلَّها في حمده على نعمة من نعمه، كان ما يجب له من الحمد ويستحقه فوق ذلك وأضعافه، ولا يُحصي أحد البتة ثناءً عليه بمحامده.

ومن عبودية العبد شهودُ العبد لعجزه عن الحمد، وأن ما قام به منه فالرب سبحانه هو المحمود عليه، إذ هو مُجْرِيه على لسانه وقلبه.

ومن عبوديته تسليط الحمد على تفاصيل أحوال العبد كلها ظاهرةً وباطنةً على ما يحب العبد وما يكرهه، فهو سبحانه المحمود على ذلك كله في الحقيقة، وإن غاب عن شهود العبد.

ثم لقوله: ﴿رَبِّ الْمَلَكِئِاتِ﴾ من العبودية شهود تفردده سبحانه بالربوبية، وأنه كما أنه رب العالمين وخالقهم ورازقهم ومُدبِّر أمورهم ومُوجِدهم ومُفْنِيهم، فهو وحده إلههم ومعبودهم وملجأهم ومفزعهم عند النوائب، فلا ربَّ غيره، ولا إله سواه.

ولقوله: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ عبودية تخصصها، وهي شهود عموم رحمته، وسعتها لكل شيء، وأخذ كل موجود بنصيبه منها، ولا سيما الرحمة الخاصة به التي أقامت عبده بين يديه في خدمته، يناجيه بكلامه

ويتملقه ويسترحمه ويسأله هدايته ورحمته، وإتمام نعمته عليه، فهذا من رحمته بعبده، فرحمته وسعت كل شيء، كما أن حمده وسع كل شيء.

ثم يعطي قوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [٥٢ب] عبوديتها، ويتأمل تضمنها لإثبات المعاد، وتفرد الرب فيه بالحكم بين خلقه، وأنه يوم يدين فيه العباد بأعمالهم في الخير والشر، وذلك من تفاصيل حمده وموجبه.

ولما كان قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْمَلَائِكَةِ﴾ إخبارًا عن حمده تعالى قال الله: حمدني عبدي، ولما كان قوله: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمِ﴾ إعادةً وتكريرًا لأوصاف كماله قال: أثنى عليَّ عبدي، فإن الثناء إنما يكون بتكرار المحامد وتعداد أوصاف المحمود، ولما وصفه سبحانه بتفرد بملك يوم الدين وهو الملك الحق المتضمن لظهور عدله وكبريائه وعظمته ووحدانيته وصدق رسله، سمى هذا الثناء مجددًا، فقال: مجدني عبدي، فإن التمجيد هو الثناء بصفات العظمة والجلال.

فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ انتظر جواب ربه له: هذا بيني وبين عبدي ولعبي ما سأل، وتأمل عبودية هاتين الكلمتين وحقوقهما، وميز الكلمة التي لله والكلمة التي للعبد، وفقه سر كون إحداهما لله والأخرى للعبد، وميز بين التوحيد الذي تقتضيه كلمة «إياك نعبد» والتوحيد الذي تقتضيه كلمة «إياك نستعين»، وفقه سر كون هاتين الكلمتين في وسط السورة بين نوعي الثناء قبلهما والدعاء بعدهما، وفقه

تقديم «إياك نعبد» على «إياك نستعين»، وتقديم المعمول على الفعل (١) مع الإتيان به مؤخرًا أوجز وأخصر، وسر إعادة الضمير مرة بعد مرة، وعلم ما تدفع كل واحدة من الكلمتين من الآفة المنافية للعبودية، وكيف تُدخِلُه الكلمتان في صريح العبودية، [١٥٣] وَعَلِمَ كيف يدور القرآن من أوله إلى آخره على هاتين الكلمتين، بل كيف يدور عليهما الخلق والأمر والثواب والعقاب والدنيا والآخرة، وكيف تضمنتا لأجل الغايات وأكمل الوسائل، وكيف جيء بهما بضمير الخطاب والحضور دون ضمير الغائب.

وهذا موضع يستدعي كتابًا كبيرًا، ولولا الخروج عما نحن بصدده لأوضحناه وبسطنا القول فيه، فمن أراد الوقوف عليه فقد ذكرناه في كتاب «مراحل السائر بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» (٢)، وفي كتاب «الرسالة المصرية» (٣).

ثم تأمل ضرورته وفاقته إلى قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الذي مضمونه معرفة الحق وقصده وإرادته والعمل به والثبات عليه والدعوة إليه والصبر على أذى المدعو، فباستكمال هذه المراتب الخمس تستكمل الهداية، وما نقص منها نقص من هدايته.

(١) في الأصل: «القول».

(٢) هو «مدارج السالكين» وقد بسط الكلام في أوله على أسرار سورة الفاتحة.

(٣) لم أجد ذكر هذا الكتاب في المصادر التي رجعت إليها.

ولما كان العبد مفتقرًا إلى هذه الهداية في ظاهره وباطنه في جميع ما يأتيه ويذره:

من أمورٍ قد فعلها على غير الهداية علمًا وعملاً وإرادةً، فهو محتاج إلى التوبة منها، وتوبته منها هي الهداية.

وأمر قد هُدي إلى أصلها دون تفصيلها، فهو محتاج إلى هداية تفصيلها.

وأمرٍ قد هُدي إليها من وجه دون وجه، فهو محتاج إلى تمام الهداية فيها، ليتّم له الهداية ويزاد هدى إلى هداه.

وأمرٍ يحتاج فيها إلى أن يحصل له من الهداية في مستقبلها مثل ما حصل له في ماضيها.

وأمرٍ يعتقد فيها بخلاف ما هي عليه، فهو محتاج إلى هداية تنسخ [٥٣ب] من قلبه ذلك الاعتقاد، وتُثبت فيه ضده.

وأمرٍ من الهداية هو قادر عليها، ولكن لم يخلق له إرادة فعلها، فهو محتاج في تمام الهداية إلى خلق إرادة يفعلها بها.

وأمرٍ منها هو غير قادر على فعلها مع كونه مريدًا، فهو محتاج في هدايته إلى إقداره عليها.

وأمرٍ منها هو غير قادر عليها ولا مريد لها فهو محتاج إلى خلق القدرة والإرادة له لتتم له الهداية.

وأمر هو قائم بها على وجه الهداية اعتقادًا وإرادة وعملاً، فهو محتاج إلى الثبات عليها واستدامتها.

= كانت حاجته^(١) إلى سؤال الهداية أعظم الحاجات، وفاقته إليها أشد الفاقات، فرض عليه الرب الرحيم هذا السؤال كل يوم وليلة في أفضل أحواله وهي الصلوات الخمس مراتٍ متعددة، لشدة ضرورته وفاقته إلى هذا المطلوب، ثم بيّن أن سبيل أهل هذه الهداية مغاير لسبيل أهل الغضب وأهل الضلال، فانقسم الخلق إذن ثلاثة أقسام بالنسبة إلى هذه الهداية:

مُنعمٌ عليه بحصولها، واستمرار حظّه من النعم بحسب حظه من تفاصيلها وأقسامها.

وضالٌّ لم يُعطَ هذه الهداية ولم يُوفَّق لها.

ومغضوب عليه عرفها ولم يُوفَّق للعمل بموجبها.

فالأول المنعم عليه قائم بالهدى ودين الحق علمًا وعملاً، والضالٌّ منسلخٌ عنه علمًا وعملاً، والمغضوب عليه عارفٌ به علمًا، منسلخٌ منه عملاً، والله الموفق للصواب.

ولولا أنّ المقصود التنبيه على المضادّة والمنافرة التي [١٥٤] بين ذوق الصلاة وذوق السماع، لبسطنا هذا الموضوع بسطًا شافيًا، ولكن لكل مقام مقال، فلنرجع إلى المقصود.

(١) جواب الشرط للفعل «ولمّا كان العبد مفتقرًا...».

فشرع له التأمين عند هذا الدعاء تفاعلاً بإجابته وحصوله، وطابعاً عليه وتحقيقاً له، ولهذا اشتدَّ حسد اليهود للمسلمين عليه حين سمعوههم يجهرون به في صلاتهم.

ثمَّ شرع لهم رفع اليدين عند الركوع تعظيماً لأمر الله، وزينةً للصلاة، وعبوديةً خاصةً لليدين كعبودية باقي الجوارح، واتباعاً لسنة رسول الله ﷺ، فهو حلية الصلاة، وزينتها، وتعظيم لشعائرها.

ثمَّ شرع له التكبير الذي هو في انتقالات الصلاة من ركن إلى ركن، كالتلبية في انتقالات الحاج من مشعر إلى مشعر، فهو شعار الصلاة، كما أنَّ التلبية شعار الحج، ليعلم العبد أنَّ سرَّ الصلاة هو تعظيم الرب تعالى وتكبيره بعبادته وحده.

ثمَّ شرع له بأن يخضع للمعبود سبحانه بالركوع خضوعاً لعظمته واستكانةً لهيبته وتذلاً لعزته، فثنى العبد له صلبه، ووضع له قامته، ونكس له رأسه، وحنى له ظهره، معظماً له ناطقاً بتسبيحه المقترن بتعظيمه، فاجتمع له خضوع القلب وخضوع الجوارح وخضوع القول، على أتم الأحوال، وجمع له في هذا الذكر بين الخضوع والتعظيم لربه والتنزيه له عن خضوع العبيد، وأن الخضوع وصف العبد، والعظمة وصف الرب.

وتمام عبودية الركوع أن يتصاغر العبد ويتضاءل بحيث يمحو تصاغره كلَّ تعظيم منه لنفسه، ويثبت مكانه تعظيمه [٥٤ب] لربه، وكلما

استولى على قلبه تعظيمُ الرب ازداد تصاغره هو عند نفسه، فالركوع للقلب بالذات والقصد، وللجوارح بالتبع والتكملة.

ثم شرع له أن يحمد ربه ويشني عليه بآلائه عند اعتداله وانتصابه، ورجوعه إلى أحسن هيأته منتصبَ القامة معتدلها، فيحمد ربه ويشني عليه بأن وفقه لذلك الخضوع، ثم نقله منه إلى مقام الاعتدال والاستواء بين يديه، واقفاً في خدمته، كما كان في حال القراءة من ذلك الاعتدال ذوق خاص وحال يحصل للقلب سوى ذوق الركوع وحاله، وهو ركن مقصود لذاته، كركن الركوع والسجود سواء، ولهذا كان رسول الله ﷺ يُطيله كما يُطيل الركوع والسجود، ويكثر فيه من الثناء والحمد والتمجيد كما ذكرناه في هديه^(١) ﷺ، وكان في قيام الليل يُكثر فيه من قول: «لربّي الحمد، لربّي الحمد»^(٢)، يكررها.

ثم شرع له أن يكبر وَيَخِرَّ ساجداً، ويُعطي في سجوده كل عضو من أعضائه حظه من العبودية، فيضع ناصيته بالأرض بين يدي ربه مسندةً، راغماً له أنفه خاضعاً له قلبه، ويضع أشرف ما فيه وهو وجهه بالأرض ولا سيما على التراب، مُعَفِّراً له بين يدي سيده، راغماً له أنفه، خاضعاً له قلبه وجوارحه، متذللاً لعظمته، خاضعاً لعزته، مستكيناً بين يديه، أذلّ شيء وأكسره لربه تعالى، مسبّحاً له بعلوه في أعظم سفوله، قد

(١) أي «زاد المعاد» (١/٢١٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣٩٨/٥) وأبو داود (٨٧٤) والترمذي في الشمائل (٢٧٠) والنسائي (٢/١٩٩، ٢٣١) وغيرهم عن حذيفة بن اليمان. وهو حديث صحيح.

صارت أعاليه ملويّة لأسافله ذلاً وخضوعاً وانكساراً، وقد طابق [١٥٥] قلبه حال جسمه، فسجد القلب كما سجد الوجه، وقد سجد معه أنفه ويداه وركبته ورجلاه، وشرع له أن يُقَلَّ فخذيه عن ساقيه، وبطنه عن فخذيه، وعضديه عن جنبيه، ليأخذ كل جزء منه حظّه من الخضوع، ولا يحمل بعضه بعضاً، فأحرّبه في هذه الحال أن يكون أقرب إلى ربه منه في غيرها من الأحوال، كما قال النبي ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»^(١). ولما كان سجود القلب خضوعه التام لربه أمكنه استدامة هذا السجود إلى يوم لقائه^(٢). كما قيل لبعض السلف^(٣): هل يسجد القلب؟ قال: إي والله! سجدة لا يرفع رأسه منها حتى يلقي الله.

ولما بنيت الصلاة على خمس: القراءة والقيام والركوع والسجود والذكر، سُمّيت باسم كل واحد من هذه الخمس، فسميت قياماً كقوله تعالى: ﴿قُرْآنًا لَّيْلًا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ٢]، وقوله: ﴿وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾^(٢٣٨) [البقرة: ٢٣٨]. وقراءة كقوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، وركوعاً كقوله تعالى: ﴿وَأَزْكُوا مَعَ الزَّكِيِّينَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [المرسلات: ٤٨]، وسجوداً كقوله:

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢) عن أبي هريرة.

(٢) في الأصل: «لقاء».

(٣) هو سهل بن عبد الله التستري كما في «مجموع الفتاوى» (٢١/٢٨٧، ٢٧/١٣٨). وذكره المؤلف في «طريق الهجرتين» (ص ٤٥٠).

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٩٨]، وقوله: ﴿ كَلَّا لَا تُطِغَةٌ
 وَأَسْجُدٌ وَاقْتَرِبٌ ﴾ [العلق: ١٩]، وذكرًا كقوله: ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمٍ
 الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الجمعة: ٩]، وقوله: ﴿ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا
 أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [المنافقون: ٩]. وأشرف أفعالها السجود،
 وأشرف أذكارها القراءة، وأول سورة أنزلت على النبي ﷺ [٥٥ب]
 افتتحت بالقراءة وختمت بالسجود، ووضعت الركعة على ذلك، أولها
 قراءة وآخرها سجود.

ثم شرع له أن يرفع رأسه ويعتدل جالسًا، ولما كان هذا الاعتدال
 محفوظًا بسجودين: سجود قبله وسجود بعده، فينتقل من السجود إليه ثم منه
 إلى السجود، كان له شأن. فكان رسول الله ﷺ يطيله بقدر السجود،
 ويتضرع فيه إلى ربه ويستغفره، ويسأله رحمته وهدايته ورزقه وعافيته^(١)،
 وله ذوق خاص وحال للقلب غير ذوق السجود وحاله، فالعبد في هذا
 القعود قد تمثل جاثيًا بين يدي ربه، مُلقيًا نفسه بين يديه، معترفًا إليه مما
 جناه، راغبًا إليه أن يغفر له ويرحمه مستعدًا على نفسه الأمانة بالسوء. وكان
 النبي ﷺ يكرر الاستغفار^(٢)، في هذه القعدة، ويكثر رغبته إلى الله فيها.

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود (٨٥٠) والترمذي (٢٨٤) وابن ماجه
 (٨٩٨) عن ابن عباس. وإسناده حسن. وقال الترمذي: حديث غريب. وصححه
 الحاكم (٢٦٢/١، ٢٧١).

(٢) كما في حديث حذيفة الذي سبق تخريجه (ص ١٠٤).

فمثل نفسك بمنزلة غريمٍ عليه حق الله وأنت كفيل به، والغريم مماطلٌ مخادع، وأنت مطلوب بالكفالة، والغريم مطلوب بالحق، فأنت تستعدي عليه حتى تستخرج ما عليه من الحق لتتخلص من المطالبة. والقلب شريك النفس في الخير والشر والثواب والعقاب والحمد والدم، والنفس من شأنها الإباق والخروج من رِقِّ العبودية، وتضييع حقوق الله التي قبلها، والقلب شريكها إن قوي سلطانها وأسيرها، وهي شريكه وأسيره إن قوي سلطانه.

فشرع للعبد إذا رفع رأسه من السجود أن يجثو بين يدي الله [١٥٦] مستعدياً على نفسه، معتذراً إلى ربه مما كان منها، راغباً إليه أن يرحمه ويغفر له ويهديه ويرزقه ويعافيه. وهذه الخمس هي جماع خير الدنيا والآخرة، فإنَّ العبد محتاج بل مضطراً إلى تحصيل مصالحه في الدنيا وفي الآخرة، ودفع المضارَّ عنه في الدنيا والآخرة، وقد تضمنها هذا الدعاء، فإنَّ الرزق يَجْلِبُ له مصالحَ دنياه، والعافية تدفع مضارَّها، والهداية تَجْلِبُ له مصالحَ آخراه، والمغفرة تدفع عنه مضارَّها، والرحمة تجمع ذلك كله.

وشرع له أن يعود ساجداً كما كان، ولا يكتفي منه بسجدة واحدة في الركعة كما اكتفى منه بركوع واحد، لفضل السجود وشرفه وموقعه من الله، حتى إنَّه أقرب ما يكون إلى عبده وهو ساجد، وهو أدخل في العبودية وأعرق فيها من غيره، ولهذا جُعِلَ خاتمة الركعة، وما قبله كالقدمة بين يديه، فمحله من الصلاة محل طواف الزيارة، وما قبله من

التعريف وتوابعه مقدمات بين يديه، وكما أنه أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فكذلك أقرب ما يكون منه في المناسك وهو طائف. ولهذا قال بعض الصحابة^(١) لمن كلمه في طوافه بأمر من الدنيا: «أتقول هذا ونحن نتراءى لله في طوافنا؟». ولهذا والله أعلم جعل الركوع قبل السجود تدريجاً وانتقالاً من الشيء إلى ما هو أعلى منه.

وشرع له تكرير هذه الأفعال والأقوال، إذ هي غذاء القلب والروح التي لا قوامَ لهما إلاَّ بها، فكان [٥٦ب] تكريرها بمنزلة تكرير الأكل حتى يُشبع، والشرب حتى يُروى، فلو تناول الجائع لقمة واحدة وأقلع عن^(٢) الطعام، ماذا كانت تُغني عنه؟

ولهذا قال بعض السلف^(٣): «مثل الذي يصلي ولا يطمئن في صلاته كمثل الجائع، إذا قُدِّم إليه طعام فتناول منه لقمةً أو لقمتين، ماذا تُغني عنه؟».

هذا، وفي إعادة كل قول أو فعل من العبودية والقرب، وتنزيل الثانية منزلة الشكر على الأولى، وحصول مزيدٍ منها ومعرفة وإقبالٍ وقوة قلب وانسراح صدر وزوال دَرَنِ ووسخٍ عن القلب، بمنزلة غسل الثوب مرة بعد مرة، فهذه حكمة الله التي بهرت العقول في خلقه وأمره،

(١) هو ابن عمر كما في طبقات ابن سعد (٤/١٦٧).

(٢) في الأصل: «عنه».

(٣) ورد نحوه في حديث مرفوع عن أبي عبد الله الأشعري، أخرجه أبو يعلى والطبراني في الكبير، وإسناده حسن. انظر «مجمع الزوائد» (٢/١٢١).

ودلت على كمال رحمته ولطفه.

فلما قضى صلاته وأكملها ولم يبق إلا الانصراف منها، شرع له الجلوس بين يدي ربه، مُثنيًا عليه بأفضل التحيات التي لا تصلح إلا له، ولا تليق بغيره.

ولما كان عادة الملوك أن يُحيَّوا بأنواع التحيات من الأفعال والأقوال المتضمنة للخضوع والثناء وطلب البقاء ودوام الملك، فمنهم من يُحيَّى بالسجود، ومنهم من يُحيَّى بالثناء عليه، ومنهم من يُحيَّى بطلب البقاء والدوام له، ومنهم من يُجمع له ذلك كله، فكان الملك الحق سبحانه أولى بالتحيات كلها من جميع خلقه، وهي له بالحقيقة، ولهذا فسَّرت التحيات بالملك، وفسرت بالبقاء والدوام، وحققتها ما ذكرته، وهي تحيات الملك، فالملك الحق المبين أولى بها.

فكل تحية يُحيَّى بها ملكٌ من سجود أو ثناء أو بقاء ودوام فهي لله عز وجل، ولهذا أتى بها مجموعة معرَّفة باللام أداة العموم، وهي جمع تحية، وهي تفعلة من الحياة، وأصلها تحيية بوزن [أهـ] تكرمته، ثم أُدغم أحد المثليين في الآخر فصارت تحيية، وإذا كان أصلها من الحياة فالمطلوب^(١) بها لمن يُحيَّا بها دوام الحياة.

وكانوا يقولون لملوكهم: لك الحياة الباقية، ولك الحياة الدائمة، وبعضهم يقول: عشرة آلاف سنة، واشتقَّ منها: أدام الله أيامك، وأطال الله بقاءك، ونحو ذلك مما يراد به دوام الحياة والملك، وذلك لا ينبغي

(١) في الأصل: «والمطلوب».

إلا للحي الذي لا يموت، وللملك الذي كل مُلكٍ زائل غير ملكه.

ثم عطف عليها «الصلوات» بلفظ الجمع والتعريف، ليشمل كل ما أطلق عليه لفظ الصلاة خصوصًا وعمومًا، فكلها لله، لا تنبغي إلا له، فالتحيات له ملكًا، والصلوات له عبوديةً واستحقاقًا، فالتحيات لا تكون إلا له، والصلوات لا تنبغي إلا له.

ثم عطف عليها «الطيبات» كذلك، وهذا يتناول أمرين: الوصف والملك.

فأما الوصف فإنه سبحانه طيب، وكلامه طيب، وفعله كله طيب، ولا يصدر منه إلا الطيب، ولا يضاف إليه إلا الطيب، ولا يصعد إليه إلا الطيب، فالطيبات له وصفًا وفعلاً وقولاً ونسبةً، وكل طيب مضاف إليه، وكل مضاف إليه طيب، فله الكلمات الطيبات والأفعال الطيبات، وكل مضاف إليه كبيته وعبدته وروحه وناقته وجنته فهي طيبات.

وأيضًا فمعاني الكلمات الطيبات لله وحده، فإن الكلمات الطيبات تتضمن تسيحه وتحميده وتكبيره وتمجيده والثناء عليه بآلائه وأوصافه، فهذه الكلمات الطيبات التي يُثنى عليه بها ومعانيها له وحده لا يشركه فيها غيره، كسبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك، ونحو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ونحو سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم. [٥٧ب]

فكل طيب فله وعنده ومنه وإليه، وهو طيب لا يقبل إلا طيبًا، وهو إله الطيبين، وجيرانه في دار كرامته هم الطيبون.

فتأمل أطيب الكلمات بعد القرآن كيف لا تنبغي إلا لله، وهي:
«سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة
إلا بالله». فإن «سبحان الله» تتضمن تنزيهه عن كل نقص وعيب وسوء،
وعن خصائص المخلوقين وشبههم. و«الحمد لله» تتضمن إثبات كل
كمال له قولاً وفعلاً ووصفاً، على أتم الوجوه وأكملها أزلاً وأبداً. و«لا
إله إلا الله» تتضمن انفراده بالإلهية، وأن كل معبود سواه فباطل، وأنه
وحده الإله الحق، وأنه من تأله غيره فهو بمنزلة من اتخذ بيتاً من بيوت
العنكبوت يأوي إليه ويسكنه. و«الله أكبر» تتضمن أنه أكبر من كل شيء
وأجل وأعظم وأعز وأقوى وأقدر وأعلم وأحكم. فهذه الكلمات
الطيبات لا تصلح هي ومعانيها إلا لله وحده.

ثم شرع له أن يُسَلِّمَ على عباد الله الذين اصطفى بعد تقدّم الحمد
والثناء عليه بما هو أهله، فطابق ذلك قوله: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ
الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]، وكأنه امتثال له. وأيضاً فإن هذا تحية
المخلوق، فُشِّرت بعد تحية الخالق، وقدم في هذه التحية أولى الخلق
بها، وهو النبي ﷺ الذي نالت أمته على يده كل خير، وعلى نفسه بعده،
وعلى سائر عباد الله الصالحين، وأخصهم بهذه التحية الأنبياء، ثم
أصحاب رسول الله ﷺ، مع عمومها لكل عبد لله صالح في الأرض
والسما.

ثم شرع له بعد ذكر هذه [١٥٨] التحية والتسليم على من يستحق
التسليم خصوصاً وعموماً أن يشهد شهادة الحق التي بُنيت عليها

الصلاة، وهي حق من حقوقها، ولا تنفعه إلا بقرينتها وهي شهادة لرسول الله بالرسالة، وختمت بها الصلاة، كما قال عبدالله بن مسعود: «فإذا قلت ذلك فقضيت صلاتك، فإن شئت أن تقوم فقم، وإن شئت أن تقعد فاقعد»^(١). وهذا إما أن يُحمل على قضاء الصلاة حقيقة كما يقوله الكوفيون، أو على مقاربة انقضائها ومشارفته كما يقوله أهل الحجاز وغيرهم، وعلى التقديرين فجُعِلت شهادة الحق خاتمة الصلاة كما شرع أن تكون خاتمة الحياة، فمن كان آخر كلامه «لا إله إلا الله» دخل الجنة^(٢)، وكذلك شرع للمتوضى أن يختم وضوءه بالشهادتين^(٣).

ثم لما قضي صلاته أذن له أن يسأل حاجته، وشرع له أن يتوسل قبلها بالصلاة على النبي ﷺ، فإنها من أعظم الوسائل بين يدي الدعاء، كما في السنن عن فضالة بن عبيد أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دعا أحدكم فليبدأ بحمد الله والثناء عليه، وليصل على رسوله، ثم ليسل حاجته»^(٤).

فجاءت التحيات على ذلك، أولها حمدُ الله والثناء عليه، ثم

(١) أخرجه أبو داود (٩٧٠) عن ابن مسعود، والصواب أنه موقوف عليه كما قال المؤلف.

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٣/٥، ٢٤٧) وأبو داود (٣١١٦) عن معاذ بن جبل. وإسناده صحيح.

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٣٤) عن عقبة بن عامر.

(٤) أخرجه أحمد (١٨/٦) وأبو داود (١٤٨١) والترمذي (٣٤٧٧) والنسائي

(٤٤/٣) عن فضالة بن عبيد. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

الصلاة على رسوله، ثم الدعاء آخر الصلاة، وأذن النبي ﷺ للمصلي بعد الصلاة عليه أن يتخير من الدعاء أعجبه إليه^(١)، ونظير هذا ما شرع لمن سمع المؤذن أن يقول كما يقول^(٢)، وأن يقول: «رضيتُ بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولاً»^(٣)، وأن يسأل الله لرسوله الوسيلة والفضيلة، وأن يبعثه المقام المحمود^(٤)، [٥٨ب] ثم يصلي عليه^(٥)، ثم يسأل حاجته^(٦).
فهذه خمس سنن في إجابة المؤذن، لا ينبغي الغفلة عنها.

فصل

وسرُّ الصلاة وروحها ولبُّها هو إقبال العبد على الله بكلِّيته، فكما أنه لا ينبغي له أن يصرف وجهه عن قبلة الله يمينا وشمالا، فكذلك لا ينبغي له أن يصرف قلبه عن ربه إلى غيره؛ فالكعبة التي هي بيت الله قبله

-
- (١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٨٣٥) ومسلم (٤٠٢) عن ابن مسعود.
(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٦١١) ومسلم (٣٨٣) عن أبي سعيد الخدري.
(٣) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٣٨٦) عن سعد بن أبي وقاص.
(٤) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٦١٤) عن جابر بن عبد الله.
(٥) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٣٨٤) عن عمرو بن العاص.
(٦) كما في الحديث الذي أخرجه أحمد (١١٩/٣) وأبو داود (٥٢١) والترمذي (٢١٢) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٦٨، ٦٩) عن أنس بن مالك، وفي إسناده زيد العمي وهو ضعيف، ولكن رواه أحمد (١٥٥/٣، ٢٢٥) من طريق يزيد بن أبي مريم عن أنس، وإسناده صحيح. وفي الباب عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أخرجه أبو داود (٥٢٤)، وإسناده حسن.

وجهه وبدنه، ورب البيت تبارك وتعالى هو قبلة قلبه وروحه، وعلى حسب إقبال العبد على الله في صلاته يكون إقبال الله عليه، وإذا أعرض أعرض الله عنه.

وللإقبال في الصلاة ثلاثُ منازل: إقبالٌ على قلبه، فيحفظه من الوسوس والخطراتِ المبطلَةِ لثواب صلاته أو المنقِصَةِ له، وإقبالٌ على الله بمراقبته حتى كأنه يراه، وإقبالٌ على معاني كلامه وتفصيل عبودية الصلاة ليعطيها حقَّها، فباستكمال^(١) هذه المراتب الثلاث تكون إقامة الصلاة حقًا، ويكون إقبالُ الله على عبده بحسب ذلك.

فإذا انتصب العبد قائمًا بين يديه فأقباله على قيوميته وعظمته، وإذا كبر فأقباله على كبريائه، فإذا سبَّحه وأثنى عليه فأقباله على سُبحات وجهه، وتنزيهه عما لا يليق به، والثناء عليه بأوصاف جماله، فإذا استعاذ به فأقباله على ركنه الشديد وانتصاره لعبده ومنعه له وحفظه من عدوه، فإذا تلا كلامه فأقباله على معرفته من كلامه، حتى كأنه يراه ويشاهده في كلامه، فهو كما قال بعض السلف: «لقد تجلَّى الله لعباده في كلامه». فهو في هذه الحال مُقبِلٌ على ذاته وصفاته وأفعاله وأحكامه وأسمائه.

فإذا ركع [١٥٩] فأقباله على عظمته وجلاله وعزّه، ولهذا شرع له أن يقول: سبحان ربي العظيم. فإذا رفع رأسه من الركوع فأقباله على حمده والثناء عليه وتمجيده وعبوديته له وتفردِه بالعطاء والمنع. فإذا سجد

(١) في الأصل: «فاستكمال».

فإقباله على قربه والذنوّ منه والخضوع له والتذلّل بين يديه والانكسار والتملّق. فإذا رفع رأسه وجثا على ركبتيه فإقباله على غناه وجوده وكرمه، وشدة حاجته إليه، وتضرعه بين يديه والانكسار، أن يغفر له ويرحمه ويعافيه ويهديه ويرزقه.

فإذا جلس في التشهد فله حال آخر وإقبال آخر، شبه حال الحاج في طواف الوداع، وقد استشعر قلبه الانصراف من بين يدي ربه، وموافاة العلائق والشواغل التي قطعها الوقوف بين يديه، وقد ذاق تألم قلبه وعذابه بها، وباشر رُوح القربِ ونعيم الإقبال على الله وعاقبته، وانقطاعها عنه مدة الصلاة، ثم استشعر قلبه عودها إليه بخروجه من حمى الصلاة، فهو يحمل همّ انقضاء الصلاة وفراغها، ويقول ليتها اتصلت بيوم اللقاء، ويعلم أنه ينصرف من مناجاة من كل السعادة في مناجاته، إلى مناجاة من الأذى والهمّ والغمّ والنكد في مناجاته، ولا يشعر بهذا وهذا إلا قلبٌ حيٌّ معمور بذكر الله ومحبه والأنس به.

ولما كان العبد بين أمرين من ربه عز وجل:

أحدهما: حكمٌ عليه في أحواله كلّها ظاهرًا وباطنًا، واقتضاؤه منه القيام بعبودية حكمه، فإن لكل حكمٍ عبودية تخصّه، أعني الحكم [٥٩ب] الكوني القدري.

والثاني: فعلٌ يفعله العبد عبوديةً لربه، وهو مُوجبٌ حكمه الديني الأمري.

وكلا الأمرين يُوجبان تسليم النفس إليه تعالى، ولهذا اشتق له اسمُ

الإسلام من التسليم، فإنه لما أسلم نفسه لحكم ربه الديني الأمري، ولحكمه الكوني القدري، بقيامه بعبوديته فيه لا باسترساله معه، استحقَّ اسمَ الإسلام، فقليل له مسلم. ولما اطمأنَّ قلبه بذكره وكلامه ومحبتة وعبوديته، سكن إليه وقرَّت عينُه به، فنال الأمانَ بإيمانه.

= كان^(١) قيامُه بهذين الأمرين أمرًا ضروريًا له، لا حياة له ولا فلاح ولا سعادة إلا بهما.

ولما كان ما بُليَ به من النفسِ الأمارَةِ والهوى المقتضي والطباع المطالبة والشيطان المغوي، يقتضي منه إضاعةَ حظِّه من ذلك أو نقصانَه، اقتضتُ رحمةُ العزيز الرحيم أن شرَّعَ له الصلاة مُخْلِفةً عليه ما ضاعَ منه، رادَّةً عليه ما ذهب، مجدِّدةً له ما أخلقَ من إيمانه، وجعلتُ صورتها على صورة أفعاله خشوعًا وخضوعًا وانقيادًا وتسليمًا، وأعطى كلَّ جارحةٍ من الجوارح حظَّها من العبودية، وجعلَ ثمرتها وروحها إقباله على ربه فيها بكلية، وجعلَ ثوابها وجزاءها القربَ منه ونيلَ كرامته في الدنيا والآخرة، وجعلَ منزلتها ومحلَّها الدخولَ على الله تبارك وتعالى والتزيينَ للعرض عليه، تذكيرًا بالعرضِ الأكبر عليه يومَ اللقاء.

وكما أن الصوم ثمرته تطهيرُ النفس، وثمره الزكاة تطهيرُ المال، وثمره الحج وجوب المغفرة، وثمره الجهاد تسليم [١٦٠] النفس التي اشتراها سبحانه من العباد وجعلَ الجنةَ ثمنها، فالصلاة ثمرتها الإقبال على الله، وإقبال الله سبحانه على العبد، وفي الإقبال جميع ما ذُكر من

(١) هذا جواب: «لما كان العبد بين أمرين من ربه...» قبل أسطر.

ثمرات الأعمال. ولذلك لم يقل النبي ﷺ: «جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّوْمِ وَلَا فِي الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، وَإِنَّمَا قَالَ: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(١).
وتأمل قوله: «جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»، ولم يقل «بالصلاة»
إعلامًا بأن عينه إنما تَقَرُّ بدخوله فيها، كما تَقَرُّ عَيْنُ الْمُحِبِّ بِمَلَابِسْتِهِ
لمحبوبه، وتَقَرُّ عَيْنُ الْخَائِفِ بِدُخُولِهِ فِي مَحَلِّ أَمْنِهِ، فَقُرَّةُ الْعَيْنِ
بِالدُّخُولِ فِي الشَّيْءِ أَكْمَلُ وَأَتَمُّ مِنْ قُرَّةِ الْعَيْنِ بِهِ قَبْلَ الدُّخُولِ. وَلَمَّا جَاءَ
إِلَى رَاحَةِ الْقَلْبِ مِنْ تَعَبِهِ وَنَصَبِهِ قَالَ: «يَا بِلَالُ أَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ»^(٢) أَي
أَقِمْنَا لِنَسْتَرِيحَ بِهَا مِنْ مَقَاسَاةِ الشَّوَاغِلِ، كَمَا يَسْتَرِيحُ التَّعْبَانُ إِذَا وَصَلَ
إِلَى نَزْلِهِ وَقَرَّ فِيهِ وَسَكَنَ.

وتأمل كيف قال: أَرِحْنَا بِهَا، ولم يقل: أَرِحْنَا مِنْهَا، كما يقوله
المتكلف بها الذي يفعلها تكلفًا وغمًّا، فهو لما امتلأ قلبه بغيرها
وجاءت قاطعةً عن أشغاله ومحجوباته، وعلم أنه لا بدَّ له منها، فهو قائل
بلسان حاله وقاله: نصلِّي ونستريح من الصلاة، لا بها، فهذا لونٌ وذاك

(١) أخرجه أحمد (٣/١٢٨، ١٩٩) وأبو يعلى (٣٤٨٢) والطبراني في «الأوسط»
(٥١٩٩) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٧/٧٨) من طرق عن سلام أبي المنذر
عن ثابت عن أنس، وإسناده حسن. وصححه الحاكم في المستدرک (٢/١٦٠).
وقال الذهبي في «الميزان» (٢/١٧٧): إسناده قوي. وحسنه ابن حجر في
«التلخيص» (٣/١٣٣).

(٢) أخرجه أحمد (٥/٣٦٤) وأبو داود (٤٩٨٥) من طريق سالم بن أبي الجعد عن
رجل من أسلم مرفوعًا، ورجاله ثقات. وفي إسناده اختلاف. انظر علل الدارقطني
(٤/١٢٠) وتعليق المحقق على المسند (٣٨/١٧٩).

لون آخر، فالفرق بين مَنْ كانت الصلاة لحوائجه قيدًا ولقلبه سجنًا
ولنفسه عائقًا، وبين مَنْ كانت الصلاة لقلبه نعيمًا، ولعينه قرّة، ولحوائجه
راحة، ولنفسه بستانًا ولذة.

فالأول الصلاة سجنٌ لنفسه وتقييدٌ لها عن التورط في مساقط
الهلكات، وقد ينالون بها التكفير والثواب، وينالهم من الرحمة بحسب
عبوديتهم لله فيها، والقسم الآخر الصلاة بستان قلوبهم، وقرّة عيونهم،
ولذة نفوسهم، ورياض جوارحهم، فهم فيها يتقلبون في النعيم. [٦٠ب]
فصلاة هؤلاء تُوجب لهم القربَ والمنزلةَ من الله، ويُشاركون الأولين
في ثوابهم، ويختصّون بأعلاه ومزيد^(١) المنزلة والقربة، وهي قدر زائد
على مجرد الثواب، ولهذا يَعِدُّ الملوك من أرضاهم بالأجر والتقريب،
كما قال السحرة لفرعون: ﴿أَيْنَ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ (٤١) قَالَ نَعَمْ
وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴿ [الشعراء: ٤١-٤٢].

فالأول عبدٌ قد دخل الدارَ والسترَ حاجبٌ بينه وبين رب الدار، فهو
من وراء الستر، فلذلك لم تَقَرَّ عينُه، لأنه^(٢) في حُجُب الشهوات،
وغُيُوم الهوى، ودخان النفس، وبخار الأمانى، فالقلب عليل، والنفس
مُكِبَّة على ما تهواه، طالبةٌ لحظّها العاجل، والآخر قد دخل دارَ الملك،
ورُفِعَ الستر بينه وبينه، فقَرَّتْ عينُه واطمأنَّتْ نفسه، وخَشَع قلبُه
وجوارحه، وَعَبَدَ الله كأنه يراه، وتجلَّى له في كلامه.

(١) هنا كلمة غير واضحة في الأصل، ورسمها قريب مما أثبتّه.

(٢) في الأصل: «لأن ما».

فهذه إشارة ما ونبذة يسيرة جدًا في ذوق الصلاة.

فصل

فَنُشَادُ أَهْلِ السَّمَاعِ بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ: هَلْ لَهُمْ فِي السَّمَاعِ
مِثْلُ هَذَا الذَّوْقِ أَوْ شَيْءٍ مِنْهُ^(١)؟ بَلْ نُنَاشِدُهُمْ بِاللَّهِ هَلْ يَدْعُهُمُ السَّمَاعُ
يَجِدُونَ هَذَا الذَّوْقَ فِي الصَّلَاةِ؟ وَنَحْنُ نَحْلِفُ عَنْهُمْ أَنْ ذَوْقَهُمْ ضِدُّ هَذَا
الذَّوْقِ، وَمَشْرِبُهُمْ ضِدُّ هَذَا الْمَشْرَبِ. وَلَوْ لَا خَشْيَةُ الْإِطَالَةِ لَذَكَرْنَا نَبْذَةَ
مِنْ ذَوْقِهِمْ تَدُلُّ عَلَى مَا وَرَاءَهَا، وَلَا يَخْفَى عَلَى مَنْ لَهُ أَدْنَى حَيَاةٍ قَلْبٍ،
الْفَرْقُ بَيْنَ ذَوْقِ الْأَبْيَاتِ وَذَوْقِ الْآيَاتِ، وَبَيْنَ ذَوْقِ الْقِيَامِ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّ
الْعَالَمِينَ وَالْقِيَامِ بَيْنَ يَدَيْ الْمَغْنِيِّ، وَبَيْنَ ذَوْقِ اللَّذَّةِ وَالنَّعِيمِ بِمَعَانِي ذِكْرِ
اللَّهِ وَكَلَامِهِ وَذَوْقِ مَعَانِي الْغِنَاءِ الَّذِي هُوَ رَقِيقَةُ الزُّنَا وَالتَّلَذُّذُ بِمُضْمُونِهَا،
فَمَا اجْتَمَعَ وَاللَّهِ الْأَمْرَانِ فِي قَلْبٍ إِلَّا وَطَرَدَا أَحَدَهُمَا صَاحِبَهُ، وَلَا
تَجْتَمِعُ بِنْتُ عَدُوِّ اللَّهِ وَبِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ عِنْدَ رَجُلٍ وَاحِدٍ أَبَدًا^(٢).



(١) في الأصل: «منهم».

(٢) سبق تخريج الحديث الذي أشار إليه المؤلف. وفي الأصل بعد هذا: «آخر الجزء الأول من هذه الفتيا، ويتلوه إن شاء الله تعالى في الجزء الثاني فصل في عقد مجلس في المناظرة بين صاحب القرآن وصاحب السماع. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليمًا كثيرًا». وبعده (ق ٦١ب-٦٤ب) «فصل في الصلاة» لشيخ الإسلام ابن تيمية، نشرته في «جامع المسائل» (٣/٣٥١-٣٦٠).

e

[١٦٥] عقد مجلس في المناظرة

بين صاحب غناء وصاحب قرآن

وهو تمام الجواب عن الفتيا الواردة في السماع في سنة أربعين

وسبعمائة، وهو الجزء الثاني، وبه تم الجواب، والحمد لله وحده (١).

(١) بعده في الأصل: «وهذا من عمل الناسخ».

الحمد لله رب العالمين

قال الشيخ الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الحنبلي إمام الجوزية في تمام الجواب عن الفتيا الواردة في السماع سنة أربعين وسبعمائة، التي^(١) أجاب فيها العلماء من المذاهب الأربعة رضي الله عنهم أجمعين:

فصل

في عقد مجلس يتضمن مناظرة بين صاحب غناء وصاحب قرآن، أدلى كل واحد منهما بحجته، ورضيا بتحكيم من أثر عقله ودينه على هواه، وكان الحق الذي بعث الله به رسوله أحب إليه مما سواه.

فجلس مجلس الحكم بين الخصمين، ونظر بعين النصيحة لنفسه في كل واحد من المحتجّين، وعزل حمية الجاهلية وعصبية الفرقة الباطنية، ووالى^(٢) من والاه الله ورسوله وعباده المؤمنون، ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُمْ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُمْ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

(١) في الأصل: «الذي».

(٢) في الأصل: «وولى».

وهذا أول المناظرة:

* قال صاحب الغناء^(١): قد أمر الله رسوله أن يُبشِّرَ مَنْ استمع القول واتبع أحسنه، فقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر: ١٧-١٨]. قال: والألف واللام في القول تقتضي العموم والاستغراق، والدليل عليه أنه مدحهم باتباع الحسن من القول، وهذا يعمُّ كلَّ قول، فيدخل فيه قول السماع وغيره.

* قال صاحب القرآن: قد كان ينبغي لك أن تُوقِّرَ كلامَ الله وتُجِلَّهُ أن تُنزِّله على أقوال المغنين والمغنيات وإخوانهم من النائحين والنائحات، وأن يُحمَل على رقية الزنا ومُنْبِتِ النفاق وداعي الغي والهوى، فيكفي في فساد القول أنه لم يقله قبلك أحد [١٦٦] من أئمة التفسير على اختلاف طبقاتهم.

ويدل على بطلانه وأنه يمتنع أن يُراد بكلام مَنْ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وجوه عديدة:

أحدها: أن الله سبحانه وتعالى لا يأمر بل لا يأذن في استماع كل قول، حتى يقال: اللام للاستغراق والعموم، بل من القول ما يحرمُّ استماعه، ومنه ما يُكرهه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ

(١) انظر «الرسالة القشيرية» (ص ٥٠٤).

الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ [الأنعام: ٦٨].

فأمر سبحانه وتعالى بالإعراض عن سماع هذا القول، ونهى عن القعود مع قائله.

وقال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]. فجعل سبحانه المستمع لهذا الحديث مثل قائله، فكيف سبحانه يمدح مستمع كل قول؟

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٣]. وقال تعالى في وصف عباده: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]، أي أكرموا أنفسهم عن استماعه. وروي أن ابن مسعود رضي الله عنه سمع صوت لهو فأعرض عنه فقال النبي ﷺ: «إن كان ابن مسعود لكريمًا» (١).

فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أثنى على من أعرض عن اللغو ومر به كريمًا، فأكرم نفسه عن استماعه، فكيف يجوز أن يقال: إن الألف واللام للاستغراق؟ ويُنسب إلى الله سبحانه أنه مدح مستمع كل قول؟ وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥٢٦/١٧) وابن أبي حاتم في تفسيره (٢٧٣٩/٨)، وفي إسناده انقطاع. وانظر «الدر المنثور» (٢٢٨/١١).

أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ [الإسراء: ٣٦].

[٦٦ب] فقد أخبر سبحانه أنه يسأل العبد عن سمعه وبصره وفؤاده، ونهاه أن يقفوا أي يتبع ما ليس له به علم.

وإذا كان السمع والبصر والكلام والفؤاد منقسمًا إلى ما يؤمر به وينهى عنه، والعبد مسؤول عن ذلك كله، فكيف يجوز أن يقال: كلُّ قول في العالم فالعبد ممدوحٌ على استماعه؟ ونظير هذا أن يقال: كل مرثيٍّ في العالم فالعبد ممدوحٌ على النظر إليه، لقوله: ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

ولهذا دخل الشيطان عليكم وعلى كثير من النساك من (١) هذين المدخلين، إذ توسعت في النظر إلى الصور المنهي عن النظر إليها، وفي استماع الأقوال والأصوات التي تُهَيِّم عن استماعها. ولم يكتفِ الشيطان بذلك منكم حتى زَيَّنَ لكم أن جعلتم ما نهيتم عنه عبادةً وقربةً وطاعة، وهذه هي لطيفة إبليس فيكم التي تقدم ذكرها (٢). وهي قوله: «لي فيكم لطيفة السماع وصحبة الأحداث».

الوجه الثاني: أن المراد بالقول في هذه الآية التي احتججتم بها القرآن، كما جاء ذلك في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]،

(١) في الأصل: «في».

(٢) انظر (ص ٣٦)، وهناك التخريج.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ [القصص: ٥١]. فالقول الذي بشر مستمعيه ومتبعي أحسنه هو القول الذي وصله وحض^(١) على تدبره، وكلام الله يُفسر بعضه بعضاً، ويُحمل بعضه على بعض.

الوجه الثالث: أن الألف واللام هنا لتعريف العهد، وهو القول الذي دُعِيَ إليه المخاطب وأمر بتدبره، وأخبر بتوصيله له، وهو كالكتاب والقرآن. والألف واللام فيه كالألف واللام في الكتاب سواء، [١٦٧] وكذلك الألف واللام في الرسول في قوله: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]، وفي قوله: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢]، فهل يجوز أن يقال: إن اللام في الكتاب والرسول للاستغراق، فتُحمل على كل كتاب وعلى كل رسول؟

الوجه الرابع: أنها وإن كانت للعموم في قوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾ [الزمر: ١٨]، فهي إنما تعمُّ القول الذي أنزل الله ومدحه وأثنى عليه، وأمر باتباعه واستماعه وتدبره وفهمه، فهي تقتضي العموم والاستغراق في جميع هذا القول، فإنها تقتضي عموم ما عرفته وقصد مصحوبها.

الوجه الخامس: أن السياق كله من أول السورة إلى هذه الآية إنما هو في القرآن، قال تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [١] إِنَّا أَنْزَلْنَا

(١) في الأصل: «وحظ» تحريف.

إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَأَعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴿١﴾

[الزمر: ١-٣]. فذكر في أول السورة كتابه ودينه والكلم الطيب والعمل

الصالح، فخير الكلام كتابه، وخير العمل إخلاص الدين له، ثم أعاد ذكر

الأصلين في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾

[الزمر: ١٧]، فهذا إخلاص الدين له، ثم قال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ

الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٧-١٨]، فهذا كتابه. فتضمنت ذكر كتابه

ودينه كما تضمنت أول السورة، فما لأقوال المغنين والمغنيات ههنا؟

ثم قال: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِٗٓ فَوَيْلٌ

لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ

الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم ثُمَّ

تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴿٢٣﴾ [الزمر: ٢٢-٢٣].

فأثنى على أهل السماع والوجد للقول والحديث الذي أنزله، ولم

يُثْنِ سُبْحَانَهُ عَلَىٰ مَطْلُوقِ الْحَدِيثِ وَمُسْتَمْعِيهِ، بَلْ يَتَضَمَّنُ السِّيَاقُ الثَّنَاءَ

عَلَىٰ أَهْلِ ذِكْرِهِ وَالِاسْتِمَاعِ لِحَدِيثِهِ، كَمَا جَمَعَ بَيْنَهُمَا [٦٧ب] فِي قَوْلِهِ:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾

[الحديد: ١٦]، وفي قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ

وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢].

وهو سبحانه ذكر وبيّن في الفرقان الأمثال والحجج، لتذكر به

ونتعظ ونتدبره ونتفهمه، فأمرنا باستماعه واتباعه، وحضّ (١) على تدبره،
 وبشّر من استمعه واتبع أحسنه، وأخبر أنه وصله ليتذكر به، وأخبر أن من
 لم يتدبره فقلبه من القلوب التي عليها أقفالها، فما لأقوال المغنين
 والمغنيات وهذا الشأن؟

ثم أعاد سبحانه ذكر القرآن في قوله: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ
 وَصَدَّقَ بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣]، قال البخاري في
 صحيحه (٢) عن مجاهد قال: الذي جاء بالصدق: القرآن، وصدق به:
 المؤمن، يجيء يوم القيامة يقول: هذا الذي أعطيتني عملتُ بما فيه.

فذكر سبحانه الصادق (٣) والمصدق به مُثْنِيًا عليهما (٤)، ثم ذكر
 ضدهما وهما الكاذب والمكذّب بالحق، وهما نوعان ملعونان من
 القول، أعني الكذب والتكذيب بالحق، فكيف يكون من استمعهما
 ممدوحًا مستحقًا للثناء؟

ولا ريب أن البدع القولية والسماعية المخالفة لما بعث الله به
 رسوله من الهدى ودين الحق تتضمن أصيلين: الكذب على الله،
 والتكذيب بالحق، بل الانتصار لما خالف ذلك سواء كان سماعًا أو
 غيره يتضمن الأصلين الباطلين.

(١) في الأصل: «وَحِظَّ» تحريف.

(٢) ٥٤٧/٨ (مع الفتح).

(٣) في الأصل: «الصدق».

(٤) في الأصل: «عليه».

الوجه السادس: أنه سبحانه قال بعد ذلك: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ، مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مَن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزمر: ٥٣-٥٥]. فهذا الأحسن الذي [١٦٨] أمر باتباعه هنا هو الأحسن الذي بشر من اتبعه في أول السورة، وهو أحسن المنزل في الموضوعين. ونظير هذا قوله تعالى لموسى في التوراة: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥].

فهذا كله إذا تدبره المؤمن الناصح لنفسه، علم علماً يقينياً أن الكتاب والقول والحديث الذي أمر الله باستماعه وتدبره وفهمه واتباع أحسنه هو كلامه المجيد، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

وأما مدح الاستماع لكل قول فهذا لا يليق نسبه إلى العقلاء، فضلاً عن رب الأرض والسماء. يوضحه

الوجه السابع: وهو أن الله سبحانه في كتابه إنما أثنى على المستمعين للقرآن، وحمد هذا السماع، وذم المعرضين عنه، وجعلهم أهل الكفر والجهل، الصم البكم الذين لا يعقلون، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ، وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمُ

ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ [الأنفال: ٢].

وقال تعالى في حق المنعم عليهم: ﴿إِذَا تُنذِرَ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧].

وقال في ذم المعرضين عن هذا السماع: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّاسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٢٢-٢٣]، وقال: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧١]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣].

وهذا كثير في القرآن، وكتاب الله يُبين بعضه بعضًا.

الوجه الثامن: أنَّ المعروف في القرآن إنما هو ذم استماع القول الذي هو الغناء، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعَجِبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ﴾ [النجم: ٥٩-٦١]. قال غير واحد من السلف^(١): هو الغناء، يقال: سَمَدَ لَنَا أَي غَنَى لَنَا.

(١) انظر «تفسير الطبري» (٩٧/٢٢) و«ابن كثير» (٣٣٤٦/٧) و«الدر المشور» (٦٠/١٤).

فدّم المعرضين عن سماع القرآن المتعوضين عنه بسماع الغناء، كما هو حال السماعياتة المؤثرين لسماع المكاء والتصديّة على سماع القرآن، المتعوضين عنه بسماع الغناء.

وهو نظير الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، وقال غير واحد من السلف^(١) في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ [لقمان: ٦]: إنه الغناء.

الوجه التاسع^(٢): أنكم معاشر السماعياتة المحتجين بهذه الآية لا تستحسنون استماع كل منظوم ومثور، بل أنتم من أعظم الناس كراهة لما لا تحبونه من الأقوال مثورها ومنظومها، وأشدّهم نفرة عن ذلك، ونفوركم عما لا تحبونه وتهوونه من الأقوال أعظم من نفور المنازع لكم عن سماع المكاء والتصديّة، فهلاً أدخلتم الأقوال التي تخالف أهواءكم وما تحبونه في القول الذي أثنى الله على من استمعه واتبع أحسنه؟ هذا مع أنّه قطعاً أحسن من أقوال المغنين وأنفع للقلب في الدنيا والآخرة، ولكن ذنب هذا القول مخالفته لهواكم وما ابتدعتموه.

فإن كان العموم في الآية مراداً فقد بطلت حجّتكم، وإن لم يكن مراداً فقد بطلت أيضاً، فتبين بطلان استدلالكم على التقديرين، وبالله التوفيق.

(١) انظر «تفسير الطبري» (١٨/٥٣٥-٥٤٠) و«ابن كثير» (٦/٢٧٣٩) و«الدر المنثور» (١١/٦١٥-٦١٨).

(٢) في الأصل: «الوجه الثامن».

الوجه العاشر^(١): أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ قَالَ: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٨]، فمدحهم باستماع القول واتباع أحسنه، ومن المعلوم أَنَّ كثيرًا من القول بل أكثره ليس فيه حُسْنٌ [١٦٩] فضلًا عن أن يكون أحسنَ، بل غالب القول يَكُوبُ قائلُهُ في النار على مَنْخَرِهِ.

والأقوال التي ذمَّها الله في كتابه أكثر من أن تُعَدَّ، كالكلام الخبيث، والقول الباطل، والقول عليه بما لا يعلم القائل، والكذب، والافتراء، والغيبة، والتنازع بالألقاب، والتناجى بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، وتبييت ما لا يرضى من القول، وقول العبد بلسانه ما ليس في قلبه، وقوله ما لا يفعله، وقول اللغو، وقول ما لم يُنزل به سلطانًا، والقول المتضمن للشفاعة السيئة، والقول المتضمن للمعاونة على الإثم والعدوان^(٢)، وأمثال ذلك من الأقوال المسخوطة والمبغوضة للرب تعالى، التي كلها قبيحة لا حَسَنَ فيها ولا أَحْسَنَ.

فادعاء العموم في الآية في غير القول الذي أنزله الله على رسوله من الكتاب والسنة من أبطل الباطل.

الوجه الحادي عشر^(٣): أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ عَلَّقَ الْهُدَايَةَ عَلَى اتِّبَاعِ أَحْسَنِ

(١) في الأصل: «التاسع».

(٢) ذكر شيخ الإسلام في «الاستقامة» (١/ ٢٣١، ٢٣٢) الآيات التي ورد فيها ذكر هذه الصفات، والمؤلف أشار إليها إشارة.

(٣) في الأصل: «العاشر».

هذا القول، فقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر: ١٧-١٨]. ومن المعلوم بالاضطرار أن الهداية إنما حصلت لمن اتبع القرآن، فهو الذي هداه الله، فأين الهدى في أقوال المغنين والمغنيات؟

وبالجملة ففساد هذا القول الذي حملتم عليه كتاب الله وألصقتموه به وهو منه بريء، وحملتموه إياه وليس خليقاً بحمله، معلوم لكل من في قلبه حياة ونور، ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠].

فصل

* قال صاحب السماع^(١): وقال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِذُ يَنْفَرِقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الروم: ١٤-١٥]، جاء في التفسير^(٢) أنه السماع، ولو كان حراماً لما كان من أفضل نعيم الجنة.

* قال صاحب القرآن: لو أمسكتكم عن استدلالكم لصحة ما ذهبتم إليه لكان أستر له وأروج عند من قلَّ نصيبه من البصيرة والعلم، ولكن يأبى الله إلا أن يكشفه ويهتكه على ألسنتكم.

ولا ريب أنه قال بعض السلف: إن الحبرة ههنا هي السماع

(١) انظر «الرسالة القشيرية» (ص ٥٠٤).

(٢) انظر «تفسير الطبري» (١٨ / ٤٧٢، ٤٧٣) و«الدر المشور» (١١ / ٥٨٨-٥٩١).

الحسن في الجنة، وإن الحور العين يُغْنين بأصواتٍ لم يَسْمَعُ خلأئقُ بأحسنَ منها، يقلن: نحن الخالدات فلا نموت، ونحن الناعمات فلا نبأس، ونحن الراضيات فلا نَسْخَط، طوبى لمن كان لنا وكنا له.

وذكر أبو نعيم في «صفة الجنة»^(١) من حديث سعيد بن أبي مریم ثنا محمد بن جعفر بن أبي كثير عن زيد بن^(٢) أسلم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أزواج أهل الجنة ليغْنين أزواجهن بأحسن أصواتٍ سمعها أحدٌ قطُّ، وإن مما يُغْنين: نحن الخيراتُ الحسانُ، نحن أزواج قوم كرام، ينظرون بقرة أعيان. وإن مما يُغْنين: نحن الخالداتُ فلا يَمُتُّنَّ، نحن الآماتُ فلا يَخْفُنَّ، نحن المقيماتُ فلا يَظْعَنَنَّ»^(٣). تفرد به سعيد بن أبي مریم.

وروى^(٤) من طريق الوليد بن أبي ثور حدثني سعد الطائي عن

(١) رقم (٣٢٢، ٤٣٠). وأخرجه أيضًا الطبراني في «الصغير» (٣٥ / ٢) و«الأوسط» (٣٩١٧). وهو حديث غريب كما ذكره المؤلف، تفرد به سعيد بن أبي مریم. وفي إسناده انقطاع.

(٢) في الأصل: «زيد عن ابن». و«عن» زائدة.

(٣) في الأصل: «فلا يضعنه» تحريف.

(٤) أبو نعيم في «صفة الجنة» رقم (٣٧٨، ٤٣١). وأخرجه أيضًا أبو الشيخ في «العظمة» رقم (٦٠٣). والوليد بن أبي ثور ضعيف جدًا، منكر الحديث. والحديث معروف من قول عبد الرحمن بن سابط، أخرجه ابن أبي الدنيا في «صفة الجنة» رقم (٢٧٩) وأبو الشيخ في «العظمة» (٥٨٩) والبيهقي في «البعث والنشور» رقم (٤١٣). قال البيهقي: هذا هو الصحيح من قول ابن سابط.

عبد الرحمن بن سابط عن (١) ابن أبي أوفى قال: قال رسول الله ﷺ،
فذكر حديثاً فيه: «إنه يجتمع الحور العين في كل سبعة أيام، فيقلن
بأصوات حسانٍ لم يسمع الخلائقُ بمثلها: نحن الخالداتُ فلا نبيدُ،
ونحن الناعماتُ فلا نبأسُ، ونحن الراضياتُ فلا نَسخطُ، ونحن
المقيماتُ فلا نَظعنُ، طوبى لمن كان لنا وكنا له».

وروى (٢) من طريق ابن أبي فديك عن ابن أبي ذئب عن عون بن
الخطاب عن ابن أنسٍ عن أنسٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن
الحور [١٧٠] العين يغنين في الجنة: نحن الحسان، خُلِقنا لأزواج كرام».

ومن طريق زيد بن واقد عن رجل عن أبي هريرة رضي الله عنه
قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة شجرةً جُدوعها من ذهبٍ
وفروعها من زبرجد ولؤلؤ، فتهبُّ لها ريحٌ فتَضطَفِقُ، فما سمع
السامعون بصوت شيء ألدَّ منه» (٣).

ومن طريق خالد بن معدان عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ قال:

(١) «عن» ساقطة من الأصل.

(٢) أي أبو نعيم في «صفة الجنة» رقم (٤٣٢). وأخرجه أيضاً البخاري في «التاريخ
الكبير» (١٦/٧) وابن أبي داود في «البعث» (٧٥) والطبراني في «الأوسط»
(٦٤٩٧) والبيهقي في «البعث» (٤٢٠) من طرق عن ابن أبي فديك به. وإسناده
ضعيف.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «صفة الجنة» (٤٣٣). وفي إسناده مسلمة بن علي الخشني
متروك الحديث. والراوي عن أبي هريرة مبهم.

«ما من عبدٍ يدخل الجنةَ إلا ويجلس عند رأسه وعند رجليه ثنتانٍ من الحور العين، تُغنيانه بأحسن صوتٍ سمعه الأُنس والجن، وليس بمزامير الشيطان»^(١).

وروى الترمذي^(٢): حدثنا أحمد بن منيع حدثنا أبو معاوية حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق عن النعمان بن سعد عن علي، قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة مجتمعًا للحور العين يرفعن أصواتًا لم يسمع الخلائق مثلها»، قال: «يقلن: نحن الخالداتُ فلا نبيد، ونحن الناعماتُ فلا نبأس، ونحن الراضياتُ فلا نسخط، طوبى لمن كان لنا وكناله». وقال: حديث غريب.

وروى الطبراني^(٣) من حديث سليمان بن أبي كريمة - وفيه كلام - عن هشام بن حسان عن الحسن عن أمه عن أم سلمة قالت: قلت: يا رسول الله! نساء الدنيا أفضل أم الحور العين؟ قال: «بل نساء

(١) أخرجه أبو نعيم في «صفة الجنة» (٤٣٤) والبيهقي في «البعث والنشور» رقم (٤٢١) والطبراني في «الكبير» (٧٤٧٨). والحديث ضعيف جدًا، في إسناده خالد بن يزيد بن أبي مالك، وهو متروك.

(٢) رقم (٢٥٦٤، ٢٥٥٠). وأخرجه أيضًا عبد الله بن أحمد في «زوائد على المسند» (١٥٦/١). وفي إسناده عبد الرحمن بن إسحاق أبو شيبة ضعيف، والنعمان بن سعد فيه جهالة.

(٣) في «المعجم الكبير» (٢٣/٢٥٧)، وأخرجه أيضًا العقيلي في «الضعفاء الكبير» (١٣٨/٢). والحديث منكر لا يثبت، علته سليمان بن أبي كريمة الشامي، ضعفه أبو حاتم، وقال العقيلي: يحدث بمناكير. ثم ذكر منها هذا الحديث.

الدنيا أفضل من الحور العين، كفضل الظَّهارة على البِطانة»، قلت: يا رسول الله! وبمَ ذلك؟ قال: «بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن لله، ألبسَ الله وجوههن النورَ، وأجسادهن الحريرَ، بيضُ الألوان، خُضر الثياب، صُفر الحلبي، مَجامرهن الدرّ، وأمشاطهن الذهب، يقلن: نحن الخالداتُ فلا نموت، ونحن الناعماتُ فلا نُبأس [٧٠ب] أبدًا، ونحن المقيماتُ فلا نظعن أبدًا، ونحن الراضياتُ فلا نسخط أبدًا، طوبى لمن كناه وكان لنا. الحديث.

فيقال لكم: هل يلزم من كون الشيء يُنعم الله به عباده في الآخرة أن يكون مباحًا لهم في الدنيا؟

فإن قلتم: لا يلزم ذلك، بطل استدلالكم.

وإن قلتم: يلزم، قيل لكم: فالله سبحانه يُنعمهم في الآخرة بلباس الحرير وأساورة الذهب، فجوزوا لهم لباس ذلك في الدنيا وخالفوا دينه وأمره. وأيضًا فإن الله عز وجل يُنعمهم في الجنة بالخمير، فجوزوا لهم شربها في الدنيا على طرد قولكم. وأيضًا فإنهم في الجنة يأكلون ويشربون في صحاف الذهب والفضة، وقد قال ﷺ: «هي لهم في الدنيا، ولنا في الآخرة»^(١). وطرّد قولكم أنها كما هي للمسلمين في الآخرة، تكون مباحة لهم في الدنيا، وقد قال النبي ﷺ: «من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة»^(٢). و«من لبس الحرير في الدنيا

(١) أخرجه البخاري (٥٤٢٦، ٥٦٣٢) ومسلم (٢٠٦٧) عن حذيفة.

(٢) أخرجه مسلم (٧٨/٢٠٠٣) عن ابن عمر.

لم يلبسه في الآخرة»^(١)، وقال في صحاف الذهب والفضة: «هي لهم في الدنيا ولنا في الآخرة»^(٢).

فأخبر أنه من استعمل هذه الأمور في الدنيا من المطعوم والملبوس وغيرهما لم يستعملها في الآخرة، فإما أن يستعملها أهل الجنة ويُحَرَّمها هو وإن دخلها، كما روى ابن أبي حاتم^(٣): حدثنا أبي حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي حدثنا حسن يعني ابن علي بن حسن البراد عن حميد الخراط عن محمد بن كعب قال: «من شربها في الدنيا لم يشربها في الآخرة». قال: قلت: فإنه تاب حتى أدخله الله الجنة، والله تعالى يقول: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ [فصلت: ٣١] قال: يُنْسِيهِمُ اللَّهُ ذَكَرَهَا.

أو أن^(٤) ذلك وعيدٌ له بأنه لا يدخل الجنة، فإن هذه الأمور يستعملها أهل الجنة، فمن لم تحصل له في الآخرة [١٧١] لم يكن من أهل الجنة. وهما تأويلان للسلف في هذه الأحاديث.

فلو قيل: إن هذا السماع اللذيذ الموعود به في الجنة إنما هو لمن نزه سمعه في الدنيا عن سماع الغناء والملاهي، اعتبارًا بنظيره من

(١) أخرجه البخاري (٥٨٣٤) عن عمر، ومسلم (٢٠٧٣) عن أنس، و(٢٠٧٤) عن أبي أمامة.

(٢) سبق تخريجه تقريبًا.

(٣) لم أجد النص في «تفسيره» المطبوع.

(٤) السياق: «فإما أن يستعملها أهل الجنة... أو أن ذلك وعيد».

اللباس وشرب الخمر واستعمال آنية الذهب والفضة، لكان هذا أشبه بالصواب، وأصح من استدلالكم على إباحته في الدنيا باستعمال أهل الجنة له.

وقد جاء الأثر بما قلنا صريحًا، وهو ما روى أبو بكر بن أبي الدنيا^(١): حدثنا داود بن عمرو الضبي حدثنا عبد الله بن المبارك عن مالك بن أنس عن محمد بن المنكدر قال: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين الذين كانوا يُنزهون أنفسهم عن اللهو ومزامير الشيطان؟ أسكنوهم في رياض المسك. ثم يقول للملائكة أسمعوهم حمدي وثنائي، وأعلموهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون». وقد تقدم نقله عن مجاهد من كلام ابن بطّة^(٢).

وأيضًا فإنه قد جاء في الحديث: أن الرجل من أهل الجنة يُزوّج باثنتين وسبعين زوجة، ذكره أبو نعيم في كتاب صفة الجنة^(٣) من [حديث]^(٤) خالد بن معدان عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ قال: «ما من عبد يدخل الجنة إلا ويُزوّج ثنتين وسبعين زوجةً، ثتان من الحور

(١) في «ذم الملاهي» (٧٢)، وسبق تخريجه.

(٢) انظر (ص ٣٤).

(٣) برقم (٣٧٠). وأخرجه أيضًا ابن ماجه (٤٣٣٧). وإسناده ضعيف جدًا، وفيه خالد بن يزيد بن أبي مالك، اتهمه بعضهم بالكذب، وساق له ابن عدي والذهبي هذا الحديث من مناكيره. وضعفه المؤلف في «حادي الأرواح» (ص ٥٠١).

(٤) زيادة ليستقيم السياق.

العين [وسبعين] (١) من أهل ميراثه من أهل الدنيا، ليس منهن امرأة إلا لها قُبْلٌ شَهِيٌّ، وله ذَكَرٌ لا يَنْثِي.»

وذكر (٢) من حديث الحجاج عن قتادة عن أنس يرفعه: «للمؤمن في [الجنة] ثلاثون (٣) زوجة»، فقلنا: يا رسول الله! أوله قوةٌ ذلك؟ قال: «[إنه] لَيُعْطَى قوةَ مائة.»

وفي حديث آخر: «إن الرجل منهم ليصل في اليوم إلى مائة عذراء» (٤).

وهذه الآثار لا تناقض بينها، فإن تفاضلهم في العدد على حسب تفاضلهم في مقدار الثواب، فعلى قياس قول المحتجّين على حلّ السماع في الدنيا بأنه يكون لأهل الجنة، ينبغي أن يُجِلُّوا للرجل [٧١ب] في الدنيا أن يتزوج بهذا العدد.

(١) ما بين المعكوفين زيادة من مصادر التخريج.

(٢) أبو نعيم في «صفة الجنة» رقم (٣٧٢)، وفيه: «ثلاث وسبعون زوجة». وأخرجه إبراهيم بن طهمان في مشيخته رقم (٥٨) بلفظ: «ثلاثون زوجة» كما هنا. قال المؤلف في «حادي الأرواح» (ص ٥٠٢): أحمد بن حفص هذا هو السعدي، له مناكير. والحجاج هو ابن أرطاة.

(٣) في الأصل: «ثلاثين»، وسقط ما بين المعكوفين.

(٤) أخرجه أبو نعيم في «صفة الجنة» (٣٧٣) عن أبي هريرة. وهو معلول، والصواب أنه من حديث ابن عباس، وإسناده ضعيف، وضعفه الخطيب في «الموضح» (٩٥/٢) والهيتمي في «مجمع الزوائد» (٤١٦/١٠).

فصل

* قال صاحب الغناء^(١): سماع الأشعار بالألحان الطيبة، والأنغام المستلذة إذا لم يعتقد المستمع محظورًا، ولم يسمع على مذموم في الشرع، ولم ينجر في زمام هواه، ولم ينخرط في سلكه لهوًا،^(٢) مباح في الجملة.

ولا خلاف أن الأشعار أنشئت بين يدي النبي ﷺ، وأنه سمعها ولم ينكر عليهم في إنشادها، فإذا جاز سماعها بغير الألحان الطيبة، فلا يتغير الحكم بأن تُسمع بالألحان، هذا ظاهر من الأمر. ثم ما يُوجب للمستمع توفّر الرغبة في الطاعات، وتذكّر ما أعد الله لعباده المتقين من الدرجات، ويحمّله على التحرّز من الزلّات، ويؤدي إلى قلبه في الحال صفاء الواردات، مستحب في الدين ومختار في الشرع.

وقد جرى على لفظ الرسول ﷺ ما هو قريب من الشعر وإن لم يقصد أن يكون شعرًا. ففي الصحيحين^(٣) من حديث أنس بن مالك قال: «كانت الأنصار يحفرون الخندق، فجعلوا يقولون:

نحن الذين بايعوا محمدًا على الجهاد ما بقينا أبدًا

(١) انظر «الرسالة القشيرية» (ص ٥٠٤).

(٢) في الأصل: «هو».

(٣) «البخاري» (٢٩٦١)، و«مسلم» (١٨٠٥).

فأجابهم رسول الله ﷺ:

اللهم لا عيش إلا عيشُ الآخرة فأكرمِ الأنصارَ والمهاجرة
* قال صاحب الغناء: ليس هذا اللفظ منه ﷺ على وزن الشعر،
ولكنه قريب من الشعر.

* قال صاحب القرآن: عجباً لكم معاشر السماعية! لم تَقْنَعُوا
باعتقاد إباحة ما لم يأذن به الله ورسوله من الغناء وآلات اللهو، بل مَنَعَ
منه وحذر منه، حتى جعلتموه طاعةً وقربة! وظننتم أن حزب الله وجنده
يَغْفُلُونَ عن ردِّ قولكم، وتبيين بطلانه، وكسرِ شُبْهِكُمْ الباطلة، ونصرِ الله
ورسوله!

فنعول^(١) لكم: كلامكم هذا قد تضمن شيئين:

أحدهما: إباحة سماع الألحان [١٧٢] والنعمة المستلذة بشرط أن
لا يعتقد المستمع محظوراً، ولم يسمع على مذموم في الشرع، ولم يتبع
فيه هواه.

والثاني: أن ما أوجب للمستمع الرغبة في الطاعات والاحتراز من
الذنوب، وتذكُّر وعدِّ الحق، ووصول الأحوال الحسنة إلى قلبه، فهو
مستحب.

فعلى هاتين المقدمتين بنى من قال باستحبابه، وربما أوجبه
بعضكم أحياناً بناء على هاتين المقدمتين، إذ أراد أنه لا يؤدّي الواجب

(١) في الأصل: «فيقول».

إلا به، وعليهما بنى من فضله على سماع القرآن من عدة وجوه، لأنهم رأوا أن ما يحصل به أنفع مما يحصل بالقرآن. وهاتان المقدمتان كلاهما^(١) غلط، مشتمل على كلام مجمل، من جنس استدلالهم بما ظنوه من العموم في قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٨]، وبما وعد الله في الآخرة من السماع الحسن.

وولد بين هاتين المقدمتين اللتين لبس فيهما الحق بالباطل أولادٌ سفاح لا نكاح، وتولد منهما قولٌ لم يذهب إليه أحد من السلف الصالح البتة، وهو أن هذا السماع طاعة وقربة تُقرب إلى الله، فإنه وإن نقل عن بعض أهل المدينة وغيرهم أنه يُرخص في الغناء واستماعه، فلم يقل: إنه طاعة وقربة ومستحب في الشرع، بل كان فاعله يراه مكروهاً وتركه أفضل، أو يراه من الذنوب التي يُتاب منها، أو يراه مباحاً كالتوسع في لذات المطاعم والمشارب والملابس والمسإكن، فأما رجاء الثواب بفعله والتقرب إلى الله به، فهذا لا يُحفظ عن أحد من سلف الأمة وأئمتها.

بل المحفوظ عنهم أنهم قالوا: إنما يفعل هذا الفساق كما قاله مالك، وأن ذلك من إحداث الزنادقة كما قاله الشافعي، [٧٢ب] وأنه من المحرمات كما قاله أبو حنيفة، وأنه من الباطل والبدع كما قاله الإمام أحمد. بل حُفظ عنهم أنه يُنبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل. صح ذلك عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وقال الشافعي: الغناء

(١) كذا بالتذكير في كلام المؤلف وشيخه كثيرًا، فلم نغيره.

لهوٌ مكروهٌ شبيهٌ بالباطل، من استكثر منه فهو سفیهٌ تُردُّ شهادته (١).

ولو كان قرْبَةً وِطاعة لكان المستكثر منه من خيار الأمة، وقد حكم غير واحد من أهل العلم على أن مدعي ذلك مخالف لإجماع المسلمين.

قال القاضي أبو الطيب الطبري (٢) وغيره: وهذه الطائفة مخالفة لجماعة المسلمين لأنهم جعلوا الغناء دينًا وِطاعة، ورأت إعلانه في المساجد والجوامع وسائر البقاع الشريفة والمشاهد الكريمة. وليس في الأمة من رأى هذا الرأي. فعبد الله بن مسعود لكمال علمه وفقهه في الدين، ومعرفته بأحوال القلوب ومفاسد الأعمال، أخبر أن الغناء مادة النفاق، يُنبته في القلب ويُنميه كما يفعل الماء في البقل (٣)، وكذلك قوله: «الغناء رقية الزنا» (٤). والشافعي لوفور علمه ومعرفته ومحلّه الذي أحلّه الله به من الدين علم أن هذا مما يصدُّ القلوب عن القرآن ويُعوّضها به كما هو الواقع، فعلم أن هذا إنما قصده زنديق منافق، يقصد اقتطاع القلوب عن الإيمان وصدّها عن القرآن، ليستعد لقبول ما يلقيه فيها الشيطان من البدع والشبهات والشهوات.

(١) سبق تخريج هذه الآثار والأقوال.

(٢) انظر رسالته «الرد على من يحب السماع» (ص ٣٢).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) روي ذلك عن الفضيل بن عياض، أخرجه ابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» (٥٧)، والبيهقي في «الشعب» (٥١٠٨). وانظر «الدر المنثور» (١١ / ٦٢٠).

قال إمام الزنادقة ابن الراوندي: اختلف الفقهاء في السماع، فقال بعضهم: هو مباح، وقال بعضهم: هو محرم، وعندني أنه واجب. ذكره أبو عبد الرحمن السلمي عنه في «مسألة السماع»^(١) واعتضد به. وكذلك [١٧٣] شيخ الملاحدة وإمامهم ابن سينا في الإشارات^(٢) أمر بسماع الألحان وعشق الصور، وجعل ذلك مما يُزكّي النفوس ويُهذّبها ويُصفيها، وقبله معهم معلمهم الثاني أبو نصر الفارابي إمام أهل الألحان. فرضي الله عن الإمام محمد بن إدريس الشافعي، وجزاه عن نصيحته للإسلام خيرًا، فكل هذا مما يشهد لقوله: إن غناء التبغير من إحداث الزنادقة.

فصل

إذا عُرِفَ هذا فنحن نذكر ما في هاتين المقدمتين اللتين لُبِّسَ فيهما الحق بالباطل، واستولد من سفاهما هذا الولد الذي هو شر الثلاثة، أن هذا السماع طاعة وقربة.

أما احتجاجكم بأن النبي ﷺ سمع ما أنشد بين يديه من الشعر ولم ينكره، وأنه قال ما يُشبه الشعر.

(١) كما ذكره شيخ الإسلام في «الاستقامة» (١/٢٣٩) و«مجموع الفتاوى»

(١١/٥٧٠) ورسالة السلمي توجد مخطوطة في مكتبة كوبريللي برقم (١٦٣١)

(الورقة ١١٣١-١٣٨ ب).

(٢) (٤/٨٢٠-٨٢٧).

فنقول في الشعر ما قاله الأئمة^(١): «إنه كلام، فحسنه حسن وقبيحه قبيح».

وقد ثبت في الصحيح^(٢) عن النبي ﷺ أنه قال: «إن من الشعر حكمة». وكان يَنْصِبُ لحسان منبراً ينشد عليه الشعر الذي يهجو به المشركين، وقال: «اللهم أيّده بروح القدس»^(٣). وقال: «إن روح القدس معك ما دُمْتَ تُنَافِحُ عن نبيه»^(٤). وقال عن عبد الله بن رواحة: «إن أخاكم لا يقول الرفث»^(٥). وعبد الله بن رواحة هو القائل^(٦):

وفينا رسول الله يتلو كتابه كما انشق معروف من الفجر ساطعُ
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقعُ
يبيتُ يُجافي جنبه عن فراشه إذا استقلت بالكافرين [٧٣ب] المضاجعُ

(١) قاله الشافعي كما في «مناقب الشافعي» (٢/٦٠). وروي مرفوعاً من حديث عبد الله بن عمرو، أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١٢٥)، ومن حديث عائشة، أخرجه أبو يعلى كما في «مجمع الزوائد» (٨/١٢٢). ورواه البخاري في «الأدب المفرد» (١٢٥) موقوفاً على عائشة. وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤٤٧) بمجموع الطرق.

(٢) أخرجه البخاري (٦١٤٥) عن أبي بن كعب.

(٣) أخرجه البخاري (٦١٥٢) ومسلم (٢٤٨٥) عن أبي هريرة.

(٤) أخرجه مسلم (٢٤٩٠) عن عائشة.

(٥) أخرجه البخاري (٦١٥١) عن أبي هريرة.

(٦) الأبيات في المصدر السابق.

وقد استنشد النبي ﷺ الشَّريدَ بن سُويدَ مائةَ قافيةٍ من شعر أُميةَ بن أبي الصَّلْتِ، وهو يقول: «هَيْهَ هَيْهَ»^(١). وسمع قصيدة كعب بن زهير^(٢). وأنشدته عائشة شعر أبي كبير الهذلي وقالت: أنت أحقُّ به، فاستنشدها إياه فأنشدته:

وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى أَسْرَةٍ وَجْهِهِ
بَرَقَتْ كَبْرَقِ الْعَارِضِ الْمَتَهَلِّلِ

فقال: «جزاك الله خيراً يا عائشة»^(٣).

وقد أنشده غير واحد، منهم: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبدالله بن رواحة، وكعب بن زهير، والعباس بن مرداس السلمي، والنابغة الجعدي. وأنشده عمه العباس قصيدة مدحه بها، فقال له: «يا عمَّ لا يَفْضُضِ اللهُ فاك»^(٤). وأنشدته أخت النضر بن الحارث قصيدة ترثي بها

(١) أخرجه مسلم (٢٢٥٥) عن الشريد. ٤

(٢) قصته معروفة مذكورة في «سيرة ابن هشام» (٢/٥٠٢ وما بعدها)، و«البداية والنهاية» (٧/١٢٥ وما بعدها) وغيرهما. والقصيدة في «ديوانه» (ص ٦-٢٥).

(٣) أخرجه البيهقي (٧/٤٥٢) والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (١٣/٢٥٢، ٢٥٣)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣/٣٠٧-٣١٠). وانظر «البداية والنهاية» (٨/٤٠٠، ٤٠١). والبيت من قصيدة أبي كبير الهذلي في «شرح أشعار الهذليين» (٣/١٠٦٩)، و«ديوان الحماسة» (١/٧٤). وفي الأصل: «أبو كثير» تصحيف.

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٤/٢٥٢)، والحاكم في «المستدرک» (٣/٣٢٧)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/٢٦٧) عن خريم بن أوس. وانظر «البداية والنهاية» (٣/٣٦٩، ٧/٢٠١).

أخاها، فرق لها وقال: «لو سمعتها قبل ذلك لم أقتله»^(١).

وأشده العلاء بن الحضرمي أبياتاً فقال النبي ﷺ: «إن من الشعر حكمة»^(٢). وقال لكعب بن مالك: «ما نسي ربك بيت شعرٍ قلتَه». قال: وما هو يا رسول الله؟ قال: أنشدُه إياه يا أبا بكر، فأنشده:

زعمت سَخِينَةُ أن ستَغْلِبُ رَبَّهَا وليُغْلِبَنَّ مُغَالِبُ الغَلَّابِ^(٣)
ومرَّ بجَوَارٍ من الأنصارِ وهنَّ يضربن بالدفِّ ويقلن:

نحن جوارٍ من بني النجَّارِ يا حَبَّذا محمدٌ من جارِ
فقال: «اللهم بارِكْ فيهن»^(٤).

ولما قدم من تبوك خرج الولايد والصبيان يتلقونه^(٥)، وجعلوا
ينشدون:

طلَعَ البدرُ علينا من ثنِيَّاتِ الوداعِ
[١٧٤] وجبَ الشكرُ علينا ما دعا الله داعٍ^(٦)

(١) انظر «سيرة ابن هشام» (٢/٤٢، ٤٣)، و«الاستيعاب» (٤/١٩٠٤، ١٩٠٥)،
و«البداية والنهاية» (٥/١٨٩، ١٩٠)، و«الإصابة» (١٤/١٣١-١٣٣).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر «معجم الصحابة» لابن قانع (٣/٧٥)، و«طبقات فحول الشعراء» (١/٢٢٢).

(٤) أخرجه ابن ماجه (١٨٩٩) عن أنس بن مالك. قال البوصيري في «الزوائد»:
إسناده صحيح ورجاله ثقات.

(٥) في الأصل: «يتلقينه».

(٦) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٥/٢٦٦) عن ابن عائشة. وإسناده منقطع.

وأَنشده ﷺ أَنس بن زُنَيم الدَّيْلي يوم فتح مكة قصيدة يمدحه بها،
فعفا عنه بعد أن أهدر دمه، يقول فيها:

تعلَّم رسولَ الله أنك مُدركي وأن وعيدًا منك كالأخذِ باليدِ^(١)

وأَنشده فروة بن نوفل بن عمرو^(٢) لما قدم عليه:

بان الشبابُ فلم أحفلُ به بدَلًا وأقبلَ الشيبُ والإسلامُ إقبالا

فالحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى تسربتُ للإسلامِ سربالا

وتمثلَ الصديق رضي الله عنه بالشعر، وتمثلتُ به الصديقة ابنته،

وعمر بن الخطاب، وعثمان وعلي وبلال وأبو الدرداء وعمرو بن
العاص.

وقيل لأبي الدرداء: مالك لا تشعر؟ فإنه ليس رجل له بيت في

الأنصار إلا وقد قال شعراء، قال: وأنا قلتُ، ثم أنشد:

يريد المرءُ أن يُعطى مُناهٌ ويأبى الله إلا ما أرادا

يقول المرءُ فائدتي ومالي وتقوى الله أفضلُ ما استفادا^(٣)

وقال أبو هريرة: لما وفدتُ على النبي ﷺ قلت في الطريق:

(١) انظر «المغازي» للواقدي (٧٨٨/٢، ٧٩١)، و«طبقات ابن سعد» (٢٩٣/٤)،
والإصابة (٢٤٤/١).

(٢) انظر «الإصابة» (٥٨٩/٨)، وفيه: قال أبو حاتم: ليست له صحبة، وإنما الصحبة
لأبيه نوفل.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢٢٥/١).

يا ليلةً من طولها وعنائها على أنها من دارة الكفر نَجَّتِ (١)

وكانت امرأة سوداء من الصحابة، وكانت مقيمة في المسجد، كلما تحدثت قالت:

ويومُ الوِشاح من تعاجيبِ ربنا ألا إنه من بلدة الكفر نجَّاني (٢)

ولما نُعِيَ لمعاوية عبد الله بن عامر والوليد بن عقبة أنشد:

إذا سار مَنْ خلفَ امرئٍ وأمامه وأُفِرِدَ من جيرانه فهو سائرٌ (٣)

[٧٤ب] وأنشد حُبيب عند موته تلك الأبيات المعروفة التي يقول

فيها:

ولستُ أبالي حين أُقْتَلُ مسلماً على أيِّ جنبٍ كان في الله مَضْرِعِي

وذلك في ذات الإله وإن يَشَأْ يُبارِكُ على أوصالِ شِلْوٍ ممزَعٍ (٤)

وأنشد أبو بكر عند قدومه المدينة:

كل امرئٍ مصبِّحٌ في رَحْلِهِ والموت أدنى من شِراكِ نعلِهِ (٥)

(١) أخرجه البخاري (٢٥٣١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٣٥) عن عائشة.

(٣) الخبر والشعر في «التعازي والمراثي» (ص ٥٢) و«الكامل» للمبرد (ص ١٣٨٧)، و«التذكرة الحمدونية» (٤/٢٤٩).

(٤) أخرجه البخاري (٣٩٨٩) عن أبي هريرة.

(٥) أخرجه البخاري (٣٩٢٦) عن عائشة.

وأنشد بلال كذلك وهو محموم:

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلةً بوادٍ وحوالي إذ خِرُّ وجليلُ
وهل أريدنَّ يوماً مياهَ مجنَّةٍ وهل تبدون لي شامةً وطفيلُ (١)

وكان الصحابة يتناشدون الأشعار بين يدي رسول الله ﷺ وهو يتبسّم (٢). وأنشد حسان في مسجد رسول الله ﷺ، فمرَّ به عمر بن الخطاب فجعل يلحظه، فقال: لقد أنشدتُ فيه وفيه من هو خير منك، يريد رسول الله ﷺ، فسكت عمر (٣). وهذا باب أوسع من أن نستقصيه.

وقد كان الصحابة يرتجزون في الحرب، وكان يُحدى بين يدي النبي ﷺ بالشعر في الحل والحرم، وكانوا ينشدون الشعر وهم محرمون. وقد أخبر الله سبحانه أن من الشعراء من يؤمن بالله ويعمل صالحاً ويذكر الله كثيراً، وهؤلاء تُنِيَّةُ الله من الشعراء، فلم يذمَّ هؤلاء، بل مدحهم على انتصارهم من بعدما ظلموا. ولهذا قال النبي ﷺ: «لأن يمتلئ جوفُ أحدكم قيحاً حتى يريه خيرٌ له من أن يمتلئ شعراً» (٤). فذمَّ الجوف الممتلئ بالشعر الذي اشتغل به صاحبه عما فيه سعادته من العلم والإيمان والقرآن، وذكر الله كثيراً، فإن الجوف [١٧٥] إذا امتلأ بذلك لم يمتلئ من الشعر. ولهذا قال الشافعي رحمه الله: الشعر كلام،

(١) هو ضمن الحديث السابق.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٥٠) عن جابر بن سمرة، وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) أخرجه البخاري (٣٢١٢) ومسلم (٢٤٨٥) عن أبي هريرة.

(٤) أخرجه البخاري (٦١٥٥) ومسلم (٢٢٥٧) عن أبي هريرة.

فحسنة كحسن الكلام، وقبيحة كقبيحة^(١). وقال في التبغير: إنه من إحداث الزنادقة يصدون به الناس عن القرآن. فبين رحمه الله أن إباحة أحدهما لا يستلزم إباحة الآخر.

فصل

إذا عُرِفَ هذا فقولك أيها السماعي: إذا جاز سماع الشعر بتغير الألحان جاز سماعه بالألحان الطيبة، إذ لا يتغير الحكم بسماعه بالألحان = فحجة فاسدة جدًا من وجوه، وهي لأن تكون حجة عليك أقرب من كونها حجة لك، فإن نفس سماع الألحان مجردًا عن كلام يحتاج إلى إثبات إباحته منفردًا، وهل هذا المورد الذي ينازعك فيه صاحب القرآن؟ ومن المعلوم أن أكثر المسلمين على خلاف قولك فيه، كما تقدم حكايته عن الصحابة والتابعين والأئمة الأربعة وغيرهم.

الوجه الثاني: أنه لو كان كل واحد من الشعر والتلحين مباحًا بمفرده لم يلزم من ذلك إباحتهما عند اجتماعهما، فإن التركيب له خاصّة يتغير الحكم بها. وهذه الحجة بمنزلة حجة من قال: إن خبر الواحد إذا لم يُفِدِ العلم عند انفراده لم يُفِده مع انضمامه إلى غيره، وهي نظير ما يُحكى عن إياس بن معاوية أن رجلاً قال له: ما تقول في الماء؟ قال: حلال، قال: فالتمر؟ قال: حلال، قال: فالنبيذ ماء وتمر، فكيف تُحرّمه؟ فقال له إياس: أرأيت لو ضربتك بكفّ من تراب أكنتُ أقتلك؟ قال: لا. قال: فإن ضربتك بكفّ من تبنٍ أكنتُ أقتلك؟ قال: لا، [قال]:

(١) سبق تخريجه.

فإن ضربتك بماء أكنت أقتلك؟ قال: لا، قال: فإن أخذت الماء والتبن والتراب، فجعلته طيناً وتركته حتى يجف، وضربتك به أكنت أقتلك؟ قال: نعم. قال: [٧٥ب]: كذلك النبيذ^(١).

ومعنى كلامه أن المؤثر هو القوة الحاصلة بالتركيب، وكذلك المفسد للعقل هو القوة المسكرة الحاصلة بالتركيب. وما نحن فيه، الذي يُسكر النفوس ويُلهيها ويصدُّها عن ذكر الله وعن الصلاة، قوة تحصل بالتركيب والهيئة الاجتماعية، وليست الأصوات المجتمعة في استفزازها للنفوس بمنزلة صوت واحد، وكذلك ليس الصوت الملحن الذي يُوقَع به الغناء على توقيع معين وضرب معين لا سيما مع مساعدة آلات اللهول، بمنزلة إنشاد الشعر إذا تجرد عن ذلك، وهل تَرُوجُ مثل هذه الشبهة إلا على ضعف العلم والمعرفة ناقص الحظّ منهُما جدًّا؟

الوجه الثالث: أن النبي ﷺ ندب إلى تحسين الصوت بالقرآن وتزيينه به، واستمعه هو وأصحابه، فقال: «زَيَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»^(٢)، وقال: «مَا أَدِنَ اللَّهُ لشيءٍ كَأَدْنِهِ لِنَبِيِّ حَسَنِ الصَّوْتِ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ»^(٣). وقال لأبي

(١) الخبر في «أخبار القضاة» لوكيع (١/٣٤٩).

(٢) أخرجه أحمد (٤/٢٨٣) والبخاري في «خلق أفعال العباد» (ص ٤٩) وأبو داود

(١٤٦٨) والنسائي (٢/١٧٩) والحاكم في «المستدرک» (١/٥٧٢) عن البراء بن

عازب، وإسناده صحيح، وعلقه البخاري في «صحيحه» في كتاب «التوحيد»، فقال:

باب قول النبي ﷺ: «الماهر بالقرآن مع سفره الكرام البررة، وزينوا القرآن بأصواتكم».

(٣) أخرجه البخاري (٧٥٤٤)، ومسلم (٧٩٢) عن أبي هريرة.

موسى: «لقد مررتُ بك البارحة وأنت تقرأ، فجعلتُ أستمع لقراءتك»،
فقال: «لو علمتُ أنك تسمع لحبْرته لك تحبيراً»^(١). وقال: «اللهُ أشدُّ أذنًا
إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته»^(٢).

ومع هذا فلا يسوغ أن يقرأ القرآن بالألحان الغناء، ويُقرن به من
الألحان وآلات اللهو ما يُقرن بالغناء، حتى ولا عند من يقول بإباحة
ذلك في الشعر، بل المسلمون مجتمعون على تحريمه، وطرْدُ دليلك
جواز ذلك، بل هو بعينه يقتضيه.

فإنك^(٣) قلت: إذا جاز سماع الأشعار بغير الألحان الطيبة فلا
يتغير الحكم بأن يسمع بالألحان، هذا ظاهر من الأمر، هذا نص دليلك،
[١٧٦] فهل يُمكنك طرْدُه، وتقول: إذا جاز سماع القرآن بغير الألحان
الطيبة جاز سماعه بها، إذ لا يتغير الحكم؟ فإن قلت ذلك خالفتَ
إجماع الأمة، وبطلتَ، وإن قلت: لا يلزم من جواز استماعه بدون
الألحان الطيبة جواز اقترانه واستماعه بها، أبطلتَ دليلك. فقد تبين

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٤٦٦/٣) والطبراني كما في «مجمع الزوائد»
(٣٥٩/٩، ٣٦٠) عن أبي موسى. قال الهيثمي: رجاله على شرط الصحيح غير
خالد بن نافع الأشعري، ووثقه ابن حبان، وضعفه جماعة. وأخرجه البيهقي في
السنن (٢٣٠/١٠، ٢٣١) من طريق آخر، وإسناده حسن.

(٢) أخرجه أحمد (١٩/٦) وابن ماجه (١٣٤٠) والحاكم في «المستدرک»
(٥٧٠/١، ٥٧١) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢٣٠/١٠) عن فضالة بن عبيد،
وإسناده ضعيف، فإن إسماعيل بن عبيد لم يدرك فضالة بن عبيد، فهو منقطع.

(٣) في الأصل: «فإن».

بطلانه على التقديرين.

فصل

وأما المقدمة الثانية وهي قولك: إن ما أوجب للمستمع توفراً
الرغبة على الطاعات وتذكراً ما أعد الله لعباده المتقين من الدرجات،
ويحمله على التحرز من الزلات، ويؤدي إلى قلبه من صفاء الواردات،
فهو مستحب في الدين ومختار في الشرع.

فنقول في تحقيق هذه المقدمة: إن الله سبحانه يحبُّ الرغبة فيما
أمر به، والحدَرَ مما نهى عنه، ويحبُّ أهل الإيمان بوعدده ووعيده،
ويحبُّ القائمين بمحابه من خشيته ورجائه^(١) والإنابة إليه والتوكل
عليه، وسائر ما يحبه ويرضاه من عبده ظاهراً وباطناً، ويحبُّ السماع
الذي يُحصَل محبوبه، فإن الوسائل إلى المحبوب محبوبه، والوسائل
إلى المسخوط مسخوطة.

فهذه المقدمة التي ذكرتها أيها السماعاتي مبناها على أصليين:

أحدهما: معرفة ما يحبه الله سبحانه.

والثاني: أن سماع الغناء يُحصَل محبوب الله خالصاً أو راجحاً،
فإنه إذا حصَل محبوبه ومكروهه، والمكروه أغلب، كان مذموماً وإن
كان محصلاً لمحبوبٍ ما. وإن تكافأ المحبوب والمكروه فيه لم يكن
محبوباً ولا مكروهاً.

(١) في الأصل: «وارجائه».

فأما الأصل الأول - وهو معرفة ما يحبه الله ويرضاه ويمدح فاعله ويثني عليه - فهو المحك والفرقان، وإليه التحاكم في هذه المسألة وغيرها، وهو الفرق بين من اتخذ إلهه هواه وبين من عبد الله [٧٦ب] بما يحبه ويرضاه، فإن رضيت بالتحاكم إلى هذا^(١) الأصل، ولم تجد في نفسك حرجاً مما يحكم به وتسلم له تسليماً، حصل الوفاق وزال الخلاف والشقاق.

وهذا الأصل له ميزان يُوزن به، ومحك يُحكُّ عليه، وكثير من الناس بل أكثرهم غلط فيه، فظن في كثير مما يحبه هو وطائفته وشيخه ومن يُحسن ظنه به أو ما يجده موافقاً لذوقه ووجدته وحاله أنه مما يحبه الله ورسوله، ويُقرب إلى الله، وتُنال به كرامته في الدنيا ويوم لقائه.

ولا إله إلا الله! كم زلت في هذا الموضع أقدام، وضلت فيه أفهام، ونسب إلى محبة الرب تعالى أسخطُ شيء إليه وأكرهه عنده، ولزم من ذلك أن نسب إلى كراهته أحبُّ شيء إليه وأرضى له، ولا سبيل إلى معرفة ما يحبه ويرضاه إلا بوزنه بميزان الوحي، ونقده على محك الأمر، وعرضه على حاكم الشرع، وتلقيه من مشكاة النبوة، ثم اعتباره بدار الضرب، فإن كان نقش سكتته «كلُّ عملٍ ليس عليه أمرنا فهو رد»^(٢)، فهو المحبوب المرضيُّ لله، الذي يقبله من عبده ويكرمه عليه،

(١) في الأصل: «هذه».

(٢) سبق تخريجه.

وإن كان عليه ضرب السكك المحدثه الصادرة عن^(١) الآراء والأفكار والرسوم والأوضاع، فهو الزيف المردود.

فإذا وقع التحاكم إلى هذا الأصل تقرب كل واحد من المتنازعين من صاحبه، وإلا

رفيقك قيسي وأنت يمانى^(٢)

فصل

وأما الأصل الثاني: وهو أن سماع الغناء الذي فيه النزاع يحصل محبوبَ الرب تعالى ومراضيه، فالشأن كل الشأن في ذلك، فهنا اقتطع الشيطان من اقتطع، واستزل من استزل [١٧٧]، واستخف من استخف، ﴿يُثِبْتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

فيجب أن يُعرف أن المرجع في القرب والطاعات والديانات بين ما يحبه الله ويرضاه وبين ما يسخطه ويكرهه، إلى الله ورسوله لا إلى رأي ولا قياس ولا ذوق ولا وجد ولا استحسان ولا تقليد ولا منام ولا كشف، ولا حدثني قلبي عن ربي، ولا خوطبتُ وقيل لي، ولا رأيتُ فلانًا يفعل وهو ممن اعتقد فيه الخير، أو كان فلان يفعل وهو ممن

(١) في الأصل: «على».

(٢) صدره: كان رقاب الناس قالت لسيفه

والبيت للمتنبي في ديوانه (٤ / ٣٧٤).

يُحَسِّنُ بِهِ الظَّنُّ وَنَحْوُ ذَلِكَ، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَبْتَدِعَ دِينًا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ، وَيَقُولُ: هَذَا يَحِبُّهُ اللَّهُ، لِأَنَّهُ يُوَصِّلُ إِلَى مَحْبُوبِ اللَّهِ، بَلْ بِهَذِهِ^(١) الطَّرِيقِ بُدِّلَ دِينُ اللَّهِ وَشُرَائِعُهُ، وَابْتَدِعَ الشَّرْكَ وَكُلَّ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَكُلَّ مَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَكَلَامِ السَّلَفِ وَالْأئِمَّةِ وَمَشَايِخِ الطَّرِيقِ مِنَ الْحَضَرِّ عَلَى اتِّبَاعِ مَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّنَا وَنَهَىٰ عَن ضِدِّهِ، فَهُوَ لِأَجْلِ هَذَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، وَهُوَ الْخَالِصُ لِلَّهِ الْمُوَافِقُ لِأَمْرِهِ، كَمَا قَالَ الْفَضِيلُ بْنُ عِيَاضٍ وَغَيْرُهُ^(٢).

وَالْأَعْمَالُ أَرْبَعَةٌ: فَوَاحِدٌ مِنْهَا مَقْبُولٌ، وَثَلَاثَةٌ أَرْبَاعُهَا مَرْدُودَةٌ، فَالْمَقْبُولُ مَا وَافَقَ الْأَمْرَ وَأُرِيدَ بِهِ وَجْهُ اللَّهِ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ عَمَلًا سِوَاهُ، وَالْمَرْدُودُ أَنْ لَا يَكُونَ خَالِصًا لِلَّهِ وَلَا مُوَافِقًا لِأَمْرِهِ، أَوْ يَنْتَفِي عَنْ أَحَدِهِمَا. فَالْمَقْبُولُ مَا وُجِدَ فِيهِ الْأَمْرَانِ، وَالْمَرْدُودُ مَا انْتَفَى عَنْهُ الْأَمْرَانِ أَوْ أَحَدُهُمَا، وَلِهَذَا اشْتَدَّتْ وَصَاةُ الشُّيُوخِ الْمُسْتَقِيمِينَ بِهَذَا الْأَصْلِ، وَأَخْبَرُوا أَنَّ مِنْ عَدَلٍ عَنْهُ فَهُوَ مَطْرُودٌ وَعَنْ طَرِيقٍ قَصْدُهُ مَصْدُودٌ.

فَقَالَ ابْنُ أَبِي الْحَوَارِيِّ^(٣): مِنْ عَمَلٍ عَمَلًا بِلَا اتِّبَاعِ سُنَّةٍ فَبَاطِلٌ عَمَلُهُ.

وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ [٧٧ب] التُّسْتَرِيُّ^(٤): كُلُّ فَعْلٍ يَفْعَلُهُ الْعَبْدُ بِغَيْرِ

(١) فِي الْأَصْلِ: «هَذِهِ».

(٢) انْظُرْ «حَلِيَّةَ الْأَوْلِيَاءِ» (٨ / ٩٥).

(٣) فِي الْأَصْلِ: «ابْنُ الْجَوْزِيِّ»، وَهُوَ تَحْرِيفٌ. وَقَوْلُهُ هَذَا فِي «الرِّسَالَةِ الْقَشِيرِيَّةِ» (ص ٦٨).

(٤) انْظُرْ «الرِّسَالَةَ الْقَشِيرِيَّةَ» (ص ٦٠).

اقتداء فهو عيش النفس، وكل فعل يفعله بالاقتداء فهو عذاب على النفس.

وقال أبو حفص النيسابوري^(١): من لم يَزِنْ أفعاله وأقواله كل وقت بالكتاب والسنة ولم يتهم خواطره فلا يُعدُّ في ديوان الرجال.

وقال الجنيد بن محمد^(٢): الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول.

وقال أيضًا^(٣): من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يُتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا هذا مقيّد بالكتاب والسنة.

وقال أبو عثمان النيسابوري^(٤): من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤].

وقال أبو حمزة البغدادي^(٥): من علم الطريق إلى الله سهل عليه سلوكه، ولا دليل على الطريق إلى الله إلا متابعة الرسول في أحواله وأقواله وأفعاله.

وقال أبو عمرو بن نُجَيد^(٦): كل حال لا يكون عن نتيجة علم فإنَّ

(١) انظر الرسالة القشيرية (ص ٦٩).

(٢) انظر المصدر نفسه (ص ٧٩).

(٣) المصدر السابق (ص ٧٩).

(٤) المصدر نفسه (ص ٨٢).

(٥) المصدر نفسه (ص ١٠٧).

(٦) المصدر نفسه (ص ١٣٨).

ضرره أكثر على صاحبه من نفعه.

وقال^(١): التصوف الصبر تحت الأمر والنهي.

وقال أبو يعقوب النهرجوري^(٢): أفضل الأحوال ما قارن العلم.

وهذا كثير في كلام المشايخ، وإنما وَصَّوْا بذلك لما يعلمونه من حال كثير من السالكين أنه يجري مع ذوقه ووجدته وما يراه ويهواه، غير متبع لسبيل الله التي بعث بها رسوله، وهذا هو اتباع الهوى بغير هدى من الله.

ولا ريب أن السماع المحدث من أعظم المحركات للهوى، ولهذا سمى بعض الأئمة المصنفين كتابه في إبطاله وذمه بـ«الدليل الواضح في النهي عن ارتكاب الهوى الفاضح»^(٣).

ولهذا يأمر المشايخ المستقيمون [١٧٨] منهم باتباع العلم، وَيَعْنُونَ به الشريعة، كقول أبي يزيد البسطامي^(٤): عملتُ في المجاهدة ثلاثين سنة، فما وجدت شيئاً أشدَّ عليَّ من العلم ومتابعته.

وقال أبو الحسين النوري^(٥): من رأته يدعي مع الله حالة تُخرجه

(١) المصدر نفسه (ص ١٣٨).

(٢) المصدر نفسه (ص ١٢٤).

(٣) لعبد المغيث بن زهير الحربي (ت ٥٨٣)، كما ذكره وأشار إلى بعض مباحثه ابن رجب في «ذيل طبقات الحنابلة» (١/٣٥٧، ٣٥٨). أفادني بذلك أخي المحقق عبد الرحمن قائد.

(٤) انظر «الرسالة القشيرية» (ص ٥٧).

(٥) انظر «الرسالة القشيرية» (ص ٨٣).

عن حد العلم الشرعي فلا تقربنَّ منه.

وقال أبو عثمان النيسابوري^(١): الصحبة مع الله بحسن الأدب ودوام الهيبة والمراقبة، والصحبة مع الرسول ﷺ باتباع سنته ولزوم ظاهر العلم، والصحبة مع أولياء الله بالاحترام والخدمة، والصحبة مع الأهل بحسن الخلق، والصحبة مع الإخوان بدوام البشر ما لم يكن إثماً، والصحبة مع الجهال بالدعاء لهم والرحمة والشفقة عليهم.

وذلك لأنه لما كان أصل الطريق هو الإرادة والقصد والعمل، وذلك يتضمن الحب، فكثيراً ما يعمل السالك بمقتضى ما يجده في قلبه من المحبة، وما يدركه بذوقه من طعم العبادة، وهذا إذا لم يكن موافقاً لأمر الله ورسوله فصاحبه في ضلال، وهو ممن اتبع هواه. قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣]، وقال: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الفصص: ٥٠]، فجعل كلما خالف الأمر فصاحبه متبع هواه، فماتم واسطة، بل إما الأمر وإما الهوى.

وقال تعالى: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقال: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

(١) المصدر نفسه (ص ٨٢).

واعلم أنّ بدعة السماع تتضمن الغلوّ في الدين واتباع الهوى [٧٨ب] والعشو عن ذكر الله، فإنهم حسبوا أنّ هذه البدعة دين وقربة تُقربهم إلى الله، وهذا من أقبح الغلو، وهو يوجب الانحراف عن الصراط المستقيم، واتباع الهوى يوجب الضلال عن سبيل الله، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

والعشو عن ذكر الله يوجب مقارنة الشيطان له. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، وذكر الله هنا هو كتابه، ومن العشو عنه: التعوُّض عنه بسماع الشيطان المحدث.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يَغْنَوْا عَنكَ مِنِ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٨-١٩].

فالشريعة التي جعله ربه عليها تتضمن ما أمره به ورضيه له، وكل عمل وحب وذوق ووجد وحال لا تشهد له هذه الشريعة التي جعله عليها فباطل وضلال، وهو من أهواء الذين لا يعلمون، فليس لأحد أن يتبع ما يحبه فيأمر به ويتخذه ديناً، وينهى عما يُبغضه ويدمه إلا بهدًى من الله، وهو شريعته التي جعل عليها رسوله، وأمره والمؤمنين باتباعها. ولهذا كان السلف يسمون كل من خرج عن الشريعة في شيء من الدين من أهل الأهواء، ويجعلون أهل البدع هم أهل الأهواء، فيذمّونهم بذلك

ويحذرون عنهم، ولو ظهر عنهم ما ظهر من العلم والعبادة والزهد والفقر والأحوال والخوارق.

قال يونس بن عبد الأعلى^(١): قلت للشافعي: تدري ما قال صاحبنا؟ يريد الليث بن سعد، كان يقول: [١٧٩] لو رأيتك - يريد صاحب البدعة - يمشي على الماء، لا تثق به ولا تعبأ به ولا تكلمه، قال: قصر والله. يريد أن حاله أقبح من ذلك.

وقال أبو العالية^(٢): تعلموا الإسلام والسنة، فإذا تعلمتموه فلا ترغبوا عنه، وعليكم بالصراط المستقيم فلا ترغبوا عنه يمينا وشمالا، وعليكم بسنة نبيكم والذي كان عليه أصحابه، وإياكم وهذه الأهواء التي تُلقي بين الناس العداوة والبغضاء. قال عاصم: فحدثتُ به الحسن، فقال: صدق ونصح، قال: فحدثتُ به حفصة بنت سيرين فقالت: يا أبا علي! أنت حدثت محمدًا بهذا؟ قلت: لا، قالت: فحدثه إذا.

وقال أبي بن كعب^(٣) رضي الله عنه: عليكم بالسبيل والسنة، فإنه ما على الأرض عبدٌ على السبيل والسنة ذكر الله ففاضت عيناه من خشية الله، فيعذبه، وما على الأرض عبدٌ على السبيل والسنة ذكر الله في نفسه

(١) انظر «آداب الشافعي ومناقبه» (ص ١٨٤) و«مناقب الشافعي» للبيهقي (١/٤٥٣).

(٢) أخرجه الآجري في «الشريعة» (١/٣٠٠) واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد

أهل السنة» (١/٥٦) وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/٢١٨) وغيرهم.

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٢/٢١-٢٢) واللالكائي في «شرح أصول

الاعتقاد» (١/٥٤) وأبو نعيم في «الحلية» (١/٢٥٢-٢٥٣).

فاقشعراً جلده من خشية الله إلا كان مثله كمثل شجرة قد يبس ورقها، فهي كذلك إذ أصابتها ريحٌ شديدة فتحات عنها ورقها، إلا حطاً عنه خطاياها، كما تحات عن تلك الشجرة ورقها، وإن اقتصاداً في سبيل سنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل سنة، فانظروا أن يكون عملكم إن كان اجتهاداً أو اقتصاداً، أن يكون ذلك على منهاج الأنبياء وستهم.

وقال عبد الله بن مسعود^(١): الاقتصاد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة.

وقيل لأبي بكر بن عياش^(٢): يا أبا بكر! من السنني؟ قال: الذي إذا ذكرت الأهواء لم يغضب لشيء منها.

وهذا أصل عظيم من أصول سبيل الله، والطريق الموصل إليه، [٧٩ب] يجب الاعتناء به، فإن كثيراً من الأفعال قد يكون مباحاً أو مكروهاً أو محرماً، إما بالاتفاق، أو فيه نزاع بين العلماء، فيستحسنه طائفة من الناس ويفعلونه على أنه قرينة وطاعة ودين يتقربون به إلى الله، حتى يعدون من يفعل ذلك أفضل ممن لا يفعله، وربما جعلوا ذلك من لوازم طريقهم إلى الله، أو جعلوه^(٣) شعار الصالحين وأولياء الله،

(١) أخرجه الدارمي في «سننه» (٢٢٣) وابن نصر المروزي في «السنة» (ص ٢٥) واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (١/٥٥) والحاكم في «المستدرک» (١/١٠٣).

(٢) أخرجه الآجري في «الشریعة» (٢٠٥٨). وفيها: «لم يتعصب».

(٣) في الأصل: «جعلوا».

ويكون ذلك خطأ وضلالاً ودينًا مبتدعًا لم يأذن به الله.

مثال ذلك: حلق الرأس في غير الحج والعمرة من غير عذر، واختلف الناس في إباحته وكراهته على قولين، وهما روايتان عن أحمد، ولا خلاف بينهم أنه لا يُشْرَع ولا يُسْتَحَبُّ، ولا هو قربة إلى الله، ومع هذا فقد اتخذته طوائف من النساك والفقراء دينًا، حتى جعلوه شعارًا وعلامة على الدين والنسك والخير، وجعلوه من تمام التوبة، حتى إنَّ من لم يفعل ذلك يكون منقوصًا خارجًا عن الطريق المفضلة المحمودة عندهم، ومن فعل ذلك دخل في هذْيهم وطريقهم. وهذا خروجٌ عن طريق الله وسبيله باتفاق المسلمين، واتخاذ ذلك دينًا وشعارًا لأهل الدين من أسباب تبديل الدين، فكما أنه لا حرام إلا ما حرّمه الله، ولا واجب إلا ما أوجبه، فلا دين [إلا] ما شرعه، ولا مستحب إلا ما أحبه.

فصل^٤

الوجه الثاني: أن قولهم: إنَّ هذا السماع يحصل محبوب الله، وما حصل محبوب الله فهو محبوب له = قول باطل، وهو منشأ الضلال في هذه المسألة، وأكثر المنحرفين في هذه المسألة حصل لهم الضلال والغْيُ [١٨٠] من هذه الجهة، فظنوا أن السماع يُثير محبة الله، ومحبة الله هي أصل الإيمان الذي هو عمل القلب، وبكمالها يكون كمال الإيمان. وأبو طالب المكي جعلها نهاية المقامات^(١)، وأبو إسماعيل الأنصاري

(١) انظر «قوت القلوب» (٢/٥٠).

يقول^(١): هي المقام الذي تلتقي فيه مقدمة العامة وساقه الخاصة.

وهؤلاء جعلوا السماع من توابع المحبة ووسائلها. ومنشأ الغلط أن ما يُثيره هذا السماع المبتدع ونحوه من الحب وحركة القلب ليس هو الذي يحبه الله ورسوله، بل اشتماله على ما لا يحبه الله بل على ما يُبغضه أكثر من اشتماله على ما يحبه الله، وصدّه عما يحبه الله ويرضاه أعظم من تحريكه لمحابه ومراضيه، ونهيه عما يُقرب منه أكثر من أمره به. ولا ريب أنه يُثير حبًا وحركة، لكن منشأ الغلط ظنُّ أن ذلك مما يحبه الله، وإنما ذلك من اتباع الظن ﴿وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣].

فصل

ومما يوضح ذلك ويبينه: أن الله سبحانه بيّن في كتابه محبته، وذكر موجباتها وعلاماتها، وهذا السماع يوجد مصادًا لذلك منافيًا له، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

(١) انظر «منازل السائرین» (ص ٧١).

فهذه ثلاثة أصول لأهل محبة الله تضمنتها هذه الآيات الثلاث:

فالآية الأولى [٨٠ب] تضمنت متابعة الحبيب في أقواله وأفعاله
وهديه وسيرته.

والآية الثانية تضمنت إفراد الرب تعالى بالمحبة وإخلاص الدين
له، وأن لا يُحَبَّ معه سواه، وكل محبوب فإنما تُسُوغ محبته تبعاً لمحبة
الله، فيحبه لله وفي الله، لا مع الله، فمحبة المشركين مع الله، ومحبة
المخلصين لله وفي الله.

والآية الثالثة تضمنت الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلماته وإعزاز
دينه، وترك الالتفات إلى اللُّوأم.

فهذه الأصول الثلاثة هي الفرقان بين الناس، وبها يُوزَن أهل
الانحراف وأهل الصراط المستقيم، فَمَنْ أَحَبَّ شَيْئًا غَيْرَ اللَّهِ كَمَا يُحِبُّ
اللَّهُ فَهُوَ مِمَّنْ اتَّخَذَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أُنْدَادًا يُحِبُّهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ
وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا
أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ
اللَّهُ بِأَمْرٍ ۗ ﴾ [التوبة: ٢٤]، فلا يُنَجِّي العبدَ إلا أن يكون الله ورسوله أحبَّ
إليه من كل شيء، فطاعة الله ورسوله أثرٌ عنده من كل شيء، والله تعالى
لم يَرْضَ من عباده أن يكون حُبُّهم له ولرسوله كحُبِّ الأهل والمال، بل
أن يكون الله ورسوله والجهاد في سبيله، أحبَّ إليهم من أهلهم

وأموالهم ومساكنهم وتجاراتهم وعشائرهم.

والمقصود أن للمحبين ثلاثة أصول، بها تتحقق محبتهم:

الإخلاص وإفراد محبوبهم تبارك وتعالى بالمحبة.

والثاني: الجهاد في سبيله، وهو الذي يُصدّق إيمانهم ويكذبها،

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ [١٨١] ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا

وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾

[الحجرات: ١٥].

وبذلك وصف أهل المحبة في قوله: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا

يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]، فوصفهم بست صفات:

أحدها: محبتهم له.

والثانية: محبته لهم.

والثالثة: ذلُّهم ولينُّهم على أوليائه.

والرابعة: عزُّهم وشدَّتتهم على أعدائه.

والخامسة: جهادهم في سبيله.

والسادسة: احتمالهم لوم الخلق لهم على ذلك، وأنهم ليسوا ممن

يصدُّه الكلام والعذُّ عن الجهاد في سبيل الله، وأنهم ليسوا بمنزلة من

يحتمل الملام والعذل في محبة ما لا يحبه الله، ولا بمنزلة من أظهر من

مكروهات الرب تبارك وتعالى ما يُلامون عليه، ويُسمَّون بالملامتية

إظهارًا منهم لما يُلامون عليه في الظاهر، وهم مُنطَوون في الباطن على الصدق والإخلاص، سترًا لحالهم عن الناس، فهم فعلوا ذلك لعدم احتمالهم الملام، والأولون احتملوا الملام فيما لا يحبه الله، وأحبَّاء الله فعلوا ما أحبه الله، ولم تأخذهم فيه لومة لائم.

فالأقسام ثلاثة:

أحدها: مَنْ يصدُّه اللوم عن محابِّ الله.

والثاني: مَنْ^(١) لا تأخذه في محبة الله لومة لائم.

والثالث: من يُظهِر ما يُلام عليه إخفاءً لقيامه بمحابِّ الله.

فالأول مفرط، والثالث مؤمن ضعيف، والوسط هو الوسط

الخيار، وهو المؤمن القوي، والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من

المؤمن الضعيف^(٢). وأعلى ما يحبه الله ورسوله الجهاد في سبيل الله،

واللائمون عليه كثير، إذ أكثر النفوس تکرهه، واللائمون عليه ثلاثة

أقسام: منافق، ومخذل مفتر للهمة، ومُرْجِفٌ مُضْعِفٌ للقوة والقدرة.

فصل

وأما متابعة الحبيب^(٣) في أقواله وأفعاله، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ

(١) في الأصل: «ما».

(٢) الحديث بهذا اللفظ أخرجه مسلم (٢٦٦٤) عن أبي هريرة.

(٣) هذا هو الأصل الثالث.

كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴿ [آل عمران: ٣١]. قالت [٨١ب] طائفة من السلف: ادعى قوم على عهد النبي ﷺ أنهم يحبون الله، فأنزل الله هذه الآية^(١) وهي آية المحبة، ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ . فجعل حب العبد لربه موجبا مقتضيا لاتباع رسوله، وجعل اتباع رسوله موجبا مقتضيا لمحبة الرب عبده.

فإذا عرفت هذه الأصول فعامة السماعية مقصرون فيها، وهم في ذلك التقصير بحسب كثرة تعوضهم بالسماع عن القرآن وقلته، حتى آل أمره ببعضهم إلى الانسلاخ من الإسلام بالكلية.

وأما من فيه منهم محبة الله ورسوله فهم مقصرون في الأصول الثلاثة: وهي الجهاد في سبيل الله، ومتابعة رسوله، وإخلاص الدين له، ففيهم من الشرك الخفي والجلي ما ينافي كمال الإخلاص، وفيهم من البدعة ما ينافي كمال المتابعة، وفيهم من الرهبانية ما ينافي كمال الجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل كثير منهم يعد ذلك نقصا في الطريق، وهم أبعد الناس عن الجهاد، حتى يوجد في كثير من العامة من هو أكثر جهادا وأمرًا بالمعروف ونهيا عن المنكر منهم، ومن هو أشد غضبا وغيره لمحارم الله وموالاة لأوليائه ومعاداة لأعدائه منهم.

وأما الإخلاص، فهذا السماع وتوابعه يقدح في كماله، فإنه في

(١) انظر «تفسير ابن كثير» (٢/٦٩٩) و«الدر المشور» (٣/٥٠٨-٥٠٩).

الأصل سماع المشركين أهل المكاء والتصديّة، ويتبع ذلك من اتخاذهم الشيوخ الأحياء والأموات آلهة من دون الله ما يُضاهون به النصارى، وكثير منهم يُعطي المخلوق حق الخالق: من الحلف به، والنذر له، والتوكل عليه، والسجود له، وحلق الرأس له، والتوبة له، وخوفه ورجائه [١٨٢] من دون الله، ولهذا يكون كثير من سماعهم الذي يُحرّك وجدهم ومحبتهم إنما يحرك وجدهم ومحبتهم لغير الله، فلا العمل صالح^(١) ولا القصد خالص، فلا إخلاص ولا اتباع، ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣].

وأما الشريعة وما أمر الله به ونهى عنه، وأحلّه وحرّمه، ففي كثير منهم من المخالفة لذلك بل من الاستخفاف بمن يتمسك به ما فيهم، حتى يُسقط من قلوبهم تعظيم كثير من فرائض الله ومحارمه، فيضيع فرائضه، ويستحل محارمه، ويتعدى حدوده، إما اعتقاداً وإما عملاً. وكثير من خيارهم الذين يُعظمون الأمر والنهي يقعون في فروع ما وقع فيه أولئك، إما جهلاً وإما تفریطاً وإما تأويلاً. ومن القوم من يُصرّح بسقوط الفرائض، ويستحل المحرمات، ويقول: الأوراد لأهل الغفلة، وأما أصحاب حضرة السماع فهم مستغنون بوارداتهم عن أوراد العباد! كما أنشد بعضهم:

يُطالب بالأوراد من كان غافلاً فكيف بقلب كل أوقاته ورْد^(٢)

(١) في الأصل: «الصالح».

(٢) البيت بلا نسبة في «مدارج السالكين» (١/٨٦، ٢٤٤، ٣/١١٣، ٣١٦).

وبعض هؤلاء سمع إقامة الصلاة وهو في السماع، فقال: كنا في
الحضرة فصرنا على الباب. فقال له صاحب القرآن: صدقت والله! كنت
في حضرة الشيطان فدُعيت إلى باب الرحمن.

فليتدبر اللبيب الناصح لنفسه ما الذي جرَّه السماعُ على هذه
الطائفة، حتى يقول قائلهم^(١): إنه قد يكون أنفع للقلب من قراءة القرآن
من ستة أوجه أو سبعة! فيا أهلاً وسهلاً بسماع الفساق وأهل الشهوات
بالنسبة إلى سماع هؤلاء المقربين أرباب الحضرة! فإن أولئك لا يقعون
في شيء من هذه العظائم، وهم يعترفون بأنهم مذنبون مخطئون، وفي
قلب مؤمنينهم من محبة ما يحبه الله ورسوله وكراهة ما يكرهه أضعافُ
ما في قلوب [ب ٨٢] كثير من هؤلاء، لأن محبة السماع أضعفت من
قلوبهم محبة ما يحبه الله وكراهة ما يكرهه، ولهذا ليس للقرآن والصلاة
والعلم في قلوبهم من المحبة والحلاوة والطيب ما في قلوب أهل
كمال الإيمان، بل قد يكرهون بعض ذلك ويستثقلون. ولهم نصيبٌ من
حال الذين إذا ذكروا بآيات ربهم خرُّوا عليها صمًا وعميانًا، ونصيبٌ من
حال الذين إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى، وهم يجدون في نفوسهم
استثقال سماع القرآن وقراءته، لما اعتاضوا عنه بضده وندده، وإن ارتاحوا
إلى سماعه فللقدر المشترك الذي يكون بينه وبين سماعهم من
الأصوات المطربة والألحان، ولهذا يرتاحون لذلك الشعر الكفري
والفسقي والزناي.

(١) هو الغزالي، انظر «إحياء علوم الدين» (٢/٢٩٨).

والمقصود أن هذا السماع الشيطاني من أكبر الأسباب المضادة لأصول أولياء الله المقربين الثلاثة: الإخلاص، والمتابعة، والجهاد.

فصل

ومما ابتلي به هؤلاء ما وجدوه في كثير ممن يتسبب إلى الشريعة وإلى الجهاد من ضَعْفِ حقائق الإيمان في قلوبهم، وسوء نياتهم ومقاصدهم، وبعدهم عن الإخلاص ومراعاة صلاح قلوبهم وتركيز نفوسهم وتطهير سرائرهم، وأنهم لا يقصدون بالجهاد أن تكون كلمة الله هي العليا، وأن يكون الدين كله لله، كما وجدوه في كثير ممن يذمُّ السماع الذي لهم من قسوة القلب والبعد عن مكارم الأخلاق وذوق حقيقة الإيمان. فصار هذا التفريط في المنكرين عليهم شبهة لهم في التمسك بما هم عليه، وعدم التفاتهم إلى مَنْ ينكره عليهم. ولو أن المنكر عليهم شاركهم فيما عندهم [١٨٣] من الأخلاق والمحبة وأعمال القلوب ومراعاتها والفقهاء في منازلها ووارداتها لانتقادوا له، ولرأوه فوقهم في ذلك، ولأقرؤوا له مُذَعِّين، ولكن نفوسهم لا تنقاد لمن هو على ضد طريقتهم، ومَنْ هو من أقسى الناس وأبعدهم عن المحبة وأحكامها، وعن أعمال القلوب وأذواق حلاوة المعاملة، وإذا تلاقَتْ أرواحهم تنافرت أشدَّ النَّفَار. فالبلاء مركب من تفريط هؤلاء وعدوان هؤلاء، وصارت كل طائفة مُعْرِضَةً عما مع الأخرى من الحق، مستطيلاً عليها بما معها من الباطل.

وأما أهل الصراط المستقيم الوسط العدل الخيار، فيتبرؤون من باطل الطائفتين ويُقَرُّون بحق الفريقين، وينقادون لما مع كل منهما من

الحق، ويُنكرون ما معهما من الباطل. فَمَنْ قَالَ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ: حَيَّ عَلَى الْهُدَى وَالْفَلَاحِ، أَجَابَ نِدَاءَهُ وَلَبَّى دَعْوَتَهُ، وَمَنْ قَالَ: حَيَّ عَلَى الْبِدْعَةِ وَاتَّبَاعِ مَا لَمْ يُنَزَلِ اللَّهُ بِهِ سُلْطَانًا، أَعْرَضَ عَنْهُ وَجَاهَدَهُ بِحَسَبِ اسْتِطَاعَتِهِ.

وهذا دين الله الذي لا يقبل من أحد ديناً سواه، وهو اتباع ما بعث الله به رسوله في جميع الأمور، وترك اتباع ما يخالف ذلك، وإجماع القلوب على هذا الاتباع والترك، كما قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ [ب ٨٣] وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ [آل عمران: ١٠٣-١٠٧].

قال ابن عباس: تبيضُّ وجوه أهل السنة والجماعة، وتسودُّ وجوه أهل الفرقة والبدعة (١).

فتبين بطلان استدلال السماعية على صحة سماع المكاء والتصديّة

(١) انظر «تفسير ابن أبي حاتم» (٣/٧٢٩) وابن كثير (٢/٧٤٧) والدر المنثور (٣/٧٢١).

والغناء بالألحان بما سمعه النبي ﷺ وأصحابه من الشعر من كل وجه.
 وقال صاحب القرآن: وقولك أيها السماعي: قد جرى على لسان
 النبي ﷺ ما هو قريب من الشعر وإن لم يقصد أن يكون شعرًا. فنقول في
 جواب هذا: الحمد لله الذي عافانا مما ابتلى به كثيرًا من خلقه، فلو
 جرى على لسانه الكريم حقيقة الشعر إنشاءً، وقد أعاده (١) الله منه، قال
 تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يس: ٦٩]، لم يكن في ذلك شبهة
 لك في حل الغناء وسماع الألحان، فما أعجب حالكم أيها السماعية
 إذ تحتجون بقوله ﷺ:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة (٢)

وبقوله:

هل أنت إلا إصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت (٣)

على حل الغناء والزمير والدُفوف والشبابات والرقص، والطَّرْق
 [١٨٤] على تاتنا تاتنا! والله تعالى الموفق لمن يشاء، والخاذل لمن يشاء.

فصل

*قال صاحب الغناء (٤): وقد سمع السلف والأكابر الأبيات

(١) في الأصل: «عاده».

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (٢٨٠٢، ٦١٤٦) ومسلم (١٧٩٦) من حديث جندب بن
 سفيان.

(٤) انظر «الرسالة القشيرية» (ص ٥٠٥).

بالألحان، وممن قال بإباحته من السلف: مالك بن أنس، وأهل الحجاز كلهم يبيحون الغناء، فأما الحُدَاءُ فالإجماع منهم عن إباحته، وهو والغناء:

رضيعاً لِبَانِ ثُدَيِّ أُمَّ تَقَاسَمَا بِأَسْحَمِ دَاجٍ عَوْضٌ لَا نَتْفِرُقُ^(١)

* قال صاحب القرآن: كلامك هذا يتضمن إثبات باطل وترك حق، وهو إن كان عمداً فعظيمة، وإن كان غلطاً فتقصير وتفريط في حق العلم. وذلك أن المعروف عن أئمة السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، مثل عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وجابر بن عبد الله وغيرهم من الصحابة، وكذلك عن أئمة التابعين ومن بعدهم من الأئمة الأربعة وغيرهم: إنكاره، حتى ذكر زكريا بن يحيى الساجي في كتابه الذي ذكر فيه إجماع أهل العلم واختلافهم: أنهم متفقون على المنع منه إلا رجلاً^(٢)، إبراهيم بن سعد^(٣) من أهل المدينة، وعبيد الله بن الحسن العنبري من أهل البصرة، وقد تقدم حكاية ذلك، فكيف يُنقل عن السلف والأكابر ما هم أبعد الناس منه؟

وأما نقلك لإباحته عن مالك بن أنس وأهل الحجاز كلهم فهذا من أقبح الغلط وأفحشه، فإن مالكا نفسه لم يختلف قوله وقول أصحابه في

(١) البيت للأعشى في ديوانه (ص ٢٧٥) و«إصلاح المنطق» (ص ٢٩٧) و«أدب الكاتب» (ص ٤٠٧) و«جمهرة اللغة» (ص ٩٠٥) و«الخصائص» (١/٢٦٥).

(٢) كذا في الأصل مرفوعاً، والوجه: «رجلين».

(٣) في الأصل: «سعد بن إبراهيم» وهو خطأ.

ذمّه والمنع منه وكرهته، بل هو من المبالغين في ذلك، الشاهدين على أهله بالفسق، ولهذا لما سأله إسحاق بن عيسى الطَّبَّاع عما يترخص فيه أهل المدينة من الغناء، فقال: «إنما يفعله عندنا [٨٤ب] الفساق». ومؤلفات أصحابه في تحريمه شاهدة بذلك^(١). والشافعي لم يختلف قوله في كراهته، وقال في كتابه المعروف «بأدب القضاء»: الغناء لهو مكروه شبيه بالباطل، ومن استكثر منه فهو سفیهٌ تُرَدُّ شهادته. وقد قال عن سماع التبغير الذي هو أحسن سماعات هؤلاء: إنه مما أحدثته الزنادقة يصدون به الناس عن القرآن. وأما فقهاء الكوفة فمن أشد الناس تحريمًا للغناء، ولم^(٢) يتنازعوا في ذلك، ولم يخالفهم إلا العنبري^(٣).

فصل

* قال صاحب الغناء: وقد ذكر محمد بن طاهر في مسألة «السماع»^(٤) حكاية عن مالك أنه ضربَ بطبلي، وأنشد أبياتًا، ومالك مالك!

* قال صاحب القرآن: قد أعاذ الله مالكا وأصحابه من هذا البهتان والفرية، ومالك أجلُّ عند الله وعند أهل الإسلام من ذلك، والكذبُ

(١) انظر لمعرفة هذه المؤلفات والنصوص «حكم الغناء في مذهب المالكية» لمصطفى باحو.

(٢) في الأصل: «ولما».

(٣) هذه النصوص والأقوال سبق تخريجها في أول الكتاب.

(٤) انظر كتاب «السماع» له (ص ٦٦).

الفاحش على الأئمة المشهورين صنعة جهلة الكذابين، فلو أن واضع هذه الحكاية نسبها إلى مَنْ ليس في الشهرة والإمامة والجلالة كمالكٍ لأمكن أن يخفى وَيَرُوجَ على الجهال، وأمّا على إمام دار الهجرة فسبحانك هذا بهتان عظيم.

فصل

*قال صاحب الغناء^(١): وقد وردت الأخبار واستفاضت الآثار في ذلك، رُوي عن ابن جريج أنه كان يُرخص في السماع، ف قيل له: إذا أتى بك يوم القيامة ويؤتى بحسناتك وسيئاتك، ففي أي الجانبين يكون السماع؟ فقال: لا في الحسنات ولا في السيئات. يعني أنه من المباحات.

*قال صاحب القرآن: ليس ابن جريج [١٨٥] وأهل مكة ممن^(٢) يعرف عنهم الغناء، بل المشهور عنهم خلاف ذلك. ثم هذه الحكاية وأمثالها هي إلى أن تكون حجةً عليكم أقربُ من كونها حجةً لكم، فإنه قال: يكون السماع لا في الحسنات ولا في السيئات، فجعله بمنزلة اللعب واللهو الباطل، الذي أحسنُ أحواله أن لا يكون للعبد ولا عليه، ومع هذا فلا بدَّ أن ينقُصَ من حسناته. ولم يجعله ابن جريج ولا أحدٌ قبل هذه الطائفة ديناً وقربةً وصلاًحاً للقلوب، ويُفضُّله على سماع القرآن من وجوه متعددة، بل غاية ما يُحكى عنم يُرخص فيه أنه جعله بمنزلة الغناء والضرب بالدف للنساء في العرس وأيام الأعياد وعند قدوم

(١) انظر «الرسالة القشيرية» (ص ٥٠٥).

(٢) في الأصل: «ليس عن ابن جريج وأهل مكة مَنْ...». ولعل الصواب ما أثبتته.

الغائب، وهو مع ذلك باطل، كما في الحديث الذي في السنن: أن امرأة نذرت أن تضرب لقدم رسول الله ﷺ بالدف ففعلت، فلما جاء عمر أمرها رسول الله ﷺ بالسكوت، وقال: «إن هذا رجل لا يحب الباطل»^(١). وسمى الصديق غناء الجويريتين [مزمور الشيطان، وأقره ﷺ على ذلك، وإنما رخص فيه]^(٢) لمكان صغرهما وكونه يوم عيد، وخلو ما تُغنيان به من آلات المعازف وغناء الألحان والطرابات^(٣)، ولم يقل: هو قرينة وطاعة وملح للقلوب، بل قد ثبت عنه في الصحيح^(٤) أنه قال: «كلُّ لهوٍ يلهو به الرجل فهو باطل إلا رميه بقوسه وتأديبه فرسه وملاعبته امرأته، فإنهن من الحق».

ومعلوم أن الباطل من الأعمال هو ما ليس فيه منفعة، فهذا يُرخص

- (١) جمع المؤلف هنا بين حديثين، أخرج الأول منهما أحمد (٣٥٣/٥) والترمذي (٣٦٩٠) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٧٧/١٤) عن بريدة، وإسناده قوي. وقوله: «إن هذا رجل لا يحب الباطل» في حديث آخر بسياق مختلف، أخرجه أحمد (٤٣٥/٣) والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٤٢) وأبو نعيم في «الحلية» (٤٦/١) عن الأسود بن سريع. وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف. وعبدالرحمن بن أبي بكر لا يصح سماعه من الأسود.
- (٢) زيادة ليستقيم السياق، انظر ما سيأتي (ص ١٨٨) و«مدارج السالكين» (٤٩٣/١).
- (٣) سبق تخريجه. و«الطرابات» لا وجود لها في المعاجم.
- (٤) لم أجده في الصحيحين. وأخرجه أحمد (١٤٤، ١٤٨) والترمذي (١٦٣٧) وابن ماجه (٢٨١١) من طريق أبي سلام عن عبد الله بن الأزرق عن عقبة بن عامر. وأخرجه أحمد (١٤٦، ١٤٨) وأبو داود (٢٥١٣) والنسائي (٢٨/٦)، (٢٢٢) من طريق خالد بن زيد الجهني عن عقبة. وقال الترمذي: حديث حسن.

في بعضه أحياناً للنفوس التي لا تصبر على الحق المحض، ويُرخَّص منه في القدر الذي يحتاج إليه، في الأوقات التي تتقاضى ذلك، كالأعياد والأعراس و قدوم الغائب، وتلك نفوس الصبيان والنساء والجواري [٨٥ب] الصغار، وهن اللاتي غنَّين في بيت عائشة، وضربن بالدف خلف رسول الله ﷺ، وعند تلقيه فرحاً وسروراً به.

فهذا كان فرح هؤلاء الضعفاء العقول الذين لا تحتل عقولهم الصبر تحت محض الحق، فكان في إقرارهم بالترخيص لهم في هذا القدر مصلحة لهم، وذريعة إلى انبساط نفوسهم وفرحهم بالحق، فهو من نوع الترخيص في اللُّعبِ للبنات، وما شاكل ذلك، وهذا من كمال شريعته ومعرفته بالنفوس وما تصلح عليه، وسوقها إلى دينه بكل طريق وفي كل وادٍ. ومن المعلوم أن النفوس الصغار والعقول الضعيفة إذا حُمِلت على محض الحق، وحُمِلَ عليها ثقله، تفسَّخت تحته واستعصت ولم تنقذ، فإذا أُعطيَتْ شيئاً من الباطل ليكون لها عوناً على الحق ومنفذاً له، كان أسرع لقبولها وطاعتها وانقيادها.

فما لمشايخ الطريق والسالكين إلى الله، والآخذين أنفسهم بالجِدِّ المحض، والمعرضين عن حظوظهم، الذين لم يعبدوا الله شوقاً إلى جنته ولا خوفاً من ناره، إذ ذلك عينُ حظهم وهو نقصٌ في طريقتهم، وهذا الباطل واللغو الذي هو حظ الأطفال والنساء والجواري؟! ولا ريبَ أن الرجال لم يكن ذلك فيهم، بل كان السلف يسمون الرجل المغني مخنثاً لتشبهه بالنساء، وقد رُوي: «اقرأوا القرآن بلحون العرب،

وإياكم ولحون العجم والمخانيث والنساء»^(١).

وسئل القاسم بن محمد^(٢) عن الغناء، فقال للسائل: رأيت إذا ميز الله يوم القيامة بين الحق والباطل ففي أيهما [١٨٦] يجعل الغناء؟ فقال: في الباطل، قال: فماذا بعد الحق إلا الضلال. فكان العلم بأنه من الباطل مستقرًا في نفوسهم كلهم وإن فعله بعضهم.

فصل

* قال صاحب الغناء^(٣): فهذا الشافعي لا يُحرّمه، ويجعله من العوامّ مكروهًا، حتى لو احترف بالغناء أو اتصف به على الدوام وبسماعه على وجه التلهي^(٤) تُردُّ به الشهادة، ويجعله مما يُسقط المروءة ولا يُلحقه بالمحرمات، وليس الكلام في هذا النوع من السماع، فإن هذه الطائفة جلت رتبهم عن أن يسمعوا بلهويًا، أو يقعدوا للسماع بسهويًا، أو يكونوا بقلوبهم متفكرين في مضمون لغوي.

* قال صاحب القرآن: لم يختلف قول الشافعي في كراهته والنهي عنه للعوام والخواص، ولكن هل هي كراهة تحريم أو تنزيه أو يُفصل

(١) أخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ٨٠) والطبراني في «الأوسط» (٧٢١٩)

البيهقي في «شعب الإيمان» (٢٦٤٩) عن حذيفة، وهو حديث ضعيف.

(٢) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (١٠ / ٢٢٤)، وأورده ابن الجوزي في «تلبس إبليس» (ص ٢٣٥).

(٣) انظر «الرسالة القشيرية» (ص ٥٠٥).

(٤) في الأصل: «الوجه التلهي».

بين بعض وبعض؟ هذا مما تنازع فيه أصحابه، وهذا قوله في سماع العامة. وأمّا سماع الخاصة الذين تشيرون إليه فهو عند الشافعي من فعل الزنادقة، كما تقدم حكاية كلامه. فعند الشافعي أن هذا السماع الذي للخاصة أعظم من أن يقال فيه: إنه مكروه أو محرم، بل هو عنده مضافٌ للإيمان، وشرعٌ دينٍ لم يأذن به الله ولم يُنزل به من سلطان، وإن كان من المشايخ والصالحين من تأول في فعله، وبتأويله واجتهاده يغفر الله له خطأه، ويُشبهه على ما مع التأويل من قصد خالص وإن لم يكن العمل صوابًا. والتأويل والاجتهاد من باب المعارض في حق بعض الناس، يُدفع به عنه العقوبة كما يُدفع بالتوبة والحسنات الماحية، وهذا إنما هو لمن استفرغ وسعته في طلب الحق [٨٦ب] ما استطاع.

وقول الشافعي رضي الله عنه في هؤلاء نظير قوله في أهل الكلام: «حكمت في أهل الكلام أن يُضربوا بالجريد والنعال، ويُطاف بهم في العشائر والقبائل، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة، وأقبل على الكلام»^(١). وقوله: «لأن يبتلى العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير له من أن يُبتلى بالكلام في هذه الأهواء»^(٢).

فهذا مذهبه في المتكلمين، وتلك شهادته في أهل السماع، وهذا من كمال نصيحته رضي الله عنه، لما علم من دخول الفساد على الأمة

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١١٦/٩) والبيهقي في «مناقب الشافعي» (٤٦٢/١).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «آداب الشافعي» (ص ١٨٢، ١٨٧) وأبو نعيم في

«الحلية» (١١١/٩) والبيهقي في «مناقب الشافعي» (٤٥٢/١، ٤٥٤).

من هاتين الطائفتين.

وبالجملة فالكلام في السماع على وجهين:

أحدهما: سماع اللهو واللعب والطرب، فهذا يقال فيه: مكروه أو محرم أو باطل، أو مُرَخَّص في بعض أنواعه.

والثاني: السماع المحدث لأهل الدين والقربة، فهذا يقال فيه: إنه بدعة وضلالة، وإنه مخالف لكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وإجماع السالفين جميعهم، وإنما حدث في الأمة لما حدث الكلام، فكثير هذا في أهل النظر والعلم، وكثير هذا في أهل الإرادة والعبادة، ولهذا كان يزيد بن هارون شيخ الإسلام في وقته، وهو من أتباع التابعين، ينهى عن مجالسة الجهمية والمغبرة، هؤلاء أهل الكلام المخالف للكتاب والسنة، وهؤلاء أهل السماع المحدث المخالف للكتاب، ولهذا لم يستطع أحد قط ممن زعم أن هذا السماع قربة ومستحب، أن يأتي بأثر عن رسول الله ﷺ ولا عن أحد من أصحابه بذلك، إلا من جاهر بالوقاحة والكذب، وزعم أن رسول الله ﷺ سمع هذا السماع، وتواجد عليه حتى شق قميصه. [١٨٧] فليُبَشِّرْ من نسب ذلك إليه بمقعده من النار.

فصل

*قال صاحب الغناء^(١): وقد روي عن ابن عمر وعبد الله بن جعفر آثار في إباحة السماع، هذا مع تشدد ابن عمر وزهده ودينه

(١) انظر «الرسالة القشيرية» (ص ٥٠٥).

وحرصه على متابعة الرسول وبعده من البدع، وعبد الله بن جعفر الطيار.
 * قال صاحب القرآن: أما ما نقل عن ابن عمر فإنه نقل باطل،
 والمحفوظ عن ابن عمر ذمه للغناء، ونهيه عنه، كما هو المحفوظ عن
 إخوانه من أصحاب رسول الله ﷺ كابن مسعود وابن عباس وجابر
 وغيرهم، ممن رضيهم المسلمون قدوة وأئمة. وهذه سيرة ابن عمر وأخباره
 ومناقبه وفتاويه بين الأمة، هل تجد فيها أنه عمل هذا السماع أو حضره أو
 رخص [فيه]؟ فقد نزه الله سمع ابن عمر عنه، بل وأصحاب ابن عمر.

وأما ما نقلت عن عبد الله بن جعفر، فلا ريب أنه قد نُقل عنه ذلك،
 لكن المنقول عنه أنه كانت له جارية تُغنيه في بيته، فيستمع بسماع
 غنائها. هذا غاية ما نُقل عنه، وليس ابن جعفر ممن يُعارض به أركان
 الأمة كابن مسعود وابن عباس وجابر وابن عمر، ومن احتج بفعل
 عبد الله بن جعفر فليحتج بفعل معاوية في قتاله لعلي، وبفعل
 عبد الله بن الزبير في قتاله في الفرقة، وبفعل مروان بن الحكم في
 خطبته يوم العيد قبل الصلاة^(١)، وأمثال ذلك مما لا يصلح لأهل العلم
 والدين أن يُدخِلوه في أدلة الشرع، لا سيما النساء والزهاد وأهل
 الحقائق، فإنهم لا يصلح لهم أن يتركوا سبيل مثل أبي ذر وأبي أيوب
 الأنصاري وعمار بن ياسر [٨٧ب] وأبي الدرداء ومعاذ بن جبل وأبي
 عبيدة بن الجراح، والمشهورين بالنسك والعبادة، ويتبعون سبيل من

(١) كما في «صحيح مسلم» (٨٨٩).

اتخذ جارية تُغنيه في بيته للهو واللذة، ويجعلونه حجة لهم فيما بينهم وبين الله في الرقص وسماع الأغاني المطربة من الشاهد المليح، بمساعدة الدفوف والشبابات والمواصيل. هذا مع أن الذي فعله عبد الله بن جعفر كان في داره، لم يكن يجمع الناس على ذلك ولا يدعو إليه، ولا يعدّه ديناً وقربة يُقربه إلى الله، بل هو من الباطل واللهو.

فصل

* قال صاحب الغناء^(١): ثبت عن النبي ﷺ أنه سمع الحُداء وحدا الحُداة بين يديه، وكذلك عمر بن الخطاب^(٢) بعده رخص في الحُداء، والغناء والحدا كلُّ منهما إنشادٌ بأصواتٍ مطربة، وهما كما قال الشاعر:

فإن لا يَكُنْها أو تَكُنْه فإنه أخوها غَدَتْه أمه بلبانها^(٣)

* قال صاحب القرآن: قد اتفق الناس على جواز الحُداء، وثبت أن عامر بن الأكوع كان يحدو بالصحابة مع النبي ﷺ، ففي الصحيحين^(٤) عن سلمة بن الأكوع قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فسرنا ليلاً، فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع: ألا تُسمعنا من هنيأتك؟ وكان عامر رجلاً شاعراً، فنزل يحدو بالقوم، يقول:

(١) انظر «الرسالة القشيرية» (ص ٥٠٥).

(٢) في الأصل: «خطاب».

(٣) البيت لأبي الأسود الدؤلي في ديوانه (ص ١٦٢) وإصلاح المنطق (ص ٢٩٧) وأدب الكاتب (ص ٤٠٧) ولسان العرب (كون، لبن).

(٤) البخاري (٦١٤٨) ومسلم (١٨٠٢).

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينتنا علينا
إنا إذا صيح بنا أتينا وبالصياح عولوا علينا

[١٨٨] فقال رسول الله ﷺ: من هذا السائق؟ قالوا: عامر بن الأكوع، قال: يرحمه الله، قال رجل من القوم: وجبت يا نبي الله، لولا أمتعتنا به، وذكر الحديث. وذلك في غزوة خيبر.

وفي الصحيح^(١) حديث أنجشة الحبشي الذي كان يحدو بالنبي ﷺ، حتى قال النبي ﷺ: «رؤيدك يا أنجشة، سوقك بالقوارير» يعني النساء، أمره بالرفق بهن لئلا تزعجهن الإبل في المسير إذا اشتد سيرها، ولئلا ينزعجن بصوت الحادي، والحديث متفق عليه. فمن الذي حرّم الهداء؟ حتى يحتجون عليه بفعله بين يدي النبي ﷺ.

وأما قولكم: «إن الغناء إن لم يكنه فهما رضيعاً لبيان، وهما في بابهما أخوان» فمن أبطل الباطل، وهو من جنس استدلالكم على حل الغناء والسماع بسماع النبي ﷺ الشعر واستنشاده له، وهل هذا إلا من أفسد القياس وأبطله؟ وإذا كان الأمر كما تقولون فلم سمع رسول الله ﷺ وأصحابه الهداء والشعر؟ ولم يُنقل والعياذ بالله عن أحد منهم قط استماع الغناء وحضوره وإقامته، فضلاً عن اتخاذ طاعة وقربة ودينًا! فقياس الغناء على الهداء من جنس قياس الربا على البيع، وقياس نكاح

(١) البخاري (٦١٦١) ومسلم (٢٣٢٣) عن أنس بن مالك.

التحليل على نكاح الرغبة، ونكاح المتعة على النكاح المؤبد، وأمثال ذلك من الأقيسة التي تتضمن الجمع بين ما فرّق الله ورسوله بينهما.

فصل

* قال صاحب الغناء^(١): يكفينا في هذا الباب ما قد اشتهر، وعلمه الخاص والعام من حديث الجاريتين اللتين كانتا تغنيان في بيت عائشة، بما تقاولت [٨٨ب] به الأنصار يوم بُعَاث، فأنكر عليهما أبو بكر، وقال: أبزمور الشيطان في بيت رسول الله ﷺ؟ فقال رسول الله ﷺ: «دعهما يا أبا بكر! فإن لكل قوم عيداً، وهذا عيدنا»^(٢).

* قال صاحب القرآن: هذا الحديث من أكبر الحجج عليك، فإن الصديق سمى الغناء مزمور الشيطان، ولم ينكر عليه النبي ﷺ هذه التسمية، وأقرّ الجويريتين على فعله، إذ هما جويريتان صغيرتان^(٣) دون البلوغ غير مكلفتين، قد أظهرتا الفرح والسرور يوم العيد بنوع ما من أنواع غناء العرب، ولا سيما الصغار منهن في بيت جارية حديثة السن، بشعرٍ من شعر العرب في الشجاعة ومكارم الأخلاق ومدحها، وذم الجبن ومساوئ الأخلاق، ومع هذا فقد سماه صديق الأمة «مزمور الشيطان». فيالله العجب! كيف صار هذا مزمور الشيطان قرينة وطاعة

(١) انظر «الرسالة القشيرية» (ص ٥٠٥).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) في الأصل: «جويريتين صغيرتين».

تقرب إلى الله، وتُنال بها كرامته؟ وأصحابه جلّت رتبتهم أن يسمعوهم بنفوسهم، أو لأجل حظوظهم، هذا وكم بين المزمورين؟ فيبينهما أبعدهما بين المشرقين.

ثم نحن نرخص في كثير من أنواع الغناء، مثل هذا، ومثل الغناء في النكاح للنساء والصبيان، إذا خلا من الآلات المحرمة، كما نرخص لهم في كثير من اللهو واللعب، وهذا نوع من أنواع اللعب المباح لبعض الناس في بعض الأوقات، فما له وللتقرب والتعبد به؟ واستنزال الأحوال الإيمانية والأذواق العرفانية والمواجيد القلبية به؟

ونظير هذا دخول عمر رضي الله عنه على النبي ﷺ، وهروب النسوة [١٨٩] اللاتي كنّ يغنين لما رأينه، ووضعن دفوفهن تحتهن، فقال النبي ﷺ: «ما رأك الشيطان سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجاك» (١). فأخبر أن الشيطان هرب مع تلك النسوة، وهذا يدل على أن الشيطان حاضر مع أولئك النسوة، وهرب معهن. فقد أقر النبي ﷺ الصديق على أن الغناء مزمور الشيطان، وأخبر أن الشيطان فرّ من عمر لما فر منه النسوة، فعلم أن هذا من الشيطان، وإن كان رخص فيه لهؤلاء الضعفاء العقول من النساء والصبيان، لئلا يدعوهم الشيطان إلى ما يُفسد عليهم دينهم، إذ لا يمكن صرفهم عن كل ما تتقاضاه الطباع من الباطل.

والشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفسد

(١) أخرجه البخاري (٣٦٨٣) ومسلم (٢٣٩٦) عن سعد بن أبي وقاص.

وتقليلها، فهي تُحصَلُ أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، وتدفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما، فإذا وُصف العمل بما فيه من الفساد مثل كونه من عمل الشيطان، لم يمنع ذلك أن يُدفع به مفسدة شر منه وأكبر وأحب إلى الشيطان منه، فيُدفع بما يحبه الشيطان ما هو أحب إليه منه، ويُحتَمَل ما يبغضه الرحمن لدفع ما هو أبغض إليه منه، ويُفَوَّت ما يحبه لتحصيل ما هو أحبُّ إليه منه.

وهذه أصولٌ مَنْ رُزِقَ فهمَها والعملَ بها فهو من العالمين بالله وبأمره.

ولا ريب أن الشيطان موكَّلٌ ببني آدم، يجري منهم مجرى الدم، وقد أُعِين بما رُكِّب في نفوسهم وجُبِلَتْ عليه طباعُهم وامتحنوا به من أسباب الشهوة والغضب، فلا يمكن حفظُ [٨٩ب] مَنْ هذا شأنه مع عدوه، من كل ما للشيطان فيه نصيبٌ، وهو له حظ في كل أعمال العبد، حتى في صلاته، كما قال النبي ﷺ: «لا يجعل أحدكم للشيطان حظاً من صلاته، يرى أن حقاً عليه ألا ينصرف إلا عن يمينه»^(١). فإذا كان هذا القدر من حظ الشيطان في صلاة العبد، فما الظن بما هو أعظم من ذلك وأكبر. وسُئِلَ ﷺ عن الالتفات في الصلاة فقال: «هو اختلاس يَخْتَلِسُهُ الشيطان من صلاة العبد»^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٨٥٢) ومسلم (٧٠٧) موقوفاً على ابن مسعود.

(٢) أخرجه البخاري (٧٥١) عن عائشة.

وإذا لم يمكن حفظُ العبد نفسه من جميع حظوظ الشيطان منه، كان من معرفته وفقهه وتمام توفيقه أن يدفع حظَّه الكبير بإعطائه حظَّه الحقيق، إذا لم يمكن حرمانه الحظَّين كليهما، فإذا أُعْطِيَ النفوسُ الضعيفة حظًّا يسيرًا من حظِّها يُستجلبُ به من استجابتها وانقيادها خيرٌ كبير، ويُدفع به عنها شر كبير أكبر من ذلك الحظ = كان هذا عينَ مصلحتها، والنظر لها والشفقة عليها.

وقد كان النبي ﷺ يُسربُّ الجواري إلى عند عائشة يلعبن معها^(١)، ويمكَّنهما من اتخاذ اللُّعب التي هي في صور خيل بأجنحة وغيرها^(٢)، ويمكَّنهما من النظر إلى لعب الحبشة^(٣). وكان مرة بين أصحابه في السفر، فأمرهم فتقدموا، ثم سابقها فسبقته، ثم فعل ذلك مرة أخرى، فسابقها فسبقها، فقال: «هذه بتلك»^(٤). واحتمل ﷺ ضرب المرأة التي نذرت إن نجَّاه الله أن تضرب على رأسه بالدف^(٥)، لما في إعطائها [١٩٠] ذلك الحظَّ من فرحها به وسرورها بمقدِّمه وسلامته، الذي هو زيادة في إيمانها ومحبتها لله ورسوله، وانبساط نفسها وانقيادها لما يأمر به من

(١) أخرجه البخاري (٦١٣٠). ومسلم (٢٤٤٠) عن عائشة.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٣٢) والنسائي (٧٥/١) عن عائشة. وإسناده صحيح. وصححه ابن حبان (٥٨٦٤).

(٣) أخرجه البخاري (٤٥٤). ومسلم (٨٩٢) عن عائشة.

(٤) أخرجه أحمد (٣٩/٦) وأبو داود (٢٥٧٨) وابن ماجه (١٩٧٩) عن عائشة. وإسناده صحيح. وصححه ابن حبان (٤٦٩١).

(٥) سبق تخريجه.

الخير العظيم، الذي ضربُ الدف فيه كقطرة سقطت في بحر.

وهل الاستعانة على الحق بالشيء اليسير من الباطل إلا خاصة الحكمة والعقل؟ بل يصير ذلك من الحق إذا كان مُعيناً عليه، ولهذا كان لهو الرجل بفرسه وقوسه وزوجته من الحق، لإعانتته على الشجاعة والجهاد والعفة، والنفوس لا تنقاد إلى الحق إلا بِرُطيلٍ، فإذا بُرِطِلَتْ بشيء من الباطل لتبذل به حقاً، وُجُودُهُ أنفعُ لها وخير من فوات ذلك الباطل، كان هذا من تمام تربيتها وتكميلها. فليتأمل اللبيب هذا الموضع حق التأمل، فإنه نافعٌ جداً، والله المستعان.

فصل

*قال صاحب الغناء: وندب النبي ﷺ إلى تحسين الصوت بالقرآن، فروى البراء بن عازب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «حَسِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ، فَإِنَّ الصَّوْتِ الْحَسَنَ يَزِيدُ الْقُرْآنَ حُسْنًا» (١).

وعن أنس عن النبي ﷺ: «لكل شيء حلية، وحلية القرآن الصوت الحسن» (٢).

(١) أخرجه الدارمي (٣٥٠٤) بهذا اللفظ. وإسناده حسن.

(٢) أخرجه البزار كما في «كشف الأستار» (٢٣٣٠)، وفي إسناده عبد الله بن محرر، وهو متروك. وله طريق آخر أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٧/٢٦٨). وفي إسناده مجهول.

وقد صح عنه عليه السلام أنه قال: «ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن»^(١).

وقد قال الإمام أحمد في تفسيره: «يحسُّنه بصوته ما استطاع»، وقال الشافعي: «نحن أعلم بهذا [٩٠ب] من سفيان»، ينكر عليه قوله: يستغني به، وإنما هو تحسين الصوت^(٢).

وقال عليه السلام: «لله أشدُّ أذناً إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته»^(٣). فإذا ندب إلى تحسين الصوت بالقرآن والتغني به، جاز أن يُحسن الصوت بالشعر ويُتغنى به، وأيُّ حرج في تحسين الصوت بالشعر؟

*قال صاحب القرآن: هذه الأدلة إنما تدل على فضل الصوت

الحسن بكتاب الله، لا على فضل الصوت الحسن بالغناء الذي هو مزمور الشيطان، ومن قاس هذا بهذا وشبهه أحدهما بالآخر فقد شبهه الباطل بالحق، وقاس قرآن الشيطان على كتاب الرحمن. وهل هذا إلا نظير قول من يقول: إذا أمر الله بالقتال في سبيله بالسيف والرمح والنُّشاب دلَّ ذلك على فضيلة الطعن والضرب والرمي! ثم يحتج بذلك على جواز الضرب والطعن والرمي في غير سبيل الله، بل على استحبابه.

(١) أخرجه البخاري (٧٥٢٧) عن أبي هريرة.

(٢) انظر أقوال العلماء في معنى قوله: «يتغنى» في «غريب الحديث» لأبي عبيد

(٢/١٦٩-١٧٢) و«مشكل الآثار» (٣/٣٥٣) و«شرح السنة» (٤/٤٨٥، ٤٨٦)

و«فتح الباري» (٩/٦٩-٧٢).

(٣) سبق تخريجه.

ونظير من قال: إذا أمر الله بإنفاق المال في سبيله، دل على فضيلة المال! ثم يحتج بذلك على جواز إنفاق المال واستحبابه في غير سبيله. ونظيره قول من يقول: إذا أمر الله بالاستعفاف بالنكاح دل على فضيلة النساء، ثم يحتج بذلك على جواز ما لم يأمر به من ذلك! وكذلك كل ما يُعين على طاعة الله ومحابه ومراضيه، ولا يدلُّ ذلك على أنَّه في نفسه محمود على الإطلاق، حتى يحتج على أنه محمود حال كونه معيناً على غير طاعة الله من البدع [١٩١] والفجور والمعاصي.

إذا ثبت هذا فتحسين الصوت نُدب إليه، وحميد الصوت الحسن لما تضمنه من الإعانة على ما يحبه الله من سماع القرآن، ويحصل به من تنفيذ معانيه إلى القلوب ما يزيد إيماناً، ويُقرّبها إلى ربها، ويُدنيها من محابه. فالصوت الحسن بالقرآن مُنفذ لحقائق الإيمان، مُعين على إيصالها إلى القلوب، فكيف يُجعل نظير الصوت الحسن بالغناء الذي يُنبئ النفاق في القلب؟ وأخفُّ أنواعه وأقلُّها شراً ما وضعته الزنادقة يصدّون به الناس عن القرآن. فالصوت الحسن من هذا يُنفذ حقائق النفاق والفجور والفسوق إلى القلب، ولهذا يظهر في الأفعال وعلى اللسان. فالسمع الشيطاني الذي يتقرب به أهله إلى الله، يُنفذ الصوت الحسن فيه حقائق النفاق إلى القلب، والسمع الآخر الذي يعدّه أهله لهواً ولعباً، يُنفذ ما يكرهه الله من شهوات الفسوق إلى القلب، فالاعتبار بحقائق المسموع، والصوت الحسن آلة ومنفذ.

فصل

وقوله ﷺ: «ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن» إما أن يريد به الحَضُّ (١) على أصل الفعل، وهو نفس التغني به، أو على صفته وهو أن يكون تَغْنِيَهُ إذا تَغْنَى به لا بغيره. وهذا نظير ما حُمِلَ عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩]، هل هو أمرٌ بأصل الحكم أو بصفته إذا حَكَمَ؟ فيه قولان. ونظيره أمره ﷺ بالدعاء في السجود، هل هو أمر بأصل الدعاء؟ أو المعنى: إذا دعوتهم [٩١ب] فاجعلوا دعاءكم في السجود، فإنه قَمَنٌ أن يُستجاب لكم (٢).

فقوله: «ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن»، إن أريد به الحَضُّ على نفس الفعل كان ذمًّا لمن ترك التغني به، وإن أريد به المعنى الثاني، وهو أنه إذا تغنى فليتغنَّ بالقرآن، كان ذمًّا لمن تغنى بغيره، لا لمن ترك التغني به، وبين المعنيين فرق ظاهر، وقد يصح أن يُرادا معًا، وأنه ذمٌّ من ترك التغني به ومن تغنى بغيره. والله أعلم.

فصل

*قال صاحب الغناء (٣): صح عن النبي ﷺ أنه قال: «صوتان

(١) في الأصل: «الحظ» وهو خطأ.

(٢) الحديث أخرجه مسلم (٤٧٩) عن ابن عباس.

(٣) انظر «الرسالة القشيرية» (ص ٥٠٧).

ملعونان: صوتٌ ويلٍ عند مصيبة، وصوتٌ مزمارٍ عند نعمة»^(١). ومفهوم خطابه يقتضي إباحة غير هذين الصوتين في غير هاتين الحالتين، وإلا بطلت فائدة التخصيص.

* قال صاحب القرآن: هذا الحديث من أجود ما يُحتجُّ به على تحريم الغناء، كما في اللفظ الآخر الصحيح: «إنما نهيتُ عن صوتين أحمقين فاجرين: صوت عند نعمة: لهو ولعب ومزامير الشيطان، وصوت [عند] مصيبة: لطمِ خدودٍ وشقِّ جُيوبٍ ودعاء بدعوى الجاهلية»^(٢).

فنهى عن الصوت الذي يُفعل عند المصيبة، والصوت الذي يُفعل عند النعمة هو صوت الغناء.

* قال صاحب الغناء: إنما نهى عن صوت الغناء.

* قال صاحب القرآن: المراد بصوت المزمار هنا هو نفس الغناء، فإنَّ نفس صوت الإنسان يسمى مزمارًا ومزموّرًا، كما قال ﷺ لأبي موسى: «لقد أوتي هذا مزمارًا من مزامير آل داود»^(٣)، فسمى صوته مزمارًا. وكما قال الصديق رضي الله عنه لغناء [١٩٢] الجاريتين: «أبزمور

(١) أخرجه البزار في «مسنده» (٧٥١٣) والضياء المقدسي في «المختارة» (٢٢٠٠) عن أنس بن مالك، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٣/٣): رجاله ثقات. وانظر «السلسلة الصحيحة» (٤٢٨).

(٢) أخرجه الترمذي (١٠٠٥) عن جابر بن عبد الله. وقال: هذا حديث حسن.

(٣) سبق تخريجه.

الشیطان فی بیت رسول الله ﷺ؟»^(١)، ولم یکن معهما مزبور غیر أصواتهما، فکذلك قوله ﷺ: «نهیتُ عن صوتین أحمقین فاجرین»، ثم فسرهما بالغناء والنوح اللذین یثیرهما الطربُ والحزن^(٢).

وقولک: «إنَّ مفهوم الخطاب یقتضی إباحةً غیر هذا»، فجوابه من وجهین:

أحدهما: أنَّ مثل هذا اللفظ لا مفهوم له عند أكثر أهل العلم، فإنَّ التخصیص فی مثل هذا بالعدد لا یقتضی اختصاص الحكم به، كقوله ﷺ: «ثلاث فی أمتی من أمر الجاهلیة لا یترونها»^(٣)، لا یقتضی أنَّه لیس فیهم من أمر الجاهلیة غیر هذه الثلاث، ومن قال من الفقهاء بمفهوم العدد، فإنما یكون عنده حجة إذا لم یکن للتخصیص سبب آخر، وهنا التخصیص لكون هذین الصوتین كانا معتادین فی زمنه وعلى عهده ﷺ، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: ٣١] فإنَّ القتل على هذه الصفة هو الذي كان معتادًا على عهده فی العرب.

الثانی: أنَّ اللفظ الذي ذكره رسول الله ﷺ يدل على مورد النزاع، فإنَّه إذا نُهي عن هذا الصوت عند النعمة التي یُعذر الإنسان عندها، إذ هی محل فرح وسرور، كما رخص فی غناء النساء فی الأعراس

(١) سبق تخریجه.

(٢) فی الأصل: «الحرب» تصحیف.

(٣) الحدیث بلفظ «أربع فی أمتی...»، أخرجه مسلم (٩٣٤) عن أبي مالك الأشعري.

والأعياد ونحو ذلك، فلأن يُنهي عنه في غير هذه الحال أولى وأحرى.

فصل

* قال صاحب الغناء: قد روى ابن طاهر المقدسي^(١) أن رجلاً
أنشد بين يدي النبي ﷺ:

أقبلت فلاح لها عارضان كالسَّبَجِ [٩٢ب]
أدبرت^(٢) فقلت لها والفؤاد في وهَجِ
هل عليّ ويحك ما إن عَشِقتُ من حَرَجِ^(٣)

فقال رسول الله ﷺ: «لا إن شاء الله»^(٤). وذكره أبو القاسم
القشيري في رسالته^(٥)، وهو نص في إباحة الغناء.

* قال صاحب القرآن: هذا الحديث مكذوب موضوع على رسول
الله ﷺ، لا يشك فيه من له أدنى علم بسنة رسول الله ﷺ وتمييز

(١) لم أجد النص في كتاب «السماع» المطبوع، ولعله رواه في كتاب آخر.

(٢) في الأصل: «ثم أدبرت». وبه يخل الوزن.

(٣) البيت الأول بلا نسبة في «لسان العرب» (قضب) بقافية «كالبرد». والثالث لسيرين
أخت مارية القبطية في «شرح شواهد المغني» للسيوطي (ص ٣٣٥)، وبلا نسبة
في تهذيب اللغة (٨/٣٤٨).

(٤) أخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (٣/١١٥، ١١٦) عن ابن عباس. وفي
إسناده حسين بن عبد الله، وهو متروك. وانظر «اللآلئ المصنوعة» (٢/٢٠٧)،
و«الفوائد المجموعة» (ص ٢٥٥).

(٥) «الرسالة القشيرية» (ص ٥٠٧).

صحيحها من سقيمها، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: «هذا الحديث موضوع باتفاق أهل المعرفة بالحديث، لا أصل له، وليس هو في شيء من دواوين الإسلام، وليس له إسناد»^(١). ومَن له أدنى ذوق في الشعر يعرف أن هذا من شعر المتأخرين، وليس من فحله بل من ثنيانه^(٢)، وشعر العرب أفحلُّ من هذا وأحمس^(٣). وكيف يُظنُّ بالنبي ﷺ أنه يقول: لا حرج؟ من غير أن يسأله عن معشوقته أهى ممن يحل له أم لا؟ فقبح الله واضعه على رسول الله ﷺ، ما أجرأه على النار!

فصل

* قال صاحب الغناء: فقد روي أن أعرابياً أتى النبي ﷺ وأنشده:

قد لَسَعَتْ حِيَّةُ الهوى كِبِدي فلا طيبٌ لها ولا رَاقِي
إلا الحبيب الذي شَغِفْتُ به فعنده رُقيتي وترَيَاقِي

فتواجد النبي ﷺ عند سماعه^(٤).

(١) انظر «الاستقامة» (١/٢٩٦).

(٢) الثنيان: الذي يكون دون السيد في المرتبة.

(٣) الأحمس: القوي الشديد.

(٤) أخرجه ابن طاهر في «صفوة التصوف»، وأورده السهروردي في «عوارف المعارف» (ص ١٢١) وقال: «يخالج سري أنه غير صحيح، ويأبى القلب قبوله». وذكر أبو موسى المدني والنووي وابن تيمية وغيرهم أنه حديث باطل لا أصل له. انظر «تذكرة الموضوعات للفتني» (ص ١٩٧-١٩٨) و«المقاصد الحسنة» (ص ٣٣٣) =

*قال صاحب القرآن: وهذا الحديث أيضًا من الطراز الأول، فليتبوا واضعُه على رسول الله ﷺ [١٩٣] مقعدَه من النار. سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: «هذا كذبٌ مفترىٌ موضوع باتفاق أهل العلم» (١).

قلت: وركاكة شعره وسماجته وما تجد عليه من الثقالة، من أبين الشواهد على أنه من شعر المتأخرين البارد السَّمج، فقَبَّحَ الله الكاذبين على رسول الله ﷺ.

وقد اختلف الناس في كفر من كذب عليه وقتله على قولين مشهورين، وهما وجهان لأصحاب الشافعي وغيرهم، والذين ذهبوا إلى كفره وقتله احتجوا بالأثر المشهور أن رجلاً جاء إلى قوم من العرب، فقال: إني رسول رسول الله ﷺ إليكم أن تزوجوني، فزوجوه وأكرموه، ثم أرسلوا إلى رسول الله ﷺ أنا قد فعلنا ما أمرتنا به، فأمر بقتله (٢).

= «تنزيه الشريعة» (٢٣٣ / ٢) و«ميزان الاعتدال» (١٦٤ / ٣) و«مجموع الفتاوى» (٥٦٣ / ١١).

(١) انظر «الاستقامة» (٢٩٧ / ١).

(٢) أخرجه الطحاوي في «مشكل الآثار» (٣٥٢، ٣٥٣) وابن عدي في «الكامل» (١٣٧١ / ٤) وابن الجوزي في «مقدمة الموضوعات» (٥٦، ٥٥) عن بريدة. وفي إسناده صالح بن حيان القرشي، وهو ضعيف. قال ابن عدي: هذه القصة لا أعرفها إلا من هذا الوجه. وانظر «مجمع الزوائد» (١٤٥ / ١) و«البدر المنير» (٢٠٦ / ٩).

قالوا: وقد توعدده بأنه يتبوأ مقعدَه من النار^(١)، والمبءة المكان اللآزم له الذي لا يفارقه.

قالوا: وقد قال ﷺ: «ليس كذبٌ عليّ ككذبِ علي غيري»^(٢)، فلو كان الكذب عليه إنما يوجب التعزير، والكذب على غيره يوجب، لكانا سواءً أو متقاربين.

قالوا: ولأن الكذب عليه يرجع إلى الكذب على الله، وأن هذا دينه وشرعه ووضع، والكذب على الله أقبح من القول عليه بلا علم، والقول عليه بلا علم من أعظم المحرمات^(٣)، بل هو في الدرجة الرابعة من المحرمات. قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَأَلْيَافَ وَمَا بَغَى بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ [٩٣ب] مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ، سُلْطَنًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣]، فذكر سبحانه المحرمات الأربع مبتدئًا بالأسهل منها، ثم ما هو أصعب منه، ثم كذلك، حتى ختمها بأعظمها وأشدّها، وهو القول عليه بلا علم، فكيف بالكذب عليه؟

(١) حديث «من كذب عليّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار» حديث صحيح متواتر عن جماعة من الصحابة، وقد جمع طرقه الطحاوي في «مشكل الآثار» (١/٣٥٢-٣٧٢) وابن الجوزي في «مقدمة الموضوعات» (١/٥٥-٩٢) والسيوطي في «تحذير الخواص» (ص ٨-٥٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٩١) ومسلم (٤) عن المغيرة بن شعبة.

(٣) بعده في الأصل: «الأربع، مبتدئًا بالأسهل منها، ثم ما هو أصعب منه، ثم كذلك». وقد شطب عليها، وستأتي.

قالوا: ولأن الكذب عليه بأنه قال كذا ولم يقله، نسبة للقول المكذوب إليه بأنه قاله^(١)، فالكاذب يعلم أن ما اختلقه كذب، فإذا نسبته إلى رسول الله فقد نسب إليه الكذب. وهذا المذهب كما ترى قوة وظهوراً.

فصل

*قال صاحب الغناء: وقد روي أن أصحاب الصفة سمعوا يوماً فتواجدوا، ومزقوا ثيابهم. ولنا الأسوة فيهم.

*قال صاحب القرآن: هذا أيضاً من جراب الكذب الذي فتحه البهاتون الدجالون، ولم يكن في القرون الثلاثة لا بالمدينة ولا بمكة ولا بالشام ولا باليمن ولا بمصر ولا خراسان ولا العراق، من يجتمع على هذا السماع المحدث، فضلاً عن أن يكون نظيره كان على عهد رسول الله ﷺ، ولا كان أحد يُمزق ثيابه من السلف الصالح، وهم كانوا أعلم بالله وأفقه في دينه من أن يُقدموا على محرّم في الشريعة باتفاق الأمة، وهو إتلاف المال وإضاعته، ويعدونه قرابة إلى الله تعالى، ولا كان فيهم رقاص، بل لما حدث التغيير في أواخر المائة الثانية، وكان أهله من خيار طائفتهم، وكان مبدأ حدوثه من جهة المشرق التي منها يطلع قرن الشيطان، وبها الفتن^(٢)، [١٩٤] قال الشافعي: «خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة يسمونه التغيير، يصدون به الناس عن القرآن».

(١) في الأصل: «بأنه وأنه قاله».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٥١١، ٧٠٩٣) ومسلم (٢٩٠٥) عن ابن عمر.

فصل

* قال صاحب الغناء: قال أبو طالب المكي في كتابه «القوت»^(١):

«مَنْ أَنْكَرَ السَّمَاعَ مُطْلَقًا غَيْرَ مُقَيَّدٍ فَقَدْ أَنْكَرَ عَلِيَّ سَبْعِينَ صَدِيقًا». هذا في زمانه، ولا ريب أن المنكر بعده يكون إنكاره على أضعاف هؤلاء.

* قال صاحب القرآن: إن كان قد حضره وفعله سبعون صديقًا، فقد

أنكر عليهم سبعون وسبعون وأكثر، والمنكرون عليهم أعظم علمًا وإيمانًا وأرفعُ درجة، فليس الانتصار لطائفة من الصديقين على نظائرهم، لاسيما على مَنْ هو أكبر منهم وأجلُّ وأكثر عددًا، بأولى من العكس، وحينئذ فيعارض قولك بما هو أولى منه.

ويقال: من أقرَّ على هذا السماع أو استحبه وأنكر على مَنْ أنكره،

فقد أنكر على سبعين وسبعين وأكثر من الصديقين والعلماء.

وأيضًا فالذين حضروا هذا اللهو متأولين من أهل الصلاح والزهد

والخير، غمَّرت حسناتهم ما كان فيهم من السيئات والخطأ من هذا ومن غيره، وهذا سبيل كل صالح في هذه الأمة في خطئه وزلِّله، قال الله

تعالى: ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾^(٢٣) لَهُمْ مَا

يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ

الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ [الزمر: ٢٣-٣٥].

(١) «قوت القلوب» (٢/٦١) وفيه: «تسعين صادقًا». والمؤلف تبع شيخه في

«الاستقامة» (١/٢٩٩).

وهذا كالمتأولين من صالحى الكوفيين فى النبذ المُسكر وإن كان
 خمراً، وكذلك المتأولين من صالحى أهل مكة [٩٤ب] فى المتعة
 والصرف، وإن كان سبيلهما سبيل الزنا والربا، وهم من أبعد الناس عن
 ذلك، وكذلك المتأولون فى حِلِّ ما حرّمه الشارع من الأَطعمة من أهل
 المدينة وغيرهم، وكذلك المتأولون فى مسألة حشوش النساء، وكذلك
 المتأولون فى القتال فى الفتنة، إلى أمثال ذلك مما تأول فيه قوم من أهل
 العلم والدين، من مطعوم أو مشروب أو منكوح أو مسموع أو عقد
 ونحو ذلك، مما قد عَلِمَ أن الله ورسوله حرّمه، لم يَجُزِ اتِّباعُهم فى
 ذلك، وإن كان مغفوراً لهم، أو من السعي الذى يُؤجرون عليه
 لاجتهادهم أجراً واحداً، فالرب سبحانه يمحو السيئات بالحسنات،
 ويقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات.

فصل

وها هنا أصل يجب اعتماده، وهو أن الله سبحانه عَصَمَ هذه الأمة
 أن تجتمع على ضلالة، ولم يَعِصِمَ أحادها من الخطأ لا صديقاً ولا
 غيره، لكن إذا وقع فى بعضها خطأ فلا بد أن يقيم الله فيها مَنْ يكون على
 الصواب، لأن هذه الأمة شهداء الله فى الأرض، وهم شهداء على الناس
 يوم القيامة، وهم خير أمةٍ أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون
 عن المنكر، فلا بد أن تأمر بكل معروف وتنهى عن كل منكر، فإذا كان
 فيها مَنْ يأمر بمنكر متأولاً، فلا بد أن يقيم الله فيها مَنْ يأمر بذلك
 المعروف.

فأما الاحتجاج بفعل طائفة من الصديقين في مسألة نازعهم فيها مثلهم أو أكثر منهم فباطل، بل لو كان المنازع لهم أقل منهم عددًا وأدنى منزلةً، لم تكن الحجة مع أحدهما إلا بكتاب الله وسنة [١٩٥] رسوله ﷺ، فإن الأمة أمرت بذلك، قال الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: ٥٩]. فإذا تنازع الأمراء والعلماء والزهاد والعباد في شيء، فعليهم جميعهم أن يردُّوا ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله.

ومن المعلوم أن الصديقين الذين أباحوا بعض المسكرات، والصديقين الذين استحلُّوا نكاح المتعة، واستحلُّوا الصِّرفَ، واستحلُّوا نكاح التحليل، واستحلُّوا بعض المطاعم التي حرَّمها الشارع، واستحلُّوا قتال أهل القبلة، هم أسبقُّ من هؤلاء وأكبر وخير منهم وأعلم بالله ورسوله، فإذا نهى من خالفهم عما نهى الله ورسوله عنه من ذلك لم يكن لأحد أن يقول: هذا إنكارٌ على كذا وكذا من الصديقين وأئمة المسلمين، فإن هذا الإنكار من نظرائهم أو من هو أعلم بذلك منهم، وإن كانوا أعلمَ منه بشيءٍ آخر، فالصديقون أنكر بعضهم على بعض، وردَّ بعضهم على بعض، وخطأ بعضهم بعضًا، بل قاتل بعضهم بعضًا، وكل ذلك لله وفي الله وفي مرضاته.

فصل

وهاهنا نكتة ينبغي التفطن لها، وهي أن الله سبحانه لما سبق في قضائه وقدره وعلمه السابق أن الأمة لا بد أن تختلف، ويكون فيها من

يستحلُّ بعض ما حرَّمه بالتأويل، جعل المختلفين سلفاً صالحاً خفي عليهم بعض ما جاء به رسوله فخالفوه متأولين، وهم مطيعون [٩٥ب] لله ورسوله، وإن أخطأوا حكمه في بعض ما اختلفوا فيه للاشتباه والخفاء، كما يكون من خفيت عليه القبلة فصلى بالاجتهاد إلى غير جهتها مطيعاً لله ورسوله، فلولا اختلاف المتقدمين لهلك المتأخرون.

ومن كمالِ نعمته وتامِ رحمته أن جعل في الأمة من يعرف ما خفي على الآخر من الصواب، وكذلك هذا أيضاً قد يخفى عليه الصواب في شيء آخر، ويعرفه ذلك. فمجموع الحق عند مجموع الأمة.

ووقوع مثل هذا التأويل ممن وقع منه من الأئمة المتبوعين أهل العلم والإيمان، صار من أسباب المحنة التي امتحن الله بها عباده، وفتنهم بها، وصار فتنةً لطائفتين:

طائفة اتبعتهم على ذلك وقلدوهم فيه، معرضين عما أمرهم الله ورسوله من اتباع الحق، وحمل التعصب لكثير من أتباعهم على أنهم لم يقفوا عند الحد الذي وقف أولئك عنده وانتهوا إليه، بل اعتدوا في ذلك، وزادوا زياداتٍ لم تصدر من تلك الأئمة، ولو رأوا من يفعلها ويستحلها لأنكروا عليه غاية الإنكار.

وطائفة أخرى علموا تحريم ما أحله أولئك الأئمة بالتأويل، ووضحت لهم فيه السنة، فاعتدوا على المتأولين بنوع من الذم فيما هو مغفور لهم، و تبعهم مقلدون لهم، فزادوا في الذم واعتدوا، ولم يقفوا عند الحد الذي انتهى إليه من قلدوه.

والقول الوسط والصراط المستقيم بين هذا وهذا: معرفة المراتب وإعطاء كل ذي حق حقه، واتباع القول الموافق لما جاء به رسول الله [١٩٦] ﷺ، وعُذْرُ من خالفه مجتهدًا متأولًا.

واعتبر ذلك بمسألة السماع التي وقع فيها النزاع، فإنَّ الله سبحانه شرع للأمة من السماع ما أغناهم به عما لم يشرعه، حيث أكمل لهم دينهم وأتمَّ عليهم نعمته ورضي لهم الإسلام دينًا، وهو سماع القرآن الذي شرعه لهم في الصلاة وخارجها مجتمعين ومنفردين، حتى كان أصحاب النبي ﷺ إذا اجتمعوا أمروا واحداً يقرأ والباقون يستمعون، وكان عمر بن الخطاب يقول لأبي موسى: «يا أبا موسى ذكّرنا ربّنا» (١).

فلما انقرضت القرون الفاضلة حصلت فترة في هذا السماع المشروع الذي به صلاح القلوب وسعادة الدارين، وصار أهل الفتور فيه أحدَ رجلين:

رجل أعرض عن السماع المشروع وغير المشروع، فأورثه ذلك قسوة، وفوات حظّه من حقائق الإيمان وأذواقه ومواجيده.

ورجل أقبل على سماع الأبيات والقصائد، وجعل شربه وذوقه منها.

والرجلان منحرفان، وخير منهما وأصحُّ سماعًا من جعل سماعه وذوقه ووجدّه من الآيات.

(١) سبق تخريجه (ص ٨١).

وأقام الله سبحانه من أنكر على أهل السماع المحدث المبتدع، وكان في المنكرين المقتصد والجافي والغالي، وصار على تمادي الأيام يزداد المحدث من هذا السماع، ويكثر الحدوث فيه، ويزداد التغليظ من أهل الإنكار، حتى آل الأمر إلى أنواع من التفرق والاختلاف والمعاداة. ومن ثبته الله بالقول الثابت أعطى كل ذي حق حقه، وحفظ حدود الله فلم يعتديها، ومن يتعد^(١) حدود الله فقد ظلم نفسه.

وحصلت الزيادة في جميع [٩٦ب] أنواع البدع، وازدادت على الأيام تغليظاً، فإن أصل سماع القصائد كان تلحيناً بإنشاد قصائد مُرَقَّعة للقلوب، تتضمن تحريك المحبة والشوق والخشية والحزن والأسف وغير ذلك، وكانوا يشترطون له المكان والإمكان والخلان، ويشترطون أن يكون المجتمعون لهذا السماع من أهل الطريق المرئيين لوجه الله والدار الآخرة، وأن يكون الشعر المسموع خالياً عما تحظر الشريعة سماعه وتكرهه، وبعضهم كان يشترط أن يكون القوال منهم، وبعضهم يشترط كون الذي أنشأ القصيدة من أهل الطريق، إلى غير ذلك من الشروط والأوضاع التي احترزوا بها من مفسدات السماع.

ولكن لما كان الأصل غير مشروع آل الأمر إلى ما آل إليه من الفساد الذي لا يعلمه إلا الله، لأنه من عند غير الله، فليس عليه حارس وحافظ من الله، بل هو بدرجة كل سالك في الباطل، وهو مجتمَع

(١) في الأصل: «ولم يتعد».

المنخنة والموقوذة والمتردية والنطيحة وأكيلة السُّبع وما ذُبِح على
النُّصب. ثمَّ إنَّهم أضافوا إلى هذا الصوت ما يُنفَّذه ويُوصله إلى شَغاف
القلب، من الآلات التي أخفُّها التغير، وهو ضربٌ بقضيب على جلد أو
مخدَّة على توقيع خاص، فعظَّم إنكارُ الأئمة لذلك كالشافعي وأحمد،
فقال الشافعي: «هو من إحداث الزنادقة»، وقال أحمد: «بدعة».

ثمَّ لم يقتصروا على هذه الحركة، فتعدَّوها إلى حركة الدُّفوف،
وهي أقبح من حركة التغير، وفيها ما فيها، وزيادة التشبه بالنساء، فإنَّ
الدفَّ في الأصل إنما هو للنساء عادة ورخصة، وقد لعن رسول الله [١٩٧]
ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء^(١).

ثمَّ لم يقتصروا على هذه الحركة حتى تعدَّوها إلى حركات الأوتار
والعِيدان، التي هي في الأصل من إحداث الفلاسفة أعداء الرسل، ثمَّ
ضمُّوا إلى ذلك حركة الرقص، التي سببها استخفاف الشيطان لأحدهم،
وركوبه على كتفه، ودقُّه برجليه في صدره، وكلما دقَّه برجليه ورقص
على صدره رقص هو كرقص الشيطان عليه، وقد شاهد ذلك بعض أهل
البصائر عيانًا، ثمَّ ضمُّوا إلى صوت الغناء صوت اليراع والشبابة
وغيرها.

فاقتضت هذه الهيئة الاجتماعية حركة باطنة، فإنَّ استماع
الأصوات المطربة يُثير حركة النفس بحسب تلك الأصوات،

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٥٨٨٥) عن ابن عباس.

وللأصوات طبائع متنوعة بتنوع آثارها في النفس، وكذلك للكلام المسموع نظمه ونثره، فيجمعون بين الصوت المناسب والحرف المناسب، فيتولد من بينهما حركاتٌ نفسيةٌ تُثير كامناتها وتزعج قاطناتها، وهذا أمر يشترك فيه بنو آدم من المؤمنين والكفار والأبرار والفجار، ويثير من قلب كل أحد ما فيه. ومعلومٌ أنَّ النفوس فيها الشهوات كامنة، ولكنها مقهورة مقيّدة بقيود الأوامر، فإذا صادفها السماع أحيائها وأطلقها من قيودها، وأفتكها من أسرها، وأجلب عليها بكل مُعين ومُمدد. وهذا أمر لا ينكره إلا أحد رجلين: إما غليظ كثيف الحجاب، وإما مكابر. فمضرة هذا السماع على النفوس أعظم من مضرة حميا الكؤوس.

ولما كانت المفسدة فيه ظاهرة معلومة، أخرج أهله في قالبٍ يُلطف ما فيه من المنكر، فجمعوا عليه أخلاطاً من الناس، وقالوا: إنَّ هذا [٩٧ب] الاجتماع شبكةٌ نصطاد بها النفوسَ إلى التوبة، ونسوقها بها إلى الله والدار الآخرة. ونعم والله هو شبكةٌ وأيُّ شبكة! يصطاد بها الشيطانُ النفوسَ المُبطلَةَ إلى ما هو أعظم من المعاصي الظاهرة، ويقودها بها إلى الغي والهوى، فلهذا نصبه^(١) هؤلاء الفسّاق من المخانيث والزناة وعُشاق الصور، فجعلوه شبكةً لهم لصيد الأغيّد والغيداء والغزال والغزاة، ووضعوه على ما يليق بمقاصدهم من الأوضاع، فشرطوا أن يكون المغنيّ أمردّ جميلاً، تدعو صورته وصوته وشكله ودلّه وحركاته إلى تعلق القلوب به وعشقه، فإن فات فامرأةٌ كذلك، وإذا جمع السماعُ

(١) في الأصل: «نسبه».

العاشق والمعشوق، وتقابلاً وتعانقاً في الرقص:

فَظُنَّ شَرًّا وَلَا تَسْأَلُ عَنِ الْخَيْرِ (١)

وإذا حضر المُردان الحِسان هذا السماع فهو عندهم الغاية (٢)، ولا سيما إذا ألبسوهم المُصبغات، وزينوهم كما تُزين العرائس، وأخلوا لهم طابق (٣) الرقص، ودار حولهم العشاق والفساق كالهالة حول القمر، وأداروا عليهم من الأعين النطاق، فللشيطان لا لله كم من زَعَقَةٍ وصَرْخَةٍ وزَفْرَةٍ وَأَنَّةٍ وَحَسْرَةٍ وَوَجْدٍ وَأَسْفٍ وَحَزْنٍ، وَكَم مَن قُلُوبٍ تُشَقَّقُ قَبْلَ الْجُيُوبِ، وَعِبْرَاتٍ تُسَكَّبُ فِي غَيْرِ رِضَا عِلَامِ الْغُيُوبِ، فَيَا لَهَا حِضْرَةً مَا أَحَبَّهَا إِلَى الشَّيْطَانِ! وَمَا أَبْغَضَهَا إِلَى الرَّحْمَنِ!

ويتزايد الأمر حتى يُغْنُوا بِأَشْعَارٍ طَالَمَا عَصِيَ اللَّهُ بِهَا فِي الْأَرْضِ، مِنْ أَشْعَارِ الْفَسَاقِ وَالْفَجَّارِ، الْمَتَضَمِّنَةِ لِتَهْيِيجِ النُّفُوسِ عَلَى مَا يُبْغِضُهُ اللَّهُ وَيَمَقُّتُ عَلَيْهِ، وَمَدْحِ مَا حَرَّمَهُ وَلَعْنِ فَاعِلِهِ، وَالِابْتِهَاجِ بِهِ، وَالِافْتِخَارِ [١٩٨] بِنَيْلِهِ، وَالتَّبَجُّحِ بِالْوَصُولِ إِلَيْهِ. وَرَبِمَا تَعَدَّوْا ذَلِكَ إِلَى الْغِنَاءِ بِالأَشْعَارِ الْكُفْرِيَّةِ الَّتِي تُحَادُّ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، كَأَشْعَارِ أَهْلِ الْإِلْحَادِ مِنَ الْإِتْحَادِيَّةِ وَالْحُلُولِيَّةِ، وَالأَشْعَارِ الْمَتَضَمِّنَةِ لكَثِيرٍ مِنَ الْفِطْرِ الْقُرْآنِ،

(١) تمام البيت لابن المعتز في ديوانه (٤٩ / ٣):

فَكَانَ مَا كَانَ مِمَّا لَسْتُ أَذْكَرُهُ فَظُنُّنِي خَيْرًا

(٢) في الأصل: «الثايغة».

(٣) في الأصل «طابق». والمثبت كما في «الاستقامة» (٣٠٧ / ١) و«مجموع الفتاوى»

(٥٩٩ / ١١).

كقوله:

قمتُ ليلَ الصُّدودِ إلا قليلاً ثم رتلتُ ذكركم ترتيباً

إلى أن يقول:

قل لِرَاقِي الجفونِ إنَّ لجفني في بحارِ الدُّموعِ سَبْحًا طويلاً^(١)

ومرَّ في السورة يستعرضها هكذا إلى آخرها. وهذا فعلٌ من لا يرجو لله تعالى ولا لكتابه وقاراً، بل قد سقطت حرمة القرآن والدين من قلبه، وكثيراً ما يُغنونُ بأبيات تتضمن اعتقاد الكفار، وقد لا يدري المغني ولا السامعون، بل قد يُغنونُ بما لا يستجيزه الكفار من أهل الكتاب، ولولا الإطالة لذكرنا من أشعارهم هذه كثيراً.

وزادوا أيضاً في آيات اللهو، حتى تعدّوا إلى آيات اليهود والنصارى والمجوس والصابئة على اختلاف أنواعها، وعظمت البلية، واشتدت بذلك الفتنة، حتى ربا فيها الصغيرُ وهَرِمَ فيها الكبير، واتخذوا ذلك دَيْدَنًا ودينًا، وجعلوه من الوظائف الراتبية بالغدو والآصال، وفي الأماكن والأوقات الفاضلات، واعتاضوا به عن سماع الآيات وعن إقامة الصلوات، ووقعوا تحت قوله تعالى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ﴾ [مريم: ٥٩]، وتحت قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥]، فإن «المكاء» هو الصفير وتوابعه من الغناء، و«التصدية» التصفيق بالأيدي [٩٨ب] وتوابعه. فإذا كان

(١) الأبيات لابن النبيه في ديوانه و«معاهد التنصيص» (٤/١٤٥).

هذا سماع المشركين الذي ذمه الله في كتابه، فكيف إذا اقترن بالمكاء المواصيل والشبابات، وبالتصدية الدفوف المصلصلات، والرقص والتكسر والتثني بالحركات الموزونات؟ فكأن القوم إنما حلّ لهم المكاء والتصدية لما انضمت إليه هذه المؤكدات، فهناك ذهب حرامه وبقي حلاله، وزال نقصه وخلّفه كماله.

ثم يتفاقم أمره إلى أن يشتمل على ما يتضمن الكفر بالرحمن، والاستهزاء بالقرآن، والطعن في أهل الإيمان، والاستخفاف بالأنبياء والمرسلين، والتحضيض على جهاد المؤمنين، ومعاونة الكفار والمنافقين، واتخاذ المخلوق إلهاً من دون رب العالمين، وجعل ذلك من أفضل أحوال العارفين. ويفعلون في هذا السماع ما لا يفعله اليهود ولا النصارى ولا الصابئة ولا المجوس.

فصار السماع المحدث دائراً بين الكفر والفسوق والعصيان، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وكفره من أعظم الكفر وأشدّه، وفسوقه من أعظم الفسوق وأبلغه، فإن تأثيره في النفوس من أعظم التأثير يُغذيها ويُغنيها، ولذلك سُمّي غناءً، ويُوجب للنفوس أحوالاً عجيبة يظن أصحابها أنها من جنس كرامات الأولياء، وإنما هي من الأمور الطبيعية المبعّدة عن الله، والشيطان يُمدُّ أصحابها في هذا السماع بأنواع الإمداد، كما قال تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغِيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٢]، وقال للشيطان: ﴿وَاسْتَفْرِزْ مَنْ أَسْطَغَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤].

وصار في أهل هذا السماع المحدث الذين اتخذوا دينهم لهواً

ولعباً، ضدَّ ما أحبه الله وشرعه من دينه الحق، الذي بعث به رسله وأنزل به كتبه، من عامة الوجوه. [١٩٩] إذ صار مشتتلاً على أكثر ما حرّمه الله ورسوله، فإنَّ الله تعالى قال: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَأَلِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣]، فاشتمل هذا السماع على هذه الأمور الأربعة التي هي قواعد المحرمات، فإنَّ فيه من الفواحش الظاهرة والباطنة والإعانة على أسبابها، والإثمِ والبغي بغير الحق، والشركِ بالله ما لم يُنزل به سلطاناً، والقولِ على الله بغير علمٍ = ما الله به عليم، فإنَّه تنوع وتعددت طرقه، وتفرق أهله فيه وصاروا شيعاً، لكل قوم ذوق ومشرّب وطريق يُفارقون به غيرهم، حتى في الأشعار والألحان والحركات والأذواق، وصار من فيه من العلم والإيمان ما ينهاه عما فيه من أنواع الكفر والفسوق والعصيان، يريد أن يحُدَّ له حدًّا يفصل فيه بين ما يسوغ منه وما لا يسوغ، فلا يكاد يُنضبط، حتى إنَّ منهم من شرط شروطاً تتعذر ويندر وجودها، حتى إنَّه اجتمع مرة ببغداد في حال عمارتها ووجود الخلافة بها أعيانُ الشيوخ الذين يحضرون السماع المصنوع، فلم يجدوا من يصلح له إلا ثلاثة نفرٍ أو أربعة.

وسبب هذا أنَّه ليس من عند الله، فوقع فيه الاضطراب والاختلاف، وصار أهله من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً، كل حزب بما لديهم فرحون.

ثم المصيبة العظمى والداهية الكبرى أنَّه - مع اشتماله على

المحرمات كلها أو أكثرها أو بعضها - يَرون أَنَّهُ من أعظم [٩٩ب] القُرَبات وأجلّها قدرًا، وأنَّ أهلها هم صفوة أولياء الله وخيرته من خلقه، ولا يَرْضون بمساواة السابقين الأولين من سلف الأمة وأئمتها حتى يتفضّلوا عليهم، وفي غُلاتِهِم وزنادقتهم من يُساوون أنفسهم بالأنبياء والمرسلين، وفيهم من يُفضّل نفسه عليهم، إلى غير ذلك من أنواع الكفر.

وجماع الأمر أنه صار فيه وفيما يتبعه في وسائله ومقاصده وصفته ونتيجته، شبهٌ مما في السماع الشرعي وما يتبعه في ذلك، فاشتبه الأمر والتبس الحق بالباطل، ونفوسُ أهله غالبًا لا تميّز لها ولذا أكثر أهله أهل الجهل وضعفاء العقول، ممن قلّ نصيبه من العلم والإيمان، وأجذب قلبه من حقائق القرآن، كالنساء والصبيان وأهل البوادي وجَهلة الأعراب، ولهذا كان أهله إذا عَقَدُوهُ يَنزِلُ عليهم المَقْتُ، وحَفَّتْ بهم الشياطين، وغَشِيَتْهم السخطةُ، وذكرهم إبليسُ فيمن عنده. وأهل السماع الإيماني القرآني، إذا حضروه تنزلت عليهم السكينةُ، وغَشِيَتْهم الرحمةُ، وحَفَّتْ بهم الملائكةُ، وذكرهم الله فيمن عنده^(١)، فتَقَدِّفُ الملائكة في قلوب أهل هذا السماع ما يزدادون به علمًا وإيمانًا، وفي قلوب أهل ذلك السماع ما يزدادون به نفاقًا وعصيانًا، حتى إن آثار الشياطين لتُوجد على أهل هذا السماع، يراها كل صاحب بصيرة في صفحات وجوههم،

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٧٠٠) عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري.

وقلتات ألسنتهم وحركاتهم وأحوالهم، حتى إن كثيراً منهم ليصعق كما يصعق المصروع، ويُزبد كما يُزبد المصروع، ويجري [١٠٠] على لسانه من الكلام ما لا يفهم معناه ولا هو بلغته كما يجري للمصروعين، كما وُجد ذلك في أقوام كانوا يتكلمون في سماعهم بلغات التتار الكفار، وذلك لتنزل شياطينهم عليهم، وتكلمهم على ألسنتهم، وهم يظنون أنهم بذلك من أولياء الله، وإنما هم أولياء الشيطان وحزبه، ولهذا يفعلونه على الوجه الذي يحبه الشيطان ويكرهه الرحمن. وذلك من وجوه:

أحدها: أن العبادات الشرعية مثل الصلاة والصيام والاعتكاف والحج، قد شُرع فيها من مجانبة مباشرة النساء المباحة في غيرها ما هو من كمالها وتمامها، وأعظم ذلك الحج، فليس من محرم يباشر فيه النساء، ولا ينظر إليهن لشهوة، والمعتكف قريب منه، والصائم دونه، والمصلي لا يُصافُ المرأة بل تتأخر عنه، بل مرورها بين يديه داخل السترة يقطع صلاته بالنص^(١)، ومسُّ المرأة لشهوة ينقض الطهارة عند الجمهور، ومطلقاً عند الشافعي.

فإذا كان هذا في النظر والمباشرة المباح في غير حال العبادة، نهى الله عنه حال العبادة لمنافاته لها، فكيف بالنظر إلى الصور المحرمة من الرجال والنساء؟ والاستمتاع بأصواتهن إذا كانوا هم المغنين؟ ولا يتم واجب السماع عند القوم إلا بذلك، وإلا كان سَمِجًا باردًا، فحضور الشاهد في السماع من باب ما لا يتم الواجب إلا به عندهم.

(١) أخرجه مسلم (٥١١) عن أبي هريرة، وفي الباب أحاديث أخرى.

وقد كان بعضهم يصلي بالليل وقد أوقد شمعةً على وجه أمرده
 مليح جميل الصورة، يَسْتَجْلِي محاسنه في الصلاة، ويجد في قلبه من
 الباعث على الصلاة [١٠٠ب] والسَّهَرِ في العبادة أمرًا عجيبًا، وَيَعُدُّ ذلك
 من عباداته وقُرْبَاتِهِ. ولا ريب أن النفس تتحرك عند رؤية الصورة
 الحسنة وسماع الصوت الحسن ما لا تتحرك لغيرهما، فالأحوال
 والهمة التي يُثيرها سماعُ الألحان بمنزلة الأحوال والهمة التي يُثيرها
 استجلاءُ محاسن الصور سواء، وللشيطان بَرَاطِيلٌ وَمَدَاخِلٌ، فيُلْقِي في
 قلب الرجل أنك لا تَنْظُرُ للفسق، ولا تسمع لِلَّهِو، وإنما تنظر للعبرة،
 وتذكر ما أعدَّ الله لعباده وأوليائه عند لقائه من الصور المستحسّات.
 فاستدل بالشاهد على الغائب، وعلى الباقي بالفاني، ألا ترى إلى قول
 القائل فيمن يحبه:

فإذا رآك العابدون تيقنوا حور الجنان لدى النعيم الخالد^(١)

ويقول له: إنما تسمع أيضًا للفكرة والعبرة، وتأخذ من السماع ما لا
 يأخذ غيرك.

وأخبرني غير واحد ممن يجد من حاله وقلبه وهمته عند هذا
 السماع وعند رؤية الصور الجميلة ما لا يجده في غيره، فحركة القلب
 عند السماع كحركته عند رؤية الصور التي أمر الله أن يغضَّ بصره عنها،
 فهل يقول عارفٌ بالله وأمره أن هذه الحركة بالله والله؟ كلا والله، إن هي

(١) البيت لأبي إسحاق الصابي في يتيمة الدهر (٢/٢٥٩). وسبق مع بيت آخر.

إلا بالنفس وللشيطان، وغايتها أن تكون حركة ممزوجة مركبة مما لله وللنفس والشيطان، هذا أعلى مراتبها.

والذي يَكشِفُ لك قِنَاعَ هذه المخبّأة وَيُسْفِرُ لك عن وجهها: أنك تجد [١٠١] كثيرًا ممن يُعاني الأعمال الشاقّة، إذا تعلق قلبه بصورة جميلة، أو سمع صوتًا حسنًا ازداد حرصه وقوته وهمته على ما يُعانيه من الأعمال، وحمل منه ما لا يَحْمِلُه الخليلُ، واستلذَّ سَهْرَ الليالي وركوبَ الأهوال، فإن الحب يُطيرُ، والرجاء يُسيرُ، فتصادف تلك الصورة والصوت من قلبه حبًا كامنًا لما هو بصدده، فيزِعجه ويثيره حتى تَطْوَعَ له نفسه ببذل ما لا تَطْوَعُ من غيره، فيُصادف سماعُ الأصوات المطربة ورؤية الصور الجميلة من قلب المرید نوعَ محبة لله والدار الآخرة، فيثيرها ويزعجها، لكن يَقلِّبها نفسانيةً، ويدخل نصيبُ الشيطان وحظُّ النفس فيزاحمها، وتشتبك إحدى المحبتين بالأخرى وتلتبس بها. وأكثر المریدين حظُّهم ناقص من العلم والتمييز، ويجد أحدهم للمحبة وجدًا وذوقًا، وليس له تمييز بين صحيحها وسقيمها، ولا يجد^(١) عند من يلومه ويعدله شيئًا من المحبة والذوق والأنس الذي وجدته، فيشتد نِفَارُهُ منه، ولا يُصغِي إليه، ولا يُعَرِّجُ عليه.

فصل

وأنت إذا تأملت العبادات من الصلاة والحج والاعتكاف والصيام والوضوء، رأيت شأن الصور المباحة منافيًا لها غاية المنافاة. فالحج

(١) في الأصل: «ولا يجد له».

مُنِعَ المحرّمُ فيه من النكاح والمباشرة والوطاء والأسباب الداعية إليه،
وفسد حجّه ببعض ذلك، وكذلك الاعتكاف نُهيَ فيه عن مباشرة الحلال
من الصور، والصيام دون ذلك، وفي الصلاة [١٠١ب] مُنعت المرأة أن
تؤمّ الرجال، وأن تُسمِعهم صوتها بالتسبيح عندما يُنوب في الصلاة، وأن
تقف في صفهم، بل تتأخر عن صفوف الرجال، وجُعِلَ مرورها بين يدي
المصلي قاطعًا لصلاته، ومسّها بشهوة مُبطلًا لوضوئه عند الجمهور،
وعند الشافعي مبطلٌ للوضوء مطلقًا.

كل هذا لتخلو العباداتُ من ملابسة الصور والتعلق بها، ويصير
تعلق القلب كله بالله وحده، فبدّل الذين ظلموا دينًا غير الذي شرع لهم،
وجعلوا حضورَ الشاهد المليح والأصوات المطربة المهيجّة على عشق
الصور قرينةً تُقرّبهم بزعمهم إلى الله، وتُدنيهم من رضاه، وهذا من أعظم
تبديل الدين ومتابعة الشيطان.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدّس الله روحه يحكي^(١) عن
بعض الملوك، أنه قال لشيخ رآه قد عمل مثل هذا السماع، وأحضر فيه
من الصور الجميلة والأصوات المطربة ما أحضره: يا شيخ! إن [كان]
هذا طريقَ الجنة فأين طريق النار؟

وحكى لي شخص آخر [أنّ] مُغنيًا عزمَ على التوبة، ف قيل له: عليك
بصحبة الفقراء، فإنهم يعملون على حصول الآخرة والزهد في الدنيا،

(١) انظر «الاستقامة» (١/٣١٧).

فصحبهم، فصاروا يستعملونه في السماع، ولا تكاد التوبة تنتهي إليه لتزاحمهم عليه، فترك صحبتهم، وقال: أنا كنتُ عمري تائبًا ولا أدري!

الوجه الثاني: أن التطريب بالآلات الملهية محرّمٌ في السماع الذي يحبه الله ورسوله وهو سماع القرآن، فكيف يكون قربةً في السماع الذي لم يشرعه، بل ذمّه [١١٠٢] وذمّ أهله؟ وهل يصحُّ في عقل أو فطرة مذمومٌ عند الله ينضمُّ إلى مذمومٍ آخر فيصير المجموع محبوبًا مرضيًا؟ فهذه الآفات ونحوها التي في السماع أعظم من آفات الكبائر الظاهرة، والله المستعان.

الوجه الثالث: كثرة إيقاد النيران بالشموع وغيرها، المفرّق للقلوب القاطع لها عن جمعيتها على الله، حتى لو كان في الصلاة لفرّق القلبَ وشتته.

الوجه الرابع: التنوع في المطاعم والمشارب والمسموعات^(١) على اختلاف أنواعها، وليس هذا شأن أرباب العبادات، وإنما هو شأن أصحاب الشهوات.

الخامس: ما يقارنه من الرقص والتكسر والتخنيث الذي هو سِمة النساء، وقد لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء^(٢).

السادس: ما يُقارنه من آلات اللهو والمعازف، وقد ثبت في صحيح البخاري^(٣) أن النبي ﷺ قال: «يكون في هذه الأمة قوم

(١) في الأصل: «المسمومات» تحريف.

(٢) أخرجه البخاري (٥٨٨٥) عن ابن عباس.

(٣) رقم (٥٥٩٠).

يَسْتَحِلُّونَ الْخَمْرَ وَالْحَرِيرَ وَالْمَعَازِفَ»، فجعل استحلال المعازف بمنزلة استحلال الخمر ولبس الحرير، والمعازف آلات اللهو كلها من الشبابة والطُّنبور والعُود ونحوها.

السابع: ما يُقارنه من عُشراء السوء وُخُلطاء الشر الذين يُضَيِّعون الصلوات، ويتبعون الشهوات، فزُبُون هذه السَّلعة وفرسان هذا الميدان كُلُّ بَطَالٍ وِبَاطُولٍ، ليس في قلبه محبة الله وخشيته والاستعداد للقاءه، بل ولا معرفته ومعرفة دينه، بل زَبُونُهُ وفرسانه كُلُّ عاشِقٍ ومَعْشُوقٍ، ومن قلبه هائمٌ في أودية اللهو واللعب، [١٠٢ب] وهَمَّتْه عاكفةٌ على محبة المליح والمليحة.

الثامن: ما يقارنه من حركات النفوس المختلفة، والأصوات المنكرة، والحركات العظيمة التي لا يُمكن رُدُّها ودفعها بعد قيام موجبها التام، كما لا يمكن دفعُ السُّكْرِ عن النفس بعد تعاطي أسبابه.

التاسع: أنه مُضَادٌّ لمقصود الصلاة وذكر الله، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والسمع يأمر بالفحشاء والمنكر، ومَن أنكر ذلك بلسانه فقلبه أعلم. وأهل هذا السماع يعلمون من نفوسهم من الفحشاء والمنكر ما يعلمونه، ولهذا يتقاضى من كل أحد من الفواحش بحسب استعداده، فيتقاضى من بعض هؤلاء صحبة الأحداث الحسان الصور ومشاهدتهم ومعاشرتهم، وتمتلى قلوبهم من عشقهم وتألُّهم، ويُرْطِلُهُمْ إبليسُ بالعفة عن الفجور بهم، وقد ظَفَرَ منهم بما هو أحبُّ إليه من فجورهم بهم بكثير، فإنه قد جعلهم تماثيل بين القلب وبين الله،

فهم لها عاكفون بقلوبهم. وصاحب الفجور الذي قد قضى شهوته، وفرغ قلبه، ولم يجعل تلك الصورة تمثالاً بين قلبه وبين الله، أحسن حالاً منهم.

فليتدبر اللبيب هذه اللطيفة، وليصرخ إلى مقلّب القلوب ومصرّفها أن يُثبّت قلبه على دينه، ويُصرّفه على طاعته.

وقد ثبت في الصحيح^(١) عن النبي ﷺ أنه قال: «العينان تزنيان وزناهما النظر، واليد تزني وزناها البطش، والرجل تزني وزناها المشي، والقلب يتمنى ويشتهي، والفرج يُصدّق ذلك أو يكذّبه». فجعل لكل [١٠٣] عضو من هذه الأعضاء زناً يخصّه، فكيف يتقرب إلى الله بزنا العين؟

وإن قال الناظر: أنا لا أنظر لشهوة بل لعبرة.

قيل له: فلم نهاك الله عن النظر، وأمرك بغضّ البصر؟

وقيل له: أمّا ما دامت النفس حيّة، والشيطان موجوداً، والطباع على حالها، فكلاً.

وقيل له: صاحبُ الشرع أعلمُ بأحكام هذا النظر منك، حيث يقول: «لا تُتبع النظرة النظرة، فإنما لك الأولى، وليست لك الأخرى»^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٦٢٤٣) ومسلم (٢٦٥٧) عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه أحمد (٣٥١/٥-٣٥٢، ٣٥٧) وأبو داود (٢١٤٩) والترمذي (٢٧٧٧)

وقال: حسن غريب، والحاكم في «المستدرک» (٢/١٩٤) وصححه على شرط =

وقيل له: الشيء متى كان في نفسه مفسدة، أو داعية إلى المفسدة، فإن الشارع يُحرّمه مطلقاً حكمةً منه و صيانةً وشفقةً وحميةً.

وقيل له: كم قد هلك قبلك من هالكٍ بهذا الظن الفاسد، ظن أنه ينظر عبرة، فأوقعه نظره في أعظم الحسرة، كما قيل (١):

وأنا الذي جَلَبَ المنيّةَ طَرْفُهُ فَمَنْ المِطَالِبُ والقَتِيلُ القَاتِلُ

وقال آخر (٢):

وكنّت متى أرسلتَ طَرْفَكَ رائدًا رأيتَ الذي لا كلُّهُ أنتَ قادرٌ

لقلبك يوماً أتعبتك المناظرُ عليه ولا عن بعضه أنت صابرٌ

قلت: ولي من قصيدة (٣):

يا مُرسِلًا لسهام اللّحْظِ مجتهدًا أرسلتَ طرفك ترتادُ الشّفاءَ فما

أنتَ القَتِيلُ بما ترمي فلا تُصِبِ وافى رسولك إلا رائدَ العَطَبِ

= مسلم والبيهقي في «السنن» (٩٠ / ٧) عن بريدة. وفي إسناده شريك النخعي وهو سيء الحفظ. والحديث حسن، لوروده من طريق آخر، أخرجه أحمد (١٥٩ / ١) والدارمي (٢٧٠٩) وابن حبان (٥٥٧٠) والحاكم (١٢٣ / ٣) عن علي.

(١) البيت للمتنبّي في ديوانه (٣٦٧ / ٣). وانظر «روضة المحبين» (ص ١٥٦).

(٢) البيتان في حماسة أبي تمام (١٥ / ٢) و«عيون الأخبار» (٢٢ / ٤) بلا نسبة. وانظر روضة المحبين (ص ١٥٤، ٣٢٨). وفي الأصل: «أبعثك المناظر» تحريف.

(٣) انظرها في «بدائع الفوائد» (٨١٨-٨١٩ / ٢) والفوائد (ص ١٠٧-١٠٩)، والبيتان في روضة المحبين (ص ١٥٤).

ولاسيما النفوسُ التي فيها رقةٌ ولطافةٌ ورياضةٌ، فإن الصوت والصورة أسرعُ تأثيراً فيها من النار في يابس الحطب، حتى إنها لتتقوتُ بذلك أحياناً. وبهذا رضي الشيطانُ من هذه الطائفة، فإنه (١) لم يُبالِ [١٠٣ب] بعد أن أوقعهم فيما يُفسد قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم، أن لا يشغلهم بجمع الأموال وطلب الجاه والولايات، فإن فتنة أحدهم بذلك أعظمُ من فتنته بهذه الأمور، فإن جنس هذه الأمور مباح، وقد يُستعان بها على طاعة الله، وأمّا ما شغل به هؤلاء نفوسهم، فإنه دينٌ فاسدٌ منهيٌّ عنه، مضرتُه راجحةٌ على منفعتِه.

ولو لم يكن في هذا السماع من المفسدة إلا تشبُّه الرجال بالنساء، فإن الغناء في الأصل إنما جعل للنساء، ولذلك ما شرع منه في الأعراس والأعياد إنما شرع للنساء والجواري والصغار والولدان الحديثي الأسنان، فإذا تشبَّه بهم الرجل كان مخنثاً، وقد لعن رسول الله ﷺ المخنثين من الرجال (٢). وكذلك من يحضرون في السماع من الشاهد فيهم من التخنيث بقدر ما تشبَّهوا به من أمر النساء، وعليهم من اللعنة بقدر نصيبهم من ذلك التشبه. وقد أمر النبي ﷺ بإخراج المخنثين ونفيهم، وقال: «أخرجوهم من بيوتكم» (٣)، فكيف بمن يُقرَّبهم ويُعظَّمهم ويتعبد قلبه بهم، ويجعلهم طواغيتَ يُعظَّمون بالباطل الذي

(١) في الأصل: «فإن».

(٢) أخرجه البخاري (٥٨٨٦، ٦٨٣٤) عن ابن عباس.

(٣) ضمن الحديث السابق.

حرّمه الله ورسوله، وأمر بعقوبة أهله وإذلالهم؟ وهل هذا إلا مصادةً لله في أمره! وقد قال ﷺ: «مَنْ حَالَتْ شَفَاعَتُهُ دُونَ حَدِّ مَنْ حُدَّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ، فَقَدْ ضَادَّ اللَّهَ فِي أَمْرِهِ» (١).

فإذا كان هذا في الشفاعة بالكلام، فكيف بمن يُعظّم المعتدين لحدود الله ويُعينهم في ذلك ويجعله ديناً؟

لا سيما إذا كان التعظيم بما هو من جنس الفواحش، فإن مَنْ يُعظّم القينات المغنيات والمغنين ويجعل لهم نوع رئاسة وعزّ لأجل ما يستمتع [١٠٤] به منهن من الغناء وغيره، فقد تعرض من غضب الله ومقته وسلب نعمة عنه إلى أمر عظيم. ولله كم زالت بهؤلاء نعمة عمّن أنعم الله عليه فما رعاها حقّ رعايتها، وقد شاهد الناس من ذلك ما يطول وصفه، وما امتلأت دار من أصوات هؤلاء وألحانهم وأصوات معازفهم ورهَجهم، إلا وأعقب ذلك من حزن أهلها ونكبتهم وحلول المصائب بساحتهم ما لا يفي بذلك السرور من غير إبطاء، وسلب الوجود يُنبئك عن حوادثه، والعاقل مَنْ اعتبر بغيره.

الوجه العاشر: أن رفع الأصوات بالذكر المشروع مكروه، إلا حيث جاءت به السنة، كالأذان والتلبية، وفي الصحيح (٢) عن أبي موسى قال:

(١) أخرجه أحمد (٧٠ / ٢) وأبو داود (٣٥٩٧) والبيهقي في السنن (٨٢ / ٦ و ٣٣٢ / ٨) عن ابن عمر. وصححه الحاكم (٢٧ / ٢)، ووافقه الذهبي. وروي موقوفاً، وهو أصح. انظر: علل ابن أبي حاتم (١٨٣ / ٢) وعلل الدارقطني (١٠٨ / ١٣).

(٢) البخاري (٢٩٩٢، ٦٦١٠) ومسلم (٢٧٠٤).

كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فكنا إذا علونا ارتفعت أصواتنا بالتكبير، فقال: «يا أيها الناس ازْبَعُوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً قريباً، إن الذي تدعونه أقربُ إلى أحدكم من عنقِ راحلته». وقد قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقال: ﴿وَأذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وقال تعالى: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣].

وقال الحسن البصري: «رفع الصوت بالدعاء بدعة»^(١). ونص عليه الإمام أحمد وغيره. وقال قيس بن عباد من كبار التابعين: «كانوا يستحبون خفض الصوت عند الذكر وعند الجنائز وعند القتال»^(٢). وهذه المواطن الثلاثة تطلب فيها النفوس الحركة الشديدة: عند الذكر والدعاء لما فيه من الحلاوة [١٠٤هـ] ومحبة ذكر الله ودعائه، وعند الجنائز بالحزن والبكاء، وعند القتال بالغضب والحمية. ومضرة رفع الصوت بذلك أعظم من منفعته، بل قد يكون ضرراً محضاً، وإن كانت النفس تشتفي به، وتبرأ النبي ﷺ من الصالقة^(٣)، وهي التي ترفع صوتها بالمصيبة، فكيف بالمغنية التي ترفع صوتها بالغناء!

(١) أخرجه عنه ابن المبارك في الزهد (١٤٠) والطبري في تفسيره (٢٤٧/١٠).

(٢٤٨) بلفظ: «كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما سُمِعَ لهم صوت».

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٤٦٢/١٢).

(٣) أخرجه البخاري (١٢٩٦) ومسلم (١٠٤) عن أبي موسى الأشعري.

وأما القتال فالسنة فيه أيضا خفض الصوت، وأما هذه الدبادب^(١) والأبواق والطبول فإنها لم تكن على عهد الخلفاء الراشدين ولا من بعدهم من أمر المسلمين، وإنما حدثت من جهة بعض ملوك المشرق من أهل فارس، وانتشرت في الأرض، وتداولها الملوك، حتى ربا فيها الصغيرُ وهرمَ الكبيرُ، لا يعرفون غير ذلك، وينكرون على من ينكره. ويزعمُ بعض الجهال أن هذا من إحداث عثمان، وليس الأمر كذلك، بل ولا من فعل من بعده من الخلفاء، وإنما ورثته الأمة من الأعاجم، ولم يكن منه بدُّ تحقيقًا لقول النبي ﷺ: «لتأخذنَّ أمتي مأخذَ الأمم قبلها شبرًا بشبرٍ وذراعًا بذراعٍ»، قالوا: فارس والروم؟ قال: «ومن الناس إلا هؤلاء؟»^(٢). وكما في الحديث الآخر: «لتركبنَّ سننَ من كان قبلكم حذو القُذَّةِ بالقُذَّةِ، حتى لو دخلوا جُحرَ ضبٍّ لدخلتموه»، قالوا: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: فَمَنْ؟»^(٣). والحديثان في الصحيح.

فأخبر أنه لا بدَّ من أن يكون في الأمة من يتشبه باليهود والنصارى وبفارس والروم، وظهور هذا الشبه في الطوائف إنما يعرفه من عرف الحقَّ وضدَّه، وعرف الواجب والواقع، وطابق [١٠٥] بين هذا وهذا، ووازن بين ما عليه الناس اليوم وبين ما كان عليه السلف الصالح. فإذا كان رفع الصوت في مواطن العبادات بالذكر والدعاء الذي يحبه الله

(١) جمع دبداب، وهو الطبل. وفي الاستقامة (١/ ٣٢٥): «الدقادق» تحريف.

(٢) أخرجه البخاري (٧٣١٩) عن أبي هريرة.

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٥٦، ٧٣٢٠)، ومسلم (٢٦٦٩) عن أبي سعيد الخدري.

ويرضاه بدعةً مكروهة لا يتقرب بها إلى الله، فكيف يكون رفعه بالغناء الذي هو قرآن الشيطان قربةً وطاعة؟ وقد سماه النبي ﷺ صوتاً فاجراً أحمق، ونهى عنه (١).

الوجه الحادي عشر: أنه يأمر بعشق الصور الذي كرهه الله، وينهى عن العفة وغيض البصر الذي أمر الله به، فإن الغناء يتضمن التحريض على الفسق، وذكر محاسن المعشوق ووصفها، وذكر طيب وصاله وعذاب هجره، ولو غنى المغني بأشعار العفة والتخويف من عذاب الله والترغيب في العمل الصالح وذم الفواحش، لاستسمجه الحاضرون، واستثقلوه وتبرموا به، وقالوا: هذا مبتدع مخالف لسنة الغناء، ونعم هو مخالف لسنة الفساق.

الوجه الثاني عشر: أنه يتضمن من الصد عن ذكر الله وعن الصلاة ما هو معلوم من شأنه، فإن غالب زبونه وفرسانه لا يصلون، ومن صلى منهم فإنه من الذين: ﴿إِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

ومن صلى منهم لله، فإن صلاته صلاة خرجية (٢) خالية عما ذكرناه من ذوق الصلاة ومواجيدها وحقائقها، لأن قواه انصرفت إلى ذوق السماع، وصار شربه ووجدته فيه، ولا يجتمع الذوقان والوجدان والحلاوتان في قلب واحد أبداً، بل الأمر كما قيل:

(١) سبق تخريجه.

(٢) نسبة إلى الخرج بمعنى الإتاوة أو الضريبة.

سَارَتْ مُشْرِقَةً وَسِرَتْ مُغْرَبًا شَتَّانَ بَيْنَ مُشْرِقٍ وَمُغْرَبٍ (١)
 والله يعلم أننا لم نتعدَّ وصفهم، ونعلم أنهم كذلك بالجملة،
 فمفاسد السماع من جنس مفاسد عشق الصور، وهي أكثر من أن
 يحصرها [١٠٥ب] العدُّ، وإنما يشهدا القلب الحي، وإلا فـ
 ما لجرح بميتٍ إيلاُم (٢)

فصل

* قال صاحب الغناء (٣): حسن الصوت مما أنعم الله به على
 صاحبه من الناس، قال تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر: ١]، قيل في
 التفسير: إنه الصوت الحسن (٤). وذم الله تعالى الصوت الفظيع، فقال:
 ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩].

* قال صاحب القرآن: كون الشيء نعمة لا يقتضي إباحة استعماله
 فيما شاء المنعم عليه، [بل] فيما أحب المنعم به ورَضِيه،، فذلك شكر
 هذه النعمة التي يستوجب بها المزيد من شكرها، فيقيّد بالشكر
 موجودها، ويحصل به مفقودها، فهذه النعمة تقتضي استعمال الصوت
 الحسن في قراءة القرآن، كما كان أبو موسى الأشعري يفعل ذلك، حتى

(١) البيت بلا نسبة في «البصائر والذخائر» (١٧٨/٨) و«طبقات الشافعية» للسبكي
 (٢٢٨/٤).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر «الرسالة القشيرية» (ص ٥٠٧).

(٤) انظر «تفسير القرطبي» (٣٢٠/١٤) و«الدر المنثور» (٢٥١/١٢).

كان النبي ﷺ يستمع لقراءته وقال: «مررتُ بك البارحة وأنت تقرأ، فجعلتُ أستمع لقراءتك»، فقال: لو علمتُ أنك تسمع لحبَّرتُه لك تحبيرًا. وقال: «لقد أوتي هذا مِزمارًا من مزامير آل داود»^(١).

وأما استعمال النعم في المباح المحض فإنه لا يكون طاعةً، فكيف في المكروه أو المحرم؟

وأيضًا فمن المعلوم أن المال نعمة، والجمال نعمة، والقوة نعمة، فهل يسوغ لأحد أن يقول: كون ذلك نعمةً يقتضي جواز استعمالها فيما لم يأذن له فيه ربُّ النعمة؟ وهل الاستدلال بهذا إلا بمنزلة الاستدلال بنعم الله من السلطان والمال والقوة، على ما تتقاضاه الطباع من الظلم والفواحش ونحوها؟ فاستعمال الصوت الحسن في الأغاني، بمنزلة استعمال الصورة الحسنة في الفواحش، واستعمال الجاه والمال في الظلم والعدوان.

وأيضًا فإن هذه النعمة يستعملها الكفار والفساق في أنواع [١٠٦] من الكفر والفسوق، وأكثر ما يستعملها المؤمنون في الإيمان، فإن استمتاع الكفار والفساق بالأصوات المطربة أكثر من استعمال استمتاع المسلمين، فإن عند المسلمين من وازع الإيمان والعوض بالقرآن ما ليس عندهم، فأبي حمدٍ لهذه النعم بذلك إن لم يستعمل في طاعة الله؟ وقولك: إن الله ذمَّ الصوت الفظيع، فغلطٌ بيِّن، فإن الله سبحانه لا يذمُّ العبد على ما ليس من كسبه وفعله، كما لا يذمُّه على دَمَامَتِهِ وَقُبْحِ^(٢)

(١) سبق تخريجه.

(٢) تكررت «وقبح» في الأصل.

شكله، وإنما يذمُّ العبد بأفعاله الاختيارية دون ما لا اختيار له فيه. وإنما ذمَّ سبحانه ما يكون باختيار العبد من رفع الصوت الرفيع المنكر، كما يوجد ذلك في أهل الغلظ والجفاء من الفدّادين والصخّابين بالأسواق، كما قال النبي ﷺ: «الجفاء والغلظ وقسوة القلب في الفدّادين من أهل الوبر»^(١). وهم الصياحون صياحاً منكراً. وفي صفة النبي ﷺ: «ليس بفظ ولا غليظ ولا سخّاب في الأسواق»^(٢).

وقال تعالى عن لقمان في وصيته لابنه: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩]، فأمره أن يغضّ من صوته وأن يقصّد في مشيه، كما أمر المؤمنين أن يغضّوا من أبصارهم، وأصحاب السماع لا هذا ولا هذا ولا هذا، بل إطلاق البصر ورفع الأصوات والرقص.

فصل

* قال صاحب الغناء^(٣): استلذاذ القلوب الأصوات الطيبة واسترواحها إليها مما لا يمكن جحوده، فإن الطقل يسكن إلى الصوت الطيب، والجِمال تُقاسي تعب السير ومشقة الحمولة فيهنّ عليها بالحذاء قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الفاشية: ١٧]،

(١) أخرجه البخاري (٣٤٩٨) ومسلم (٥١) عن أبي مسعود.

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٣٨) عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: في التوراة...

(٣) انظر «الرسالة القشيرية» (ص ٥٠٧).

وحكى إسماعيل بن عُلَيَّة قال: كنت أمشي مع الشافعي [١٠٦ب] وقت الهاجرة، فجزنا بموضع يقول فيه قوالٌ شيئاً، فقال: مل بنا إليه، ثم قال لي: أيطربك هذا؟ فقلت: لا، فقال: ما لك حسُّ.

* قال صاحب القرآن: لقد كنت أيها السماعي غنياً أن تستشهد على هذه المسألة بحكاية مكذوبة مختلقة على الشافعي، يعلم كذبها من له معرفة بالناس وطبقاتهم. والشافعي أخذ عن إسماعيل بن عُلَيَّة، وهو من أكبر شيوخه، وأما ابنه إبراهيم تلميذ عبدالرحمن بن كيسان الأصم فكان الشافعي يذمه، ويقول فيه: «أنا مخالف لابن عُلَيَّة في كل شيء»، حتى في قول لا إله إلا الله، فإني أقول: لا إله إلا الله الذي كلم موسى من وراء حجاب، وهو يقول: لا إله إلا الله الذي خلق في الهواء كلاماً أسمعه موسى^(١). وهذا هو الذي يُذكر له أقوال شاذة في الفقه وأصوله، ويظن من لا علم عنده أنه إسماعيل، وليس الأمر كذلك. فإن أباه إسماعيل من أجل شيوخ الشافعي وأحمد وطبقتهما.

ثم لو صحَّت هذه الحكاية لم يكن فيها إلا ما هو مُدرَك بالإحساس، من أن الصوت الطيب لذيد مُطرب، وهذا أمر يشترك فيه جميع الناس، ليس مما يحتاج أن يستدل فيه بشهادة الشافعي، بل ذكر الشافعي في مثل هذا غرض من منصبه. كما ذكر ابن طاهر عن مالك تلك الحكاية المشهورة^(٢)، ولولا شهرة زهد أحمد وورعه لوضعوا عليه

(١) انظر «مناقب الشافعي» للبيهقي (٤٠٩/١) و«لسان الميزان» (٣٥/١).

(٢) انظر «كتاب السماع» لابن طاهر (ص ٦٦).

حكاية في إباحة السماع.

وأهل المواجهيد والفساق والمبطلون أعلم بهذه المسألة ولذة السماع وطيبه من أئمة الدين الذين رفع الله في العالمين أقدارهم وأعلى منازلهم، فما لكم [١٠٧] وللاستشهاد بهم في أمرٍ أنتم أعرف به منهم؟ وهلاً استشهدتم بهم في حكم هذه المسألة ومحلها من الشرع كما استشهدنا بكلامهم؟ فإن^(١) كون الصوت الحسن موجباً للذة أمر حسي، لكن أي شيء في هذا مما يدل على الأحكام الشرعية من كونه مباحاً أو مكروهاً ومحرمًا أو كون الغناء طاعة وقربة؟ وهل هذا إلا نظير قول القائل: استلذاذ النفوس للوطء أمر لا يمكن جحوده، ولذلك استلذوها بالنظر والمطاعم والمشارب والملابس، فأى دليل في هذا لمن هداه الله إلى ما يحبه الله ويرضاه ويأمر به ويأذن فيه؟ وهل هذا إلا شبهة للإباحية الذين خلعوا ربقة الشريعة من أعناقهم، القائلين: ما الذي حال بين الخليفة وبين رسوم الطبيعة؟ ومن المعلوم أن جميع هذه الأجناس فيها الحلال والحرام والمعروف والمنكر.

ثم المناسب لطريقة الزهد والفقر والتصوف الاستدلالُ بذلك على كراهتها والبعد منها، وأن يستدل بكون الشيء لذيذاً مشتتهً على كونه مباحاً لطريق الإرادة والتصوف التي مبناهما على الزهد في الحفظ، وهذه الطريقة وإن لم تكن صحيحة في الشرع فهي أقرب إلى طريقتكم وأصولكم من الاستدلال بها على الإباحة والقربة، وكلا الاستدلاليين

(١) في الأصل: «في».

باطل، فكون الشيء لذيذاً أو مشتهى أو مما تستروح إليه النفوس لا يدل على كونه حلالاً ولا حراماً، ولهذا ذمَّ الله من اتبع الشهوات وذمَّ من تقرب إليه بترك ما أباحه منها، فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧]. وقال النبي ﷺ للنفر الذين قال أحدهم: أما أنا فأصوم ولا أفطر، وقال الآخر: أما أنا فأقوم ولا أفتر، وقال الآخر: أما أنا فلا أتزوج النساء، وقال الآخر: أما أنا فلا أكل اللحم [١٠٧ب] فقال: «لكني أصوم وأفطر وأقوم وأنام وأتزوج النساء وأكل اللحم، فمن رَغِبَ عن سنتي فليس مني»^(١).

والعمل لا يُمدح أو يُذمَّ بمجرد اشتماله على اللذة وعدمها، بل إنما يمدح منه ما كان لله أطوعاً، ولعامله في الدارين أنفع، سواء كان فيه لذة أو مشقة، فكم من لذيذ هو طاعة ومنفعة، وكم من مُشَقَّ هو معصية ومضرة وبالعكس. والمناسب أن يُستبدل بهذا على تحسين الصوت بالقرآن لا على تحسينه بالغناء، فإن الاستعانة بجنس اللذات على الطاعات والقربات مما جاءت به الشريعة، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوا مِنَ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وفي الصحيح^(٢): «إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة يحمده

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣) ومسلم (١٤٠١) عن أنس بن مالك.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٣٤) عن أنس بن مالك.

عليها، ويشرب الشَّرْبَةَ يحمده عليها». فيرضى عن استعان باللذات على شكره وحمده، ولذلك جعل في مجامعة الرجل لأهله أجرًا وقربةً لاستعانته بهذه اللذة على العفة^(١)، والله سبحانه خلق فينا الشهوات واللذات لنستعين بها على كمال مصالحننا وتمامها، فخلق فينا شهوة الأكل واللذة به، وهي من نِعَمه علينا، إذ بها بقاء نفوسنا وقوانا، لنستعملها في طاعته ونتقوى بها على مرضاته، وخلق فينا شهوة النكاح ولذته وهي من نعمه علينا، إذ بها تكثير النسل الذي يكون منه من يذكر الله ويعبده، فإذا استعملنا هذه القوة فيما يحبه الله ويرضاه كان ذلك سعادتنا في الدنيا والآخرة، وكنا من الذين أنعم الله عليهم، وإن استعملناها فيما حرم علينا كنا ظالمين معتدين.

والله سبحانه خلق الصوت الحسن، وجعل النفوس تحبُّه وتلتذ به، فإذا استعنا بذلك على استماع ما أمرنا باستماعه وهو كلامه، وحسنًا أصواتنا بتلاوته [١١٨٠] كما أمر نبينا، كنا ممن استعمل نِعَمه في طاعته، كما كان الصحابة يأمرون أبا موسى أن يُسمِعهم كلام الله بصوته الطيب الذي استلذّه رسول الله ﷺ واستمع له، وشهد له بأنه من مزامير آل داود. ففي مثل هذا السماع كانوا يستعملون الصوت الحسن، ويجعلون التذاذهم به عونًا على طاعة الله وعبادته باستماع كتابه، فيثابون على هذا

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (١٠٠٦) عن أبي ذر، وفيه: «وفي بضع أحدكم صدقة»، قالوا: يا رسول الله! أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر».

الالتذاذ باللذة المأمور بها، كما يُثابون على لذاتها بالأكل والشرب واللباس والنصر والظفر المعينة لهم على طاعته، وكما يُثابون على لذات قلوبهم بالعلم والإيمان، وحلاوته وطيبه ونعيمه، فإنها أعظم اللذات، وحلاوته أصدق الحلاوات، ونفس التذاذه وإن كان متولدًا عن سعيه، وهو في نفسه ثواب سعيه، فهو مُثابٌ عليه أيضًا، فإن المؤمن يثاب على عمله وعلى ما يتولد من عمله وعلى ما يلتذ به من ذلك بما هو أعظم لذةً منه، فلا يزال متقلِّبًا في نِعَم ربه وفضله، وهي في نموِّ وتولُّدٍ، يُولد له بعضها بعضًا كالتجارة والزراعة، فأما أن يُستدل بمجرد التذاذ الإنسان للصوت، أو ميل الطفل إليه، أو استراحة البهائم به، على جوازه واستحبابه في الدين، وأنه قرينة إلى رب العالمين، فهذا من الضلال المبين. وإذا كانت الأطفال والبهائم تستروح بالأكل والشرب، فهل يدل ذلك على حِلِّ كل مأكول ومشروب؟

فصل

وأصل غلط هذه الطائفة أنهم يجعلون الخاصَّ عامًّا والمقيد مطلقًا، فيجيئون إلى ألفاظ في كلام الله ورسوله قد أباحَتْ أو حَمَدَتْ نوعًا من السماع فيُدْرِجون فيها سماعَ المكاء والتصدية، ويجيئون إلى المعاني [١٠٨ب] التي دلَّت على الإباحة أو الاستحباب في نوع من الأصوات والسماع، فيجعلونها دالةً على نوع يُضادُّها. وهذا جمعٌ بين ما فرَّق الله ورسوله بينه، بمنزلة من قاس الربا على البيع، والسفاح على النكاح، ونظائر ذلك من الأقيسة الباطلة التي عُبدَتْ بنظائرها الشمسُ

والقمر، وجعل أربابها لله أندادًا سَوَّوْهُم برب العالمين.

وكذلك من عدل برسول الله ﷺ بشرًا يطيعه في كل ما أمر، أو عدل بكلام الله كلامًا آخر أو بشره شرعًا آخر، فهذا كله من أصول الشرك والضلال. وهذا مقام ينبغي لمن نصح نفسه وعمل لمعاده تدبره والتوقف فيه، فإنه ما بدلت الأديان في سالف الأزمنة وهلمَّ جرًّا إلا بمثل هذه المقاييس، فمن عمَد إلى كلام الله الذي أنزله وأمر باستماعه، فعَدَل به سماع بعض الأشعار وآثره عليه، وأخذ ذوقه ومواجيدَه وصلاخ قلبه منه، فهو ممن اتخذ من دون الله أندادًا يحبهم كحب الله، والذين آمنوا أشدَّ حبًّا لله.

ويا عجبًا لمن ذاق طعم الإيمان كيف يعدل بالكلام الذي فضله على غيره كفضل الله على خلقه^(١)، وبالكلام الذي ما تقرب العباد إلى الله بأحب إليه منه^(٢)، كلامًا نزه الله رسوله وأولياءه^(٣) عنه، وجعله صلاةً للمشركين وقرآنًا لهم، وقرآنًا لعدوه الشيطان، ورقيةً لمحارمه،

(١) ورد في حديث أخرجه الترمذي (٢٩٢٦) عن أبي سعيد، وقال: «هذا حديث حسن غريب». وفي إسناده محمد بن الحسن بن أبي يزيد وعطية العوفي، وكلاهما ضعيف. قال أبو حاتم: هذا حديث منكر، ومحمد بن الحسن ليس بالقوي. انظر «العلل» (١٧٣٨) والسلسلة الضعيفة (١٣٣٥).

(٢) إشارة إلى الحديث الذي أخرجه أحمد (٢٦٨/٥) والترمذي (٢٩١١) عن أبي أمامة. وفيه: «وما تقرب العباد إلى الله بمثل ما خرج منه». قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وبكر بن خنيس قد تكلم فيه ابن المبارك وتركه في آخر أمره. وانظر «السلسلة الضعيفة» (١٩٥٧).

(٣) في الأصل: «ورسوله وأولياه».

ومادة للنفاق. وما أحرى هذا أن يكون من الذين يقولون: ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (١٧) إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ [الشعراء: ٩٧-٩٨].

[١٠٩] ونظيرُ هذا سواءً ما وقع فيه طوائف من الجهال ممن ينتسب إلى معرفة وإرادة وزهد، من الاستدلال بكون الجمال نعمةً على جواز التمتع بالصور الجميلة مشاهدةً ومُساوَرَةً^(١) وعشقًا، فهؤلاء في الصور، وأولئك في الأصوات، لكن الواقعون في فتنة الصوت منهم من له من العقل والدين والمعرفة ما ليس في الواقعين في فتنة الصور، فإنه ليس في أهل الصور رجلٌ مشهور بين الأمة بعلم ودين وسلوك وخير، بخلاف أهل الأصوات، ولكن أهل الأصوات طَرَفُوا لأهل الصور الطريقَ، ونَهَجُوا لهم السبيلَ، ونَقَطُوا لهم فخطوا، وارتادوا لهم المنازلَ فخطوا، وطَيَّبُوا لهم السيرَ فساروا، وجدُّوا بهم إلى مطارح الجمال فطاروا، ودَبَّدَبُوا^(٢) لهم فطاب لهم اللعيب، وغنَّوا لهم فاستفزَّهم إلى المليح والمليحة الطربُ، ووصفوا لهم سمرَ القدود ووردَ الخدود وتفلُّكَ النهود وسوادَ العيون وبياضَ الثغور، ونادوا: «حيَّ على الوصال» فما وصلَ الحبيبَ بمحظور، فأجاب القومَ منادِيَ الهوى إذ نادى بهم بحَيِّ على غير الفلاح، وباعوا أنفسهم بالغبن وبذلوا في مرضاة الصور الجميلة بذلَ المحبِّ أخِي سماح، تالله ما حَمِدُوا عقبى سيرهم لما حَمَدَ القومُ السرى عند الصباح.

(١) في الأصل: «منشارة». ولعل الصواب ما أثبتته.

(٢) أي ضربوا الدبابدب والطبول.

ولقد رأيتُ من هؤلاء من يحتجُّ بقوله: «إن الله جميل يحب الجمال»^(١)، وينسى قوله: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(٢)، وينسى قوله: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]، وينسى قول النبي ﷺ [١٠٩ب]: «ال نظرة سهم مسموم من سهام إبليس، فمن غَضَّ بصره أورثه الله حلاوةً يجدها في قلبه إلى يوم يلقاه»^(٣)، أو كما قال.

ويحتجون بحديث «من عَشِقَ وَعَفَّ وَكَتَمَ فَمَاتَ مَاتَ شَهِيدًا»^(٤)، ولم يعلموا أنه خبر موضوع على رسول الله ﷺ، اتُّهِمَ به النقاش ورُمي لأجله بالعظائم^(٥).

-
- (١) أخرجه مسلم (٩١) عن ابن مسعود.
- (٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) عن أبي هريرة.
- (٣) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٣١٤/٤) والقضاعي في «مسند الشهاب» (٢٩٢) عن حذيفة مرفوعاً. وصححه الحاكم فتعقبه الذهبي بقوله: إسناده وإه، وعبدالرحمن هو الواسطي ضعفه.
- (٤) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٣٦٤/٥، ٤٨/٦، ٢٩٥/١١، ٨٥/١٣)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٩٥/٤٣)، وابن الجوزي في «ذم الهوى» (ص ٢٥٦-٢٥٨)، و«العلل المتناهية» (٢/٢٨٥-٢٨٦) من طريق جماعة عن سويد بن سعيد.
- (٥) انظر كلام المؤلف عليه في «روضة المحبين» (ص ٢٦٦ - ٢٧٠) و«زاد المعاد» (٤/٢٥٢-٢٥٦)، و«الداء والدواء» (ص ٥٦٨-٥٧٣). والنقاش هو أبو بكر محمد بن الحسن المفسر، ولكن الذي اتُّهِمَ بهذا الحديث هو سويد بن سعيد الحارثي، فلعله خطأ أو وهم من المؤلف.

ويحتجون بحديث روي فيه أَنَّ النبي ﷺ لما سمع ذلك المنشد
ينشده:

هَلْ عَلَيَّ وَيَحْكُمَا إِنْ عَشِيقْتُ مَنْ حَرَجِ

فقال: «لا إن شاء الله». وهو حديث وضعه على رسول الله ﷺ
بعض الفساق كما تقدم (١).

ويحتجون بأنَّ العشق والمحبة غير داخل تحت الاختيار، ولا
يملك العبد دفعه عن نفسه، وما كان هكذا فإنَّ الله لا يُعَذِّبُ عليه.
وينسَوْنَ أَنْ تَوْلَعَهُمْ بِهِ وَتَعَاظِيَهُمْ لِأَسْبَابِهِ مَقْدُورٌ، وَبِهِ يَتَعَلَّقُ التَّكْلِيفُ،
فَلَمَّا خَانَتْ أَعْيُنُهُمْ وَتَمَنَّتْ أَنْفُسُهُمْ وَأَتَبَعُوا النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ تَمَكَّنَ دَاءُ
العشق منهم، فعزَّ على الأطباء دواؤه، كما قيل:

تَوْلَعَ بِالْعَشْقِ حَتَّى عَشِقَ فَلَمَّا اسْتَقَلَّ بِهِ لَمْ يُطِيقْ
رَأَى لُجَّةً ظَنَّهَا مَوْجَةً فَلَمَّا تَوَسَّطَ مِنْهَا غَرِقَ (٢)

[١١٠ب] وَيُكْرِمُونَ صَاحِبَ الصُّورَةِ الْمَلِيحَةَ عَلَيَّ مَا يَبْذُلُ لَهُمْ مِنْ
صُورَتِهِ وَشُهُودِهِ وَتَوَابِعِ ذَلِكَ، كَمَا يُكْرِمُ أَصْحَابَ السَّمَاعِ ذَا الصَّوْتِ
الْحَسَنِ عَلَيَّ مَا يَبْذُلُ لَهُمْ مِنْ صَوْتِهِ، وَإِنْ اجْتَمَعَ فِيهِ الْأَمْرَانِ نَالَ عِنْدَهُمْ

(١) سبق تخريجه.

(٢) البيتان من أربعة أبيات من إنشاد ابن نحرير البغدادي في ذم الهوى (ص ٥٨٦)
و«تاريخ الإسلام» للذهبي (١٠/٦٦). وذكرهما المؤلف في روضة المحبين
(ص ٢٢٥) والداء والدواء (ص ٤٩٨).

من الكرامة أعلاها ومن الحُظوة منتهاها، ولهذا إذا رأى هؤلاء من جمع بين الصورة الجميلة والصوت اللذيذ من غلامه وغلّام، علقوا بقلوبهم وهمهم عليه، وانقادت أسرارهم وجوارحهم إليه، وشقُّوا عليه القلوب قبل الجيوب، وبذلوا في مرضاته كل مطلوب. وقد زين الشيطان لكثير من هؤلاء أنّ عشق الصور الجميلة إذا لم يقارنه فاحشة محبة محمودة، وأنها محبة لله وفي الله، وهم نظير أصحاب الأصوات المطربة، فالطائفتان «رَضِيعًا لِبَانٍ تُذِيَّ أُمَّ تَقَاسِمَا»^(١).

والعارف يعلم أنّ هذا أعظم من موقعة الكبيرة، فإنّها معصيةٌ أدنى أحواله أن يذمّ نفسه ويلومها عليها، ويخاف مقت الله وغضبه ولعنته، وأما هذا فمتقرب متعبد بالعكوف على تمثال الجمال، وقد حال بين قلبه وبين ذي العظمة والجلال. فأين مؤمنٌ فاسقٌ قد جمع سيئةً وحسنةً، خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً،

يخاف ذنوباً لم تغب عن وليّه ويرجوه فيها فهو راجٍ وخائفٌ^(٢) من مبتدع ضالّ يجعل ما نهى الله عنه قربةً، وما كره الله ديناً، وهو يرى المنكر معروفاً والمعروف منكراً، قد زين له سوء عمله فرآه حسناً. ومن جعل ما لم يأمر الله به ولا أحبه محبوباً له، فقد شرع ديناً لم يأذن الله به، وذلك باب الشرك، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ

(١) شطربيت سبق تخريجه. وفي الأصل: «رضيع لبان».

(٢) البيت لعبد الله بن محمد بن يوسف (ابن الفرضي) في «بهجة المجالس»

(١/٣٨٠) و«الأداب الشرعية» لابن مفلح (٢/٣٣) و«نفح الطيب» (٢/١٢٩).

اللَّهُ [١١٠ب] أُنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴿البقرة: ١٦٥﴾، فإن محبة الصور تعظم حتى تصير أندادًا وطواغيت يتدين بها أهلها، ويُشربُ في قلوبهم أعظم من حب الذين أُشربوا في قلوبهم العجل. وكم بين محبة عجلٍ إلى محبة غزالٍ أُغيدَ تسبي محاسنهُ القلوب وتأسرُ العقول؟ فهؤلاء أُشربوا في قلوبهم الخشْفَ، كما أُشرب أولئك في قلوبهم العجل.

وهذا بخلاف من مالت نفسه إلى المحرمات مؤمناً بأن الله حرّمها، ويمتت عليها، ويخاف عقابه على فعلها، وأنه لا يحبها محبة محضة، بل عقله وإيمانه يُبغض ذلك ويكرهه وينهى عنه، ولكن غلبة طبعه وهواه يدعوهُ إلى ارتكابها على خوفٍ ووجلٍ من الله، فهذا يُرجى له رحمة الله، إما بأن يُوفِّقه لتوبة نصوح تُكفِّر عنه سيئاته، أو يستعمله في طاعة كثيرة وحسنات ماحية ترجح بسيئاته، وإما بمصائبٍ يتليه بها يُكفِّر بها عنه، وإما بغير ذلك من الأسباب التي يرحمه بها. بخلاف من اعتقد أن هذه المحبة لله، فإن طباعه واعتقاده يتعاونان على قوتها وزيادتها، ويجتمع فيها داعي الطبع وما يعتقده من داعي الشرع، وهذا الداء العضال الذي هلك به من هلك، ونجا من سبقت له من الله الحسنى.

فصل

ومما ينبغي أن يُعلم أن مجرد الحسن لا يُثيبُ الله عليه ولا يعاقب، وليس في دين أحدٍ من الأنبياء محبةٌ أحدٍ لحسنه، ولو كان الحسن مما يرفع الله به درجةً صاحبه ويزيده به ثواباً لكان يوسف الصديق أفضل من غيره من الأنبياء لحسنه. [وإذا] استوى شخصان في

الأعمال الصالحة وكان أحدهما أحسن صورةً أو أحسن صوتًا [١١١] كانا عند الله سواء، فإنَّ أكرم الخلق عند الله أتقاهم، ولكن صاحب الصورة الجميلة إذا صان جماله عن محارم الله وعفَّ عنها كان أفضل من غيره من هذا الوجه، وهو بمنزلة صاحب المال والقدرة إذا عفَّ عن قدرة، فإنَّه أفضل ممن عفاؤه عفاً عجزاً، فإنَّ ما امتحن به صاحب القدرة والمال والجمال من الأسباب الداعية إلى اتباع الهوى أو قضاء الشهوة أعظم مما امتحن به مَنْ خلا من ذلك، فجهادُ هذا وصبرُه أعظم.

وهذا عام في جميع الأمور التي أنعم الله بها على بني آدم وابتلاهم بها، فمن كان فيها شاكراً صابراً كان من أولياء الله المتقين، وكان أفضل ممن لم يُمتحن، وإن لم يكن المبتلى صابراً شكوراً بل فرط فيما أمر به ونهى عنه كان له حكم أمثاله، وكان من سَلِمَ من هذه المحنة خيراً منه، فمن امتحن وصبر فهو خير الأقسام، ويليه من سَلِمَ من المحنة، والثالث من امتحن فوق، فهو المأخوذ المعاقب إلا أن يتداركه الله.

فمن كان له مال يتمكن من إنفاقه في الفواحش والظلم، فخالف هواه وأنفقه فيما يتغني به وجه الله، فهو نظير من كان له حسن وجمال فعفَّ به عن محارم الله وصانته من الفواحش، ونظير من كان له صوت حسن فصانه عن الغناء ومزامير الشيطان واستعمله في تزيين كتاب الله والتغني به، كان كل واحد من هؤلاء يُثاب على عمله الصالح الذي يشاركه فيه من ليس له مثل ذلك الجمال والصوت [١١١ب] والمال، ويُثاب ثواباً آخر على صرْفِه ما يتقاضاه من الصورة والصوت والقوة إلى مرضاة الله،

وتعطيها عن مساخطه، فثوابه يُشبه ثواب المجاهد، فصاحب الصوت الطيب المطرب الذي يمكنه أن يُغني بالشعر، إذا قرأ القرآن بصوته الطيب وتغنى به أُثيب ثواب من تغنى بكتاب الله وترك التغني بالشعر، ويثاب أيضًا على قصده إسماع أهل الإيمان كتاب الله ولذتهم بقراءته وانتفاعهم بها، فيثاب ثلاثة^(١) أنواع من الثواب بالقصد والنية: ثواب المجاهد، وثواب التالي، وثواب المحسن النفع لغيره، فإن شهد مع ذلك أذن الله عز وجل لقراءته واستماعه لها، فقرأه بصوته الطيب ليأذن الله له ويستمتع لقراءته، كما قال النبي ﷺ: «ما أذن الله لشيء كأذنه لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به»^(٢)، وقال: «لله أشدُّ أذنًا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته»^(٣)، فثواب ذلك أمر آخر.

ومن كان له جمال وحسنٌ فعفَّ عما حرم الله، وخالف هواه، وكسا جماله وحسنه لباس التقوى الذي هو خير اللباس، كان من هذا الوجه^(٤) أفضل ممن لم يؤت مثل هذا الجمال، ولم يُمتحن بهذه المحنة، ولهذا تجد وجه المطيع لله قد كُسي من الجمال والحسن والملاحة ما لم يُكسِه وجه العاصي، فإن كان جميل الوجه ازداد جمالاً إلى جماله الخلقي، وأُلقيت عليه من المحبة والجلالة والحلاوة ما لم

(١) في الأصل: «ثلاث».

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) في الأصل: «هذه الوجه».

يُلَقَّ عَلَى غَيْرِهِ، وَإِنْ حُرِّمَ [١١٢] جَمَالَ الْوَجْهِ وَحُسْنَهُ أَلْبَسَ مِنْ جَمَالِ
الطَّاعَةِ وَبَهْجَتِهَا وَنُورِهَا وَحَلَاوَتِهَا أَحْسَنَ مِمَّا فَاتَهُ مِنَ الْجَمَالِ الظَّاهِرِ،
وَكَلَّمَا كَبِرَ وَطَعَنَ فِي السِّنِّ ازْدَادَ حَسَنًا وَحَلَاوَةً وَمَلَا حَةَ.

وَأَمَّا جَمِيلُ الْوَجْهِ إِذَا لَمْ يَصُنْ جَمَالَهُ وَحُسْنَهُ، وَبِذَلِكَ وَتَبَدَّلَ بِهِ،
فَإِنَّهُ كَلَّمَا كَبِرَ وَطَعَنَ فِي السِّنِّ ازْدَادَ وَحِشَّةً وَظَلْمَةً وَقَبِيحًا، وَكَلَّمَا ازْدَادَ
مِنَ الْفَوَاحِشِ وَالْمَعَاصِي ازْدَادَ حَتَّى تَكْسِفَ ظِلْمَةُ الْمَعْصِيَةِ شَمْسَ
حُسْنِهِ، وَتَخْسِفَ قَمَرَهَا، وَيَعْلُو قَبِيحُهَا وَسَوَادُهَا الْجَمَالَ الصُّورِيَّ، فَتَرَاهُ
عَلَى السِّنِّ لَا يَزْدَادُ إِلَّا قَبِيحًا وَوَحِشَّةً وَنَفْرَةً عِنْدَهُ.

وَفِي هَذَا الْمَقَامِ الْوَجْهُ أَرْبَعَةٌ:

وَجْهُ جُمِعَ لَهُ بَيْنَ اللَّبَاسِينَ: لِبَاسِ الْجَمَالِ وَلِبَاسِ التَّقْوَى، فَذَلِكَ
أَجْمَلُ الْوَجْهِ.

وَوَجْهُ جُمِعَ لَهُ بَيْنَ لِبَاسِ الْقَبِيحِ وَلِبَاسِ الْمَعْصِيَةِ، فَهُوَ أَقْبَحُ
الْوَجْهِ.

وَوَجْهُ أَلْبَسَ الْجَمَالَ الظَّاهِرَ وَلَمْ يُكْنَسْ لِبَاسَ التَّقْوَى.

وَوَجْهُ أَلْبَسَ لِبَاسَ التَّقْوَى وَإِنْ لَمْ يُلْبَسْ لِبَاسَ الْجَمَالِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَنْ أَيْنَ اكْتَسَبَتِ الْوَجْهُ الْحُسْنَ وَالْقَبِيحَ مِنَ الْأَعْمَالِ؟

قُلْتَ: إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ فِرَاسَةٌ أَهْلُ الْإِيمَانِ فَتَدَبَّرْ قَوْلَهُ تَعَالَى:

﴿سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وَقَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ

لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: «هُمْ الْمُتَفَرِّسُونَ الَّذِينَ

يأخذون بالسِيما وهي العلامة»^(١). وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ﴾ [محمد: ٣٠]. فهذه ثلاث آيات في الفراسة.

واسمع قول المتوسمين من هذه الأمة: قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «ما أضمرَ رجلٌ شيئاً إلا أظهره الله على صفحات وجهه، وفَلَتَاتِ لسانه»^(٢).

ودخل عليه رجل فقال له عثمان: [١١٢ب] يدخل أحدكم والزنا في عينيه، فقال: يا أمير المؤمنين! أَوْحِيْ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قال: [لا] ولكن ما عَمِلَ آدَمِي [عملاً] إلا ألبسه الله رداءه». أو كما قال^(٣).

وقال ابن عباس: «إن للحسنة نوراً في القلب، وضياءً في الوجه، وقوةً في البدن، وزيادةً في الرزق، ومحبةً في قلوب الخلق، وإن للسيئة لظلمةً في القلب، وسواداً في الوجه، وضعفاً في البدن، ونقصاً في الرزق، وبغضةً في قلوب الخلق»^(٤).

وهذا الأمر يكون كامناً في القلب في الدنيا، وَيَفِيضُ عَلَى صفحات الوجه، فيراه مَنْ له فراسة صادقة، فإذا كان يوم القيامة صار هو الظاهر ورآه كل أحد عياناً، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾

(١) انظر «تفسير الطبري» (١٤ / ٩٤، ٩٥) و«الدر المثور» (٨ / ٦٣٨، ٦٣٩).

(٢) انظر تفسير ابن كثير (٧ / ٣٢٢٤).

(٣) أخرجه أحمد في «الزهد» (١٥٧) وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٢ / ٥٥٨) والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٢ / ٢٧٠ - ٢٧١).

(٤) انظر «تفسير ابن كثير» (٧ / ٣٢٢٤) و«الاستقامة» (١ / ٣٥١) و«الوابل الصيب» (ص ٦٧).

[آل عمران: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ
وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴿٤٠﴾ [الزمر: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وُجُوهُ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا
نَاطِرَةٌ ﴿٢٣﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، فالأول: من نصرته (١) النعيم وبهجته، والثاني: من
النظر. وقال تعالى: ﴿وُجُوهُ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٢٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهُ يَوْمَئِذٍ
عَلَيْهَا غَبْرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرَهَقَهَا فَزْرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكٰفِرَةُ الْفَجْرَةُ ﴿٤٢﴾ [عبس: ٣٨-٤٢]. وقال
تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ
النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ [المطففين: ٢٢-٢٤]. وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا
يَرْهَقُ وُجُوهُهُمُ قَتْرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ
كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرَهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن عَاصِمٍ كَأَنَّمَا
أَغْشَيْتَ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ [يونس: ٢٦-٢٧].

وقال النبي ﷺ: «لا تزال المسألة بأحدهم حتى يجيء يوم القيامة
وليس في وجهه مزرعة لحم» (٢). وقال: «من سأل الناس وله ما يكفيه
جاءت مسألته خدوشاً أو كدوحاً في وجهه يوم القيامة» (٣). وقال: «أول

(١) في الأصل: «نظرة».

(٢) أخرجه البخاري (١٤٧٤) ومسلم (١٠٤٠) عن ابن عمر.

(٣) أخرجه أحمد (٣٨٨/١) وأبو داود (١٦٢٦) والترمذي (٦٥١) والنسائي

(٩٧/٥) وابن ماجه (١٨٤٠) عن ابن مسعود. وقال الترمذي: حديث حسن، وقد

تكلم شعبة في حكيم بن جبير من أجل هذا الحديث.

زُمرَةٌ تَلِجُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ كَأَشَدَّ كَوْكَبٍ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً»^(١). وأمثال هذا كثير مما فيه وصف وجوه أهل السعادة بالحسن والبهاء والجمال والنضرة، ووجوه أهل الشقاوة بالقبح والسواد والوحشة والسوء.

وأظهر هذه السّماتِ على الوجوه سِمَةُ الصّدق والكذب، فإن الكذاب يُكسَى وجهه من السواد بحسب كذبه، والصادق يُكسَى وجهه من البياض بحسب صدقه. ولهذا رُوِيَ عن عمر بن الخطاب أنه أمر بتعزيز شاهد الزور بأن يُسوّد وجهه، ويُركب مقلوبًا على الدابة^(٢)، فإن العقوبة من جنس الذنب، فلما سَوّد وجهه بالكذب وَقَلَبَ الْحَدِيثَ سَوّد وجهه وَقَلَبَ فِي رُكُوبِهِ، وهذا أمر محسوس لمن له قلب، فإن ما في القلب من النور والظلمة والخير والشر يَسْرِي كثيرًا إلى الوجه والعين، وهما أعظم الأعضاء ارتباطًا بالقلب.

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلتَعْرِفَنَّهُمْ بَسْمِئِهِمْ﴾ [محمد: ٣٠]، فهذا التعريف داخل تحت المشيئة معلق بها، ثم قال: ﴿وَلتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]، فهذا قسم محقق لا شرط فيه، وذلك أن ظهور ما في قلب الإنسان على لسانه أعظم من ظهوره على وجهه، لكنه يبدو في الوجه بُدْوًا خفيًا يراه الله، ثم يقوى حتى يصير صفة

(١) أخرجه البخاري (٣٢٤٦، ٣٢٥٤)، ومسلم (٢٨٣٤) عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٥٨/١٠) وعبد الرزاق في «المصنف» (٣٢٦/٨).

في الوجه يراها [١١٣ب] أصحاب الفراسة، ثم يقوى حتى يظهر لجمهور الناس، ثم يقوى حتى يُمسَخ الوجه على طبيعة الحيوان الذي هو على خلقه من قرد أو خنزير، كما جرى على كثير من الأمم قبلنا، ويجري على بعض هذه الأمة، كما وعد به الصادق الذي لا ينطق عن الهوى.

فصل

وأهل جمال الصور يُبتلون بالفاحشة كثيرًا، واسمها ضدّ الجمال، فإن الله سماها فاحشة وسوءًا وفسادًا وخبثًا وشبهةً وإجرامًا، وهذه الأشياء ضدّ الجمال، فعُلم أن الجمال الذي يحبه الله ليس جمال الصورة، فإن الله لا ينظر إلى مجرد الصورة، فكيف يكون محبوبًا له؟ والجمال منه ما يحبه الله ومنه ما يبغضه، فإن الله يُبغض التجميل بلباس الحرير والذهب، ويُبغض التجميل بلباس الخيلاء وإن كان ذلك جمالًا. فالجمال ثلاثة أنواع:

جمالٌ خالٍ عن معارضة مفسدة، فهذا يحبه الله.

وجمالٌ مشتمل على مفسدة مبعوضة لله، فهذا يكرهه الله.

وجمالٌ فيه شائبة من هذا وهذا، فهذا يكرهه الله من وجهه ويحبه

من وجهه.

هذا إذا كان جمالًا كسبيًا، وأمّا إن كان جمالًا خلقيًا لا يتعلق بكسب العبد، فهذا لا يتعلق به ثواب ولا عقاب ولا مدح ولا ذم ولا حب ولا بغض، إلا إذا استعان به على ما يحبه الله أو يكرهه كما تقدم،

وقد قال النبي ﷺ: «إن الله جميلٌ يحبُّ الجمال»^(١)، وقال: «إن الله يُبغِضُ الفاحشَ البذيء»^(٢)، وقال: «إن الله لا يُحبُّ الفحشَ ولا التفحُّشَ»^(٣).

وكل واحد من الجمال والقبح له متعلِّقا الخلق والخلق، والخلق يظهر أثره في القول والعمل، فهنا ثمانية أقسام: جمال في الخلق والخلق والقول والفعل، فصاحبه أحمدُ الخلق وأحبُّهم إلى الله. ويُقابله قُبْحٌ في الخلق والخلق والقول والفعل، فصاحبه أقبح الخلق وأبغضهم إلى الله. ثم قد يُرَكَّب بعض هذه الأقسام^(٤) مع بعض، فيكون للرجل [١١٤] جمالٌ في شيء وقبحٌ في غيره، وقد يكون جماله أكثر من قبحه فيغطِّيه ويستتره، وبالعكس، وقد يتعادل فيه هذا وهذا.

ومن تأمل أحوال الخلق وجدهم كذلك، وفي الغالب يكون بين جمال الظاهر والباطن تلازم، وبين قبح الظاهر والباطن تلازم، فإن لكل باطن عنواناً من الظاهر يدل عليه ويُعرف به. وقد جعل الله سبحانه بين الخلق والخلق والظاهر والباطن ارتباطاً والتاماً وتناسباً، ومن ههنا تكلم الناس في الفراسة، واستنبطوا علمها، وهو من أطف العلوم وأدقها، وأصله معرفة المشاكلة والمناسبة والأخوة التي عقدها الله

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠٠٢) عن أبي الدرداء، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) أخرجه مسلم (٢١٦٥) عن عائشة.

(٤) في الأصل: «هذا الأقسام».

سبحانه بين المتشاكلين، ومن لم يكن له نصيبٌ منها لم يكد ينتفع بنفسه ولا بغيره.

وأنت إذا تأملت العالم فقل أن ترى خلقًا مشوّهاً إلا وثمَّ خلقٌ قبيح وفعلٌ يناسبه وقولٌ يناسبه، اللهم إلا لمعارضٍ من تأدّبٍ وتعلّمٍ يُخرجه من مقتضى طبعه، كما يحصل لكثير من الحيوان البهيم من التعليم والتأديب والتمرين ما يخرجه عن مقتضى طباعه، وقل أن ترى خلقًا جميلًا إلا وثمَّ خلقٌ وفعلٌ وقولٌ يناسبه، اللهم إلا لمعارضٍ سوءٍ أخرجته عن مقتضى طبعه، كالطفل الذي وُلِدَ على الفطرة، فلو خُلِّيَ لما نشأ إلا على فطرة الإسلام، لكنَّ معارضَ الكفر أخرجته عن فطرته، والنبي ﷺ ذكر أن الله جميلٌ يحب الجمال^(١)، للفرق بين الكبر الذي يُبغضه الله وأنه ليس من الجمال، وبين الجمال الذي يحبه، فإنه لما قال: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقالُ ذرة من كبرٍ» [١١٤ب]. قالوا: يا رسول الله! الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا، ونعله حسنًا، أفمن الكبر ذلك؟ فقال: «لا، إن الله جميلٌ يحب الجمال، الكبر بطرُّ الحقِّ وغمطُ الناس»^(٢). فأخبر أن تحسين الثوب والنعل قد يكون من الجمال الذي يحبه الله، كما قال تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١].

فإذا كان الظاهر جميلًا والباطن جميلًا أحبه الله، وإذا كان الباطن

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

جميلاً والظاهر غير جميل لم يضره عند الله شيئاً، وإن كان كاسداً عند الناس فإنه عند الله عزيز غالي. فإذا كان للعبد صوت حسن ولو من أحسن الأصوات، وبداً بصوته واستعمله في الغناء، أبغض الله صوته، كما يبغض الصورة المستعملة في الفواحش ولو كانت من أجمل الصور وأحسنها. فهذا فصل نافع جداً في الفرق بين الجمال الذي يحبه الله ويكرهه.

فصل

* قال صاحب السماع^(١): إذا كان النبي ﷺ قد أخبر عن ربه أنه يستمع للصوت الحسن، والنبي ﷺ استمع صوت أبي موسى وأعجبه وأثنى عليه، وقال: «قد أوتي هذا مِزماراً من مزامير آل داود»، فقال له أبو موسى: لو علمت أنك تسمع لحببته لك تحبيراً أي زينته وحسنته، ومنه البرد المحبب. وقد روي أن داود كان يستمع لصوته الحسن الإنس والجن والطير والوحش، وكان يُحمَل من مجلسه أربعمئة جنازة ممن قد مات من قراءته.

* قال صاحب القرآن: عجباً لكم أيها السماعية ولا استدلالكم! فلو أن المنكرين عليكم كرهوا حُسن الصوت وعابوه وذموا مطلقاً، لكان في ذلك احتجاجٌ عليهم، كيف وهم أحبُّ الناس [١١٥] في الصوت الحسن، لكن الشأن فيما يُؤدَى بالصوت.

(١) انظر «الرسالة القشيرية» (ص ٥٠٨).

فهذه الآثار التي ذكر تموها وأكثر منها إنما تدل على استحباب تحسين الصوت بالقرآن، ومن نازع في هذا فالاستدلال بها على تحسين الصوت بالغناء الذي هو قرآن الشيطان ومادة النفاق ورقية الفواحش أفسد من قياس الربا على البيع، فإن بين الغناء والقرآن من التباين أعظم مما بين البيع والربا، ومما بين النكاح والسفاح، ومما بين الشراب الحلال والشراب الحرام، فأين سماع المكاء والتصديّة الذي ذمه الله في كتابه، وأخبر أنه سماع المشركين، من (١) سماع أنبيائه ورسله وأوليائه وحزبه المفلحين؟

وأين سماع المخانيث والقينات والفساق والمغنين من سماع الخلفاء الراشدين والمهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان؟ واقتفوا طريقتهن المثلّى وسبيلهم الأقوم، وسلكوا منهاجهم الواضح.

وكيف يقاس مؤذن الشيطان الداعي بحيّ علي غير الفلاح، على مؤذن الرحمن الداعي إلى السعادة والنجاح؟

وقد تقدم ذكر الحديث الذي رواه الطبراني في معجمه عن النبي ﷺ أن الشيطان قال: يا ربّ اجعل لي قرأنا، قال: قرأك الشعر، قال: اجعل لي [١١٥ب] مؤذناً، قال: مؤذنك المزمار (٢).

(١) في الأصل: «إلى».

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٠٧/٨) عن أبي أمامة الباهلي، وفي إسناده علي بن يزيد الألهاني وعبيد الله بن زحر، وهما ضعيفان.

فمن قاس قرآن الشيطان ومؤذنه على قرآن الرحمن ومؤذنه فالله
حسبته ومُجازيه، وسيعلم يوم الحشر أيّ بضاعة أضاع، وعند الميزان
أَيْثُقَلُ أم يَخِفُّ بما قَدِمَ به من السماع.

وها هنا الناس أربعة أقسام:

أحدها: من يشتغل بسماع القرآن عن سماع الشيطان.

والثاني: عكسه.

والثالث: من له نصيب من هذا وهذا.

والرابع: ليس له نصيب لا من هذا ولا من هذا.

فالاشتغال بالسماع القرآني الرحماني حال السابقين الأولين
وأتباعهم ومن سلك سبيلهم.

والثاني: حال المشركين والمنافقين والفُجَّارِ والفُسَّاقِ والمبطلين
ومن سلك سبيلهم.

والثالث: حال مؤمنٍ له مادتان، مادة من القرآن ومادة من الشيطان،
وهو للغالب عليه منهما.

والرابع: حال الفارغ من ذوق هذا وهذا، فهو في شأنٍ وأولئك في
شأنٍ.

فهذه الآثار التي تضمنت مدح الصوت الحسن بالقرآن وما يحبه
الله، من احتج بها على السماع الشيطاني فقد بَخَسَ حَظَّهُ من العلم
والمعرفة.

فصل

* قال صاحب الغناء^(١): الصوت الحسن يُطَيَّب السير، ويقطع المشاق، وَيَحْمِلُ سامعُهُ معه ما لا يحمله بدونه [١١٦ أ]، ولهذا لما حَدا ذلك الغلام بالإبل قطعَتْ مسيرة ثلاثة أيام في يوم، فلما حطَّ عنها أحمالها ماتت، فإن طيب الصوت هوّن عليها مشقة الحمول فلم تُحِسَّ بها، فلما وضعت عنها أحمالها فرغت قواها.

قال أبو بكر الدُّقِّي^(٢): وحدا هذا الغلام بجَمَلٍ، فهامَ على وجهه، وقطعَ حباله، قال: ولم أسمع صوتًا أطيّبَ منه، ووقعتُ لوجهي حين سمعته، حتى أشار عليه سيده بالسكوت، فسكت.

* قال صاحب القرآن: لا ريبَ أن الصوت المتناهي في الحسن يُحرِّك النفوس تحريكًا عظيمًا جدًّا خارجًا عن العادة، وقد شاهد الناس وسمعوا من ذلك ما هو معلوم، والأصوات من أعظم المحركات للنفوس، ولا يُعادِلُها شيء في حركة النفوس إلا الصور، فإذا اتفق قوة المؤثر واستعداد المحل قوي التأثير، حتى يغيب عن الحسِّ أحيانًا، ويحول بين سامعه وبين مباشرة المؤلم المؤذي، فلا يشعُر به.

وإذا صادف محلًّا مستعدًّا كصغيرٍ أو أنوثةٍ أو جزعٍ أو فرحٍ أو قوةٍ حبٍّ أو رياضةٍ ولطافةٍ روحٍ، حرَّكُهُ غايةَ الحركة، وأزعجَ قاطنَهُ، وأثار

(١) «الرسالة القشيرية» (ص ٥٠٨، ٥٠٩).

(٢) في الأصل: «الرقبي»، وفي تاريخ بغداد (٥/٢٦٦): «الزقي». والتصويب من الرسالة القشيرية وطبقات الصوفية للسلمي (ص ٤٤٨) والأنساب للسمعاني (٥/٣٣٧).

ساكنه، وهذا لا يدل على جواز ولا تحريم ولا مدح ولا ذم، بل دلالة على الذم والمنع أقرب من دلالة على الجواز والاستحباب، فإن هذا يُفسد النفوس أكثر مما يُصلحها، ويضرها أكثر مما ينفعها، وإن كان فيه منفعة يسيرة فأفته ومضرته أكبر من نفعه، وقد قال تعالى للشيطان:

﴿ وَأَسْتَفْزِرُّ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ [الإسراء: ٦٤]، فالصوت الشيطاني يَسْتَفْزِرُّ بني آدم، وصوت الشيطان كل صوت في غير طاعة الله، نُسِبَ إلى الشيطان لأمره به ورضاه به، وإلا فليس هو الصوت نفسه، فصوت الغناء وصوت النوح وصوت المعازف [١١٦ب] من الشبابات والأوتار وغيرها كلها من أصوات الشيطان، التي يَسْتَفْزِرُّ بها بني آدم فَيَسْتَخْفُهُمْ وَيُزَعِّجُهُمْ. ولهذا قال السلف في هذه الآية: «إنه الغناء».

ولا ريب أنه من أعظم أصوات الشيطان التي يَسْتَفْزِرُّ بها النفوس وَيُزَعِّجُهَا وَيُقْلِقُهَا، وهو ضدُّ القرآن الذي تطمئن به القلوب وتسكن وتُخَبِتُ إلى ربها، فصوت القرآن يُسْكِنُ النفوسَ وَيُطَمِّئُهَا وَيُوقِرُهَا، وصوت الغناء يَسْتَفْزِرُّهَا وَيُزَعِّجُهَا وَيُهَيِّجُهَا، كما قيل:

حاملُ الهوى تَعِبُ	يَسْتَفْزِرُّهُ الطَّـرَبُ
كَلَّمَا انْقَضَى سَبَبُ	عَادَ مِنْكَ لِي سَبَبُ
تَضْحَكِينَ لَاهِيَةً	وَالْمَجِيبُ يَتَّحِبُ
تَعَجَّبِينَ مِنْ سَقَمِي	صِحَّتِي هِيَ الْعَجَبُ (١)

(١) الأبيات لأبي نواس في ديوانه (٢٢٧).

فلو لم يكن دليل على أن صوت الغناء والمعازف هو صوت الشيطان لما يستفز به السامع ويُقلقه به ويُزعجه ويُزيل طمأنينته لكفى به دليلاً.

وكذلك صوته الذي يستفز به النفوس عند المصيبة وهو النوح، فيستفزها بهذا الصوت إلى الحزن والأسف والسخط بما قضى الله، ويستفزها بذلك الصوت إلى الشهوة والإرادة والرغبة فيما يبغضه الله، فينهاها بصوت النوح عما أمرها الله به، ويأمرها بصوت الغناء بما نهاها الله عنه. وهذا الصوت هو أحد الأسباب الخمسة التي أقسم الشيطان أن يحثك بها ذرية آدم ويستأصلهم إلا قليلاً، وهي استفزازهم بصوته، والإجلاب عليهم بخيله ورجله، ومشاركتهم في أموالهم وأولادهم^(١). فكل راكب في معصية الله فهو خيالة الشيطان، وكل ماشٍ في معصية الله فمن رجالتيه، وكل مالٍ أُخذ من غير حلّه وأُخرج في غير حقه فهو شريك صاحبه [١١١٧] فيه، وكل ولدٍ من نطفة زنا فهو شريك أبيه فيه.

فتبارك من جعل كلامه شفاءً لصدور المؤمنين، وحياءً لقلوبهم، ونوراً لبصائرهم، وغذاءً لقلوبهم، ودواءً لسقامهم، وقرّة لعيونهم، وفتح به منهم أعيناً عمياً واذاناً صماً وقلوباً غُلْفًا، وأمطر على قلوبهم سحائب ديمه، فاهترت وربت وأنبت من كل زوج بهيج، فأشرق به الوجوه، واستنارت به القلوب، وانقادت به الجوارح إلى طاعته ومحبته، فصبغ

(١) كما في قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَعَتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجَلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ

وَرَجَلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الإسراء: ٦٤].

القلوب به معرفة وإيماناً، وملاًها حكمة وإيقاناً، ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨]، لا كصبغة السماع التي تملأ القلوب هوى وشهوة وظلمة وشركاً، وتُعوِّرُ بصيرة القلب وتطمِسُ نوره وتُنكِّسه وتُخنثُ عزمه. فقلَّ أن ترى سماعياً إلا وهو مخنث العزيمة، يلوحُ التخنيثُ على شمائله وحركاته.

وقد سُمي النبي ﷺ صوت الغناء صوتاً فاجراً أحرق^(١)، فوصفه بالفجور والحمق، بالفجور: الظلم، والحمق: الجهل. وقال لقمان لابنه: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ [لقمان: ١٩]، و المغمي والرقاص أبعد الناس من هذا، فلا هذا غَضٌّ من صوته، ولا هذا قصدٌ في مشيه.

فصل

* قال صاحب الغناء^(٢): نحن نتحاكم في هذه المسألة إلى سيد الطائفة الجنيد، قال أبو عمر^(٣) الأنماطي: سمعته يقول وقد سُئل: ما بال إنسان يكون هادئاً فإذا سمع السماع اضطرب؟ فقال: إنَّ الله لما خاطب الأرواح في الميثاق الأول بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، استفرغتْ عذوبة سماع [الكلام] الأرواح، فإذا سمعوا السماع حرَّكهم ذِكرُ ذلك.

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر «الرسالة القشيرية» (ص ٥٠٩).

(٣) كذا في الأصل وتاريخ بغداد (٧٣/١٢): «أبو عمر» وفي القشيرية: «أبو عمرو».

* [١١٧ب] قال صاحب القرآن: من دُعي إلى تحكيم الله ورسوله وما أنزل على نبيه من الكتاب والحكمة، فلم يرض بذلك، ودعا إلى تحكيم من يصيب ويخطئ، ولم يؤلِّه الله الحكمَ فيما شجر بين المتنازعين، فقد بخرَ حظَّه وأضاع نصيبه.

فهذا النقل إن كان ثابتاً عن الجنيد فهو نقل عن غير معصوم، وإن لم يكن ثابتاً عنه وهو الأليق بمثل جلالته ومعرفته فهو نقل عن غير مصدق عن قائلٍ غير معصوم، فكيف يكون حجة؟ والجنيد أعرفُ بالله من أن يقول مثل هذا، فإنَّ هذا الاضطراب يكون لجميع الحيوان ناطقه وأعجمه، ويكون للكفار والمنافقين والفساق والفجار، ثم الاضطراب قد يكون لحلاوة الصوت ومحبه واستلذاذه، وقد يكون للخوف منه وهيبته، وقد يكون للحزن والجزع، وقد يكون للغضب.

وأيضاً فمن المعلوم قطعاً أنَّ الصوت المسموع ليس هو ذلك الخطاب الأول، ولا هو متعلق به، ولا هو منه بسبيل.

وأيضاً فإنَّ هذا الاضطراب على قرآن الشيطان والغناء الذي هو مادة النفاق ورقية الفجور، كيف يُحرِّك للخطاب بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؟

وأيضاً فإنَّ العبد لو سمع كلام الله بلا واسطة كما سمعه موسى بن عمران لم يكن^(١) سماعه بعدُ لأصوات الألحان والغناء محرِّكاً لذلك مذكراً به. بل المأثور أنَّ موسى مَقَّتَ الأدميين وأصواتهم وكلامهم لما

(١) في الأصل: «يكون».

وقر في مسامعه من كلام ربه جل جلاله^(١).

وأيضاً فإن استلذاذ الصوت أمر طبيعي لا تعلق له بكونهم سمعوا خطاب الرب في الأزل أصلاً.

وأيضاً فإن أحداً لا يذكر ذلك السماع أصلاً إلا بالخبر عنه.
وأيضاً فإن معنى الآية ينبو عما حملها من قال [١١١٨] بهذا القول من وجوه متعددة:

منها: أنه قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، ولم يقل: من آدم، ولا قال: من ظهره، ولا قال: من ذريته.
ومنها: أنه أشهدهم على أنفسهم، ولا بد أن يكونوا عند هذا الإشهاد موجودين، والنفوس البشرية إنما تُحدث عند خلق أبدانها، لا أنها مخلوقة قبل الأبدان.

ومنها: أن المقصود بهذا الإشهاد إثبات الحق وإقامة الحجة، وهذا إنما حصل بعد خروجهم إلى هذه الدار وإقامة الحجة عليهم من الرسل، وبما رُكّب فيهم من العقول ونُصّب لهم من الأدلة، وكيف تقوم الحجة عليهم بأمر لا يذكره أحد منهم؟

ومنها: أنه قال: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ أي حذار أن يقولوا ولثلاً يقولوا، فأخبر أن هذا الإشهاد والتقارير لثلاً

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢٦٥٠) والبيهقي في «الشعب» (١٠٥٢٧) عن ابن عباس. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٠٣/٨): «فيه جوير، وهو ضعيف جداً».

يحتجوا عليه^(١) سبحانه يوم القيامة بغفلتهم عنه، فكيف تقوم عليهم
الحجة بأمرٍ كلهم عنه غافل لا يذكره أحد منهم؟

ومنها: أنه قال: ﴿أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ
بَعْدِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧٣]، فأخبر أنه أقام عليهم الحجة لثلاث أسباب: يحتجوا عليه
بتقليد الآباء، فلو أهلكهم لأهلكهم بذنوب غيرهم، وهذا كله حصل بعد
إرسال الرسل^(٢) وإنزال الكتب وتركيب العقول والأسماع والأبصار
فيهم، فكيف يحصل بهذا العهد الذي لا يذكره أحد؟

ثم إنَّ الجنيد في السماع كان له أحوال: أولها حضوره، ثم المنع
من التكلف له، والرخصة لمن صادفه.

قال القشيري^(٣): «سمعت محمد بن الحسين، يقول: سمعت
الحسين بن أحمد بن جعفر، يقول: سمعت أبا بكر بن ممشاذ، [١١٨ب]
يقول: سمعت الجنيد، يقول: السماع فتنه لمن طلبه، ترويح لمن صادفه.
فأخبر أنه فتنه لمن قصده، ولم يجعله لمن صادفه قربةً ولا
مستحبًا. بل جعله من نوع الراحة، فكيف يقول مع هذا إنه يُذكر
الخطاب المتقدم؟ ثم إنَّ الجنيد ترك السماع وتاب منه، ومنع منه
أصحابه، كما تقدم حكاية ذلك^(٤).

(١) في الأصل: «عليهم».

(٢) في الأصل: «الرسول».

(٣) «الرسالة القشيرية» (ص ٤٤).

(٤) انظر (ص ٤٤).

فصل

*قال صاحب السماع: فهذا أبو علي الدقاق من شيوخ القوم وساداتهم يقول ما حكاه عنه القشيري^(١)، قال: سمعته يقول: السماع حرام على العوام لبقاء نفوسهم، مباح للزهاد لحصول مجاهداتهم، مستحب لأصحابنا لحياة قلوبهم.

*قال صاحب القرآن: إن كان أبو علي الدقاق من شيوخ القوم، فأبو علي الروذباري - الذي شهد فيه القشيري بأنه أظرف المشايخ وأعلمهم بالطريقة، وقد صحب الجنيد والطبقة الثانية، وكان يقول: أستاذي في التصوف الجنيد، وفي الفقه أبو العباس ابن سريج، وفي الأدب ثعلب، وفي الحديث إبراهيم الحربي - سئل عن يسمع الملاهي ويقول: هي لي حلال، لأنني قد وصلتُ إلى درجة لا يؤثر في اختلاف الأحوال، فقال: نعم، وقد وصل لعمري ولكن إلى سقر^(٢).

فقول أبي علي: «هو مباح للزهاد لحصول مجاهداتهم» هو الذي أنكره أبو علي بعينه.

ثم إنَّ هذا التقسيم مما ترده الشريعة، فإنَّ ما حرمه الله ورسوله يستوي في تحريمه العامة والخاصة كسائر المحرمات، فلم يحرم الله على العامة شيئاً ويبحه للخاصة، ثمَّ يستبيحه لخاصة الخاصة، وهل

(١) «الرسالة القشيرية» (ص ٥٠٩).

(٢) «الرسالة القشيرية» (ص ١١٩).

هذا إلا من جنس التلاعب بالدين؟! فلو قال قائل: الخمر حرام على العوام لبقاء نفوسهم وما يقع فيها من العريضة والشر، مباح لمن جاهد [١١١٩] نفسه عن ذلك، مستحب لمن قلبه حيٌّ لا يؤثر فيه شربه، [لما] كان فرقٌ بينه وبين هذا التقسيم، وأين في شرع الله ورسوله فعل مباح لبعض المكلفين، حرام بعينه على بعضهم، مستحب لبعضهم، مع استوائهم في التكليف وأسبابه؟ هذا مما لا يمكن مجيء الشرع به.

وإذا اختلفت الأحكام باختلاف المكلفين اختلفت باختلاف أوصافها، كتحریم نكاح الإمام على القادر الواجد لنكاح حرة، وإباحته للعاجز الخائف العنت، وكوجوب الصوم على المقيم والمرأة الطاهر، وإباحة الفطر للمسافر ووجوبه^(١) على الحائض، وكوجوب الزكاة على المالك للنصاب وسقوطها عن^(٢) العاجز عنه، وتحریم النكاح والوطء على المحرم وإباحته للحلال، وتحریم دخول المسجد على الجنب وإباحته للطاهر. فهذا هو الذي تجيء به الشرائع، وهو تعليق الأحكام بالأوصاف واختلافها بسببها.

فأما أن يكون الفعل حراماً على العامة مباحاً للخاصة مستحباً لخاصة الخاصة، فهذا شرعٌ دينٍ لم يأذن به الله، ثم ما الضابط المفرق بين من يحرم عليه ويباح ويستحب؟ وما هو العامي الذي يحرم عليه والخاص الذي يباح له والخاص الخاص الذي يستحب له؟ وهل هذا

(١) في الأصل: «ووجوه».

(٢) في الأصل: «على».

وأمثاله إلا فتح باب تبديل الدين وتغييره؟ والله المستعان.

* قال صاحب الغناء^(١): فهذا ذو النون المصري من سادات القوم ومشايخ الطريق، سُئِلَ عن الصوت الحسن فقال: مخاطبات^(٢) وإشارات أودعها الله في كل طيب وطيبة. وسئل مرة أخرى عن السماع، [١١٩ب] فقال: واردٌ حقٌّ يُزَعِّجُ القلوبَ إلى الحقِّ، فمن أصغى إليه بحقٍّ تحقَّقَ، ومن أصغى إليه بنفسٍ تزندق.

* قال صاحب القرآن: الحكاية عن أضعافٍ أضعافٍ هؤلاء لا تُجدي عليك شيئاً، فلمَ ذا التكثر بما لا يفيد؟ ثمَّ إنَّ هذا الكلام لا تُعرَفُ صحتهُ عن ذي النون، والكذب على المشايخ كثيرٌ جدًّا، وقد رأى أهل العلم وسمعوا من ذلك ما لا يُحصيه إلا الله. ثمَّ لو سُئِلَتْ صحةُ هذا عن ذي النون فله حكم أمثاله من غير المعصومين الذين يجوز عليهم بل يجب وقوع الخطأ منهم، وغاية أجدهم أن يُعذَّرَ فيما صدر منه باجتهاده، ويكون ذلك العمل منه مغفوراً بنيته وصدقه وحسناته وغير ذلك، وأما أن يُجعلَ قدوةً للناس في ذلك فكلًّا ولماً.

وذو النون قد نُقِلَ عنه أنَّه لما دخل بغداد اجتمع إليه الصوفية فيهم قوَّالٌ، فاستأذنه في أن يقول بين يديه، فأذن له، فابتدأ يقول:

صَغِيرٌ هُوَاكَ عَدَّ بِنِي فَكَيْفَ بِهِ إِذَا احْتَنَّا كَا

(١) «الرسالة القشيرية» (ص ٥٠٩).

(٢) في الأصل: «مخاطبات».

وَأَنْتَ جَمَعْتَ فِي قَلْبِي هَوَى قَدْ كَانَ مَشْتَرَكَا
 أَمَا تَرْتِئِي لِـمُكْتَبٍ إِذَا ضَحِكَ الْخَلِيُّ بِكِي
 فقام ذو النون، وسقط على وجهه، والدم يقطر من جبينه ولا يسقط
 على الأرض، ثم قام رجل من القوم فتواجد، فقال له ذو النون: ﴿الَّذِي
 يَرِيكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الشعراء: ٢١٨]، فجلس الرجل (١).

قال أبو علي الدقاق: كان ذو النون صاحب إشرافٍ على ذلك
 الرجل، حيث نبّهه أن ذلك ليس مقامه، وكان ذلك الرجل صاحب
 إنصافٍ حيث قبل ذلك منه وقعد.

وذو النون أحد الشيوخ الذين حضروا السماع [١٢٠] تأويلاً،
 وليس ذو النون بأجلّ من سفيان الثوري، وشريك بن عبدالله، ومسعر بن
 كدام، ومحمد بن عبدالرحمن بن أبي ليلي، وغيرهم من أئمة الكوفة
 الذين استحلوا النيذ المسكر تأويلاً، ولا بأجلّ من عطاء بن أبي رباح
 وابن جريج وغيرهما ممن استحلّ المتعة والصرف، ولا بأجلّ من
 الأعمش والطائفة ممن استحلّ الأكل في رمضان بعد طلوع الفجر، ولا
 بأجلّ ممن استحلّ أكل ذي الناب من السباع والمخلب من الطير، ولا
 بأجلّ ممن استحلّ إتيان النساء في أدبارهن، ولا بأجلّ ممن جوز
 للصائم أكل البرد، ولا بأجلّ ممن جوز نكاح الزانية مع استمرارها على
 البغاء، وجوز نكاح البنت المخلوقة من مائه سفاحاً، وغير ذلك

(١) «الرسالة القشيرية» (ص ٥١٣).

بالتأويل، وكذلك الذين استحلُّوا قتالَ علي بن أبي طالب من أهل الشام، وكذلك الذين قاتلوا معه من أهل العراق والحجاز، إلى أمثال ذلك مما تنازعت فيه الأمة.

فليس لأحد أن يحتجَّ لأحد القولين بمجرد قول أصحابه وفعلهم، وإن كانوا من أهل العلم والدين، وليس لعالم أن يترك الإنكارَ عليهم وبيانَ ما بعث الله به رسوله لأجل محلهم من العلم والدين، ولا لأحد أن يقدح فيهم ويُفسِّقهم لما هم عليه من العلم والدين، فلا يحتج بقولهم ولا يُؤثِّمهم ولا يترك الإنكارَ عليهم.

فهذا ميزان أهل العلم والاعتدال، والسالك الذي يريد الله ورسوله والدار الآخرة لا يُقنعه في مثل هذا اتباعُ مَنْ ليس قوله بحجة، بل عليه أن يتبع الصراط المستقيم، وما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله، وكان عليه أصحاب نبيه.

فهذه الأصول الثلاثة منها وصل السائرون إلى الله وبها تمسكوا، وما خالفها فهو من السبل التي^(١) [١٢١] على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه^(٢).

(١) في الأصل: «الذي».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه أحمد (١/٤٣٥، ٤٦٥) والدارمي (١/٦٧)

والنسائي في «الكبرى» (١١١٧٤) وابن حبان (٦، ٧) والحاكم في «المستدرک»

(٢/٣١٨) عن ابن مسعود بإسناد حسن، وفيه: خطَّ رسول الله ﷺ خطوطاً عن

يمينه وعن شماله، ثم قال: «هذه السبل، ليس فيها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه».

فصل

الوجه الثاني^(١): قوله: «إن الصوت الحسن مخاطبات وإشارات أودعها الله كل طيب وطيبة»، لا يجوز أن يراد به أن كل صوت طيب كائنًا ما كان فإن الله أودعه مخاطبات يخاطب بها عباده، فإن هذا القول كفر صريح، فإن ذلك يستلزم أن تكون الأصوات الطيبة التي يستعملها المشركون وأهل الكتاب في الاستعانة بها على كفرهم قد خاطب الله بها عباده، وأن تكون الأصوات الطيبة التي يستفز بها الشيطان لبني آدم قد أودعها الله مخاطبات يُخاطب بها عباده، وأن تكون أصوات الملاهي قد أودعها الله مخاطبات يخاطب بها عباده. ومن المعلوم أن هذا لا يقوله عاقل.

ثم لو كان الأمر كذلك فلم فات الأنبياء والصدّيقين وأئمة الإسلام سماع هذه الأصوات الطيبة لينالوا ذلك الخطاب منها؟ فإن استماع مخاطبات الحق من أفضل القربات، فلا يصح أن يكون إطلاق هذا الكلام وعمومه حقًا.

بقي أن يقال: هذا خاصٌّ ومقيّدٌ بالصوت الحسن إذا استعمل على الوجه الحسن، فهذا حق، مثل أن يزيّن به كلام الله، فالصوت الحسن إذا تلى به كتابُ الله فإنه يكون حينئذٍ قد أُودِعَ مخاطبات وإشارات تضمنها الكلام، والصوت الحسن أعان على وصولها وتنفيذها إلى القلب،

(١) من الرد على كلام ذي النون، وما سبق هو الوجه الأول.

فهاتان مرتبتان لحمل هذا الكلام، إحداهما باطلة قطعاً، والثانية صحيحة قطعاً، تبقى بين عموم تلك المرتبة وخصوص هذه مراتب عديدة:

منها: أن يُحمَل ذلك على ما يجد المستمع في قلبه من المخاطبات [١٢١] والإشارات من الصوت وإن لم يقصده المصوِّت، فهذا كثيراً ما يقع لهم، وأكثر الصادقين الذين حضروا هذا السماع يشيرون إلى هذا المقصد، وصاحب هذه الحال يكون لما يسمعه مُذَكِّراً له بما كان في قلبه من الحق. وهذا يكون على وجهين:

أحدهما: من الصوت المجرد الذي لا يُفهم معناه، كأصوات الطيور والرياح والآلات وغيرها، فهذه الأصوات كثيراً ما يُنزِلها السامع على حاله، فيُحرِّك منه ما يناسبه من فرح أو حزن أو غضب أو شوق وغيره، كقول بعضهم^(١):

رُبَّ ورقاء هتوف في الضُّحَى ذاتِ حُسنٍ صدحت في فننِ
ولقد أبكى فلا أفهمها وهى قد تبكى فلا تفهمنى
غير أنى بالجوى أعرفها وهى أيضاً بالجوى تعرِّفنى

(١) الأبيات لأبي بكر الشبلي في «اللمع» للطوسي (ص ٣٧٩) و«طبقات الشافعية» للسبكي (٣/ ١٧٧) وانظر ديوانه (ص ١٥٢). والرواية: «ذات شجو» بدل «ذات حسن». ورواية البيت الثاني في المصادر:

ولقد تشكو فما أفهمها ولقد أشكو فما تفهمنى

وفي بعضها: «ولقد تبكى.... ولقد أبكى.....».

والثاني: أن يكون من الصوت المشتمل على الحروف المنظومة التي لها معنى يُفهم، فيُنزلها السامع على ما يليق بحاله دون ما قصده به القائل، مثل أن يكون في الشعر عتاب وتوبيخ، أو أمرٌ بالصبر على المكروه، أو ذمٌّ على التقصير في القيام بحقوق المحبة، أو تحزينٌ على ما فرط فيه مفرطٌ من الحقوق، أو غضبٌ وحميةٌ على جهاد العدو أو مقاتلته، أو أمرٌ ببذل النفس والمال في نيل المطلوب ورضا المحبوب، أو غير ذلك من المعاني المجملة المشتركة.

وربما قرع السمعَ حروفٌ أخرى لم ينطق بها المتكلم، ولكن هي على وزن حروفه التي نطق بها، كما نقل عن بعضهم أنه سمع قائلًا يقول: «سَعْتَرِ بَرِّي» فحصل له وجدٌ، ف قيل له: ما سمعت؟ فقال: سمعتُ [١٢١ب] اسعَ تَرى بَرِّي^(١).

وكل واحد إنما يسمع من حيث هو، كما يُحكى أن عتبة الغلام سمع قائلًا يقول: سبحانَ ربِّ السماء، إن المحبَّ لفي عَناءٍ. فقال عتبة: صدقت. وسمع رجل آخر ذلك القول، فقال: كذبت^(٢). فكل منهما سمع على ما شاكل حاله.

وهذه هي التي يُسمِّيها القوم إشاراتٍ ومخاطباتٍ، [والمخاطبات] من جنس دلالات الألفاظ، والإشارات من جنس دلالات القياس، وهذه يستعملها القوم كثيرًا فيما يرونه ويسمعونه، وبعضهم يغلو فيها

(١) الخبر عن أبي سليمان الدمشقي في «الرسالة القشيرية» (ص ٥١٦).

(٢) انظر «الرسالة القشيرية» (ص ٥١٦).

غلوًا مُفْرِطًا، وكثير من الناس يَنْبُو فهمه عنها، والصواب فيها التوسط، وهي تصح بثلاثة شروط:

أحدها: أن يكون المعنى صحيحًا في نفسه.

الثاني: أن لا يكون في اللفظ ما يُضادُّه.

الثالث: أن يكون بينه وبين معنى اللفظ الذي وضع له قدرٌ مشترك يفهم بواسطته.

فإذا كانت دلالة الإشارة مؤيِّدةً بهذه الأصول الثلاثة فهي إشارة صحيحة، ولنذكر لذلك أمثلة:

منها قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَرَّءَانٌ كَرِيمٌ﴾ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿[الواقعة: ٧٧-٧٩]، فحقيقة هذا أنه لا يمسُّ محله (١) إلا المطهَّر، وإشارته أنه لا يجد حلاوته ويزوق طعمه ويُبَاشِرُ حقائقه (٢) إلا القلبُ المطهَّر من الأنجاس والأدناس، وإلى هذا المعنى أشار البخاري في صحيحه (٣)، فهذه من أصح الإشارات.

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣]، إشارة هذه الآية أن برَّ القلب يُوجب نعيم الدنيا، ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ إشارة هذه

(١) في الأصل: «ملحة».

(٢) في الأصل: «حقائقه قلبه».

(٣) (٥٠٨/١٣) (مع الفتح) قال: «لا يمسُّه: لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن بالقرآن، ولا يحمله بحقه إلا الموقن».

الآية أن فجوره يوجب جحيمها، وهذا قد يقال: [١٢٢] إنه مراد من النعيم والجحيم الأكبرين، وقد يقال: إنه مفهوم بإشارة الآية وهو أظهر.

ومنها قوله عن نبيه: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، فمن أصح الإشارات إشارة هذه الآية، وهي أن من صحب رسول الله ﷺ وما جاء به بقلبه وعمله وإن لم يصحبه ببدنه فإن الله معه.

ومنها قوله تعالى لرسوله: ﴿وَمَا كَانُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]، فأشارة هذه الآية أن محبة الرسول وحققة ما جاء به إذا كان في القلب فإن الله لا يعذبه، لا في الدنيا ولا في الآخرة، وإذا كان وجود الرسول في القلب مانعاً من تعذيبه فكيف بوجود الرب^(١) تعالى في القلب؟ فهاتان إشارتان.

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، فدلالة لفظها أنه لا يغير نعمه التي أنعم بها على عباده حتى يغيروا طاعته بمعصيته، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]. وإشارتها أنه إذا عاقب قوماً وابتلاهم، لم يغير ما بهم [١٢٢ب] من العقوبة والبلاء، حتى يغيروا ما بأنفسهم من المعصية إلى الطاعة، كما قال العباس عمُّ

(١) في الأصل: «رب».

رسول الله ﷺ: «ما نزلَ بلاءٌ إلا بذنب، ولا رُفِعَ إلا بتوبة»^(١). ومنه قول النبي ﷺ: «لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة»^(٢). فإذا منع الكلب والصورة دخولَ الملك إلى البيت، فكيف تدخل معرفة الرب ومحبته في قلب ممتلئ بكلاب^(٣) الشهوات وصورها؟

وكذلك قوله: «لا أُحِلُّ المسجدَ لحائضٍ ولا جُنُبٍ»^(٤)، فإذا حرم بيت الرب على الحائض والجنب، فكيف بمعرفته ومحبته والتنعم بذكره على حائض القلب وجنبه؟

فهذه إشارات صحيحة، وهي من جنس مقاييس الفقهاء، بل أصح من كثير منها.

فصل

وأما قوله: «إن السماع واردٌ حقٌّ يُزعجُ القلوبَ إلى الحق، فمن أصغى إليه بحقٍ تحقَّق، ومن أصغى إليه بنفسٍ تزندق»، فهذا الكلام ظاهره متناقض، لأن قائله وصفه بأنه واردٌ حقٌّ يُزعجُ القلوبَ إلى الحق،

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٥٩/٢٦) من دعاء العباس بن عبدالمطلب بلفظ: «اللهم إنه لم ينزل بلاءً إلا بذنب، ولم يُكشَف إلا بتوبة...». وإسناده ضعيف جدًا.

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٠٢) ومسلم (٢١٠٦) عن أبي طلحة.

(٣) في الأصل: «بكتاب» تحريف.

(٤) أخرجه أبو داود (٢٣٢) عن عائشة. وفيه جسارة بنت دجاجة العامرية لم يوثقها سوى العجلي، وذكرها ابن حبان في «الثقات» (١٢١/٤).

ثم حكم عليه بأن من أصغى إليه بنفسٍ تزندق، وواردُ الحقّ [الذي] يزعج القلوب إلى الحق لا يكون الإصغاء إليه موجبًا للتزندق.

والذي يصح حمل كلام [١١٢٣] هذا القائل عليه أن السماع الذي قَصَدَهُ أولاً هو السماع الذي يَقْصِدُهُ أهل الإرادة لله، فهو يُحَرِّك قلوبَهُم إلى الله الذي يريدون وجهه، وهو معبودهم و محبوبهم ونهاية مطلوبهم، فهم^(١) يسمعون بالله والله، فسماعهم يُزَعِّج قلوبهم إلى الله لما فيها من محبته وإراداته، والسماع يُحَرِّك نارَ الإرادة وَيُضْرِمُهَا. ثم قال: من أصغى إليه بنفسٍ تزندق، فإن أصغى إليه بإرادة العلو في الأرض والرئاسة، وجعل محبة الخالق من جنس محبة المخلوق، وجعل ما يطلب من قرب الرب تعالى والوصول [إليه] من جنس ما يطلب من قرب المخلوق والوصول إليه، أوجب له ذلك تزندقاً في الاعتقاد، فيصير صاحبه منافقاً زنديقاً.

ولهذا تزندق بالسماع طوائف لا يُحْصِيهِم إلا الله، كما تزندق بالكلام، ولم يكن أضّر على الأمة من هاتين الطائفتين: أهل السماع وأهل الكلام، وقد ذمّ الشافعي رحمه الله الطائفتين وبالغ في ذمهم، وشهد على إحداهما بأن طريقتهم من إحداث الزنادقة، وحكم على الأخرى بأن تُضْرَبَ بالجريد والنعال ويُطَافَ بها في القبائل والعشائر، لعلمه رضي الله عنه بالضرر الداخل على الأمة والدين من الطائفتين.

(١) في الأصل: «فهو» خطأ.

ويكفي شهادةُ هذا الذائق للسمع بأن من أصغى إليه بنفسٍ تزندق. والنفس إما أن يُراد بها ذاتُ الإنسان، أو روحه المدبّرة لبدنه، أو صفاتها من الشهوة والغضب والهوى وغيرها، فإن البشر لا يخلو من ذلك، ولو فُرِضَ أن قلبه يخلو عن حركات هذه القوى فعدمُها شيءٌ وسكونها شيءٌ آخر، والعدم [١٢٣ب] ممتنع عليها، وغايتها أن تسكن، ومن شأن السمع أن يحرك الساكنَ ولا بدَّ، فكيف يُمكن الإنسان أن يسكنَ لشيءٍ مع ملابسته لما يوجب حركته؟ هذا من المحال عادةً، وهو من التفريق بين الملزوم ولازمه، أو الجمع بين الشيء وضدّه. وهو نظيرُ أن يقال: أدم النظرَ إلى هذه المرأة الشابة الحسنة الجميلة، من غير أن تُحركَ نفسك لإرادتها وطلبها، وهل الأمر بهذا إلا من أحمق الناس؟ ولهذا قال بعض العارفين: إن أحوال السمع بعد مباشرته تبقى غير مقدورة للإنسان، بل خارجة عن حد التكليف، وهذا غير معذور فيه لمباشرته أسبابه، فهو كمن زال عقله بالسُّكر اختيارًا.

وقوله: «ومن أصغى إليه بحقٍ تحقّق»، عليه فيه أمران:

أحدهما: أن يقال: الإصغاء إليه بحق لا يخالطه باطل، أمرٌ غير مقدور عليه لبشرٍ، وغاية ما في قوة صاحب الرياضة والصفاء التام أن يكون حال الإصغاء لا يجدُ في نفسه إلا طلبَ الحق وإراداته، ولكن من أين يثقُ بنفسه أنه يبقى على ذلك؟ والواقع أنه إذا سمع خالط (١) الإصغاء بالحق الإصغاء بالنفس، فإن تجرّد الإنسان عن صفاته اللازمة

(١) في الأصل: «خالط».

لذاته ممتنع.

الأمر الثاني: أن يقال لك: ومن أين لك أن كل من أصغى إليه بحق تحقق؟ بل المصغى إليه بحق قد يحصل له من الزندقة والنفاق علمًا وحالًا ما لا شعورَ له به، كما قال عبدالله بن مسعود: «الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل»^(١). والنفاق هو الزندقة [١٢٤].

وامتحن^(٢) أهل الغناء بأهل القرآن، وأهل القرآن بأهل الغناء،

(١) سبق تخريجه.

(٢) يبدو أن هنا سقطًا، فإن الكلام غير متصل بما قبله. وهذا مكان تغيير الورقة، فالظاهر سقوط ورقة أو أكثر. وفي الاستقامة (١/٣٩٣) بعد قوله: «والنفاق هو الزندقة»: ومن المعلوم أن البقل ينبت في الأرض شيئًا فشيئًا لا يُحسّ الناس نباته، فكذلك ما يبدو في القلوب من الزندقة والنفاق قد لا يشعر به أصحاب القلوب، بل يظنون أنهم ممن تحقق، ويكون فيهم شبه كثير ممن تزندق. ويوضح هذا أن دعوى التحقق والتحقيق والحقائق قد كثرت على السنة أقوام، هم من أعظم الناس زندقة ونفاقًا، قديمًا وحديثًا، من الباطنية القرامطة، والمتفلسفة الاتحادية، وغير هؤلاء.

وكذلك قوله: «هو وارد حق يزعج القلوب إلى الحق».

يقال له: إن كان قد تنزعج به بعض القلوب أحيانًا إلى الحق، فالأغلب عليه أن يزعجها إلى الباطل، وقلما يزعجها إلى الحق محضًا.

بل قد يقال: إنه لا يفعل ذلك بحال، بل لا بد أن يُضم إلى ذلك شيء من الباطل، فيكون مزعجًا لها إلى الشرك الجلي أو الخفي، فإن ما يزعج إليه هذا السماع مشترك بين الله وبين خلقه، وإنما يزعج إلى القدر المشترك، وذلك هو الإشراك بالله.

وابتلى كل واحد من الفريقين بالآخر. فلا يصطلحان إلا إذا ترك أحدهما ما عنده لما عند الآخر، وامتنحن كلاً من الإنسان والشيطان بالآخر، وسلط كلاً منهما على الآخر وأعانه عليه، فأعان الإنسان على الشيطان بطاعته وذكره وتقواه وصبره واستعاذته بربه منه، وأعان الشيطان على الإنسان بفجوره ونسيانه لربه ومعصيته لأمره. وامتنحن بدن الإنسان وجوارحه بنفسه، ونفسه ببدنه وجوارحه. ولا تزال الخصومة بين يدي الرب تعالى بين هؤلاء الممتحن بعضهم ببعض، حتى تختصم الروح والبدن بسبب ذلك الامتحان والفتنة، فيحكم بينهما بأعدل الحكم.

= ولهذا لم يذكر الله هذا السماع في القرآن إلا عن المشركين، الذين قال فيهم: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥]، فلا يكون مزعجاً للقلوب إلى إرادة الله وحده لا شريك له، بل يزعجها إلى الباطل تارة، وإلى الحق والباطل تارة.

ولو كان يزعج إلى الحق الذي يحبه الله خالصاً أو راجحاً، لكان من الحسن المأمور به المشروع، ولكان شرعه رسول الله ﷺ بقوله أو فعله، ولكان من سنة خلفائه الراشدين، ولكان المؤمنون في القرون الثلاثة يفعلونه، لا يتركون ما أحبه الله ورسوله، وما يحرك القلوب إلى الله تحريكاً يحبه الله ورسوله.

وأيضاً فهذا الإزعاج إلى الحق، قد يقال: إنه إنما قد يحصل لمن لم يقصد الاستماع، بل صادفه مصادفة سماع شيء يناسب حاله، بمنزلة الفأل لمن خرج في حاجة. فأما من قصد الاستماع إليه والتغني به، فقد قال النبي ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن».

وجعل سبحانه حكمة هذه الفتنة والمحنة استخراج صبرهم وصدقهم، فمن صبر وصدق كانت الفتنة في حقه عين كماله وسعادته، ومن لم يصبر ولم يصدق كانت هذه المحنة سبب هلاكه، فهذه المحنة عين حكمته، فهي كالكيّر الذي ميّز بين الطيب والخبيث، ولولا هذا الامتحان لما تميز هذا من هذا. وإذا عرف العبد هذا فما أولاه بالصبر والتأسي إذا علم أن العالم كله في محنة! وبالله التوفيق.

وسمع قارئاً يقرأ: ﴿الْمَنْ شَرَّحَ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۖ﴾

الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۖ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۖ﴾ [الانشراح: ١-٤]، فقال: شرح الله صدر رسوله أتمّ الشرح، ووضع عنه وزره كل الوضع، ورفع ذكره كل الرفع، وجعل لأتباعه حظاً من ذلك، إذ كل متبوع فلأتباعه حظ ونصيب من حظ متبوعهم في الخير والشر على حسب اتباعهم [١٢٤ب] له.

فأتبع الناس لرسوله ﷺ أشرحهم صدراً، وأوضعهم وزراً، وأرفعهم ذكراً، وكلما قويت متابعته علماً وعملاً وحالاً وجهاداً، قويت هذه الثلاثة حتى يصير صاحبها أشرح الناس صدراً، وأرفعهم في العالمين ذكراً. وأما وضع وزره فكيف لا يوضع عنه ومن في السماوات والأرض ودواب البر والبحر يستغفرون له؟

وهذه الأمور الثلاثة متلازمة، كما أضدادها متلازمة، فالأوزار والخطايا تقبض الصدر وتضيقه، وتخمّل الذكر وتضعه، وكذلك ضيق الصدر يضع الذكر ويجلب الوزر، فما وقع أحد في الذنوب والأوزار إلا من ضيق صدره وعدم انشراحه، وكلما ازداد الصدر ضيقاً كان أدعى

إلى الذنوب والأوزار، لأن مرتكبها إنما يقصد بها شرح صدره، ودفع ما هو فيه من الضيق والخرج، وإلا فلو اتسع بالتوحيد والإيمان ومحبة الله ومعرفته وانشرح بذلك لاستغنى عن شرحه بالأوزار، ولهذا أكثر من يُواقع المحظورَ إنما يدفع به عن نفسه ما فيها من الهمّ والغمّ والضيق، وكثيراً ما تبرّد شهوته وإرادته، ومع هذا يحرض على المعاودة تداوياً منه بزعمه، كما أفصح عن هذا شيخُ الفسوق أبو نواس بقوله (١):

وكأسٍ شربتُ على لذةٍ وأخرى تداويتُ منها بها

فإذا حمل العبد الأوزار أوجب له ذلك ضيقَ الصدر وحمولَ الذكر، ثم حمولُ الذكر يوجب له ضيقَ الصدر، [١٢٥] فلا يزال المعرض عن طاعة الله ورسوله متردداً بين هذه المنازل الثلاث، كما لا يزال المطيع لله ورسوله الذي باشر قلبه روحَ التوحيد وتجريدَه ومحبةَ الله ورسوله وامثالَ أمره دائراً بين تلك المنازل الثلاث.

وإذا ثَقُلَ الظهر بالأوزار منع القلبَ من السير إلى الله، والجوارح من النهوض في طاعته، وكيف يقطع مسافةَ السفر مُثَقَلًا بالحمل على ظهره؟ وكيف ينهض إلى الله قلب قد أثقلته الأوزار؟ فلو وُضعت عنه أوزاره لنهض وطار شوقاً إلى ربه، ولا ثَقُلَ عسرُه يسراً، فإن ضيق الصدر وحمل الوزر وحمول الذكر من أعظم العسر، ومعه يسرٌ يقبله إليه، وهو تجريد التوحيد وتجريد الطاعة بمتابعة الرسول، وهما

(١) البيت ليس لأبي نواس، بل للأعشى في ديوانه (ص ١٧٣) من قصيدة مشهورة له.

الأصلان اللذان ختم بهما السورة، فقال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾﴾ [الانشراح: ٧-٨]، فالنصب: التفرغ للعبادة والطاعة. والرغبة إلى الله وحده: تجريد توحيده. فمتى قام بهذين الأصلين حصل له من شرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر بحسب ما قام به، وبُذِلَ عُسرُه يسرًا.

وسمع قارئًا يقرأ: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ

ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١-٣]،

فقال: لو أن الناس أخذوا كلهم بهذه السورة لو سعتهم أو كفتهم، كما

قال الشافعي رضي الله عنه: «لو فُكِّرَ الناس في سورة والعصر

لكفتهم»^(١). فإنه سبحانه قسَّم نوع الإنسان فيها قسمين: خاسرًا وربحًا،

فالربح من نصح نفسه بالإيمان والعمل الصالح، ونصح الخلق بالوصية

بالحق المتضمنة [١٢٥ب] لتعليمه وإرشاده، والوصية بالصبر المتضمنة

لصبره هو أيضًا، فتضمنت السورة النصيحتين والتكميلين وغاية كمال

القوتين، بأخصر لفظ وأوجزه وأهدبه وأحسنه ديباجةً وألطفه موقعًا.

أما النصيحتان فنصيحة العبد نفسه، ونصيحة أخاه بالوصية بالحق

والصبر عليه.

وأما التكميلان فهو تكميله نفسه وتكميله أخاه.

وأما كمال القوتين فإن النفس لها قوتان: قوة العلم والنظر،

(١) انظر «تفسير ابن كثير» (٨/٣٨٥٢).

وكمالها بالإيمان، وقوة الإرادة والحب والعمل، وكمالها بالعمل الصالح، ولا يتم ذلك لها إلا بالصبر.

فصار ههنا ستة أمور: ثلاثة يفعلها في نفسه ويأمر بها غيره، تكميل قوته العلمية بالإيمان، والعملية بالأعمال الصالحة، والدوام على ذلك بالصبر عليه، وأمره لغيره بهذه الثلاثة، فيكون مؤتمراً بها أمراً بها متصفاً بها معلماً لها داعياً إليها، فهذا هو الرابع كل الربح، وما فاته من الربح بحسبه وحصل له نوع من الخسران، والله المستعان وعليه التكلان.

فصل

*قال صاحب الغناء: لا ندري ما غرضك بهذه الشواهد وتكثيرها؟ ولا ندري ما تعلقها بمسألة السماع وارتباطها بها نفيًا وإثباتًا؟

*قال صاحب القرآن: الغرض بهذه الشواهد التنبيه على فتح سماع القرآن وما يثيره من كنوز العلم والإيمان، والاستغناء عن فتح سماع الشعر وما يثيره من النفاق والشهوات، والموازنة بين هذا الذوق في القرآن الذي ذكر منه دون سَمِّ الخياط بالنسبة إلى ما وراءه وبين ذوق سماع الشعر، فهل يجد صاحب الغناء في سماعه لطيفة [١٢٦] من هذه اللطائف التي نبهنا عليها أدنى تنبيه؟ وهل يمكنه أن يستثمر من الغناء فائدة من هذه الفوائد التي تُنبت الإيمان في القلب كما يُنبت الماء البقل؟ فإن وجد شيئاً من هذا الذوق فليُفدنا إياه وليضع فيه كتاباً أو أوراقاً، أفلا يستحي العاقل من نفسه إن لم يستحي من الله ورسوله

وعبادہ المؤمنین أن يعرض عن مثل هذا الذوق والمعرفة إلى ذوق الغناء الذي هو قرآن الشيطان؟ ثم لا يقنع بذلك حتى يراه قرابة وطاعة وزيادة في حاله وإيمانه، ثم لا يقنع بذلك حتى يرجحه على^(١) سماع القرآن من وجوه متعددة، فوالله لو كان الأمر كما تزعمون لما سبقتم صاحب القرآن إليه، ولزاحمكم عليه أشدّ مزاحمة، ولكن كلام الله عنده أجلُّ وأوقر وأعظم أن يزاحمه بقرآن الشيطان أو يجمع بينه وبينه، فإنه لا تجتمع بنتُ رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحدٍ أبدًا^(٢).

***قال صاحب الغناء: فأوجدونا في السنة كراهية رسول الله ﷺ للغناء ومنعه منه أصرح مما ذكرتم، لنزداد بصيرة.**

***قال صاحب القرآن: في بعض ما ذكرنا كفاية لمن بصّره الله، وقد روى أبو يعلى الموصلي في مسنده^(٣) من حديث أبي برزة قال: «كنا مع النبي ﷺ في سفر فسمع رجلين يتغنيان، فقال: من هذان؟ فقيل له: فلان و فلان، فقال: اللهم اركسهما في الفتنة ركسًا، ودعّهما إلى النار دعًا». فلو كان الغناء مباحًا أو قرابة لم يدعّ عليهما.**

(١) في الأصل: «عن».

(٢) يشير إلى حديث سبق تخريجه.

(٣) رقم (٧٤٣٧). وأخرجه أيضًا ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٣٢/١٥-٢٣٣) وأحمد في «المسند» (٤/٤٢١)، والبزار في مسنده (٣٨٥٩). وإسناده ضعيف جدًا، مسلسل بالضعفاء والمجاهيل: يزيد بن أبي زياد ضعيف، وسليمان بن عمرو ابن الأحوص مجهول، وأبو هلال لا يعرف.

وقد روى الطبراني [١٢٦ب] في معجمه^(١) من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «قال إبليس لربه: يا ربّ قد أُهبط آدم، وقد علمتُ أنه سيكون كتابٌ ورسلاً، فما كتابهم ورسلمهم؟ قال: رسلهم الملائكة والنبيون منهم، وكتبهم التوراة والزبور والإنجيل والفرقان. قال: فما كتابي؟ قال: كتابك الوشم، وقرآنك الشعر، ورسلك الكهنة، وطعامك ما لا يذكر اسم الله عليه، وشرابك كل مسكر، وصدقك الكذب، وبيتك الحمام، ومصايدك النساء، ومؤذنتك المزمار، ومسجدك الأسواق».

وقال أبو الصهباء: سألت ابن مسعود عن هذه الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ [لقمان: ٦] فقال عبد الله: هو والذي لا إله غيره: الغناء.

وقال ابن عباس: نزلت هذه الآية في الغناء. صح ذلك عنهما^(٢).
قال أبو عبد الله الحاكم: تفسير الصحابي عندنا في حكم المرفوع^(٣).
وقال ابن مسعود: إذا ركب الرجل الدابة فلم يذكر اسم الله عليه

(١) رقم (١١١٨١). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/١١٤): فيه يحيى بن صالح الأيلي، ضعفه العقيلي. وأخرجه أيضاً أبو نعيم في الحلية (٣/٢٧٨، ٢٧٩) عن الطبراني وقال: هذا حديث غريب من حديث عبيد الله بن عمير وإسماعيل بن أمية، تفرد به عنه يحيى بن صالح الأيلي.

(٢) سبق تخريج الأثرين.

(٣) قال في المستدرک (٢/٢٥٨): ليعلم طالب العلم أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل عند الشيخين حديث مسند.

رَدِّفَهُ الشَّيْطَانُ، فَقَالَ لَهُ: تَغْنَى، فَإِنْ لَمْ يُحْسِنْ قَالَ لَهُ: تَمَنَّ (١).

وفي سنن ابن ماجه (٢) أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: أتأذن لي في الغناء من غير فاحشة؟ فأني لا أرزق إلا من دفي بكفي، فقال: «[لا] آذنُ لك ولا كرامة، كذبتَ عدوَّ الله، لقد رزقك حلالاً طيباً، فاخترتَ ما حرّم الله من رزقه مكانَ ما أحلَّ الله، أما إنك إن نلتَ بعد التقدمة منه شيئاً ضربتُك ضرباً وجيعاً، وحلقتُ رأسك مُثلة، ونفيتُك من أهلِكَ، وأحللتُ سلبك نُهبةً لفتيان [١٢٧] المدينة». فقام وبه من الشر والخزي ما لا يعلمه إلا الله، فلما ولى قال النبي ﷺ: «هؤلاء العصاة من مات منهم بغير توبة حشره الله يوم القيامة كما كان، مخنثاً عرياناً لا يستتر من الناس بهُدبية، كلما قام صرع».

وفي الغيلانيات (٣) عن علي قال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ بِكسر المزامير، وأقسم ربي لا يشرب عبد في الدنيا خمراً إلا سقاه الله يوم

(١) أخرجه عبدالرزاق في «المصنف» (٣٩٧/١٠) والطبراني في «المعجم الكبير» (٨٧٨١) عنه موقوفاً. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٣١/١٠): رجاله رجال الصحيح.

(٢) رقم (٢٦١٣). قال البوصيري في الزوائد: في إسناده بشر بن نمير البصري، قال فيه يحيى القطان: كان ركناً من أركان الكذب. وقال أحمد: ترك الناس حديثه، وكذا قال غيره. ويحيى بن العلاء، قال أحمد: يضع الحديث، وقريب منه ما قال غيره.

(٣) برقم (٨٤). وأخرجه أيضاً الآجري في تحريم النرد والشطرنج (ص ١٩١). وفي إسناده موسى بن عمير، كذبه أبو حاتم وضعفه ابن عدي. انظر «ميزان الاعتدال» (٢١٥/٤).

القيامة حميمًا بعدُ معذبًا أو مغفورًا له». ثم قال النبي ﷺ: «كَسْبُ
المغنية والمغني حرام، وكسب الزانية سُخْت، وحقُّ علي الله أن لا
يُدخِل الجنةَ بدنًا نَبَتَ من سُخْتٍ».

فلو كان الغناء حلالًا لم يكن [كسبُه] حرامًا، ولم يقرب بينه وبين
كسب الزانية، وبين عمله وعمل الزانية.

وفي مسند مسدد بن مسرهد^(١) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ
قال: «يُمسَخ قوم من أمتي في آخر الزمان قردهً وخنازيرًا»، قالوا: يا
رسول الله! أمسلمون هم؟ قال: «نعم، يشهدون أن لا إله إلا الله وأني
رسول الله ويصدقون ويصلُّون»، قالوا: فما بالهم يا رسول الله؟ قال:
«اتخذوا المعازفَ والقيناتِ والدفوفَ، وشربوا هذه^(٢) الأشرطة، فباتوا
على شرابهم ولهوهم فأصبحوا قد مُسِخُوا».

وفي مسند الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه^(٣) عن أبي أمامة أن
رسول الله ﷺ قال: «لا يحل شراء المغنيات ولا بيعهن ولا تعليمهن ولا
تجارة فيهن وثمانهن حرام»، وتلا هذه الآية: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٥ / ١٦٤) وابن أبي الدنيا في «ذم
الملاهي» (٨٩) وأبو نعيم في «الحلية» (٣ / ١١٩). وإسناده حسن.

(٢) في الأصل: «على هذه».

(٣) أخرجه أحمد (٥ / ٢٦٤) والترمذي (١٢٨٢، ٣١٩٥) وابن ماجه (٢١٦٨). وقال
الترمذي: هذا حديث غريب، إنما يروى من حديث القاسم بن أبي أمامة، والقاسم
ثقة، وعلي بن يزيد يضعف في الحديث. قلت: وفي إسناده عبيد الله بن زحر، وهو
أيضًا ضعيف.

الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴿ [لقمان: ٦]، [١٢٧ ب].

وفي صحيح البخاري (١) عن عبد الرحمن بن غنم قال: حدثني أبو عامر أو أبو مالك الأشعري والله ما كذَّبني أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ليكوننَّ في أمتي أقوام يستحلُّون الحرير والخمر والمعازف، ولينزلنَّ أقوام إلى جنبِ عِلْمٍ يروحُ عليهم بسارحةٍ لهم، فيأتيهم رجل لحاجةٍ فيقولون له: ارجع إلينا غداً، فيبيئهم الله عز وجل، ويضع العِلْمَ عليهم، ويمسحُ آخرين قردةً وخنزيرًا إلى يوم القيامة».

وهذا حديث صحيح لا مطعن فيه، وأخطأ مَنْ طعن فيه بأن البخاري علَّقه ولم يسنده، فإن البخاري في صحيحه احتج به، وجزم بروايته عن علقه عنه، فقال: «وقال هشام بن عمار». وقد لقي البخاري هشام بن عمار وروى عنه، وقد رواه عن هشام ثقتان ثبتان لا مطعن فيهما فهو صحيح متصل عند أهل الحديث (٢).

فصل

*قال صاحب الغناء: قد روى الإمام أحمد (٣) عن نافع قال: كنا

(١) برقم (٥٥٩٠).

(٢) انظر «فتح الباري» (١٠/٥٢ وما بعدها).

(٣) في «المسند» (٢/٨، ٣٨). وأخرجه أيضًا أبو داود (٤٩٢٤) وابن ماجه (٦٩٣)،

وقال أبو داود: هذا حديث منكر. قال العظيم آبادي في «عون المعبود»

(٤/٤٣٤): هكذا قاله أبو داود، ولا يُعلم وجه النكارة، فإن هذا الحديث رواه

كلهم ثقات، وليس بمخالف لرواية أوثق الناس.

مع ابن عمر في سفر، فسمع صوت زامرٍ فوضع إصبعيه في أذنيه وعدَلَ
 عن الطريق، ثم قال: يا نافع أسمع؟ قلت: لا، فراجع الطريق، ثم قال:
 هكذا رأيتُ رسول الله ﷺ فعل». فلو كان صوت الزمر حرامًا لما أقرَّ
 عبدالله نافعًا على أن يسمعه، وإنما سدَّ ابن عمر أذنيه تورُّعًا وكراهةً،
 وكذلك فعل النبي ﷺ، وإذا ثبت حِلُّ الزمر فالشبابات والمواصل
 والدفوف المصلصلة مثله [١٢٨].

* قال صاحب القرآن: عجبًا لكم أيها السماعاوية! كيف تدعون
 المحكم وتتمسكون بالمتشابه؟ وهذا شأن كل مبطل، وهذا الحديث هو
 إلى أن يكون حجةً عليكم أقربُ من أن يكون حجةً لكم على ما تقررونه
 من سماع ما حرمه الله ورسوله. فإنَّ سدَّ النبي ﷺ لأذنيه من أبين الأدلة
 على أنَّ هذا الصوت منكر، وهو من الأصوات التي ينبغي سدُّ الآذان
 عند سماعها، لأنها مما يُبغضه الله ورسوله. وسدُّ الأذنين عند هذا
 الصوت نظيرُ غَضِّ البصر عند رؤية المحرَّمات.

وأما كونه لم يأمر نافعًا بسدِّ أذنيه عنده، فلأنَّ المحرم إنما هو
 الاستماع والإصغاء، لا السماع من غير إصغاء واستماع، فلا يجب على
 الإنسان سدُّ أذنيه عند سماع الأصوات المحرمة، وإنما الذي يحرم قصد
 استماعها والإصغاء إليها.

ونظير هذا احتجاجكم بغناء الجويريتين في بيت النبي ﷺ، وأنه
 سمعه ولم ينكره، فأخطأتم في النظر، ولم تفرقوا بين فعل النبي ﷺ
 وفعلكم، ولا بين فعل نافع وفعلكم، فأنتم تقصدون الاستماع، والسماع

غير الاستماع، وكذلك فرق الفقهاء في سجود التلاوة بين السامع والمستمع، فاستحبوه للمستمع، ومنهم من أوجبه عليه، بخلاف السامع. والسامع هو الذي يصل الصوت إلى مسامعه من دون قصدٍ إليه، والمستمع المصْغِي بسمعه إليه، والأول غير مذموم فيما يذم استماعه، ولا ممدوح فيما يمدح استماعه، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥]، فمدحهم على الإعراض [١٢٨ب] عنه، ولم يذمهم على سماعه إذا كان عن غير قصد منهم. وقال النبي ﷺ: «من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون، صُبَّ في أذنيه الآنك يوم القيامة»^(١). أو كما قال.

وكذلك ما رواه الحافظ أبو بكر محمد بن محمد بن سليمان الباغندي في الجزء الثاني من حديثه^(٢): حدثنا أبو نعيم - هو عبيد بن

(١) أخرجه البخاري (٧٠٤٢) عن ابن عباس. وفي الأصل: «من حديث».

(٢) هذا الحديث أخرجه بهذا الطريق ابن حزم في «المحلى» (٥٧/٩)، وقال: هذا حديث موضوع مركب فضيحة، ما عُرِفَ قطُّ من طريق أنس، ولا من رواية ابن المنكدر، ولا من حديث مالك، ولا من جهة ابن المبارك. وكل من دون ابن المبارك إلى ابن شعبان مجهولون. قال الحافظ ابن حجر في «اللسان» (٣٤٩/٥) معقَّباً عليه: لم يُصب في دعواه أنهم مجهولون، فإن أبا نعيم ويزيد بن عبد الصمد مشهوران. وقد أخرج الدارقطني الحديث المذكور في غرائب مالك من طريقين آخرين عن أبي نعيم، وقال: تفرد به أبو نعيم عن ابن المبارك، ولا يثبت هذا عن مالك ولا عن ابن المنكدر. وقال الإمام أحمد: هذا حديث باطل. انظر «العلل» رواية المروزي (ص ٢٥٥) و«المنتخب من العلل» للخلال (ص ٤٣).

هشام الحلبي، وقال فيه أبو حاتم: صدوق^(١) - حدثنا [ابن] المبارك عن مالك بن أنس عن محمد بن المنكدر عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من قعد إلى قينة يسمع منها صبَّ يوم القيامة في أذنيه الآنك». وفي بعض ألفاظه: «من قعد إلى قينة يستمع منها».

وكذلك ما مدح من المستمع إنما هو الاستماع والإصغاء، كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٧-

١٨]، وقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ [الأحقاف:

٢٩]. وقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ، وَأَنْصِتُوا﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

ولا يختص بحاسة السمع، بل بما يتعلق بحاسة السمع، بل ما يتعلق بحاسة الشم والنظر واللمس كذلك، فإنَّ المحرم لا يحرم عليه شيء من الطيب إذا حملته الريح وألقته في خياشيمه، ولا يجب عليه سدُّ أنفه كذلك، وإنما الذي مُنع منه القصد لشمِّه واستنشاقه وتروُّحه، وهذا شيء، ومجرد شمه من غير قصد شيء آخر.

وكذلك النظر، إنما المحرم منه قصد النظر وإتباع النظرة النظرة، لا نظر الفجاءة، ولهذا قال النبي ﷺ: «لا تُتبع النظرة النظرة، فإنما لك الأولى وليست لك الأخرى»^(٢). [١٢٩]، وقال علي: سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجاءة فأمرني أن أصرف بصري^(٣).

(١) انظر «الجرح والتعديل» (٥/٦).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) هذا الحديث أخرجه مسلم (٢١٥٩) بهذا اللفظ عن جرير بن عبد الله، لا عن =

وكذلك اللمس إنما المحرّم منه قصد مسّ بشرته بشرة المحرّم،
فلو وقعت بشرته على بشرة المحرّم من غير قصد لزحمة أو غيرها لم
يكن ذلك حرامًا.

ولكن هل سمعتم معاشر أصحاب الغناء أن رسول الله ﷺ أو أحدًا
من أصحابه استحضر مغنيًا أو مغنية، وجلس إليها قصدًا، أو كان جالسًا
ناحية أو مارًا في طريق، فسمع صوت جواريات أو زمّارة، ولم يقصد
استماعه؟ ففطرتم القنطرة، وجعلتم هذا حجة في استحضار القينات
والمغنين والرقاصين والشبابات والمواصيل، وجعلتم لهم الأجرة
والجباة والكرامة والخلع، ومزّقتهم عليهم القلوب قبل الثياب، وجُدّتم
لهم بما بخلتم على الأرملة والمسكين واليتيم بالحبة منه، وزعمتم أن
ذلك قربة وطاعة، وصدقتم هو قربة إلى الجحيم وطاعة للشيطان
الرجيم، ثمّ جلستم منه منصتين، وقمتم له على الأقدام متواضعين
معظمين.

والمصيبة العظمى والداهية الكبرى نسبتكم ذلك إلى شريعة خاتم
الرسول، التي هي أكمل شريعة طرقت العالم إباحة واستحبابًا، ومعاذ الله
وحاشا شريعته من نسبة ذلك إليها، وليس العجب من جاهل قلبه في
غطاء عن العلم لا يفرق بين ما فعله الرسول وما يفعله هؤلاء، ولكن
العجب ممن نصب نفسه للعلم والتأليف، ويعُدُّ نفسه من الأئمة [١٢٩ب]
الهداة المرشدين، لا يفرق بين هذا وهذا، ويحتجُّ على جواز الاستماع

= علي. وحديث علي هو الحديث السابق.

على الوجه المذكور بسماع صوت الزمارة، وسماع غناء الجويريتين،
 فهلاً فعلتم مثل فعل الجويريات؟ وأخذتم الدفوف، وضربتم بها في
 الطرقات، وغنيتم بغنائهن، واقتصرتم على ذلك، ولم تضموا إليه سائر
 المحرمات والقبائح؟ فلو فعلتم ذلك مع قبحه لكان أسهل وأقل إثماً
 وأدنى إلى الخلاص.

فصل

* قال صاحب الغناء: فقد روى الإمام أحمد في مسنده^(١) عن
 عائشة أن جارية من جواري الأنصار أُهديت إلى زوجها، فقال رسول
 الله ﷺ: ما الذي قالوا؟ قالوا: لم نقل شيئاً، فقال: الأنصار قوم فيهم
 غزلٌ، ألا قلتُم:

أَتَيْنَاكُمْ أَتَيْنَاكُمْ فَحَيُّونَا نُحَيِّيَكُمْ

فهذا ندبٌ منه إلى الغناء، وتعليلٌ بأن القوم الذين فيهم غزل لا
 يصبرون عن الغناء.

* قال صاحب القرآن: هذا الحديث أولاً قد ضعّفه الإمام أحمد
 ولم يصححه، ثمّ لو صحّ فهو ترخيص في الغناء العارض، وهو في

(١) (٣/٣٩١) من طريق أجلع عن أبي الزبير عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ
 لعائشة... وأخرجه أيضاً النسائي في «السنن الكبرى» (٥٥٦٦)، والبزار كما في
 «كشف الأستار» (١٤٣٢) بهذا الطريق. وأجلع ضعيف يعتبر به. وأصل الحديث
 ثابت في الصحيح، فقد أخرجه البخاري (٥١٦٢) من طريق عروة عن عائشة.

الأعراس للنساء بغناء الأعراب، وأين ذلك من هذا السماع أو الغناء المعتاد؟ فبينه وبين غناء الأعراب المرخص فيه كما بين المُسكر والشراب الحلال، وكما بين الميتة والمذكاة.

وأيضاً فإن غاية ما فيه قول الشعر: أتيناكم أتيناكم، ومن حرّم مثل هذا وإن سُمّي [١١٣٠] غناء؟

ثم لو ثبت أنه غناء لم يلزم منه الرخصة للرجال ولا في عموم الأحوال، وقد كان عمر بن الخطاب إذا سمع صوت دُفٍّ قصد إليه، فإن كان في عرسٍ تركه، وإلا أنكره^(١).

فصل

*قال صاحب الغناء^(٢): السماع أطفُ غذاءٍ للأرواح عند أهل المعرفة والذوق، وما كان بهذه المنزلة كيف يُمنع منه؟

*قال صاحب القرآن: صدقت، فإنَّ السماع فيه تغذية للنفوس، بل هو من أقوى أغذيتها، حتى قيل: إنّه لم يُسمَّ غناءً إلا لأنّه يُغني النفس. لكن الكلام معك في مقامين:

أحدهما: أن يقال: هل هو غذاء للنفس أو غذاء للروح على^(٣) أصلك؟ فإن ادّعت أنه غذاء للروح كانت دعوى مجردة، لا يمكنك

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر «الرسالة القشيرية» (ص ٥١٠).

(٣) في الأصل: «إلى على».

تصحيحها البتة، فإنَّ ما يجده صاحبه به من التغذية أمر معلوم، ولكن من أين له أنَّه غذاء لقلبه وروحه وليس غذاءً لنفسه؟

ثمَّ نتبرع لك بالدليل على أنَّه من أعظم أغذية النفس، فإنَّه محض حقها وحظها وشهوتها، وليس من الحق الواجب عليها المراد منها، وما هذا شأنه فهو مجرد حظ النفس وغذاؤها. وهذا بيِّن لمن له فرقانٌ بين قُوَّة قلبه وروحه وقُوَّة نفسه. وقبيح بالسالك الصادق أن يُؤثر حظَّ نفسه وإرادتها على حق ربه ومراده منه، حتى يفنى بحظه عن الحق الذي عليه، بل يبلغُ به تلبيسُ النفس والشيطان إلى أن يُصيرَ محضَ حظِّه [١٣٠ب] وقُوَّة نفسه هو الطريق إلى الله، ويجعله طريقَ^(١) الخواص، وطريقةَ الأمر واتباع الرسول عنده طريقةَ العوام.

ولهذا جعل الجنيدُ الزاعمين أنهم يصلُّون إلى الله بهذه الطريق واصلين إلى سقر^(٢). وصدق فإنَّ الله لا يصل إليه [أحدٌ] إلا من الطريق التي فتحها ونهَجها على السُن رسله^(٣)، ونصبها لعباده، وسدَّ جميع الطرق إليه دونها، فلم يفتح لأحد قط إلا من تلك الطريق، فالسالك من غيرها لا يصل إليه أبدًا، وكل من لم يصل إليه فهو واصل إلى سقر. قال أبو القاسم الجنيد: «الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا طريق

(١) في الأصل: «الطريق».

(٢) سبق نحوه عن أبي علي الروذباري.

(٣) في الأصل: «رسوله».

رسول الله ﷺ»^(١). وقال: «يقول الله عز وجل: «وعزّتي وجلالي، لو أتوني من كل طريق واستفتحوا من كل باب ما فتحتُ لهم حتى يدخلوا خلفك»^(٢).

المقام الثاني: أن أغذية النفوس تنقسم إلى طيب وخبِيث، وحلال وحرام، كما تنقسم أغذية الأبدان، وليس كل ما يُغذى به الإنسان في بدنه أو نفسه يكون طيبًا. ولا ريب أن سماع الألحان والمعازف المحرمة يتغذى به أهله تغذيةً قوية، وكلما كان السامع أجهل كان غذاؤه به أقوى، كما يُغذى به الأطفال وضعفاء العقول، ولهذا يشتدُّ تأثيره في النساء وأهل البوادي والأعراب وكل من ضعف عقله ومعرفته.

فأما السماع الشرعي فهو أصلح الأغذية وأطيبها وأنفعها للعارفين، وهو غذاء قلوبهم الذي لا يُشبع منه، كما قال إمام أهل هذا السماع [١١٣١] عثمان بن عفان رضي الله عنه: «لو طَهَّرْتُ قلوبنا لما شَبِعَتْ من كلام الله»^(٣). وفي صفة القرآن: «لا تنقضي عجائبه ولا يشبع منه العلماء»^(٤).

(١) انظر «الرسالة القشيرية» (ص ٧٩). و«حلية الأولياء» (١٠/٢٥٧).

(٢) ذكره المؤلف في «طريق الهجرتين» (ص ٩) و«جلاء الأفهام» (ص ٣٥٩).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) كما في الحديث الذي أخرجه الدارمي (٣٣٣١) والترمذي (٢٩٠٦) والبزار في «مسنده» (٨٣٦) من طريق أبي المختار الطائي عن ابن أخي الحارث عن الحارث الأعور عن علي مرفوعًا. وأبو المختار وابن أخي الحارث مجهولان. وقال الترمذي: هذا حديث غريب... وإسناده مجهول، وفي حديث الحارث مقال. وأخرجه أحمد (٩١/١) والبزار (٨٣٤) وأبو يعلى (٣٦٧) من طريق ابن =

فهو قوتُ القلب^(١) وغذاؤه، ودواؤه من أسقامه وشفاءؤه، وأما السماع الشعري الشيطاني فهو سُحْتٌ، وقلب تَغْدَى بالسُّحْتِ بعيدٌ من الله، غير الله أولى به.

فصل

*قال صاحب الغناء^(٢): شأن القوم الذين أنكرتهم عليهم السماع شأن آخر، وإشاراتهم التي يتلقونها من السماع غير إشارات أهل اللهو والبطالة، وإن كان ظاهره محذورًا أو مكروهًا. ولهذا سئل الشبلي عن السماع فقال: ظاهره فتنة وباطنه عبرة، فمن عرف الإشارات حلَّ له السماع بالعبرة، وإلا فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلية.

ولهذا قال بعض العارفين: لا يصلح السماع إلا لمن كانت له نفس ميتة وقلب حيٌّ، فنفسه دُبِحَتْ بسيف المجاهدة، وقلبه حيٌّ بنور المشاهدة.

وسئل أبو يعقوب النهرجوري عن السماع، فقال: حال تُبدي الرجوع إلى الأسرار من حيث الإحراق.
وقالوا: السماع على قسمين:

= إسحاق قال: وذكر محمد بن كعب القرظي عن الحارث الأعور به. والحارث ضعيف كما ذكرنا، ثم هو منقطع بين ابن إسحاق ومحمد بن كعب.

(١) في الأصل: «القلوب». والمثبت يناسب ما بعدها.

(٢) انظر «الرسالة القشيرية» (ص ٥١٠). والنصوص المنقولة عن الصوفية كلها فيها.

سَمَاعٍ بِشَرَطِ الْعِلْمِ وَالصَّحْوِ، فَمَنْ شَرَطَ صَاحِبَهُ مَعْرِفَةَ الْأَسْمَاءِ
وَالصِّفَاتِ، وَإِلَّا وَقَعَ فِي الْكُفْرِ الْمَحْضِ.

وَسَمَاعٍ بِشَرَطِ الْحَالِ، فَمَنْ شَرَطَ صَاحِبَهُ الْفَنَاءَ عَنْ أَحْوَالِ الْبَشَرِيَّةِ
وَالْتَنَقِي مِنْ آثَارِ الْحِظْوِظِ بِظُهُورِ أَحْكَامِ الْحَقِيقَةِ.

وَسُئِلَ رُوَيْمٌ عَنْ وُجُودِ^(١) الصُّوْفِيَّةِ عِنْدَ السَّمَاعِ، فَقَالَ: [١٣١ب]
يَشْهَدُونَ الْمَعَانِي الَّتِي تَعَزُّبُ عَنْ غَيْرِهِمْ، فَتَشِيرُ إِلَيْهِمْ إِلَيَّ إِلَيَّ،
فَيَتَنَعَّمُونَ بِذَلِكَ مِنَ الْفَرَحِ، ثُمَّ يَقَعُ الْحِجَابُ فَيَعُودُ ذَلِكَ الْفَرَحُ بِكَاءٍ،
فَمِنْهُمْ مَنْ يَخْرِقُ ثِيَابَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَصِيحُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْكِي، كُلُّ إِنْسَانٍ
عَلَى قَدْرِهِ.

وَقَالَ الْحَصْرِيُّ: أَيُّشٍ أَعْمَلُ بِسَمَاعٍ يَنْقَطِعُ إِذَا انْقَطَعَ مِنْ يَسْمَعٍ
مِنْهُ؟ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ سَمَاعُكَ سَمَاعًا مُتَّصِلًا غَيْرَ مَنْقَطِعٍ، وَيَنْبَغِي أَنْ
يَكُونَ ظَمًّا دَائِمًا، فَكُلَّمَا زَادَ شَرِبَهُ زَادَ ظَمُّهُ^(٢).

وَقَالُوا: السَّمَاعُ نِدَاءٌ، وَالْوَجْدُ قُضْدٌ.

وَقَالَ أَبُو عَثْمَانَ الْمَغْرِبِيُّ: قُلُوبُ أَهْلِ الْحَقِّ حَاضِرَةٌ وَأَسْمَاعُهُمْ
مَفْتُوحَةٌ.

وَقَالَ أَبُو سَهْلٍ الصُّعْلُوكِيُّ: الْمَسْتَمِعُ بَيْنَ اسْتِتَارٍ وَتَجَلٍُّّ، فَالِاسْتِتَارُ
يُوجِبُ التَّلَهُّبَ، وَالتَّجَلُّيُّ يُوْجِبُ التَّرْوِيحَ، وَالِاسْتِتَارُ يَتَوْلَدُ مِنْهُ حَرَكَاتٌ

(١) جَمْعُ وَجْدٍ. أَوْ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى التَّوَاجِدِ.

(٢) فِي الْأَصْلِ: «زَادَادُوهُ». خَطَأً.

المريدين، وهو محل العجز والضعف، والتجلي يتولد منه سكونُ
الواصلين، وهو محل الاستقامة والتمكين، وذلك صفة الحضرة، ليس
فيها إلا الذبول تحت موارد الهيبة. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا
أَنْصِتُوا﴾ [الأحقاف: ٢٩].

وقال أبو عثمان الحيري: السماع على ثلاثة أوجه:

فوجه منها للمريدين والمبتدئين، يستدعون بذلك الأحوال^(١)
الشريفة، وَيُخْشَى عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ الْفِتْنَةَ وَالْمَرَاءَةَ.

والثاني: للصادقين، فيطلبون الزيادة في أحوالهم، ويستمعون من
ذلك ما يوافق أوقاتهم.

والثالث: لأهل الاستقامة [١١٣٢] من العارفين، فهؤلاء لا يختارون
على الله فيما يرد على قلوبهم من الحركة والسكون.

وقد حكى عن أحمد بن أبي الحواري أنه قال: سألت أبا سليمان
عن السماع، فقال: من اثنين أحبُّ إليَّ من واحد. وأبو سليمان ممن لا
يُدْفَعُ محلّه عن الإمامة والمعرفة.

وسئل أبو الحسين النوري عن الصوفي، فقال: من سمع السماع
وآثر الأسباب.

وقال أبو عثمان المغربي: من ادّعى السماع ولم يسمع صوت

(١) في الأصل: «أحوال».

الطيور وصرير الباب وصفير الرياح، فهو مفترٍ مدَّعٍ.

وكان بعض المشايخ ممن صحب الجنيد يحضر موضع السماع، فإن استطابه فرش إزاره وجلس، وقال: الصوفي مع قلبه، وإن لم يستطبه قال: السماع لأرباب القلوب، وأخذ نعله ومرَّ.

* قال صاحب القرآن: الكلام على ما ذكرته من هذه الكلمات من وجهين: مجمل ومفصل.

أما المجمل: فإنه ليس فيها من أدلة الشرع التي تثبت بها الأحكام الخمسة، فليس فيها ما يقتضي إباحة ولا استحباباً ولا مدحاً ولا ذمّاً، وغايتها حكايات عن أقوام، أخبر كل منهم عن حاله ووجدته في السماع، فأَيُّ برهانٍ في هذا؟ وأي دليل لمن نصح نفسه وألهم رشده ووقاه الله شرَّ نفسه، حتى يجعل هذه الحكايات قدوة، ويدعو الناس بها إلى قرآن الشيطان وسماعه والتقرب به إلى الله؟

فإن كنت لا تدري فتلك مصيبةٌ وإن كنت تدري فالمصيبةُ أعظم (١)

وأما الوجه المفصل [١٣٢ب] فنذكر ما في كل جملة من هذا الكلام من الحق والباطل، وما يحتمل الأمرين، ونعطي كل ذي حق حقه، قضاءً بحق النصيحة، واتباعاً لمرضاة الرب تعالى، وبراءةً من العصبية، وإيثارةً للعلم والعدل، ولا قوة إلا بالله.

(١) سبق تخريجه.

أما قولك: «إن القوم لهم في السماع شأن آخر غير شأن أهل اللهو والبطالة»، فصدقت، ولكن لهم فيه خطر آخر غير خطر أهل اللهو والبطالة، فهم فيه على خطر عظيم، زلّت فيه أقدام، وتعثرت فيه بأذيالها عقول وأحلام، ونصب لهم به إبليسُ شبكته، وأحكمها بأنواع الحبائل والمصايد، فلو رأيت القوم فيها يَخِيطون لم يتخلص منهم إلا الواحد بعد الواحد، فسئل ناجيهم عما لاقى مع القوم في شبكة السماع يُخبرك خبراً مسنداً لا إرسال فيه ولا انقطاع.

أما ما حكيت عن الشبلي فهو نقلٌ مجمل، غير معلوم الصحة، عن غير ثابت العصمة، فليهنّ المتمسك به نصيبه من العلم والهدى. والشبلي ومن هو أكبر من الشبلي من الشيوخ، لا بدّ من عرض أحواله وأقواله على ما بعث الله به رسوله من الهدى ودين الحق، فيقبل منها ما وافق الحق، ويُردّ منها ما خالفه، وما احتمل الأمرين جُعل من المحتملات التي لا تُقبل مطلقاً ولا تُردّ مطلقاً، وبهذا الميزان يوزن كلام مَنْ دون رسول الله ﷺ وأفعاله وأحواله كائناً من كان.

والشبلي كان يعرض له أحياناً [١١٣٣] ما يُزيل عقله، ويختلط حتى يذهب به إلى المارستان. ومن كان بهذه الحال لا تكون أحواله وأفعاله حجة في طريق الحق والسلوك إلى الله، وله مع ذلك أقوال وأفعال حسنة جداً ومتوسطةٌ وبينَ بينَ، فلا تُهدرُ بما غلط فيه، ولا يلحق ما غلط فيه بها، فيجعل محجة^(١) وطريقاً، وقد جعل الله لكل شيء قدرًا.

(١) في الأصل: «محبة» تحريف.

وشيخه أبو القاسم الجنيد بن محمد شيخ القوم غير مدافع، أعرف بهذا الشأن منه، وأصحُّ طريقًا وأقرب إلى الاتباع، قد أخبر أن السماع فتنة لمن طلبه. فإذا كان لا بد من التقليد فليقلد الجنيد أولى من تقليد الشبلي، وقد أطلق القول بأنه فتنة طالبه، وليس مراده أنه فتنة في الظاهر فقط، فإنه إنما يتكلم على صلاح القلوب وفسادها، وإنما أراد أنه يفتن القلب لمن طلبه، وهذا نهى ودم لا إطلاق وإباحة.

وقوله: «من عرف الإشارة حلَّ له السماع بالعبارة»، يُضاهي قول من قال: هو حرام على العامة مباح للخاصة مستحب لخاصة الخاصة، مما لا يأتي به شريعة، وتأبى حكمة الله أن تشرعه، فيكون الحل والحرمة تبعًا للعموم والخصوص.

وكان شيخنا قدس الله روحه يقول: ما أعلم أحدًا من المشايخ المقبولين يُؤثر عنه في السماع نوع رخصة وحمد [إلا] ويؤثر عنه الذم والمنع^(١). وهذا من رحمة الله بعباده الصالحين، حيث يردهم في آخر أمرهم إلى الحق [١٣٣ب] الذي بعث الله به رسوله، ولا يجعلهم مُصرِّين على ما يخالف الحق، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

فإن قيل: ما معنى قوله: «من عرف الإشارة حلَّ له السماع

(١) انظر الاستقامة (١/٤٠٥)، ومنه زيادة ما بين المعكوفتين.

بالعبرة».

قيل: الإشارة هي الاعتبار والقياس، بأن يجعل المعنى الذي في القول مثلاً مضروباً لمعنى حق يناسب حال المستمع، ولهذا قال: «باطنه عبرة» أي يعتبر به، ولكن من أين لهذا القائل أن كل ما أمكن أن يعتبر به الإنسان يكون حلالاً؟ فإن الاعتبار قد يكون بما يسمع ويرى من المحرمات، فهل يحلُّ لأجل أن يعتبر أن يقصد النظر إلى الصور المبتدعة بالجمال التي حرم الله النظر إليها؟ ويقول: نظري إليها عبرةٌ أعبُرُ منها إلى ما أعدَّ الله لعباده في جنته! كما قال القائل:

وَإِذَا رَأَى الْعَابِدُونَ تَيَقَّنُوا حُورَ الْجِنَانِ لَدَى النِّعَمِ الْخَالِدِ (١)

ويسمع الأصوات اللذيذة المحرمة، ويقول: هي عبرة! إلى أمثال ذلك.

فصل ٤

وأما قول القائل: «لا يصلح السماع إلا لمن كانت له نفس ميتة وقلب حي»، فيقال له: أي السماعين تعني؟ سماع الآيات أو سماع الغناء والآيات؟ فإن أردت السماع الأول فهو سماع (٢) أحياء القلوب، وأما أموات القلوب [١١٣٤] فلا نصيب لهم من هذا السماع، قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ [النمل: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ

(١) البيت لأبي إسحاق الصابي في «يتيمة الدهر» (٢/٢٥٩). وسبق ذكره.

(٢) في الأصل: «السماع».

الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ [الأنعام: ٣٦]. فجعل الناس في هذا السماع قسمين: أهل استجابة وهم الأحياء، وأموات وهم المعرضون عنه سماعًا وإجابة.

وإن أردتَ السماع الثاني فلا ريب أنه يُحيي النفس، ويُميت القلب، ولكن أصحابه يغلطون، فيظنون أن الذي حيّ منهم قلوبهم وإنما هو نفوسهم، وآية ذلك أنه لو أُحيي منهم قلوبهم لمأها من حب كلامه وسماعه والإصغاء إليه والاشتغال به وتدبر معانيه، فإن زمن الحياة يَضِيقُ عن استغراقه بل عن استغراق بعضه، فلا يبقى في القلب الحيّ متسعٌ لغيره أبدًا، وهذا أمر معلوم بالذوق كما قال:

لو كان في قلبي كقدر قلامية فضلاً لغيرك ما أتتك رسائلي^(١)

فصل

وأما قول القائل: «إن السماع حالٌ يُبدي الرجوع إلى الأسرار من حيث الإحراق»، فهذا وصف منه لما يعتقه السماع من الأحوال الباطنة، وقوة الحرارة والإحراق، وهذا أمر يُحسُّه المرء ويجده في السماع، ولكن ليس في ذلك ما يقتضي مدحًا ولا ذمًا ولا إباحة ولا تحريمًا، إذ مثل هذا قدر مشترك بين السماع الكفري والفسقي والإيماني، فعُباد الصلبان والأوثان والنيران والشيطان يجدون في سماعهم مثل هذا، وعُشاق المردان والنسوان والأهل والأوطان يجدون مثل هذا وأقوى

(١) البيت لجميل بثينة في الأغاني (٨/ ١٠٠، ١١٥) وديوانه (ص ١٨٠).

منه، نعم السماع الذي يختص بالأحوال المختصة بأهل الله وخاصته هو سماع القرآن، فإنه إذا أعقبَ حالًا كانت مختصةً بالمؤمنين العارفين [١٣٤ب] بالله لا يَشْرِكُهُمْ فِيهَا مِنْ سِوَاهُمْ، فلا نجعل المشترك خاصًا ولا الخاص مشتركًا.

فصل

وأما قول القائل: «السماع على قسمين: سماع بشرط العلم والصحوة، فشرط صاحبه معرفة الأسماء والصفات، وإلا وقع في الكفر» إلى آخره، فمراده بالأسماء والصفات أسماء الرب تعالى وصفاته، فإذا كان المسموع هو الأبيات الشعرية التي يذكر فيها أسماء المخلوقين وصفاتهم ومحاسنهم، وأنتم تأخذون مقصودكم منها بطريق الإشارة والاعتبار، فهذا مع ما فيه من الخطر العظيم الموقف لصاحبه على شفا جُرْفِ هَارٍ، يحتاج أن يفرَّق بين ما يوصف به الرب تعالى وبين ما لا يوصف به، لئلا يُنزل ما يسمعه من صفات المخلوق ونعوتهم على صفاته تعالى، فيقع في الفتنة والكفر.

هذا إذا كان صاحبه صاحبًا يعلم ما يقول المغني، فإذا كان غير راسخ في معرفة ما يوصف الله به وما لا يوصف، وأسكره السماع، ونزل ما يسمعه من المغني على أسماء ربه وصفاته، فقد تعرّض من ربه تبارك وتعالى لغاية المقْتِ والطرد والبعد عنه، ولا يَسْلَمُ من فتنة وكفر، وأحسن أحواله أن يكون صادقًا جاهلاً، فينجو بصدقه ويُرحم لجهله، وأما أن يكون من خواص أولياء الله وسادات العارفين به ممن يُقتدى به

في هذا الشأن، فمعاذ الله!

وكيف يليق بمن يدعي محبة الله والسلوك إليه أن يعتبر أسماءه وصفاته من أبيات الغناء، التي أحسن أحوالها أن تكون قيلت في امرأة أو جارية حلال؟ وغالب أحوالها قيلت في الحرام [١١٣٥] وشُبِّبَ بها فيه، ويدعُ تلقي ذلك من كلامه الذي تعرّف به إلى عباده، وتجلّى فيه بأسمائه وصفاته وأفعاله لقلوبهم، لولا مرضُ مُزمن في القلوب وشهوة يريد صاحبها تنفيذها تجاه الأسماء والصفات، هيهات هيهات! بل هي فتنة، ولكن أكثر الناس لا يعلمون. ونحن لا ننكر وجود ذلك، فالمحبُّ يعتبر بكل ما يراه ويسمعه، ويكاد يخاطبه عن حبيبه ويخبره عنه، وإنما ينكر رضى الحبيب بذلك ومحبته له وتقريبه لصاحبه، فهذا لون ووجود الاعتبار لون.

فصل

وأما قوله: «وسماع بشرط الحال، فمن شرط صاحبه الفناء عن أحوال البشرية، والتنقي من آثار الحظوظ بظهور أحكام الحقيقة»، فعند القوم أن أحكام العلم شيء، وأحكام الحال شيء آخر، أي وواجبُ هذا غير واجبه، ولهذا جعلوا سماع صاحب العلم غير سماع صاحب الحال، وشرطوا في أحدهما غير ما شرطوه في الآخر، فشرطوا في سماع صاحب العلم معرفته بالأسماء والصفات، وشرطوا في سماع صاحب الحال الفناء عن أحوال البشرية، والتنقي من آثار الحظوظ بظهور أحكام الحقيقة، ومرادهم بهذا فناؤه عن نفسه، وشعوره

بأوصافها وأحكامها، ثم فناؤه عن حظوظه وإرادته التي لها، وذلك إنما يكون عند تولية سلطان الحقيقة على سرّه، وظهور أحكامها التي تنسخ أحكام البشرية. والحقيقة التي يشيرون إليها هي حقيقة التوحيد التي يفنى صاحبها عن شهود السوى، وإرادة السوى، فلا يبقى لقلبه شهود غير الله، [١٣٥ب] ولا مرادّ سواه. فهذا شرح كلامهم.

فيقال أولاً: لا يمكن الاستغناء عن أحوال البشرية ما دامت البشرية موجودة، فإن الفقر إلى لوازم البشرية أمر ذاتي، وما بالذات لا يستغني عنه البتّة، قد يستغني لشهود الفقر المطلق إلى الغني بذاته الذي كل شيء مفتقر إليه، ويفنى بشهود فقره إليه عن فقره إلى ما سواه، فيكون في غناه فقيراً إليه، وفي فقره غنياً به.

ويقال ثانياً: إذا كان في هذه الحال التي قد فني بها عن أحوال البشرية، فكيف يصح له العبور في هذا السماع الذي كله أحوال البشرية إلى شهود الحقيقة وأحكامها؟ وهي إنما نالها من طريق هذا السماع، ودخل إليها من بابه، فلا يحصل له ذلك حتى يفنى عن الكائنات، ولا يبقى له شهود بالأحوال البشرية، ويفنى عن الحظوظ البشرية كلها.

ويقال ثالثاً: لا يصل إلى هذا الحدّ إلا إذا ظهر سلطان التوحيد على قلبه، وهو المشار إليه بقوله: «بظهور أحكام الحقيقة»، ومعلوم قطعاً أن مع ظهور سلطان التوحيد لا يبقى له سعة إلى الغناء وسماع الأبيات، فإن سلطان التوحيد قد قهر حواسّه، وملك عليه مشاعره، وصار التصرف له وحده، فهو في هذه الحال في شغلٍ عن كثير من

أوراده بوارده، فضلاً عن فراغه لصفات ليلي وسُعدى ومَيّ، والعبور من هذا السماع إلى الأسماء والصفات. فما هذا التناقض واللعب؟ وهل يُبقي سلطان التوحيد وظهور أحكام الحقيقة في القلب والسمع موضعاً لسماع غير كلام المحبوب وذكر أسمائه وصفاته؟

[١١٣٦] ويقال رابعاً: لو كان هذا الذوق والاعتبار صحيحاً، لكان حصوله وتناوله من كلام المحبوب الذي لهذا القصد تكلم الله به، وأنزله إلى عباده، وتعرّف به إليهم، ودلّهم به عليه، وهداهم به إليه. وأمّا سماع الغناء فإنما وُضِعَ لأمر آخر، فلا يُلبّسوا على أهله وعلى أهل القرآن، فإنه إنما وُضِعَ للفتنة لا للعبودية، وللنفاق لا للإيمان، وللفسوق والزنا لا للرشد والصلاح، وما جاء منه غير ذلك فبالعرض لا بالقصد. والفتنة فيه من وجهين: من جهة البدعة في الدين، ومن جهة الفجور.

أمّا البدعة فما يحصل به من الاعتقادات الفاسدة التي لا تصلح لله^(١)، هذا مع ما يصدُّ عنه من الاعتقادات الصالحة والعبادات النافعة، إمّا بطريق المضادة، وإمّا بطريق الاشتغال، فإن النفس تشتغل وتستغني بهذا عن هذا.

وأمّا الفجور في الدنيا فلما يحصل به من دواعي الزنا والفواحش والإثم، فأصول المحرمات الأربعة قد تحصل فيه، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ

(١) في الأصل: «إلا الله» تحريف المعنى.

الْحَقِّ وَأَنْ تَشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾
[الأعراف: ٣٣].

فصل

وأما قول رُويم: وقد سئل عن وجود الصوفية عند السماع فقال:
«يشهدون المعاني التي تعزب عن [غيرهم]، فتشير إليهم إليّ إليّ»،
فهذا وصف لما يعتر بهم من الحال، وليس في ذلك [١٣٦ب] ما يقتضي
مدحًا ولا ذمًا. وغايتهم أنهم يشهدون بقلوبهم معاني يفرحون بها،
والفرح يتبع المحبة، فمن أحبَّ شيئًا فرح بوجوده وتألم بفقده،
والمحبوب المفروح به قد يكون نافعًا وقد يكون ضارًا، فإذا كان نافعًا
كانت محبته حقًا، وإن كان ضارًا كانت محبته باطلاً. قال تعالى:
﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا
أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]. وقال تعالى: ﴿ وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ
الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ [البقرة: ٩٣].

وقد يكون العبد محبًا لله صادقًا في ذلك، لكن يكون ما يشهده من
المعاني المفرحة خيالات لا حقيقة لها، فيفرح بها، ويكون فرحه بغير
الحق، وذلك مذموم، فيكون له نصيب من قوله: ﴿ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ
تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ [غافر: ٧٥]. وما أوفر
نصيب السماعية من هذا الفرح والمرح! وما أشدَّ الخوف عليهم مما
ذكر بعده! وإلى [الله] الرغبة في التوفيق.

وقد عَلِمَ أن سماعَ المكاءِ والتصدية مما ذكر الله في القرآن من
المشركين، ولا يخلو من نوع شرك جلي أو خفي، ولهذا تَضَلُّ عنهم
تلك الأمور الباطلة أحوَجَ ما كانوا إليها، حتى يبدو لهم من الله ما لم
يكونوا يحتسبون، حتى يرونها: ﴿كَرَّابٍ بَقِيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَقًّا إِذَا
جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيْعُ الْحِسَابِ﴾
[النور: ٣٩].

ومع هذا فقد يكون في تلك المعاني التي تشهد وتحتجب من
حقائق الإيمان ما يفرح به المؤمنون [١١٣٧] أيضًا، ولولا ما فيه ما التبس
أمره على فريق من المؤمنين، ولكن لُبِّسَ فيه الحق بالباطل، وبالحق
الذي فيه نفاق على من نفاق عليه من المرئيين، لكن لضعف إيمانهم نفاق
عليهم، ولو تحققوا بكمال الإيمان لتبين لهم ما فيه من موادِّ الشرك
والنفاق والفسوق ولُبِّسَ الحق بالباطل، وقد بيّن الله سبحانه ذلك لمن
أراد أن يُكْمِلَ إيمانه منهم، فتابوا منه كما يتاب من الفواحش والمعاصي
الظاهرة، كما تاب مَنْ تاب من أكابر العلماء مما دخلوا فيه من البدع
الكلامية، وأبى غيرهم إلا إصرارًا وإقامة ما هو ميسرٌ لهم، تظهر بهم
وفيهم حكمةُ الله وحِلْمُهُ، وهو أحكم الحاكمين.

فصل

وأما قول الحصري: «أيشِ أعملُ بسماعٍ ينقطع إذا انقطع من يسمع
منه؟» إلى آخره، فهذا الكلام من أبين العيب والذم لأهل هذا السماع،
فإنه منقطع، ومن يسمع منه منقطع، والمؤمن عمله دِيْمَةٌ كما قال النبي

رَبِّهِ: «أحبُّ العمل إلى الله ما داومَ عليه صاحبه»^(١). وهذا إنما هو في السماع القرآني لا في السماع الشعري، فإنه دائم بدوام المتكلم به، تزول الدنيا بأهلها وهو دائم لا يزول، وإذا سمعه المؤمنون في الجنة من الرحمن عز وجل فكأنهم لم يسمعه قبل ذلك، وتُنسيهم لذة سماعه ما هم فيه من النعيم حتى يستفرغ جميع ما هم فيه من النعيم، كما يُنسيهم [١٣٧ب] ذلك لذة نظرهم إلى وجهه، وما أقل نصيب أصحاب الصور والأصوات من هذا النظر والسماع!

نَزَّةٌ لِحَاظِكَ عَنْ سِوَاهُ إِنْ تُرِدْ نَظَرًا إِلَيْهِ فِي مَحَلِّ ثَوَابِهِ
 وَكَذَاكَ سَمَعِكَ صُنْهُ عَنْ سَمْعِ الْغِنَا لِيَلِدَّ يَوْمَ لِقَائِهِ بِخِطَابِهِ
 أَتْرُومُ رُؤْيَيْتَهُ بِمُقْلَةٍ خَائِنِ هِيَهَاتَ إِنْ مُطِيعَهُ أَوْلَى بِهِ
 وَيَرُومُ سَمْعٌ قَدْ تَمَلَّى بِالْغِنَا أَنْ يَسْتَلِدَّ خِطَابَهُ بَكِتَابِهِ
 هِيَهَاتَ مَا أَدْنَى الْمَحَالِّ مِنَ الْأَلَى طَلَبُوا الْوَصُولَ وَمَا أَتُوا مِنْ بَابِهِ^(٢)

وقوله: «ينبغي أن يكون لصاحب السماع ظمأً دائم وشرب دائم، كلما ازداد شربه ازداد ظمؤه» حق، ولكن ظمأً إلى ماذا؟ وشرباً من ماذا؟ فمحبُّ الرحمن وكلامه، الذي فني بكلام محبوبه عن كلام غيره، وبسماعه عن سماع غيره، وبمراده عن مراد نفسه، له ظمأً دائم إلى كلام محبوبه، لا يزال عطشان، كلما ازداد شرباً ازداد ظمأً، وكلما ازداد له

(١) أخرجه البخاري (٥٨٦١) ومسلم (٧٨٢) عن عائشة.

(٢) لعل الأبيات للمؤلف.

سَمَاعًا وَتَلَاوَةً أَزْدَادَ فِيهِ ذَوْقًا وَحَلَاوَةً، وَكَلِمًا قَطَعَ عِلْمًا مِنْ أَعْلَامِهِ بَدَا لَهُ
عِلْمٌ آخَرَ إِلَى غَيْرِ نَهَايَةٍ.

فَيَسْمَعُهُ وَالْقَلْبُ قَدْ زَادَ شَوْقُهُ يَقُولُ أَهْلُ بَعْدِ السَّمَاعِ تَدَانِي
فِي شَرْبِ مَنْهُ مِنَ الْقَلْبِ مَعْنَاهُ ظَامِيًّا فَيَا عُظْمَ مَا يَلْقَى مِنَ الْهَيْمَانِ
فِي ذِكْرِ شَيْءًا قَالَهُ بَعْضُ مَنْ خَلَا تَمَالًا عَلَيْهِ الْقَلْبُ وَالْأُذُنَانِ
كَأَنَّ رَقِيبًا مِنْكَ يَرَعَى خَوَاطِرِي وَأَخْرَى يَرَعَى مَقَلَّتِي وَلِسَانِي
فَمَا نَظَرْتُ عَيْنَايَ بَعْدَكَ مَنْظَرًا مِنْ الْحَسَنِ إِلَّا قَلْتُ قَدْ رَمَقَانِي
وَلَا سَمِعْتُ أُذُنَايَ بَعْدَكَ مَسْمَعًا مِنْ الْقَوْلِ إِلَّا أَمْسَكَ بِعَيْنَانِي (١)

فصل

وأما قوله: «السمع نداء والوجد قصد» فهذا الكلام مطلق مجمل، فإنَّ المستمع يناديه ما يسمعه بحق تارةً وبباطلٍ أخرى، والواجد قاصدٌ مجيبٌ للمنادي الذي قد يدعو إلى حق، وقد يدعو إلى باطل، فإنَّ الواجد يجد في نفسه إرادةً وقصدًا للإجابة لمن ناداه، إلى (٢) ما تدعوه نفسه إليه، فأهل الوجد والقصد الصحيح قالوا: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا

(١) يبدو أن الأبيات للمؤلف. ضمَّنها البيتين الرابع والخامس لغيره، وهما للبحثري في «مصارع العشاق» (١٩٥ / ٢)، وفي «الزهرة» (٢١٣ / ١) لبعض أهل العصر. ونظر في البيتين الأولين إلى بيتي ابن الرومي في «روضة المحبين» (ص ٥٢، ١٣١). والأبيات أوردها محقق ديوان البحثري في ذيل الديوان (ص ٢٦٨٢).

(٢) في الأصل: «إلا».

يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامِنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا
 سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَايِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ
 الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿﴾ [آل عمران: ١٩٣-١٩٤]. أجابوا منادي الإيمان
 إذ ناداهم: حيّ على الفلاح، وواصلوا السير إليه مع الدليل بالغدوّ
 والرواح، وفنّوا بمراده عن مرادهم، فبدلوا أنفسهم في مرضاته ببدل
 المحبّ بالرضا والسماح، وسيحمدون عند اللقاء مسرّاهم، فإنما يحمّد
 القومُ السّرى عند الصباح^(١).

وأهل الغناء ناداهم منادي الشيطان: حيّ على رُقية الزنا ورائد
 الفسوق والعصيان، فأجابوه بلبّيك داعي الشهوات وسَمَسَار اللذات! ها
 نحن لدعوتك مستجيبون، وفي مرضاتك مسارعون، نحن قوم ندورُ
 حولَ قُطْبِ رَحَا الطيبات، ونقطع هذه الأوقات بما يناسب الأوقات، إذا
 أبدت [١٣٨ب] لنا الطيباتُ ناجدَها طِرْنَا إليها زرافاتٍ ووحدانا^(٢)، فإذا
 لاح لنا وجهُ الشاهد انقادت له قلوبنا محبةً وإذعاناً، فما لنا ولثقل الدم
 كثيف الطباع؟ يأمر بالاشتغال بالتلاوة والتسبيح وأوراد العباداة، وينهانا
 عن السماع، كأنه ما سمع قول شاعرنا:

يا عاذلي أنت تنهاني وتأمُرني والوجدُ أصدقُ نَهَاءٍ وَأَمَارِ

(١) سبقت الإشارة إلى أنه مثل في أول الكتاب.

(٢) نظر المؤلف إلى البيت المشهور لقريط بن أنيف:

قومٌ إذا الشرُّ أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافاتٍ ووحدانا

انظر حماسة أبي تمام (١/٥٨).

وإن أطعك وأعصِ الوجد رُحْتُ عَمَى عن اليقين إلى أوهام أخبارٍ (١)
ولا قول من تقدمه:

خُذْ ما تراه ودَعْ شيئاً سمعتَ به في طلعةِ البدر ما يُغنيك عن زُحَلٍ (٢)

والله يشهد وكفى بالله شهيداً أن هذا حال كثير من السماعيات لا كلهم، ويحتجُّون على حلِّ هذا السماع بحضور من حضره من الصادقين، الذين برَّأهم الله من هؤلاء الأراذل براءة المسيح من عبادة الصليب، ولكن سماع الغناء اسم جنسٍ هذا فردٌ من أفرادهِ، وهو سماعٌ كثيرٌ ممن يتقرب بالسماع ويراه صلاحاً لقلبه، أو أكثرهم في هذا الزمان.

ولا أعني بذلك أصغريهم ولكنني أريدُ به الذَّوينا (٣)

فصل

وأما قول أبي عثمان المغربي: «قلوب أهل الحق حاضرة وأسماعهم مفتوحة»، فكلام صحيح، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، قالوا: معناه: حاضر القلب ليس بغائبه. وتأمل قوله عز وجل: ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ

(١) البيتان للعفيف التلمساني كما في «مجموع الفتاوى» (٢/٢٥٩، ٤٧٣)

و«الجواب الصحيح» (٤/٣٩٨) و«نقض التأسيس» (٢/٥٣٩).

(٢) البيت للمتنبى في ديوانه (٣/٢٠٥). وقد سبق الشطر الأول منه.

(٣) البيت للكميت بن زيد الأسدي في ديوانه (٢/١٠٩) و«خزانة الأدب»

(١/١٣٩)، وبلا نسبة في «مدارج السالكين» (٢/٣٧٠).

أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿١﴾ ، فجعله ذكراً لمن جمع بين القلب [١١٣٩] الحي وأصغى بسمعه وحضر بقلبه، كما يفعله كثير من السماعيات عند السماع الشيطاني، كيف تفتح له صدورهم، وتُصغى إليهم أسماعهم، وتشهد قلوبهم، فإذا جاء السماع الإيماني فهم صُمُّ بكم عمي ﴿٢﴾ في آذَانِهِمْ وَقَرُّ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَكَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ [فصلت: ٤٤]. والظاهر - والله أعلم - أن أبا عثمان إنما أراد أهل السماع الإيماني القرآني، فإنهم أهل الحق، ولم يُرذَّ أهل السماع الشعري الشيطاني، فإنهم لا قلوب حاضرة ولا أسماع مفتوحة.

فصل

وأما قول أبي سهل الصعلوكي ^(١): «المستمع بين استتارٍ وتجلٍّ» إلى آخر كلامه، فهو كلام دال على أحوال أهل السماع، وهو مطلق يتناول السماع الشرعي والبدعي، لكن هو إلى وصف حال أهل السماع المحدث أقرب، وهو وصف لبعض أحوالهم، فإن أحوالهم أضعاف ذلك.

وأما استدلاله بالآية فما أبعد ما استدل به عليه! فإن الآية إنما سيقت للإخبار عن الجن الذين صرفهم الله إلى رسوله يستمعون القرآن، ليقم عليهم حجةً وليبلغوا من وراءهم، فأنصتوا لاستماعه، ليعلموا حقيقته ويفهموه ويحفظوه، ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ [الأحزاب: ٢٩]. فصاروا باستماعه مؤمنين، وبتبليغه عن رسول الله ﷺ

(١) في الأصل: «الصعلوكي» تحريف.

مندرين، وهذا شأن كل مَنْ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وبلغ عنه.

[١٣٩ب] فصل

وأما قول أبي عثمان: «السماع على ثلاثة أوجه» إلى آخره، فهو كلام مطلق، يحتمل سماع الآيات، و يحتمل سماع الأبيات، ويحتمل ما هو أعمُّ من ذلك، ولكن هذه الأمور الثلاثة التي ذكرها لا تحصل إلا بالسماع الذي يحبه الله ويرضاه، فإنَّ الأحوال الشريفة إنما تُستثمر من شجرته ويؤتى إليها من بابه، ولا يُخشى على أهله فيه فتنة ولا مُراآة إلا كما يُخشى عليهم في سائر الطاعات، ودواؤهم باستعمال الصدق والإخلاص. وكذلك السماع للطائفة الثانية الذين يطلبون به الزيادة في أحوالهم، فإنَّ أحوالهم إن كانت مستقيمة محبوبة لله مرضية له، لم يحصل فيها الزيادة إلا بالسماع الذي يحبه ويرضاه، وإن كانت غير مستقيمة أمكن حصول المزيد فيها بالسماع الشعري.

وأما سماع أهل الاستقامة من العارفين فلا يمكن أن يكون غير السماع الذي تكمل به استقامتهم ومعارفهم، وإلا لم يكونوا مستقيمين ولا عارفين، وهو السماع الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

فصل

وأما ما حُكي عن أبي سليمان أنه قال: «السماع من اثنين أحبُّ إليَّ من واحد»، فنقل مجمل منقطع لا نعلم صحته، عن غير معصوم، فلا

يفيد إلا تسويد [١٤٠] الورق والوجوه، ثم لو صحَّ فليس فيه ذكر المسموع. والظاهر أنه أراد سماع القرآن، لا السماع الشيطاني سماع الغناء. فإنَّ أبا سليمان قدس الله روحه لم يكن من رجال سماع الغناء ولا معروفًا بحضوره، كما أنَّ الفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم ومعروفًا الكرخي وأمثالهم لم يكونوا من أهل هذا السماع، بل هم من أعظم الناس براءةً منه.

وهذه (١) مسألة اختلف فيها أهل العلم، وهي قراءة الجماعة بصوت واحد، فكرهها طائفة، واستحبوا قراءة الإدارة وهي: يقرأ هذا ثم يسكت، فيقرأ الآخر، حتى ينتهوا. واستحبها طائفة، وقالوا: تعاون الأصوات يكسو القراءة طيبًا وجلالة وتأثيرًا في القلوب. وتأمل هذا في تعاون الحركات بالآلات المطربة كيف يُحدثُ لها كيفيةً أخرى؟ فإنَّ الهيئة الاجتماعية لها من الحكم ما ليس لأفرادها. وفصلت طائفة، وقالوا: كان أصحاب النبي ﷺ إذا اجتمعوا أمروا واحدًا منهم يقرأ والباقون يستمعون، فلم يكونوا يقرأون جملةً، ولم يكونوا يُديرون القراءة، القارئ واحد، والباقون مستمعون، ولا ريب أنَّ هذا أكمل الأمور الثلاثة، والله أعلم.

فصل

وأما قول أبي الحسين النوري: «الصوفي من سمع السماع وآثر الأسباب»، فهذا أيضًا من جنس ما قبله، فلا يُعتمد عليه. ولعل النوري

(١) في الأصل: «وهذا».

إنما أراد به الصوفي [١٤٠ب] المذموم لابس ثوبي الزور، فإنه جمع بين إيثار السماع الذي يدل على البطالة وضعف الإرادة والعبادة، وأثر الأسباب التي تُضعِف توَكُّله واعتماده على المسبب، فضعف من قلبه سلطانُ «إياك نعبد» بإيثار السماع والبطالة، وسلطانُ «إياك نستعين» بإيثار الأسباب وضعف التوكل. وإلا فالنوري أجلُّ من أن يجعل هذا شرطاً في الصوفي المحقق.

فصل

وأما قول أبي عثمان المغربي: «من ادعى السماع ولم يسمع صوت الطيور»^(١) وصرير الباب وصفير الرياح فهو مفترٍ مُدَّعٍ، فظاهره مُنكرٌ مستبشع، ومراده به أن اعتباره بالسماع لا يختص بنوع واحد، بل أي نوع سمعه من الأصوات المجردة أو الأصوات التي معها الحروف حرك ساكنه وأزعج قاطنَه، فإن في قلبه من الحب ولهيب الشوق ما لا يَقْضِر تحريكه على نوع واحد من المسموع، بل كل مسموع يُحرِّكه، بخلاف المفتون، فإنه يقتصر على السماع الذي يحبه أهل الفتنة، ولا يُحرِّكه سواه، ولا يتأثر بغيره، فهذا يدل على أنه مُدَّعٍ مفترٍ. فهذا مَحْمَل كلامه، وليس فيه بيانُ مرتبة المسموع، والفرق بين ممدوحه ومذمومه وحلاله وحرامه، وإنما فيه تحريكه باختلاف أنواعه لصاحب [١٤١أ] المحبة واعتباره به. وقد تقدم إشباع الكلام في ذلك.

(١) في الأصل: «الطنبور». والمثبت هو الملائم للسياق.

فصل

وأما كون ذلك الصوفي «كان يحضر مواضع السماع فإن استطابه فرش إزاره وجلس، وقال: الصوفي مع قلبه، وإن لم يستطبه مرّ وأخذ نعليه»، فيا عجباً! أي شيء في هذه الحكاية ما يدل على حكم السماع؟ وإن كان صاحبها صادقاً صالحاً فليس بمضمون العصمة، وله أسوة أمثاله من السماعية. على أن هذا الفعل وأمثاله عليه بينة في طريق القوم، فإن وقوف المرید مع [ما] يستطيه قلبه عين حظه وإرادته، وهذه الطريق كثير من القوم يسلكها، وهي المشي مع طيب القلب وذوقه ووجده من [غير] اعتبار ذلك بالكتاب والسنة، وهذا ضلال بعيد في الطريق، وهو مبدأ ضلال من ضلّ من العباد والنسك والمنتسبين إلى طريق الفقر والتصوف.

وحقيقة هذه الطريق اتباع الهوى بغير هدى من الله، وهذا هو الذي ذمّه العارفون بالله وبأمره من مشايخ الطريق، ومجرد طيب القلب ليس دليلاً على أنه إنما طاب بما يحبه الله ويرضاه، بل قد يطيب بما لا يحبه الله ويرضاه بل بما يكرهه ويسخطه، لا سيما القلوب التي أُشربت حبّ الأصوات الملحنة، فإنها طيبت بما يُنبِتُ النفاق في القلب.

وإطلاق [١٤١ب] القول بأن الصوفي مع قلبه هو من جنس ما ذمّ به هؤلاء، حتى جعلوا من أهل البدع، لأنهم أحدثوا في طريق الله أشياء لم يشرعها الله ولا رسوله.

وقد ذكر الخلال^(١) بإسناده عن عبد الرحمن بن مهدي وذكر هؤلاء، فقال: «لا تُجالسُوهم ولا أصحاب الكلام، وعليكم بأصحاب القماطر، فإنهم بمنزلة المعادين والغواصين، هذا يُخرج دُرَّةً، وهذا يُخرج قطعة ذهب».

وكان الشافعي سيء الظن بالطائفتين شديد الطعن فيهم: طائفة المتكلمين وأهل البدع من الصوفية، وكلامه فيهما مشهور، حتى قال: لو تصوّف في أول النهار لم يأت نصف النهار إلا وهو أحمق^(٢).

وأما أئمة الصوفية أهل العلم والاتباع والتعبد بالكتاب والسنة فهم من ورثة الأنبياء وأئمة المتقين، وكلماتهم دواءً للقلوب، وهم حجة على هؤلاء، وكلامهم في الوصية باتباع الكتاب والسنة كثير، مثل قول شيخهم على الإطلاق أبي القاسم الجنيد: من لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث فلا يُقتدى به في هذا الشأن^(٣). وقوله: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول. وقول أحمد بن أبي الحواري: كل من عمّل عملاً بلا اتباع سنة فباطل عمله. وقول سهل بن عبد الله: كلُّ فعلٍ يفعله العبد بغير اقتداء فهو عيشُ النفس، وكل فعل يفعله بالاقتداء فهو عذابٌ على النفس. ومثل هذا كثير، فالمهتدون من مشايخ الصوفية [١١٤٢] دائماً يحرصون على العلم، ويؤصّون باتباعه، لما علموا

(١) أخرجه من طريقه ابن بطة في «الإبانة» (٤٨٣ - الإيمان).

(٢) انظر «تلبس إبليس» (ص ٣٧١)، و«صفة الصفة» (١ / ١٥).

(٣) هذا القول والأقوال التالية سبق ذكرها وتخريجها في الكتاب.

في الخروج عن العلم من المهالك والمتالف. والله أعلم.

وقد سئل أبو علي الرُّوذباري عن السماع فقال: ليتنا تخلصنا منه رأساً برأسٍ^(١). وهذا الكلام من مثل هذا الشيخ الذي هو من أجل مشايخ القوم الذين صحبوا الجنيّد وطبقته، يدل على [أن] حضور الرجل منهم للسماع لا يدل على مذهبه واعتقاده، وهذا مما غلّط فيه كثير منهم، فإن كثيراً من المشايخ الذين نُقل عنهم إنما نُقل عنهم حضوره، وذلك لا يدل على أن مذهبهم إباحته فضلاً عن استحبابه، فإن أحدهم قد يكون حضره معتقداً إباحته، وقد يحضره معتقداً كراهته، وقد يعتقد تحريمه ويحضره، فإنه ليس بمعصوم من المعصية. وقد يتأول وقد يُقلّد من يراه جائزاً، وقد يعتقد التوبة منه بعد حضوره، وقد يأتي بحسناتٍ ماحية لذنبه، فمن أين لكم أن مجرد حضور الشيخ له يدلُّ على مذهبه واعتقاده وإباحته فضلاً عن استحبابه؟

فهذا أبو علي الرُّوذباري كان يحضره، وقد قال فيه هذه المقالة، وتمنى أن يكون لا له ولا عليه، ولو كان عنده من جنس القُرْبَات^(٢) والمستحبات لم يقل ذلك فيه، كما لا يقول قائم الليل وصائم النهار وتالي القرآن: [١٤٢ب] ليتني تخلصتُ من ذلك رأساً برأس، ولكن يتمنى الخلاص رأساً برأسٍ لتقصيره وتفريطه فيما أمر به ونهى عنه، ويرى أن هذه الطاعات لا تُنجيه، فيودُّ أنها قابلتُ تفريطه وسَيئاته، وراح

(١) انظر «الرسالة القشيرية» (ص ٥١٠).

(٢) في الأصل: «قربات».

رأسًا برأسٍ، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: وَدِدْتُ أَنِّي نَجَوْتُ
من هذا الأمر كفافًا لا لي ولا عليَّ^(١)، يريد الخلافة، خشية أن لا يكون
قد قام بحقوقها، فخوفه كان يَحْمِلُه على ذلك القول، ولم يقل ذلك في
أبي بكر، بل ما زال يشهد له في القيام في الخلافة بالحق.

وبالجملة، فحضور من حضر السماع من القوم لا يدلُّ على
مذهبه. وقد اختلف الفقهاء هل يؤخذ مذهب الإمام من فعله؟
ولأصحاب أحمد في ذلك وجهان، والذين قالوا: لا يؤخذ من فعله
مذهبه، قالوا: قد يفعله تقليدًا أو يكون متأولًا أو ناسيًا أو مخطئًا. ومع
هذه الاحتمالات لا يجوز أن يضاف إليه فعله مذهبًا. والله أعلم.

آخره، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله
وصحبه وسلّم تسليمًا.



(١) أخرجه البخاري (٣٧٠٠) ضمن قصة مقتل عمر بن الخطاب وبيعة عثمان،
وأخرجه أيضًا برقم (٧٢١٨) مختصرًا.

فهارس الكتب

- ١ - فهرس الآيات الكريمة
- ٢ - فهرس الأحاديث والآثار
- ٣ - فهرس الشعر
- ٤ - فهرس الأعلام
- ٥ - فهرس الكتب الواردة في النص
- ٦ - فهرس الفوائد العلمية
- ٧ - فهرس الموضوعات

١ - فهرس الآيات الكريمة

	سورة الفاتحة	
٩٦	﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾	
	سورة البقرة	
١٠٥	﴿ وَأَزْكُوا مَعَ الرَّاكِبِينَ ﴾ [٤٣]	
٣٠٦	﴿ وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ [٩٣]	
١٦٢	﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ [١٢٠]	
٢٥٨	﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [١٣٨]	
١٦٢	﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ ﴾ [١٤٥]	
٣٠٦، ٢٤١، ١٦٧	﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ ﴾ [١٦٥]	
٤٨	﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ﴾ [١٦٦-١٦٧]	
١٣١	﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ ﴾ [١٧١]	
٢٣٤	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [١٧٢]	
٩	﴿ إِذِ اقْبَلَ لَهُ اتَّقَى اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ﴾ [٢٠٦]	
٥٩	﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾ [٢١٩]	
٩٣	﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [٢٢٢]	
١٠٥	﴿ وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ [٢٣٨]	
٧٣	﴿ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ [٢٧٥]	

سورة آل عمران

۱۷۱، ۱۶۷، ۴۹

﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [۳۱]

۱۷۵

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا... ﴾ [۱۰۷-۱۰۳]

۲۴۶

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [۱۰۶]

۲۹۹

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ [۱۳۵]

۶

﴿ وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ ﴾ [۱۸۷]

۳۰۹

﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ ﴾ [۱۹۴-۱۹۳]

سورة النساء

۲۰۵، ۱۰

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ ﴾ [۵۹]

۱۲

﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ... ﴾ [۷۰-۶۹]

۲۱

﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى ﴾ [۱۱۵]

۱۲۵

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ [۱۴۰]

۲۲۸

﴿ إِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ ﴾ [۱۴۴]

سورة المائدة

۲۱

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ [۳]

۱۹۵

﴿ وَإِنْ أَحْكَمْتُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ [۴۹]

۱۵

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمْتُ أَنَّهَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ [۴۹]

۱۶۷

﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ، أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [۵۴]

۱۶۹

﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ [۵۴]

۲۳۴

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [۸۷]

۳۱۳، ۱۳۱

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ ﴾ [۸۳]

١٢٧

﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [٩٢]

سورة الأنعام

٣٠١

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [٣٦]

١٢٤

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [٦٨]

٢٢

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَاطِلٍ وَلَهْوًا﴾ [٧٠]

١٥

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [١١٠]

١٥

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [١٥٣]

سورة الأعراف

٢٥١

﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [٣١]

٣٠٥، ٢١٤، ٢٠١

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [٣٣]

٢٢٦

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [٥٥]

١٣٠

﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [١٤٥]

٢٥٩، ٢٥٨

﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [١٧٢]

٢٦٠

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [١٧٢]

٢٦٠

﴿أَبْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [١٧٢]

٢٦٠

﴿أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ [١٧٣]

١٢٦

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [١٨٥]

٢١٣

﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْفِتْنِ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [٢٠٢]

٢٨٨، ١٣٠

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ [٢٠٤]

٢٢٦

﴿وَأذْكَرَّتْكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [٢٠٥]

سورة الأنفال

- ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [٢]
- ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبُكْمُ ﴾ [٢٢-٢٣]
- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ [٢٤]
- ﴿ وَمَا كَانَتْ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ [٣٣]
- ﴿ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ ﴾ [٣٤]
- ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً... ﴾ [٣٥]
- ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّىٰ... ﴾ [٥٣]

سورة التوبة

- ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ... ﴾ [٢٤]
- ﴿ إِذِ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [٤٠]
- ﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً... ﴾ [٦٩]
- ﴿ ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ ﴾ [١٢٧]

سورة يونس

- ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ... ﴾ [٢٦-٢٧]
- ﴿ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ [٣٢]
- ﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [١٠١]

سورة يوسف

- ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ [١٠٨]

سورة الرعد

- ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [١١]

سورة إبراهيم

۱۵۸

﴿ يَشِيتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾ [۲۷]

سورة الحجر

۷۵

﴿ لَعَنَّاكَ اِيْتَهُمْ لِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [۷۲]

۲۴۵

﴿ اِنَّ فِيْ ذٰلِكَ لَاٰيٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِيْنَ ﴾ [۷۵]

۱۰۶

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّجِدِيْنَ ﴾ [۹۸]

سورة النحل

۶

﴿ فَتَنَّاوْا اَهْلَ الذِّكْرِ اِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْمَلُوْنَ ﴾ [۴۳]

سورة الإسراء

۱۹۷

﴿ وَلَا تَقْتُلُوْا اَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ اِمْلَاقٍ ﴾ [۳۱]

۱۲۵

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [۳۶]

۲۵۶، ۲۱۳، ۲۵

﴿ وَاسْتَفْرِزْ مِنْ اَسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ [۶۴]

۱۰۵

﴿ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ اِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [۷۸]

۱۳۱

﴿ اِنَّ الَّذِيْنَ اُوْتُوْا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِۦٓ اِذَا يُتْلٰٓى عَلَيْهِمْ يَخِرُّوْنَ ﴾ [۱۰۷]

سورة مريم

۲۲۶

﴿ اِذَا نَادٰى رَبُّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ [۳]

۱۳۱

﴿ اِذَا سُنِّيَ عَلَيْهِمْ اٰيٰتُ الرَّحْمٰنِ خَرُّوْا سُجَّدًا وَّبُكِيًّا ﴾ [۵۸]

۲۱۲

﴿ فَخَلَفَ مِنْۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ اَضَاعُوْا الصَّلٰوةَ وَاتَّبَعُوْا الشَّهْوٰتِ ۗ ﴾ [۵۹]

سورة طه

۸۲

﴿ طه ﴿۱﴾ مَا اَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقٰى... ﴾ [۸-۱]

سورة الانبياء

﴿ أَجِثْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّعِينِينَ ﴾ [٥٥]

٣٦

سورة المؤمنون

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ كَأَنَّ... ﴾ [١-٣]

١٢٥، ٣٤

﴿ يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّهَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ [٥١]

٢٣٤

﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [٥٣]

٧٧

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ﴾ [٦٨]

١٢٦

سورة النور

﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ بَعْضُوا مِنْ آبَائِهِمْ ﴾ [٣٠]

٢٣٩

﴿ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً... ﴾ [٣٩]

٣٠٧

﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [٤٠]

١٣٤

﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ ﴾ [٥٢]

١٢

﴿ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ [٥٤]

١٦٠

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ [٥٦]

١٢

﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [٦٣]

١٥

﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ [٦٣]

١٢٧

سورة الفرقان

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ [٣٠]

١٢٧

﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ [٤٣]

١٦٢

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ [٧٢]

٣٤

۱۲۵

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [۷۲]

۱۳۱

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِشَائِبَتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوْا عَلَيْهَا..﴾ [۷۳]

سورة الشعراء

۱۱۸

﴿أَيْنَ لَنَا لَاجِرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿۱۱﴾ قَالَ نَعَمْ..﴾ [۴۱-۴۲]

۲۳۸

﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿۱۷﴾ إِذْ نُسَوِّكُمْ..﴾ [۹۷-۹۸]

سورة النمل

۱۱۱

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [۵۹]

۳۰۰

﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ﴾ [۸۰]

سورة القصص

۱۶۲، ۱۲

﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [۵۰]

۱۲۷

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ [۵۱]

۲۸۷

﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ [۵۵]

سورة الروم

۱۳۴

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ..﴾ [۱۴-۱۵]

سورة لقمان

۲۸۴، ۲۸۲، ۱۳۲، ۳۴

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ [۶]

۲۴، ۲۳

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ..﴾ [۶-۷]

۲۵۸، ۲۲۹

﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ [۱۹]

۲۲۹

﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿۱۹﴾﴾ [۱۹]

سورة الاحزاب

۱۲

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا..﴾ [۷۰-۷۱]

سورة فاطر

٢٢٩

﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [١]

سورة يس

١٧٦

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [٦٩]

سورة ص

١٦٣

﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ [٢٦]

سورة الزمر

١٢٧

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ...﴾ [١-٣]

١٢٨

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا...﴾ [١٧]

١٢٤، ١٢٨، ١٣٣،

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ...﴾ [١٧-١٨]

٢٨٨، ١٣٤

١٤٤، ١٢٧

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [١٨]

٨٨

﴿قَوْلٍ لِلْقَنَسِيَّةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [٢٢]

١٢٨

﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ، لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ...﴾ [٢٢-٢٣]

١٢٩

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ...﴾ [٣٣]

٢٠٣

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ...﴾ [٣٣-٣٥]

١٣٠

﴿قُلْ يَتَّبِعُوا الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ...﴾ [٥٣-٥٥]

٢٤٧

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ اللَّهِ﴾ [٦٠]

سورة غافر

٣٠٦

﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [٧٥]

سورة فصلت

۱۳۹

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ...﴾ [۳۱]

۳۱۲

﴿فِي آذَانِهِمْ وَقُرُّهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [۴۴]

سورة الزخرف

۷۷

﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [۲۲]

۱۶۳

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [۳۶]

سورة الجاثية

۱۶۳، ۱۳

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيحَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا...﴾ [۱۸-۱۹]

سورة الاحقاف

۹۱

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَيُوفِّيهِمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [۱۹]

۲۸۸

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ [۲۹]

۲۹۶

﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا﴾ [۲۹]

۳۱۲

﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ [۲۹]

سورة محمد

۲۴۸، ۲۴۶

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ [۳۰]

۲۴۸

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [۳۰]

سورة الفتح

۲۴۵

﴿سَيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ [۲۹]

سورة الحجرات

۱۶۹

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [۱۵]

سورة ق

۳۱۱

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [۳۷]

۳۳۱

سورة النجم

١٧٢، ١٦٧، ٧٤، ١٤

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ...﴾ [٢٣]

١٣١، ٢٤

﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٢٤﴾ وَتَضْحَكُونَ...﴾ [٦١-٥٩]

سورة الواقعة

٢٧٠

﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٢٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ...﴾ [٧٩-٧٧]

سورة الحديد

١٢٨

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴿١٦﴾﴾ [١٦]

سورة الصف

١٤

﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴿٥﴾﴾ [٥]

سورة الجمعة

١٠٦

﴿إِذَا تَوَدَّى لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴿٩﴾﴾ [٩]

سورة المنافقون

١٠٦

﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴿٩﴾﴾ [٩]

سورة الملك

١٥٩

﴿لِيَبْلُوكُمْ أَبْكَرَ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٢﴾﴾ [٢]

سورة المزمل

١٠٥

﴿قُرْآنٍ نَزَّلْنَا بِاللَّيْلِ وَإِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾﴾ [٢]

سورة القيامة

٢٤٧

﴿وَجُودٌ بِوَيْهَادٍ فَاصِرَةً ﴿٢٢﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ...﴾ [٢٣-٢٢]

سورة المرسلات

١٠٥

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [٤٨]

سورة عبس

٢٤٧

﴿وَجُودٌ بِوَيْهَادٍ مُسْفِرَةً ﴿٢٨﴾ ضَاكِكَةً مُتَبَشِّرَةً...﴾ [٤٢-٣٨]

سورة الانقطار

٢٧٠

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [١٤، ١٣]

سورة المطففين

٢٤٧

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ... ﴾ [٢٤-٢٢]

سورة الفاشية

٢٣١

﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ ﴾ [١٧]

سورة الشرح

٢٧٧

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ... ﴾ [٤-١]

٢٧٩

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾ ﴾ [٨-٧]

سورة العلق

١٠٦

﴿ كَلَّا لَا نُطِيعُكَ وَأَسْجُدُ وَأَقْتَرِبُ ﴿١٩﴾ ﴾

سورة العصر

٢٧٩

﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ... ﴾ [٣-١]



٢ - فهرس الأحاديث والآثار (١)

- ١٩٦ أَمْزَمُورُ الشَّيْطَانِ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ (أَبُو بَكْرٍ)
- ٩١ ابْنُ آدَمَ! خَلَقْتُكَ لِنَفْسِي...
- ٧٧ أَتَدْرُونَ مَا مِيتُ الْأَحْيَاءِ؟ (ابْنُ مَسْعُودٍ)
- ١٠٨ أَتَقُولُ هَذَا وَنَحْنُ نَتَرَاءِي لَلَّهِ فِي طَوَافِنَا؟ (أَحَدُ الصَّحَابَةِ)
- ٣٠٨ أَحَبُّ الْعَمَلِ إِلَى اللَّهِ مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ
- ٢٢٤ أَخْرِجُوهُمْ مِنْ بِيوتِكُمْ
- ١١٢ إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِحَمْدِ اللَّهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ...
- ٢٨٣ إِذَا رَكِبَ الرَّجُلُ الدَّابَّةَ فَلَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ... (ابْنُ مَسْعُودٍ)
- ١١٣ إِذَا سَمِعْتُمْ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ الْمُؤَذِّنُ
- ١٤٠ إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ... (مُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْكَدَرِ)
- ٣٨ إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ: أَيُّنَ الَّذِينَ كَانُوا يُتَزَهَّوْنَ أَنْفُسَهُمْ
- ٣٧ أَعْلَنُوا هَذَا النِّكَاحَ وَاضْرِبُوا عَلَيْهِ بِالْغُرْبَالِ
- ١٦٥ الْاِقْتِصَادُ فِي السَّنَةِ خَيْرٌ مِنَ الْاجْتِهَادِ فِي الْبِدْعَةِ (ابْنُ مَسْعُودٍ)
- ١٨١ اقْرَأُوا الْقُرْآنَ بِلُحُونِ الْعَرَبِ...
- ١٠٥ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ
- ١٩٥ أَمْرٌ ﷺ بِالْإِعْتِزَالِ فِي السُّجُودِ
- ١٤٧ إِنْ أَخَالَكُمْ لَا يَقُولُ الرَّفَثَ
- ١٣٥ إِنْ أَزْوَاجُ أَهْلِ الْجَنَّةِ لِيَغْنَيْنَ أَزْوَاجَهُنَّ بِأَحْسَنِ أَصْوَاتٍ...

(١) الآثار متبوعة بذكر أصحابها بين القوسين.

- ١٣٦ إن الحور العين يغنين في الجنة...
- ١٤١ إن الرجل منهم ليصل في اليوم إلى مئة عذراء
- ٢٥٣ إن الشيطان قال: رب اجعل لي قرآنا، قال: قرآنك الشعر
- ٩٧ إن الله تعالى قال على لسان نبيه: سمع الله لمن حمده
- ٢٥١، ٢٥٠، ٢٣٩ إن الله جميل يحب الجمال
- ٢٣ إن الله حرّم القينة وبيعها وثمرتها...
- ٢٥٠ إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش
- ٢٣٩ إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم...
- ٢٣٤ إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة يحمده عليها...
- ٢٥٠ إن الله يبغض الفاحش البذيء
- ١٤٧ إن روح القدس معك ما دمت تُنافح عن نبيه
- ١٣٦ إن في الجنة شجرة جذوعها من ذهب...
- ١٣٧ إن في الجنة مجتمعًا للحور العين...
- ١٢٥ إن كان ابن مسعود لكريمًا
- ٢٤٦ إن للحسنة نورًا في القلب... (ابن عباس)
- ١٤٩، ١٤٧ إن من الشعر حكمة
- ٢٦٠ إن موسى مقتّ الأدميين وأصواتهم وكلامهم لما وقر مسامعه
- ١٨٠ إن هذا رجل لا يحبّ الباطل
- ٢٩٠ الأنصار قوم فيهم غزل
- ١٩٧، ١٩٦، ٢٦ إنما نهيتُ عن صوتين أحققين فاجرين
- ٢٥٨، ٢٢٨
- ١٣٦ إنه يجتمع الحور العين في كل سبعة أيام...

- أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة... ١٧
- أول زمرة تلج الجنة... ٢٤٧
- بُعِثْتُ بالسيف بين يدي الساعة... ١٧
- بُعِثْتُ بكسر المزامير ٢٨٣
- بل نساء الدنيا أفضل من الحور العين... ١٣٧
- تبراً النبي ﷺ من الصالفة ٢٢٦
- تبيض وجوه أهل السنة والجماعة... (ابن عباس) ١٧٥
- تعلموا الإسلام والسنة (أبو العالية) ١٦٤
- ثلاث في أمي من أمر الجاهلية لا يتركونهن ١٩٧
- ثلاث منجيات وثلاث مهلكات... ١٣
- جزاك الله خيراً يا عائشة ١٤٨
- جُعِلَتْ قرة عيني في الصلاة ١١٧
- الجفاء والغلظ وقسوة القلب في الفدّادين من أهل الوبر ٢٣١
- حديث الحبشة الذين لعبوا في المسجد بالحرايب^٤ ٥
- حديث أمر النبي ﷺ بقتل مَنْ كذب عليه ٢٠٠
- حديث أن مرور المرأة بين يدي المصلي يقطع الصلاة ٢١٦
- حديث بنات النجار اللاتي ضربن الدفّ أمام النبي ﷺ ٥
- حديث تواجد النبي ﷺ عند سماع بيتين ١٩٩
- حَسَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ ١٩٢
- حكيم في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال. (الشافعي) ١٨٣
- خطّ لنا رسول الله ﷺ خطاً وقال: هذا سبيل الله... ١٥
- خلقتك لنفسي فلا تلعب... ٩١

- ٢٥ دخلتُ على النبي ﷺ وفي حجره إبراهيم...
- ١٨٨ دَعَمَا يَا أَبَا بَكْرٍ! فَإِنْ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا...
- ١٢٩ الذي جاء بالصدق: القرآن... (مجاهد)
- ١١٣ رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا
- ٢٢٦ رفع الصوت بالدعاء بدعة (الحسن البصري)
- ١٨٧ رُوَيْدُكَ يَا أَنْجِشَةَ، سَوَّقَكَ بِالْقَوَارِيرِ
- ١٥٤ زينوا القرآن بأصواتكم
- ٢٨٨ سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجاءة فأمرني أن أصرف بصري
- ١١١ سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر...
- ٩٤ سبحانك اللهم وبحمدك...
- ١٤٨ سمع النبي ﷺ قصيدة كعب بن زهير..
- ١٦٥ السنِّي: الذي إذا ذُكِرَتِ الْأَهْوَاءُ لَمْ يَغْضَبْ (أبو بكر بن عياش)
- ١٥٢، ١٤٧ الشعر كلام، فحسنه حسن وقبيحه قبيح (أثر)
- ١٩٥ صوتان ملعونان: صوت ويل...
- ١٦٤ عليكم بالسبيل والسنة (أبي بن كعب)
- ١٧ عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين...
- ٢٢٠ العينان تزنيان وزناهما النظر...
- ١٤٥، ٦٧ الغناء رقية الزنا (الفضيل بن عياض)
- ٦٢، ٢٤، ٢٠ الغناء ينبت النفاق في القلب... (ابن مسعود)
- ٢٧٥، ١٤٤
- ١١٢ فإذا قلتَ ذلك فقضيتَ صلاتك.. (ابن مسعود)
- ٢٣٧ فضل كلام الله على غيره كفضل الله على خلقه

- ٢٨٢ قال إبليس لربه: يا ربّ قد أهبط آدم...
- ٢٥٢ قد أوتي هذا مزمارًا من مزامير آل داود
- ٧٨ القلوب على أربعة: قلب أجرد... (حذيفة بن اليمان)
- ١٩١ كان النبي ﷺ يُسرب الجوارى إلى عند عائشة يلعبن معها
- ٢٢٦ كانوا يستحبون خفض الصوت عند الذكر... (قيس بن عباد)
- ٢٨٤ كسبُ المغنية والمغني حرام...
- ١٥٧، ١٦ كل عمل ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ
- ١٨٠ كلُّ لهوٍ يلهو به الرجل فهو باطلٌ إلا رميه بقوسه...
- ٢٧٢ لا أحلُّ المسجد لحائض ولا جنب
- ٢٨٣ لا آذنُ لك ولا كرامة...
- ٢٣ لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن...
- ٢٨٨، ٢٢٢ لا تُتبع النظرة النظرة...
- ٣١٧ لا تجالسوهم ولا أصحاب الكلام... (عبد الرحمن بن مهدي)
- ٢٨١، ١١٩، ٨٠ لا تجتمع بنت عدو الله وبنت رسول الله عند رجلٍ واحدٍ أبدًا
- ٢٧٢ لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة
- ٢٤٧ لا تزال المسألة بأحدكم حتى يجيء يوم القيامة...
- ٢٩٣ لا تنقضي عجائبه ولا يشبع منه العلماء
- ١٩٠ لا يجعل أحدكم للشيطان حظًا من صلاته
- ٢٨٤ لا يحل شراء المغنيات ولا بيعهن...
- ٢٥١ لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر
- ٢٤٠، ١٩٨ لا، إن شاء الله
- ١٨٣ لأن يُبتلى العبد بكلِّ ذنب ما خلا الشرك... (الشافعي)

- ١٥٢ لأن يمتلئ جوف أحدكم قبحًا حتى يريه خير له...
- ٢٢٧ لتأخذن أمتي مأخذ الأمم قبلها شبرًا بشبر...
- ٢٢٧ لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة...
- ١٠٤ لربي الحمد، لربي الحمد
- ٢٢٠، ٢٠٩ لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء
- ٢٢٤ لعن رسول الله ﷺ المخنثين من الرجال
- ٢٣٠، ١٩٦ لقد أوتي هذا مزمارًا من مزامير آل داود
- ١١٤ لقد تجلّى الله لعباده في كلامه (بعض السلف)
- ١٥٥ لقد مررتُ بك البارحة وأنتَ تقرأ...
- ١٩٢ لكل شيء حلية، وحلية القرآن الصوت الحسن
- ٢٣٤ لكني أصوم وأفطر وأنام وأتزوج النساء...
- ١٤١ للمؤمن في الجنة ثلاثون زوجة
- ٢٤٤، ١٩٣، ١٥٥ لله أشدُّ أذنًا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن
- ٩٣ اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين
- ٢٨١ اللهم اركسهما في الفتنة ركسًا
- ١٤٧ اللهم أيده بروح القدس
- ١٤٩ اللهم بارك فيهن
- ١٧٦، ١٤٣ اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة...
- ١٤٩ لو سمعتها قبل ذلك لم أقتله
- ٢٩٣، ٨١ لو طهرت قلوبنا لما شبعنا من كلام الله (عثمان بن عفان)
- ٢٣١ ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق
- ٢٠١ ليس كذب عليّ ككذب علي غيري

- ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن
 ١٩٥، ١٩٣
- ليكونن في أمتي أقوام يستحلون الحرير والخمر والمعازف..
 ٢٨٥
- المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف
 ١٧٠
- ما أذن الله لشيء كأذنه لنبى حسن الصوت يتغنّى بالقرآن
 ٢٤٤، ١٥٤
- ما أضمر رجل شيئاً إلا أظهره الله (عثمان بن عفان)
 ٢٤٦
- ما الذي قالوا؟
 ٢٩٠
- ما تقرب العباد إلى الله بمثل ما خرج منه
 ٢٣٧
- ما رآك الشيطان سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك
 ١٨٩
- ما من عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه...
 ١٣٧
- ما من عبد يدخل الجنة إلا ويزوج ثنتين وسبعين زوجة..
 ١٤٠
- ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رُفِعَ إلا بتوبة (العباس بن عبد المطلب)
 ٢٧٢
- ما نسي ربك بيت شعر قلته
 ١٤٩
- مررت بك البارحة وأنت تقرأ...
 ٢٢٩
- من استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون صُبَّ في أذنيه...
 ٢٨٧
- من حالت شفاعته دون حدٍّ من حدود الله فقد ضادَّ الله في أمره
 ٢٢٥
- من رأى منكم منكراً فليغيره بيده...
 ٥
- من سأل الله وله ما يكفيه جاءت مسأله...
 ٢٤٧
- من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة
 ١٣٨
- من شربها في الدنيا لم يشربها في الآخرة (محمد بن كعب)
 ١٣٩
- من عشق وعف وكتم فمات مات شهيداً
 ٢٣٩
- من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ
 ١٦
- من فارق الجماعة مات ميتة جاهلية
 ٢٨

- ٢٨٨ من قعد إلى قينة يسمع منها صُبَّ يوم القيامة في أذنيه الآنك
- ١١٢ من كان آخر كلامه «لا إله إلا الله» دخل الجنة
- ٣٥ من كثر سواد قوم فهو منهم
- ٢٠١ من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار
- ١٣٨ من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة
- ١٨٧ من هذا السائق؟
- ٢٣٩ النظرة سهم مسموم من سهام إبليس...
- ٢٨٣ هؤلاء العصاة من مات منهم بغير توبة...
- ٩٦ هؤلاء لعبدي، ولعبدي ما سأل
- ١٩١ هذه بتلك
- ٢٨٦ هكذا رأيت رسول الله ﷺ فعل
- ١٧٦ هل أنتِ إلا إصبعٌ دميتِ
- ٧٧ هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف والمنكر (ابن مسعود)
- ١٩٠ هو اختلاسٌ يختلسه الشيطان من صلاة العبد
- ٢٤ هو الغناء والاستماع إليه (ابن مسعود)
- ١٣٩، ١٣٨ هي لهم في الدنيا ولنا في الآخرة
- ١٤٨ هيه هيه
- ٣١٩ وددتُ أني نجوتُ من هذا الأمر كفافاً (عمر بن الخطاب)
- ١٧ وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة...
- ٣٧ يا أبا بكر! إن لكل قوم عيداً، وهذه أيام عيدنا
- ٢٠٧، ٨١ يا أبا موسى ذكّرنا ربنا (عمر بن الخطاب)
- ٢٢٦ يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم...

- يا بلال! أرخنا بالصلاة
يا عائشة! إن الأنصار ناس فيهم غزل
يا عمّ! لا يفضض الله فاك
يدخل أحدكم والزنا في عينيه (عثمان بن عفان)
يقول الله: وعزتي وجلالي لو أتوني من كل طريق...
يكون في هذه الأمة قوم يستحلُّون الخمر والحريير والمعازف
يُمسح قوم من أمتي في آخر الزمان...
ينادي منادٍ يوم القيامة... (مجاهد)



٣ - فهرس الشعر

الصفحة	القائل	البحر	القافية
٢٥٦	[أبو نواس]	مقتضب	الطربُ
٢٢٣	المؤلف	بسيط	فلا تُصِبِ
٨١	—	بسيط	والقَصَبِ
٦٣	[ابن سهل]	بسيط	الحطَبِ
٢٢٩، ٥٥	[أبو إسحاق الشيرازي]	كامل	ومُغْرَبِ
١٤٩	كعب بن مالك	كامل	الغَلَابِ
٣٠٨	—	كامل	ثوابه
٣٩	—	طويل	تجنُّبا
٥٠	[المؤلف]	سريع	كتاب
١٥١	أبو هريرة	طويل	نَجَّتِ
١٩٨	—	مقتضب	كالسَّبَجِ
٢٤٠	—	مقتضب	حرج
٤٠	[سمنون]	طويل	وأرجحُ
٦٣	—	مديد	تنقدحُ
٤٢	—	كامل	المصباحا
٤٢	—	رجز	القبائحا
١٧٢	—	طويل	وزدُ
٦٤	—	وافر	صدودُ
١٥٠	أنس بن زنيم	طويل	باليدِ

٤١	—	بسيط	أحد
٥٦	[إدريس بن أبي حفصة]	بسيط	الزاد
٢١٧، ٧١	[أبو إسحاق الصابئ]	كامل	الخالد
٣٠٠			
١٥٠	أبو الدرداء	وافر	أرادًا
١٤٢	—	رجز	أبدا
٤١	—	طويل	السرُّ
٢٢٣	—	طويل	المناظرُ
١٥١	—	طويل	سائرُ
٢١١	—	بسيط	الخبرِ
٣١٠	—	بسيط	أمَّارٍ
١٤٩	—	رجز	جارٍ
٦٣	[أبو الشيص]	سريع	نارا
٦٤	— ^٤	كامل	الغارسي
٨١	—	بسيط	والمرضُ
٤٤	—	طويل	ويجمعُ
١٤٧	عبد الله بن رواحة	طويل	ساطعُ
١٥١	خبيب	طويل	مصرعي
٤٠	[أبو علي الروذباري]	بسيط	جُرَعَا
١٤٩	—	مجزوء الرمل	الوداغ
٢٤١	[ابن الفرضي]	طويل	وخائفُ
٨٠	[ابن الفارض]	كامل	تصطفي

٢٤١،١٧٧	[الأعشى]	طويل	نتفرقُ
٦٤	[المجنون أو غيره]	طويل	عاشقُ
١٩٩	—	منسرح	راقي
٢٤٠	—	متقارب	يُطِقُ
٢٦٤	—	مجزوء الوافر	احتنكا
٤٠	—	متقارب	لذاكا
١٥٢	بلال	طويل	وجليلُ
٢٢٣	[المتنبي]	كامل	القاتلُ
٣١١،٦٧	[المتنبي]	بسيط	زُحِلِ
٦٥	—	كامل	مُخَجَلِ
٣٩	[أبو تمام]	كامل	الأولِ
١٤٨	أبو كبير الهذلي	كامل	المتهللُ
٣٠١	[جميل بثينة]	كامل	رسائلي
١٥١	أبو بكر	رجز	نعلِه
١٥٠	فروة بن نوفل	بسيط	إقبالاً
٢١٢	[ابن النبيه]	خفيف	ترتيلا
٢٩٧،٧٤	[صفي الدين الحلبي]	طويل	أعظمُ
٣٩	[المؤلف]	طويل	المخيمُ
٥٤	[أبو الشيص الخزاعي]	كامل	اللومُ
٢٢٩،٨٣	[المتنبي]	خفيف	إيلامُ
٤١	[الشريف الرضي]	طويل	قاتمِ
٣٩	[المتنبي]	طويل	قادمِ

٥٤	[الشريف الرضي]	بسيط	نَم
٦٢	—	وافر	حرامًا
٢٩٠، ٣١	—	هزج	نَحْيَتِكُمْ
٤٢	[محمد بن صالح العلوي]	كامل	لمعانه
٤٧	—	طويل	تَبْنِي
٦٥	[ابن الرومي]	طويل	تدان
٣٠٩	—	طويل	تداني
١٥٨	[المتنبي]	طويل	يماني
١٥١	—	طويل	نَجَّانِي
١٨٦	[أبو الأسود الدؤلي]	طويل	بلبانها
٤٣	—	هزج	تعصيني
٢٦٨	[أبو بكر الشبلي]	رمل	فَنِّ
٦٨	[المجنون أو غيره]	طويل	فتمكنا
٣١١	[الكميت]	وافر	الدُّوِينَا
١٨٧	[عامر بن الأكوخ]	رجز	اهتدينا
٦٦	—	متقارب	الغنا
٤١	[صدردر]	متقارب	ما بها
٢٧٨	[الأعشى]	متقارب	منها بها
١٩	—	كامل	لاهي
٥٦	[عمرو بن شأس]	طويل	حاديا



٤ - فهرس الأعلام

٣١٤	إبراهيم بن أدهم
٢٣٢	إبراهيم بن إسماعيل بن عليّة
٢٦٢	إبراهيم الحربي
١٧٧، ٢٧	إبراهيم بن سعد
١٣٩، ٣٣	إبراهيم بن المنذر الحزامي
٢٥	إبراهيم ابن النبي ﷺ
٢٧، ٢٤	إبراهيم النخعي
٢٩٨، ٢٢١، ٢١٥، ١٢٦	إبليس
١٦٤	أبي بن كعب
٣٧	أحمد بن الحسن
١٩٣، ١٤٤، ٤٣، ٤٢، ٣٥، ٣٢، ٣٠، ٢٤	أحمد بن حنبل
٣١٩، ٢٩٠، ٢٨٥، ٢٣٢، ٢٢٦، ٢٠٩	
٣١٧، ٢٩٦	أحمد بن أبي الحواري
٣٠	أحمد بن الفرّج الحمصي
٣٦	أحمد بن الفضل
٤٦	أحمد بن محمد البردعي
١٣٧	أحمد بن منيع
١٧٨، ٣٢	إسحاق بن عيسى الطباع
٢٣٢	إسماعيل بن عليّة

٣٥	إسماعيل بن نُجيد
١٦٦	أبو إسماعيل الأنصاري
٢٦٥	الأعمش
٢٨٤، ١٤٠، ١٣٦، ٢٣	أبو أمامة
١٤٨	أمية بن أبي الصلت
١٨٧	أنجشة
٢٨٨، ١٩٢، ١٤٢، ١٤١، ١٣٦	أنس بن مالك
١٣٦	ابن أنس بن مالك
١٥٠	أنس بن زُنيَم الدَّيْلِي
١٣٦	ابن أبي أوفى
١٥٣	إياس بن معاوية
١٨٥	أبو أيوب الأنصاري
٢٨٥، ٢٧٠، ١٢٩، ٢٥	البخاري
١٩٢	البراء بن عازب
٢٨١	أبو برزة الأسلمي
١٤٠، ٣٥، ٣٣	ابن بطّة
٢٨٧	أبو بكر الباغندي
٢٥٥	أبو بكر الدقي
١٨٩، ١٨٨، ١٨٠، ١٥١، ١٥٠، ٤٤	أبو بكر الصديق
٣١٩، ١٩٦	
١٦٥	أبو بكر بن عياش
٣٦	أبو بكر القزاز

٢٦١	أبو بكر بن ممشاذ
١٥٢، ١٥٠	بلال
٣١	بهية
٢٨٤، ١٣٧، ٢٣	الترمذي
٢٩٩، ٢١٩، ٢٠٠، ١٩٩، ٩٥	ابن تيمية
٢٦٢	ثعلب
١٨٥، ١٧٧	جابر بن عبد الله
٢٦٥، ١٧٩	ابن جريج
٣٠	جعفر بن محمد
٣٥	جعفر بن محمد الزاهد
٢٥٩، ٢٥٨، ١٦٠، ٤٦، ٤٤، ٣٨، ٣٦	الجنيد
٣١٧، ٢٩٩، ٢٩٧، ٢٩٢، ٢٦٢، ٢٦١	
٣١٨	
٤٦	ابن الجوزي
٢٨٨، ١٣٩	أبو حاتم الرازي
١٣٩	ابن أبي حاتم
٢٨٢	الحاكم
٤٣	أبو حامد الخلقاني
١٤١	الحجاج
٧٨	حذيفة بن اليمان
١٥٢، ١٤٨، ١٤٧	حسان بن ثابت
١٦٤، ١٣٧، ٢٧، ٢٤	الحسن البصري

۱۳۷	أم الحسن البصري
۳۶	الحسن بن الحسين
۱۳۹	حسن بن علي بن حسن البراد
۲۶۱	الحسين بن أحمد بن جعفر
۴۷	أبو الحسين الدراج
۳۱۵، ۳۱۴، ۲۹۶، ۱۶۱، ۴۶، ۴۴	أبو الحسين النوري
۳۰۷، ۲۹۵	الحصري
۱۶۰	أبو حفص النيسابوري
۱۶۴	حفصة بنت سيرين
۲۷	حماد بن أبي سليمان
۱۶۰	أبو حمزة البغدادي
۱۳۹	حميد الخراط
۲۴	الحميدي
۱۴۴، ۲۷	أبو حنيفة
۱۵۹	ابن أبي الحوار
۳۷	خالد
۱۴۰، ۱۳۶	خالد بن معدان
۱۵۱	خبيب
۳۶	الخطيب البغدادي
۳۱۷، ۳۳، ۳۰	الخلال
۲۵۲	داود عليه السلام
۱۴۰	داود بن عمر الضبي

١٨٥،١٥٠	أبو الدرداء
١٤٠	ابن أبي الدنيا
١٣٦	ابن أبي ذئب
١٨٥	أبو ذر الغفاري
٢٦٥،٢٦٤،٤٤٤،٣٨	ذو النون المصري
١٤٦	ابن الراوندي
٣٠٦،٢٩٥	رُويم
١٧٧،٢٨	زكريا بن يحيى الساجي
٣٠	الزهري
١٣٥	زيد بن أسلم
١٣٦	زيد بن واقد
٣٧	سريج بن يونس
١٣٥	سعد الطائي
٣٠٥	سُعدى
١٣٥	سعيد بن أبي مریم
٢٦٥،٢٧،١٥	سفيان الثوري
١٩٣	سفيان بن عيينة
١٨٦	سلمة بن الأكوع
١٣٧	أم سلمة
١٣٧	سليمان بن أبي كريمة
٣١٤،٣١٣،٢٩٦	أبو سليمان الداراني
٣١٧،١٥٩	سهل بن عبد الله التستري

٣١٢، ٢٩٥

أبو سهل الصعلوكي

١٦٤، ٣٧

ابن سيرين

١٤٦

ابن سينا

، ١٤٥، ١٤٤، ٣٥، ٣١، ٣٠، ٢٩، ٢٨، ٥

الشافعي

، ١٨٣، ١٨٢، ١٧٨، ١٦٤، ١٥٢، ١٤٦

، ٢٣٢، ٢١٩، ٢١٦، ٢٠٩، ٢٠٠، ١٩٣

٣١٧، ٢٧٩، ٢٧٣

٢٩٨، ٢٩٤، ٤٤، ٣٨

الشبلي

١٤٨

الشريد بن سويد

٢٦٥

شريك بن عبد الله

٣٤، ٢٧

الشعبي

٣٧

أبو شعيب الحراني

٢٨٢، ٢٤

أبو الصهباء

٢٠٣، ١٦٦

ع

أبو طالب المكي

٢٨٢، ١٣٧

الطبراني

١٤٥، ٢٩، ٢٨

أبو الطيب الطبري

٢٩٠، ١٥٠، ١٤٨، ٣٧، ٣١، ٣٠، ٢٣، ٥

عائشة

١٦٤

عاصم

١٦٤

أبو العالية

١٨٦

عامر بن الأكوع

٢٨٥

أبو عامر أو أبو مالك الأشعري

٢٧١، ١٤٨

العباس بن عبد المطلب

۳۳	عباس بن محمد الدوري
۱۴۸	العباس بن مرداس السلمي
۲۶۲	أبو العباس ابن سريج
۳۶	أبو العباس النسوي
۱۳۷	عبد الرحمن بن إسحاق
۱۳۶	عبد الرحمن بن سابط
۲۵	عبد الرحمن بن عوف
۲۸۵	عبد الرحمن بن غنم
۲۳۲	عبد الرحمن بن كيسان الأصم
۳۱۷	عبد الرحمن بن مهدي
۱۴۶	أبو عبد الرحمن السلمي
۳۶	عبد الصمد بن محمد
۵۲	عبد القادر الكيلاني
۳۶	عبد الكريم بن عبد الرزاق
۳۲	عبد الله بن أحمد بن حنبل
۱۸۶، ۱۸۵، ۱۸۴	عبد الله بن جعفر الطيار
۱۴۸، ۱۴۷	عبد الله بن رواحة
۱۸۵	عبد الله بن الزبير
۳۷	عبد الله بن سلام
۴۶	عبد الله بن صالح
۱۵۱	عبد الله بن عامر
۲۸۲، ۲۴۶، ۲۴۵، ۱۸۵، ۱۷۷، ۱۷۵، ۲۴	عبد الله بن عباس

٢٨٦، ١٨٥، ١٨٤، ١٧٧، ١٣٥، ١٧

عبد الله بن عمر

٢٨٨، ١٤٠

عبد الله بن المبارك

، ١١٢، ٧٧، ٦٢، ٣٥، ٢٧، ٢٤، ٢٠، ١٥

عبد الله بن مسعود

، ١٨٥، ١٧٧، ١٦٥، ١٤٥، ١٤٤، ١٢٥

٢٨٢، ٢٧٥

٤٦

أبو عبد الله بن باكويه

٤٦

أبو عبد الله المقرئ

١٧٨، ١٧٧، ٢٨، ٢٧

عبيد الله بن الحسن العنبري

١٨٥

أبو عبيدة بن الجراح

٢٦٩

عتبة الغلام

٢٩٣، ٢٤٦، ٢٢٧، ١٥٠، ٨١، ٤٤

عثمان بن عفان

٢٩٦

أبو عثمان الحيري

٣١٥، ٣١٣، ٣١١، ٢٩٦، ٢٩٥

أبو عثمان المغربي

١٦٢، ١٦٠

أبو عثمان النيسابوري

١٧

العرباض بن سارية

٣٠

عروة

٢٦٥

عطاء بن أبي رباح

٣١

أبو عقيل

٢٤

عكرمة

١٤٩

العلاء بن الحضرمي

٢٨٨، ٢٦٦، ١٨٥، ١٥٠، ١٣٧، ٤٤

علي بن أبي طالب

٤٥

علي بن عبد الله بن جهضم

٣٦	علي بن مفلح
٢٦٥، ٢٦٢	أبو علي الدقاق
٣١٨، ٢٦٢	أبو علي الروذباري
١٨٥	عمار بن ياسر
٣٧، ٤٤، ٨٠، ١٥٠، ١٥٢، ١٨٠، ١٨٦	عمر بن الخطاب
٣١٩، ٢٩١، ٢٤٨، ٢٠٧، ١٨٩	
٢٥٨	أبو عمر الأنماطي
١٥٠	عمرو بن العاص
١٦٠	أبو عمرو بن نُجيد
١٣٦	عون بن الخطاب
٣١١	عيسى عليه السلام
٣٦	فارس البغدادي
١٣٦	ابن أبي فديك
٣٦	أبو الفرج الرستمي الصوفي
١١٨	فرعون
١٥٠	فروة بن نوفل بن عمرو
١١٢	فضالة بن عبيد
٣١٤، ١٥٩	الفضيل بن عياض
١٨٢	القاسم بن محمد
٢٦٢، ٢٦١، ١٩٨	أبو القاسم القشيري
٣٥	أبو القاسم النصرابادي
١٤١	قتادة

۳۲	ابن القصار المالكي
۲۲۶	قيس بن عباد
۱۴۸	كعب بن زهير
۱۴۹، ۱۴۸	كعب بن مالك
۲۵۸	لقمان
۱۶۴	الليث بن سعد
۳۰۵	ليلي
۲۸۴	ابن ماجه
، ۱۷۹، ۱۷۸، ۱۷۷، ۱۴۴، ۱۴۰، ۳۵، ۳۲	مالك بن أنس
۲۸۸، ۲۳۲	
۱۴۰، ۱۲۹، ۳۴، ۲۵	مجاهد
۳۶	المحترق البصري
۱۳۵	محمد بن جعفر بن أبي كثير
۲۶۱	محمد بن الحسين
۲۳۲، ۱۹۸، ۱۷۸	محمد بن طاهر المقدسي
۲۶۵	محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلي
۳۶	محمد بن عبد الغفار الهمداني
۱۳۹	محمد بن كعب
۲۸۸، ۱۴۰	محمد بن المنكدر
۴۶	المرتعش
۱۸۵	مروان بن الحكم
۲۶۵	مسعر بن كدام

١٨٥	معاذ بن جبل
١٨٥، ١٥١	معاوية بن أبي سفيان
١٣٧	أبو معاوية
٣١٤	معروف الكرخي
٣٣	مكحول
٢٥٩، ٢٣٢، ١٣٠	موسى عليه السلام
٨١، ١٥٤، ١٩٦، ٢٠٧، ٢٢٥، ٢٢٩	أبو موسى الأشعري
٢٥٢، ٢٣٥	
٣٧، ٣٦، ٣٥، ٣١	أبو موسى المدني
٣٠٥	مي
١٤٨	النايعة الجعدي
٢٨٦، ٢٨٥	نافع
٣٥	نصر بن علي
٤٧	أبو نصر السراج
١٤٦	أبو نصر الفارابي
١٤٩	النضر بن الحارث
١٤٨	أخت النضر بن الحارث
١٣٧	النعمان بن سعد
١٤٠، ١٣٥	أبو نعيم
٢٨٧	أبو نعيم (عبيد بن هشام الحلبي)
٢٣٩	النقاش
٢٧٨	أبو نواس

٢٨٤، ١٥٠، ١٣٦

أبو هريرة

١٣٧

هشام بن حسان

٣٠

هشام بن عروة

٢٨٥

هشام بن عمار

٣٧

هشيم

١٣٥

الوليد بن أبي ثور

١٥١

الوليد بن عقبة

٣٠

يحيى بن سعيد

١٨٤، ٣٥، ٣٢

يزيد بن هارون

١٦١

أبو يزيد البسطامي

٢٩٤، ١٦١

أبو يعقوب النهرجوري

٢٨١

أبو يعلى الموصلي

٢٤٢

يوسف عليه السلام

٤٧، ٤٤، ٣٨

ع

يوسف بن الحسين الرازي

١٦٤

يونس بن عبد الأعلى



٥ - فهرس الكتب الواردة في النص

١٧٧	الإجماع والاختلاف (لزكريا الساجي)
١٧٨، ٢٨	أدب القضاء (من «الأم») للشافعي
١٤٦	الإشارات لابن سينا
٤٥	بهجة الأسرار لابن جهضم
٤٧	تاريخ بغداد (للخطيب)
١٣٠	التوراة
١٧	جامع الترمذي
٣٢	جامع الخلال
٢٨٧	حديث الباغندي
٤٦	حكايات الصوفية (لابن باكويه)
١٦١	الدليل الواضح في النهي عن ارتكاب الهوى الفاضح
١٩٨	الرسالة القشيرية
١٠٠	الرسالة المصرية (للمؤلف)
١٧٨	السماع لمحمد بن طاهر
٢٨٣	سنن ابن ماجه
١١٢	السنن
٢٨٥، ٢٧٠، ٢٢٠، ١٢٩، ٢٥	صحيح البخاري
١٦	صحيح مسلم
١٨٦، ١٤٢	الصحيحان

١٤٧، ١٨٠، ١٨٧، ٢٢٢،

الصحيح

٢٢٥، ٢٢٧، ٢٣٤

١٦

صحيح ابن حبان

١٦

صحيح الحاكم [المستدرک]

١٣٥، ١٤٠

صفة الجنة لأبي نعيم

٢٨٣

الغيلانيات

٢٠٣

قوت القلوب

١٠٠

مراحل السائرين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (للمؤلف)

١٤٦

مسألة السماع (لأبي عبد الرحمن السلمي)

٣٢

مسائل عبد الله بن أحمد بن حنبل

٢٨١

مسند أبي يعلى

١٦، ١٧، ٢٤، ٢٨٤، ٢٩٠

مسند أحمد

٢٤

مسند الحميدي

٢٨٤

٥

مسند مسدد بن سرهد

٢٨٢

معجم الطبراني



٦ - فهرس الفوائد العلمية

* التفسير وعلوم القرآن

- تفسير قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ

١٠

نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴿ [النساء: ٥٩]

١٠٢ - ٩٧

- بيان أسرار سورة الفاتحة

- تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ

٢٦٠

ذُرِّيَّتَهُمْ... ﴿ [الأعراف: ١٧٢]

* الحديث وعلومه

- معنى قوله ﷺ: «من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في

١٣٩

الآخرة»

- حديث أن رجلاً أنشد النبي ﷺ: «هل عليّ ويحكما * إن

عشقتُ من حرج» فقال ﷺ: «لا إن شاء الله» = كذب

٢٤٠، ١٩٨

موضوع

- حديث أن أعرابياً أنشد النبي ﷺ: «لسعث حية الهوى

٢٠٠

كبدي»، فتواجد النبي ﷺ عند سماعه = كذب موضوع

٢٣٩

- حديث: «من عشق وعف...» = موضوع

- حديث المعازف في صحيح البخاري صحيح لا مطعن فيه،

٢٨٥

وأخطأ من طعن فيه

* أصول الفقه

٦٨

- قاعدة سدّ الذرائع

- الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل

١٨٩

المفاسد وتقليلها

١٩٠

- تحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما

١٩٧

- التخصيص بالعدد لا يقتضي اختصاص الحكم به

٢٦٣

- اختلاف الأحكام باختلاف أوصافها

٣١٩

- هل يؤخذ مذهب الإمام من فعله؟

* الفقه

- حلق الرأس في غير الحج والعمرة من غير عذر، اختلاف

١٦٦

الناس في ذلك

- حكم من كذب على النبي ﷺ، واختلاف الناس في كفره

٢٠٠

وقتله

٢٢٥

- رفع الصوت بالدعاء والذكر مكروه إلا حيث جاءت به السنة

٢٢٧

- السنة خفض الصوت في القتال

٢٨٧

- الفرق بين السامع والمستمع في سجود التلاوة^٤

٣١٤

- حكم قراءة الجماعة للقرآن بصوت واحد

* العقيدة

- عموم رسالته ﷺ إلى كل مكلف في كل وقت في كل حكم

١١

من أحكام الدين أصوله وفروعه

٥٥

- تشبيه الإسلام والإيمان والإحسان بالجسد والروح والقلب

* اللغة

٣١

- شرح كلمة «التغيير»

٧- فهرس الموضوعات

- * مقدمة التحقيق ٥
- موضوع الكتاب ومن ألف فيه ٦
- عنوان الكتاب ١٩
- تحقيق نسبه إلى المؤلف ٢٢
- منهج المؤلف فيه ٢٣
- مباحث الكتاب ومقارنتها بالكتب الأخرى للمؤلف ٢٤
- موارد ٣٢
- المقارنة بينه وبين كتاب «الاستقامة» ٣٦
- وصف النسخة الخطية ٣٩
- الطبعات السابقة ٤٢
- هذه الطبعة ٤٤
- * النص المحقق ١
- صورة الاستفتاء ٣
- مقدمة المؤلف ٧
- صفة من ينتفع بهذه الفتوى ٧
- صفة المعرض عنها ٩
- خطاب أمثاله لإقامة الحجّة عليهم ٩
- * فصل: الكلام في هذه المسألة في فصلين: (١) بيان حكمها في الشرع،
و(٢) تعاطيها على وجه اللهو والمجون وعلى وجه القربة والطاعة كما
يدّعيه أهل السماع ١٠

- الفصل الأول: وجوب الرد إلى الله والرسول عند التنازع ١٠
- كل ما ليس بطاعة للرسول فهو هوى للأنفس ١٢
- أهل السماع متبعون لأهوائهم ودعاة إلى الشيطان ١٣
- النهي عن اتباع الأهواء والأمر باتباع الهدى ١٣
- * فصل: ما دعا إليه الرسول ﷺ هو حياة القلوب ونجاة النفوس ١٤
- عقاب من ترك طاعة الله والرسول ١٤
- البدعة والتحذير منها ١٦
- * فصل: الكلام المجمل في هذه المسألة ١٧
- السماع على الوجه المذكور حرام لا يبيحه أحد من المسلمين ١٧
- مفسد السماع ١٨
- من أعظم مفسده ثقل استماع القرآن على قلوب أهله ١٩
- نسبته إلى دين الرسول وشرعه مصيبة عظمى ٢٠
- أعظم من هذه البلية: اعتقاد أنه قرينة وأن فيه صلاح القلوب ٢٠
- هذا من النفاق الذي أنبته الغناء في القلب ٢٠
- * فصل: كمال الدين وتمامه ٢١
- هل السماع شرعه الرسول أو لم يشرعه؟ ٢٢
- ادعاء أنه مشروع كذب على الله ورسوله ٢٢
- إذا كان غير مشروع فاعتباره من الدين يستلزم كونه ناقصًا ٢٢
- السماع من الباطل واللهو واللعب المنهي عنه ٢٢
- تفسير السلف «لهو الحديث» بأنه الغناء ٢٣
- النهي عنه في الأحاديث ٢٣
- تفسير «السمود» بالغناء وغيره ٢٤
- «صوت الشيطان» هو الغناء والمزامير ٢٥

- النهي عن صوتين أحمقين فاجرين في الحديث، وسبب ذلك ٢٦
- المشروع للمؤمنين عند المصيبة والنعمة ٢٦
- إجماع أهل العلم على التحذير من الغناء والسماع وآلات اللهو ٢٧
- أقوال العلماء وأئمة الفقه في ذلك ٢٧
- شذوذ من لم ير به بأسًا ٢٨
- إجماع المسلمين على أنه ليس طاعةً ودينًا ٢٨
- بطلان الاستدلال على جوازه بحديث غناء الجويريتين ٣٠
- فتوى ابن بطة في الغناء والسماع ٣٣
- إنكار مشايخ الصوفية على السماع ٣٥
- جواز بعض الغناء في النكاح والختان ٣٧
- حضور جماعة من الصوفية في السماع والجواب عنه ٣٨
- السماع الذي حضره بعض الأولياء غير السماع المسؤول عنه ٣٨
- منشأ الغلط عند أهل السماع ٤٣
- الذين أنكروا على السماع أكثر وأفضل من الذين حضروه ٤٤
- اتفاق أهل السماع ليس حجة شرعية يجب اتباعها ٤٥
- إنكار أكثر الصوفية والمشايخ على السماع ٤٥
- ترخيص المتأخرين فيه حبًا للهو ٤٦
- ضرره على العامة ٤٦
- كل أحد يؤخذ من كلامه ويترك بعد الرسول ﷺ ٤٨
- من حضر السماع لا يسوغ تقليده في الدين، فإنه ليس معصومًا ٤٨
- الحاكم بين المتنازعين كتاب الله وسنة رسوله، لا ذوق أحد ورأيه ٤٩
- قصيدة للمؤلف في ذم السماع وأهله ٥٠
- شروط السماع المذكورة في كتب المشايخ ٥١

- ذكر ما فيه من الآفات من كلام الشيخ عبد القادر الجيلاني ٥٢
- أصحاب الإرادة ثلاثة أنواع: المريدون لله، والمريدون من الله،
والمريدون ما يريد الله ٥٣
- القسم الثالث هم أولياء الله المقربون ٥٣
- غلط القوم في مسألة السماع وانقسامهم إلى فرقتين ٥٣
- صاحب الذوق المحمدي يحكم عليهما ٥٥
- السماع من الأسباب التي يُتوصَّل بها إلى ظهور الكوامن الباطنة ٥٦
- سبب تأثير السماع ٥٧
- قواعد للحكم على السماع ٥٨
- القاعدة الأولى: أن ينظر ما فيه من المصلحة والمفسدة ٥٩
- مفسد السماع المصطلح عليه أكثر من المصالح ٥٩
- السماع يُهَيِّج من القلب الحبَّ الفاسد أكثر من الحب الصحيح ٥٩
- أعظم محرّمات الهوى ودواعيه: النظر والغناء والخمر ٦٠
- كيد الشيطان للسالكين من باب السماع ٦١
- فضل السلف في معرفة الحقائق الإيمانية ٦٢
- ضلال المتأخرين في تنزيل أبيات الغزل على محبة الله والشوق إليه ٦٢
- بليّة الإسلام بأهل السماع ٦٥
- * فصل: من مفسده: أنه يُثقل على القلوب الفكرَ في معاني القرآن
وحقائق الإيمان ٦٦
- من مفسده: أنه يميل بسامعه إلى اللذات العاجلة واستيفائها ٦٧
- سبب كون الغناء رقية الزنا ٦٧
- محرّمات الشريعة قسمان: قسم حرّم لما فيه من المفسدة، وقيم حرّم لأنه
ذريعة إلى ما فيه مفسدة ٦٨

- سبب تحريم النظر إلى الصور المحرمة واستماع الآلات المطربة ٦٩
- إفضاء السماع إلى ما حرّمه الله ورسوله ٧٠
- * فصل: قول من يقول: إن سماعه لله وبالله، ولا يضره ما فيه من المفسد... ٧٠
- الجواب: أن قوله مثل قول القائل: أنا أنظر إلى الصور المستحسنة من النساء نظر اعتبار واستدلال وتفكر ٧٠
- هذا فتح لباب الإباحة ٧١
- لا ينفك الإنسان عن الطبيعة البشرية ٧٢
- لو كان السماع بالله وعن الله لدلّ على صدقه شواهد، ولا توجد هنا ٧٢
- عدم جواز الإشارة إلى الله بالتغزل في النساء والمردان ٧٣
- بطلان استدلالهم على جواز سماع الغناء بسماع أصوات الطيور ٧٣
- * فصل: السماع مركب من شبهة وشهوة ٧٤
- الشبهة التي في السماع ٧٤
- الشهوة التي فيه ٧٥
- تأثير السماع ٧٥
- الفرق بين السماع الشعري والسماع القرآني ٧٦
- * فصل: ظهور الانحراف عن منهج السلف بسبب الهوى والرأي والتقليد . ٧٦
- تقسيم حذيفة بن اليمان القلوب إلى أربعة أقسام، وشرحها ٧٨
- الفرق بين أذواق السلف وأذواق المتأخرين ٧٩
- منهج السلف في الاستماع إلى القرآن ٨٠
- حال أهل السماع ٨١
- * فصل: في التنبيه على نكتة خفية من نكت السماع ٨٣
- سبب الانقباض والوحشة في القلب بعد انقضاء مجلس السماع ٨٣
- مثال صاحب السماع الشعري وصاحب السماع القرآني ٨٥

* فصل: في الموازنة بين ذوق السماع وذوق الصلاة، وبيان أن أحدهما

- مباين للآخر ٨٦
- أهمية الصلاة وتشبيهها بالمأدبة ٨٦
- غفلة القلب مثل القحط والجذب، وتداركها بغيث الرحمة من الله ٨٧
- لله في كل جارحة من جوارح العبد عبودية تخصه ٨٨
- انقسام الناس في استعمال تلك الجوارح ثلاثة أقسام ٨٨
- تمثيل هذه الأقسام وأعمالها ٨٩
- سر الصلاة ولبها إقبال القلب فيها على الله وحضوره بكلية بين يديه ٩١
- شرف الإنسان ٩١
- كون الصلاة سبباً إلى قرب الله ومناجاته ومحبته والأنس به ٩٢
- حقيقة الوضوء ٩٢
- المجيء إلى المسجد من تمام عبودية الصلاة الواجبة ٩٣
- استقبال القبلة ٩٤
- التكبير ٩٤
- الثناء على الله بما هو أهله ٩٤
- الاستعاذة قبل القراءة ٩٤
- قراءة القرآن في القيام ٩٦
- لكل آية من آيات الفاتحة عبودية وذوقٌ ووجدٌ يخصها ٩٦
- بيان أسرار سورة الفاتحة ٩٧
- افتقار العبد إلى هداية الله في جميع الأمور ١٠١
- انقسام الخلق ثلاثة أقسام: مُنعم عليه وضالٌ ومغضوب عليه ١٠٢
- مشروعية التأمين ورفع اليدين والتكبير في انتقالات الصلاة ١٠٣
- الركوع ١٠٣

- ١٠٤ - الاعتدال والانتصاب
- ١٠٤ - السجود
- - بناء الصلاة على القراءة والقيام والركوع والسجود والذكر، وتسميتها بها
- ١٠٥ في القرآن
- ١٠٦ - الجلوس بين السجدين
- ١٠٧ - السجدة الثانية
- ١٠٨ - تكرير هذه الأفعال والأقوال في الصلاة
- ١٠٩ - التحيات في الجلسة الأخيرة
- ١٠٩ - معنى «التحيات» و«الصلوات» و«الطيبات»
- ١١١ - أطيب الكلمات بعد القرآن وشرحها
- ١١١ - الشهادة والصلاة على النبي ﷺ والدعاء
- ١١٣ * فصل: سرُّ الصلاة وروحها: إقبال العبد على الله بكلية
- ١١٤ - ثلاث منازل للإقبال في الصلاة
- ١١٤ - إقامة الصلاة باستكمال هذه المراتب في القيام والركوع والسجود
- ١١٥ - العبد بين حكم ربه الكوني القدرى وحكمه الديني الأمري
- ١١٦ - ثمرات الصلاة والصوم والزكاة والحج
- ١١٧ - شرح قوله ﷺ: «وَجُعِلَتْ قِرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»
- ١١٨ - الفرق بين صلاة وصلاة باختلاف أحوال المصلين
- ١١٩ - ذوق صاحب السماع وذوق صاحب الصلاة واستحالة اجتماعهما
- ١٢١ * عقد مجلس في المناظرة بين صاحب الغناء وصاحب القرآن
- قول صاحب الغناء: جاءت البشارة بمن استمع القول واتبع أحسنه، والقول
- ١٢٤ عام
- ١٢٤ قول صاحب القرآن: القول في آية ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾ ليس للعموم ..

- من القول ما يحرم استماعه ومنه ما يُكره ١٢٤
- المراد بالقول في الآية هو القرآن كما في الآيات الأخرى ١٢٦
- الألف واللام هنا لتعريف العهد ١٢٧
- دلالة السياق من أول السورة إلى الآية المذكورة على أن المقصود به القرآن ١٢٧
- البدع القولية والسماعية تتضمن الكذب على الله والتكذيب بالحق ١٢٩
- المراد بالكتاب والقول والحديث الذي أمر الله باستماعه هو القرآن ١٣٠
- ذكر الآيات التي فيها الثناء على المستمعين للقرآن وذم المعرضين عنه ... ١٣٠
- ذم استماع القول الذي هو الغناء ١٣١
- أهل السماع أنفسهم لا يستحسنون استماع كل منظوم ومنتور ١٣١
- الأقوال التي ذمها الله في القرآن ١٣٣
- علّق الله الهداية على اتباع أحسن القول، والهداية تحصل بالقرآن لا بالغناء ١٣٣
- قول صاحب الغناء: لو كان الغناء حرامًا لم يكن من أفضل نعيم الجنة ١٣٤
- قول صاحب القرآن: هذا استدلال باطل ١٣٤
- لا يلزم من كون الشيء نعيمًا في الآخرة أن يكون مباحًا في الدنيا ١٣٨
- الأمثلة على ذلك: الحرير والذهب والخمر والزواج بأكثر من أربع ١٣٨
- معنى قول النبي ﷺ: «من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة» .. ١٣٩
- قول صاحب الغناء: سماع الأشعار بالألحان الطيبة مثل سماعها بغير الألحان ١٤٢
- السماع بالشروط المعتبرة يوجب للمستمع الرغبة في الطاعات، فهو مستحب ١٤٣
- قول صاحب القرآن: كلتا المقدمتين غلط ١٤٣

- قول أهل السماع: «إنه طاعة وقربة» لم يذهب إليه أحد من السلف..... ١٤٤
- المنقول عن السلف أنه باطل وبدعة وفسق ويُثبت النفاق..... ١٤٤
- مخالفة أهل السماع لإجماع المسلمين..... ١٤٥
- قول ابن الراوندي وابن سينا في السماع وأنه مما يركي النفوس ويهدبها.. ١٤٦
- فصل: احتجاجهم بأن النبي ﷺ سمع ما أنشد من الشعر..... ١٤٦
- ذكر بعض الأحاديث الواردة في ذلك..... ١٤٧
- تمثُّل الصحابة بالشعر وإنشادهم له وتراجزهم به في الحرب..... ١٥٠
- وجه ذم الشعر ومدحه..... ١٥٢
- فصل: الرد على احتجاجهم بأن سماع الشعر بالألحان مثل سماعه
بغيرها..... ١٥٣
- سماع الألحان مجردًا عن الكلام يحتاج إلى إثبات إباحته..... ١٥٣
- لو كان كل واحد من الشعر والتلحين مباحًا لم يلزم من ذلك إباحتهما
عند اجتماعهما..... ١٥٣
- أمثلة مما يختلف حكمه عند الاجتماع والافتراق..... ١٥٣
- عدم جواز قراءة القرآن بالألحان الغناء وآلات اللهاج مع ندب النبي ﷺ إلى
تحسين الصوت بالقرآن وتزيينه به..... ١٥٤
- إجماع الأمة على تحريم ذلك..... ١٥٥
- فصل: الرد على المقدمة الثانية..... ١٥٦
- معرفة ما يحبه الله ويرضاه، لا سبيل إليها إلا بميزان الوحي..... ١٥٧
- هل السماع يُحصِّل محبوبَ الله ومراضيه؟..... ١٥٨
- المرجع في القُرب والطاعات إلى الله ورسوله..... ١٥٨
- ليس لأحد أن يتدع دينًا لم يأذن به الله ويقول: هذا يحبه الله..... ١٥٩
- الأعمال أربعة: فواحدٌ منها مقبول، وثلاثة أرباعها مردودة..... ١٥٩

- المقبول ما كان خالصاً لله وموافقاً لأمره ١٥٩
- ذكر أقوال المشايخ في هذا الباب ١٥٩
- السماع المحدث من أعظم المحركات للهوى ١٦١
- بدعة السماع تتضمن الغلو في الدين واتباع الهوى والعشو عن ذكر الله ... ١٦٣
- ليس لأحد أن يتبع ما يحبه ويتخذه ديناً ١٦٣
- أهل البدع هم أهل الأهواء عند السلف، ولو ظهر عنهم الزهد والعبادة ... ١٦٣
- ذكر أقوال السلف في ذلك ١٦٤
- كثير من الأفعال قد يكون مباحاً أو مكروهاً أو محرماً، فيستحسنه بعض الناس ويفعلونه على أنه قربة وطاعة، ويجعلونه شعار الصالحين، ويكون ذلك خطأ وضللاً وبدعةً، بعض الأمثلة على ذلك ١٦٥
- فصل: بطلان قول أهل السماع: إن السماع يُحصّل محبوبَ الله، وما حصّل محبوبَ الله فهو محبوبٌ له ١٦٦
- السماع عند الصوفية من توابع المحبة ووسائلها ١٦٧
- ما يثيره السماع المبتدع من الحبّ ليس هو النهي يحبه الله ورسوله ١٦٧
- المحبة وموجباتها وعلاماتها في القرآن ١٦٧
- ثلاثة أصول لأهل المحبة: (١) متابعة الحبيب في أقواله وأفعاله. (٢) أفراد الله بالمحبة وإخلاص الدين له. (٣) الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته ١٦٨
- هذه الأصول الثلاثة هي الفرقان بين الناس ١٦٨
- صفات أهل المحبة في القرآن ١٦٩
- أهل السماع مقصّرون في الأصول الثلاثة، ففيهم من الشرك الخفي والجلي ما ينافي كمال الإخلاص، ومن البدعة ما ينافي كمال المتابعة، ومن الرهبانية ما ينافي كمال الجهاد ١٧١

- مخالفتهم للشريعة وتصريح بعضهم بسقوط الفرائض واستحلال
المحرمات ١٧٢
- الردّ على من قال: إن السماع قد يكون أنفع للقلب من قراءة القرآن من
سته أو سبعة أوجه ١٧٣
- صفات أهل السماع ١٧٣
- السماع من أكبر الأسباب المضادة لأصول أولياء الله المتقين الثلاثة ١٧٤
- إفراط أهل السماع وتفريط المنكرين عليهم، وبيان أهل الصراط
المستقيم ١٧٤
- الردّ على احتجاجهم بما جرى على لسان النبي ﷺ مما هو قريب من
الشعر ١٧٦
- الاستدلال بذلك على حِلِّ الغناء والزمر والشبابت والرقص باطل ١٧٦
- قول صاحب الغناء: سماع السلف الأبيات بالألحان، وإباحتهم للغناء
والإجماع على إباحة الحُداء وهو نوع من الغناء ١٧٦
- قول صاحب القرآن: المعروف عن أئمة السلف من الصحابة والتابعين
ومن بعدهم إنكار الغناء والسماع ١٧٧
- نقل الإباحة عن مالك وأهل الحجاز من أقبح الغلط وأفحشه ١٧٧
- قول صاحب الغناء: نقل ابن طاهر حكايةً عن مالك أنه ضرب بطبل وأنشد
أبياتًا ١٧٨
- قول صاحب القرآن: هذا بهتان عليه وافتراء ١٧٨
- قول صاحب الغناء: وردت الأخبار واستفاضت الآثار في ذلك، منها أن
ابن جريج كان يُرخص في السماع ١٧٩
- قول صاحب القرآن: لا يعرف إباحة الغناء عن ابن جريج وأهل مكة ١٧٩
- ما نُقل عنه يدلُّ على أنه من اللعب واللهو الباطل، لا أنه قرينة وطاعة ١٧٩

- الباطل من الأعمال ما ليس فيه منفعة، ويُرخص فيه لبعض النفوس بقدر معين في بعض الأوقات ١٨٠
- الاستدلال به على جواز السماع لا يصح ١٨١
- قول صاحب الغناء: إن الشافعي لا يحرمه بل يجعله مكروهاً للعوام ١٨٢
- قول صاحب القرآن: هذه الكراهة كراهة تحريم أو تنزيه بالنسبة لسماع العامة ١٨٢
- سماع الخاصة عند الشافعي من فعل الزنادقة، وهو مضاف للإيمان ١٨٣
- قوله في أهل السماع نظير قوله في أهل الكلام ١٨٣
- السماع على وجهين: سماع اللهو واللعب والطرب، والسماع المحدث لأهل الدين والقربة ١٨٤
- الأول: مكروه أو محرم أو باطل أو مرخص في بعض أنواعه ١٨٤
- الثاني: بدعة وضلالة ومخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف ١٨٤
- قول صاحب الغناء: روي عن ابن عمر وعبد الله بن جعفر آثار في إباحة السماع ١٨٤
- قول صاحب القرآن: النقل عن ابن عمر باطل، والمحفوظ عنه ذمُّه للغناء ... ١٨٥
- المنقول عن عبد الله بن جعفر أنه كانت له جارية تغني في بيته ويستمع إليها ١٨٥
- لا يصح الاحتجاج بفعله بمقابل أكابر الصحابة، أمثلة مما فعله بعضهم ولا يُقتدى به ١٨٥
- قول صاحب الغناء: سمع النبي ﷺ والصحابة الحُداء، وهو الغناء كلُّ منهما إنشاداً بأصوات مطربة ١٨٦
- قول صاحب القرآن: الاتفاق على جواز الحُداء ١٨٦
- بطلان دعوى أن الحُداء والغناء من جنس واحد ١٨٧

- ١٨٨ قول صاحب الغناء: من أدلتنا حديث الجاريتين
- ١٨٨ قول صاحب القرآن: هذا الحديث من أكبر الحجج عليك، ففيه أن الغناء
- ١٨٨ مزموور الشيطان
- ١٨٩ - الرخصة فيه للنساء والصبيان إذا خلا من الآلات المحرمة، وسبب ذلك ..
- ١٩٠ - تحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما ..
- ١٩٢ - الاستعانة على الحق بالشيء اليسير من الباطل ..
- ١٩٢ قول صاحب الغناء: ندب النبي ﷺ إلى تحسين الصوت بالقرآن، فأى حرج
- ١٩٢ في تحسين الصوت بالشعر والتغني به؟
- ١٩٣ قول صاحب القرآن: هذا قياس فاسد، وأمثلة من ذلك ..
- ١٩٤ - لماذا ندب النبي ﷺ إلى تحسين الصوت بالقرآن؟ ..
- ١٩٤ - قوله ﷺ: «ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن» إما أن يريد به الحَضُّ على أصل
- ١٩٥ الفعل أو على صفته، وقد يصحّ أن يُرادا معًا ..
- ١٩٥ قول صاحب الغناء: نهى النبي ﷺ عن صوتين: صوت ويل عند مصيبة،
- و صوت مزمار عند نعمة، ومفهوم الخطاب يقتضي إباحة غيرهما في
- ١٩٥ غير هاتين الحالتين ..
- ١٩٦ قول صاحب القرآن: هذا الحديث من أجود ما يحتج به على تحريم الغناء ..
- ١٩٦ - الصوت الذي يُفعل عند النعمة هو صوت الغناء ..
- ١٩٦ قول صاحب الغناء: إنما نهى عن صوت الغناء ..
- ١٩٦ قول صاحب القرآن: المراد بصوت المزمار هنا نفس الغناء، فصوت
- ١٩٦ الإنسان يسمى مزمارًا ..
- ١٩٧ - جواب «أن مفهوم الخطاب يقتضي إباحة غير هذا» من وجهين ..
- ١٩٧ - الأول: أن مثل هذا اللفظ لا مفهوم له عند أكثر أهل العلم ..
- ١٩٧ - الثاني: أن اللفظ الذي ذكره رسول الله ﷺ يدلُّ على مورد النزاع ..

- قول صاحب الغناء: روى ابن طاهر أن رجلاً أنشد بين يدي النبي ﷺ: هل عليّ ويحكما * إن عَشِقْتُ من حرج، فقال رسول الله ﷺ: «لا إن شاء الله» هو نصٌّ في إباحة الغناء ١٩٨
- قول صاحب القرآن: هذا الحديث كذبٌ موضوع على رسول الله ﷺ ١٩٨
- قول صاحب الغناء: رُوي أن أعرابياً أنشد النبي ﷺ: «السعت حية الهوى كبدي...»، فتواجد النبي ﷺ عند سماعه ١٩٩
- قول صاحب القرآن: هذا أيضاً كذبٌ مفترى، وهو من شعر المتأخرين البارد ٢٠٠
- حكم من كذب على النبي ﷺ ٢٠٠
- قول صاحب الغناء: رُوي أن أصحاب الصفة سمعوا يوماً فتواجدوا ومزَّقوا ثيابهم ٢٠٢
- قول صاحب القرآن: هذا أيضاً من جراب الكذب ٢٠٢
- لم يكن في القرون الثلاثة من يجتمع على هذا السماع المحدث، ولا أحد يمزق ثيابه ٢٠٢
- قول صاحب الغناء: من أنكر السماع مطلقاً فقد أنكر على سبعين صديقاً ٢٠٣
- قول صاحب القرآن: المنكرون على السماع أضعاف أضعاف من حضروه .. ٢٠٣
- عذر من حضر السماع من أهل الصلاح والزهد ٢٠٣
- لا يجوز اتباع المتأولين فيما فعلوا ٢٠٤
- فصل: عصمة الأمة من الاجتماع على الضلالة، وليست هذه العصمة لأحاديها ٢٠٤
- وجوب ردّ ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله ٢٠٥
- فصل: اختلاف الأئمة المتبوعين وموقف المقلّدين منه ٢٠٥
- مسألة السماع وما حصل فيها من الاختلاف ٢٠٧

- ٢٠٨ - البدع التي زادها أهل السماع، فاشتدت بها الفتنة
- ٢١٣ - السماع المحدث دائر بين الكفر والفسوق والعصيان
- ٢١٤ - قواعد المحرمات الأربع في القرآن، واشتمال السماع عليها
- ٢١٦ * المفاسد التي تقترن بالسماع
- ٢١٦ - الأول: النظر إلى النساء والمردان
- ٢١٨ - خلو العبادات من ملابس الصور والتعلق بها
- ٢٢٠ - الثاني: التطريب بالآلات الملهية
- ٢٢٠ - الثالث: كثرة إيقاد النيران بالشموع وغيرها
- ٢٢٠ - الرابع: التنوع في المطاعم والمشارب والمسموعات
- ٢٢٠ - الخامس: ما يقارنه من الرقص والتكسر والتخنيث
- ٢٢٠ - السادس: ما يقارنه من آلات اللهو والمعازف
- ٢٢٠ - السابع: ما يقارنه من عُشراء السوء وخلطاء الشر الذين يضيعون
الصلوات ويتبعون الشهوات
- ٢٢١ - الثامن: ما يقارنه من حركات النفوس المختلفة والأصوات المنكرة
والحركات العظيمة
- ٢٢١ - التاسع: مصادته لمقصود الصلاة وذكر الله، وأمره بالفحشاء والمنكر
- ٢٢٢ - الرد على من يقول: أنا لا أنظر لشهوة بل لعبرة
- ٢٢٤ - سرعة تأثير الصوت والصورة في النفوس الضعيفة
- ٢٢٤ - من مفاسد السماع: تشبه الرجال بالنساء
- ٢٢٥ - تعظيم المغنين والمغنيات يُعرض لغضب الله ومقته
- ٢٢٦ - العاشر: رفع الصوت بالغناء
- ٢٢٨ - الحادي عشر: أنه يأمر بعشق الصور وينهى عن العفة وغيص البصر
- ٢٢٨ - الثاني عشر: أنه يصد عن ذكر الله وعن الصلاة

- * فصل: قول صاحب الغناء: حسن الصوت مما أنعم الله به، والصوت
الفضيع مما ذمه ٢٢٩
- قول صاحب القرآن: كون الشيء نعمة لا يقتضي إباحة استعماله فيما لم
يأذن به الله ٢٢٩
- ذم الصوت الفضيع ليس مطلقًا ٢٣٠
- قول صاحب الغناء: استلذاذ القلوب الأصوات الطيبة مما لا يمكن إنكاره،
وحكاة إسماعيل بن عليّة عن الشافعي ٢٣١
- قول صاحب القرآن: هذه الحكاية مكذوبة على الشافعي ٢٣٢
- الذي حكاها هو إبراهيم بن إسماعيل بن عليّة، وقد ذمّه الشافعي ٢٣٢
- كون الصوت الحسن موجبًا للذة أمر حسيّ، لا يحتاج إلى الاستشهاد
بمثل هذه الحكاية ولا دليل فيه على إباحة السماع ٢٣٣
- العمل لا يُمدح أو يُذمّ بمجرد اشتماله على اللذة وعدمها ٢٣٤
- فصل: أصل غلط أهل السماع أنهم يجعلون الخاصّ عامًّا والمقيد مطلقًا. ٢٣٦
- من أصول الشرك والضلال ٢٣٧
- استدلال بعض الجهّال بكون الجمال نعمةً على جواز التمتع بالصور
الجميلة ٢٣٨
- فصل: مجرد الحسن لا يُثيب الله عليه ولا يعاقب ٢٤٢
- تقسيم الوجوه إلى أربعة أقسام من حيث الجمال ٢٤٥
- معرفة أهل الفراسة بالنظر في الوجوه ٢٤٥
- أظهر السمات على الوجوه سمة الصدق والكذب ٢٤٨
- فصل: تقسيم الجمال إلى ثلاثة أنواع ٢٤٩
- العلاقة بين الخلق والخلق في الجمال والقبح ٢٥٠
- قول صاحب الغناء: استمع الله ورسله للصوت الحسن ٢٥٢

- قول صاحب القرآن: دلالة على تحسين الصوت بالقرآن دون الغناء ٢٥٢
- بطلان قياس الغناء على القرآن ٢٥٤
- أقسام الناس في سماع القرآن والغناء ٢٥٤
- قول صاحب الغناء: الصوت الحسن يُطَيَّب السير ويقطع المشاق ٢٥٥
- قول صاحب القرآن: لا شك في تأثيره، وهذا لا يدلُّ على مدح أو ذم ٢٥٥
- دلالة على الذم والمنع أقرب من دلالة على الجواز والاستحباب ٢٥٦
- الغناء صوت الشيطان يستفزُّ به بني آدم ٢٥٦
- قول صاحب الغناء: نحن نتحاكم إلى سيد الطائفة الجنيد الذي أباحه ٢٥٨
- قول صاحب القرآن: هذا إذا كان ثابتًا عنه فهو نقل عن غير معصوم ٢٥٩
- كان للجنيد في السماع أحوال ٢٦١
- قول صاحب الغناء: استحب مشايخ الصوفية السماع ٢٦٢
- قول صاحب القرآن: مناقشة أقوالهم ٢٦٢
- كون الفعل حرامًا على العامة مباحًا للخاصة مستحبًا لخاصة الخاصة =
مخالف للشرع ٢٦٣
- النقل عن أضعاف هؤلاء الصوفية لا يجدي شيئًا في المسألة ٢٦٤
- ميزان أهل العلم والاعتدال ٢٦٦
- الإشارات تصحُّ بثلاثة شروط: أن يكون المعنى صحيحًا في نفسه، وأن
لا يكون في اللفظ ما يضاده، وأن يكون بينه وبين معنى اللفظ الذي
وُضع له قدر مشترك يفهم بواسطته ٢٧٠
- أمثلة من دلالة الإشارة في القرآن ٢٧٠
- تزندق بالسماع طوائف لا يحصيهم إلا الله كما تزندق بالكلام ٢٧٣
- امتحان أهل الغناء بأهل القرآن ٢٧٥
- الكلام على قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ...﴾ ٢٧٧

- ٢٧٩ - الكلام على سورة العصر
- قول صاحب الغناء: ما غرضك بهذه الشواهد وتكثيرها؟ وما علاقتها
بمسألة السماع؟ ٢٨٠
- قول صاحب القرآن: الغرض منها التنبيه على فتح سماع القرآن وما يشيره
من كنوز العلم والإيمان، والموازنة بين ذوق القرآن وذوق الغناء ٢٨٠
- قول صاحب الغناء: أين في السنة كراهية رسول الله ﷺ للغناء ومنعه منه ٢٨١
- قول صاحب القرآن: بعض الأحاديث والآثار الواردة في الباب ٢٨١
- قول صاحب الغناء: أثر ابن عمر في سدّ أذنيه وإقراره لنافع على سماع
صوت الزمر يدل على أنه ليس حرامًا ٢٨٥
- قول صاحب القرآن: هذا حجة عليكم لا لكم ٢٨٦
- المحرّم هو الاستماع والإصغاء، لا السماع من غير إصغاء ٢٨٦
- نسبة الغناء إلى الشريعة من الدواهي ٢٨٩
- قول صاحب الغناء: ندب رسول الله ﷺ إلى الغناء في العرس ٢٩٠
- قول صاحب القرآن: هذا الحديث ضعيف ٢٩٠
- لو صحّ فهو في الغناء العارض ٢٩٠
- لم يلزم منه الرخصة للرجال ولا في عموم الأحوال ٢٩١
- قول صاحب الغناء: السماع ألطف غذاء للأرواح عند أهل المعرفة والذوق. ٢٩١
- قول صاحب القرآن: كونه غذاءً للروح دعوى مجردة ٢٩١
- هو مجرد حظ النفس وغذاؤها ٢٩٢
- انقسام أغذية النفوس إلى طيب وخبيث، وحلال وحرام ٢٩٣
- السماع الشرعي القرآني هو أصلح الأغذية وأطيبها وأنفعها للعارفين ٢٩٣
- قول صاحب الغناء: شأن المشايخ شأن آخر، وإشاراتهم غير إشارات أهل
الله والبطالين كما تدل عليه أقوال كبار الصوفية ٢٩٤



قول صاحب القرآن: الكلام على كلمات هؤلاء الصوفية من وجهين:

٢٩٧ مجمل ومفصل

- المجمل: أنه ليس فيها من أدلة الشرع التي تثبت بها الأحكام، وإنما هي

٢٩٧ حكايات عن أقوام

- الوجه المفصل: مناقشة تفصيلية لكل جملة، وبيان ما فيها من الحق

٢٩٧ والباطل، وما يحتمل الأمرين

- الفتنة في السماع من وجهين: من جهة البدعة في الدين، ومن جهة

٣٠٥ الفجور

- أئمة الصوفية أهل العلم والاتباع من ورثة الأنبياء، وكلماتهم دواء

٣١٧ للقلوب، وكلامهم في الوصية باتباع الكتاب والسنة كثير

- حضور من حضر منهم في مجالس السماع لا يدلُّ على مذهبه ٣١٩





تطبعنا بالمطبع

أما الأما من قيم الجوزية وما لحقها من أعمال

(٢٧)

الكلام على مسائل التمساح

مؤلفها

الإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيس الجوزية

(٦٩١ - ٧٥١ هـ)

مختصها

مؤلفها

مؤلفها

بكر بن عبد الله الجوزية

(توفاه ٧٥١ هـ)

مكتوبها

عند السيد الميرزا راجي الخوزية

دار علماء القوائد

بسنين

مع ل...